

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA

جامعة 8 ماي 1945 قالة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم



التزوع الدّيني في أدب الرّحلات في القرن الثامن للهجرة - ابن بطّوطة وابن قنفذ نموذجا -

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب القديم



إشراف الدكتور:

عبد العزيز بومهرة

إعداد الطالبة:

أحلام عثمانية

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرّتبة	الجامعة	
بلقاسم بلعرج	أستاذ التعليم العالي	قالة	رئيساً
عبد العزيز بومهرة	أستاذ محاضر أ	قالة	مقرراً
سعد بوفلاقة	أستاذ التعليم العالي	عنابة	ممتحناً
موسى مريان	أستاذ محاضر أ	عنابة	ممتحناً

السنة الجامعية: 2011/2012

شكر وتشير

قال تعالى: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

الحمد لله نعمده ونستغفره ونتوب إليه ونصلّي ونسلم على خير خلقه وخاتمه

أنبيائه محمّد صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

لا يسعني وقد منّ الله عليّ بإنجاز هذا العمل المتواضع إلّا أن أتقدم بخالص
شكري إلى والديّ الكريمين اللذين دفعاني لأكمال دراستي العليا.

كما أتوجه بشكري الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور عبد العزيز بومصرة
الذي تبني هذا العمل ورعاه، فإليه أقدم أسمى آيات الشكر والعرفان، فجزاه الله
عنّي خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر أيضا إلى كلّ من كان عوناً لي على إنجاز هذا الموضوع،
وأخصّ بالشكر الدكتور فريدة بومصرة التي لم تبخل علينا بتوجيهاتها القيّمة
ونصائحها السديدة.

كما أتوجه بالشكر للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على تجشّمها عباء
قراءة هذا البحث المتواضع، وعلى ما سوف يتفضلون به من ملاحظات، وما يبدونه
من تصويبات.

الإهداء

ليس في الوجود ما نصبوا إليه خير رضى المولى عز وجل، والعافية في أمور الدنيا والدين، ورضى الوالدين. أهدي هذا البحث المتواضع إلى:

- صدي في الحياة ومثالي الأعلى، إلى النبراس الذي ينير دربي، إلى جبل العزة والكرامة إلى من علمني الصمود والشموخ، إلى أغلى إنسان في الوجود أبي الحنون.
- إلى من حملتني وهناً على وهن، إلى من أعطاني دون مقابل، إلى من وهبتني الحياة ومنحتني السكينة إلى أمي الغالية.
- إلى من حملتنا بطن واحدة، وتقاسمت معهما أجمل الأوقات، إلى إخوتي الأعزاء: فاتح، محمد، نبيلة.
- إلى كل من ساندني وكان لي خير عون لإتمام دراستي.
- إلى كافة صديقاتي وزملائي في الدراسة العليا تخصص أدب قديم.

مقدمة:

عرف العرب أدب الرّحلات منذ القدم، وكانت عنايتهم به عظيمة في سائر العصور، وهو لون من النثر يتخذ من الرّحلة موضوعاً ينقل فيه الرّحالة تجاربه وتصوراتهِ للممالك والمسالك التي شهدّها، بحيث يُخرجها في شكل أدبي ثري متميّز في لغته وأسلوبه، وطريقة بنائه، وبمعنى آخر تحكمه سمات وملامح مستقلة.

شرع العرب في تأليف رحلاتهم منذ القرن الثالث للهجرة، فاصطبغت مؤلفاتهم بالصبغة الجغرافية والتاريخية، لتأخذ اتجاهها آخر ابتداء من أواخر القرن السادس للهجرة في نمط الكتابة، فتحول الاعتناء بجغرافية الأماكن والبلدان إلى الاعتناء بسرد يوميات الرّحالة، وما صادفه من أمور وتجارب، ووصف مشاعره وأفكاره فتغير بذلك الأسلوب؛ إذ أصبح سردياً ذا طابع أدبي يتسم بالبساطة والسلاسة في التعبير. وخير من مثل هذا الاتجاه الأدبي ابن جُبَيْر في رحلته: " تذكّرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، حيث حذا حذوه الرّحالة الذين جاؤوا من بعده، وسلكوا نهجه في كتابة رحلاتهم.

يعدُّ القرن الثامن للهجرة قرناً متميّزاً، وبخاصة في عهد بني مرين، حيث ازدهر أدب الرّحلة ازدهاراً لم يُر له مثيل من قبل.

فانتقل التأليف في الرّحلات العربية ابتداء من القرن السادس للهجرة من المشاركة إلى المغاربة، فعُرفوا بولوعهم بالرّحلة، وألفوا فيها تصانيف كثيرة، وكتبوا عديدة، قدّموا من خلالها مهمة سامية للأجيال اللاحقة، إذ أسهمت رحلاتهم في نقل كثير من الصور الجميلة، والمشاهد الحيّة لطبيعة البلاد وجغرافيتها، وعادات السكان وتقاليدهم، فضلاً عن علومها وثقافتها وأدبها. فعملوا بذلك على نقل كثير من ثقافات الشعوب وأحوالهم.

ومن بين هؤلاء الرّحالة الذين برعوا في هذا المجال في القرن الثامن للهجرة ابن بطّوطة (770هـ)، وهو أعظم رحالة من المسلمين، وقد بدأت رحلته سنة 725هـ من طنجة بالمغرب الأقصى إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنورة، وظلّ قرابة تسع وعشرين سنة يرحل من بلد إلى بلد، ثمّ عاد في النهاية ليملي

مشاهداته على الأديب الكاتب محمد بن جزي الكلبي بتكليف من سلطان المغرب أبي عنان المريني، وسمى ابن بطّوطة رحلته " تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " .

ويعدُّ ابن قنفذ القسنطيني (810هـ)، أيضاً، من أشهر رحالة هذا القرن، حيث حرّر رحلة في التّصوف، وفي الترجمة لأشياخه سَمّاها: " أنس الفقير وعزُّ الحقير "، وهي رحلة ذات طابع زيارتي عُني فيها صاحبها بزيارة أضرحة الأولياء الصّالين، والمشايخ الأحياء وتَبَيَّنهم في كلِّ مكان للأخذ عنهم، والاستفادة منهم. فجاب ابن قنفذ أقطار المغرب إلى أن وصل أخيراً إلى فاس، واستقر بها بحثاً عن أصحاب الشّيخ أبي مدين شعيب.

وهناك رحالة آخرون مشهورون برزوا في سماء هذا الفن في هذه الرّقعة الجغرافية، أمثال: ابن رُشيد الفهري السّبيّ، وأبو القاسم التّجيني السّبيّ، وأبو البقاء البلوي، وابن الحاج النّميري، ومحمد بن أحمد التّجاني، ولسان الدين بن الخطيب، وعبد الرحمن بن خلدون.

ولكننا اخترنا في هذا البحث رحلتي ابن بطّوطة وابن قنفذ نموذجين للتطبيق، حيث ارتأينا دراسة النزوع الدّيني في أدب الرّحلات في القرن الثامن للهجرة الذي لفت انتباهنا فوجدنا ميلاً للبحث في هذا الموضوع، ودراسته وفق المنهج الوصفي الإحصائي. ولقد كانت الدوافع لاختيار هذا الموضوع كثيرة منها:

عند الاطلاع على بعض الرّحلات في القرن الثامن للهجرة تبين أنّها تعجُّ بالنزوع الدّيني، يقصد إليه الرّحالة قصداً؛ فلقد كان الوازع الدّيني المحرك الأوّل لهؤلاء الرّحالة، رغم ما في رحلتهم من متاعب ومشاق، إذ كان دافعهم في الخروج من أوطانهم هو الرّغبة في الاعتمار والحجّ، لأنّهم كانوا ينصون في بداية رحلاتهم على أنّ نيّتهم من هذه الرّحلة هي أداء فريضة الحجّ، لأنّ المشرق عامة والحجاز خاصة كان ولا يزال محط أنظار المغاربة والأندلسيين، لما يتضمّنه من معالم دينية وروحية تقصد للعبادة والتبرّك والاعتبار، أو لقاء العلماء والأولياء والانتفاع منهم، والحصول على الإجازات والأسانيد، وهناك من سلك طريق التّصوف باقتفاء أثره وتبّع رجالاته، والبحث عنهم في كلِّ مكان، وزيارة أضرحة المشاهير

منهم، والاستفادة من الأحياء والتبرّك بهم. كلّ هذا يؤكد أنّ المقصد الأول والأخير من رحلتهم هو مقصد ديني.

كما تمّ اختيارنا رحلة " تُحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطّوطة، ورحلة " أنس الفقير وعزّ الحقيّر " لابن قنفذ القسنطيني، لكونهما نموذجين مثاليين على التّزوع الدّيني، والإقبال على مظاهره بشكل لاف للنظر، فسعى كلّ منهما إليه، فكانت رحلتاهما مثالا حيّاً على ذلك، لأنّ الروح الدّينية متغلّغلة في نفسيهما ومتأصلة فيهما إلى حدّ أنّها سيطرت على عقليهما وسلوكهما.

حيث يستهدف هذا البحث الكشف عن طبيعة الثقافة التي كانت سائدة في المغرب في هذا العصر - القرن الثامن للهجرة - وإلى أي مدى كانت الثقافة الإسلامية متأصلة في نفوس أصحابها؟ ومن هنا يمكن أن نصوغ الإشكالية في التساؤل الآتي: لماذا كلّ هذا الإقبال على المظاهر الدّينية في الرّحلة؟ ولماذا إصرار الرّحالة على الوقوف على المشاهد الدّينية؟

وللوصول إلى غايتنا من هذا العمل الأدبي فقد اتجهت إلى المنهج الوصفي الإحصائي لأنّه أنسب لهذا الموضوع، الذي قسمته إلى بايين تتصدرهما مقدمة ومدخل، وأخيرا خاتمة، وقائمة المصادر والمراجع، ثمّ فهرس للموضوعات.

في المقدمة بنّيت أهمية الموضوع وسبب اختياره، ثمّ طرحت الإشكالية التي تثار من حوله، موضوع البحث، أمّا المدخل فعرضت فيه الخطوط الرئيسة عن مفهوم أدب الرّحلة، وأدب الرّحلات، وبخاصة تلك التي انتشرت في القرن الثامن للهجرة، وأشهر رواهه مركزة على ابن بطّوطة، وزميله ابن قنفذ، لأمهد بذلك إلى موضوع البحث، لأنّهما محور الدّراسة والتطبيق.

وقد عنونا الباب الأوّل بـ " مظاهر التّزوع الدّيني في الرّحلتين "، وقسمته إلى فصلين، تطرقنا في فصله الأوّل إلى: المساجد والجوامع، والأربطة والزوايا، والمشاهد والمزارات، وموضوعات أخرى، و تناول الفصل الثاني: المقابر، والعلماء والأولياء والمشايخ، وكراماتهم.

وكان الباب الثاني بعنوان " الملامح الفنّية للتّزوع الدّيني في الرّحلتين "، عرضت في فصله الأوّل إلى بنية الرّحلتين، فدرست المقدمة والسفر والخاتمة، ثمّ أتبعنا ذلك بالفصل الثاني ركزت فيه على الأسلوب

في الرحلتين من حيث السرد، والوصف، والحوار، والاقتراس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ثم الخاتمة وهي محصلة النتائج المتوصل إليها في هذا البحث، وبعدها قائمة المصادر والمراجع مرتبة ترتيباً ألفبائياً، وفهرس للموضوعات المدروسة في هذا البحث.

اعتمدت في هذه الدراسة على رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن قنفذ كمصدرين انطلقت من خلالهما لدراسة الترويع الديني، فبدأت في رحلة ابن بطوطة إلى الطبعة التي حَقَّقَهَا عبد الحمادي التازي، الصادرة عن مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، وما جعلني أعتمد هذه الطبعة دون غيرها على الرغم من وجود عدّة دراسات تناولت ابن بطوطة بالبحث، هو تحقيقها الذي اعتمد فيه المحقق السالف الذكر على ثلاثين مخطوطة، إضافة إلى ثقافته الواسعة ولاسيما ما تعلق بالثقافة المغربية القديمة، فأخرج الرحلة في ستة أجزاء، تناول في الأربعة الأولى منها الرحلة، فكانت ثرية بالهوامش والخواشي حيث ترجم فيها للأعلام والشخصيات، وعرّف بالأماكن الجغرافية، إضافة إلى معلومات أخرى قيّمة ومفيدة. أمّا المجلد الخامس فخصّصه للفهارس الفنية والسادس للمستدركات. كما تضمنت طبعته عدداً من الخرائط والصور الهامة. أمّا رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر" فاعتمدت فيها على الطبعة التي حَقَّقَهَا أبو سهل نجاح عوض صيام، وقدم لها العلامة عليّ جمعة، الصادرة عن دار المقطم بالقاهرة.

اعتمد فيها صاحبها على مخطوطة دار الكتب المصرية والنسخة المطبوعة بالرباط سنة 1965، نشر جامعة الملك محمد الخامس.

وقد قام المحقق بمجموعة من الأعمال منها: الترجمة لابن قنفذ القسنطيني، والتعريف بالشيخ أبي مدين شعيب، وضبط ما أشكل من الألفاظ وشرح غريبه، ووضع العناوين الجانبية ممّا سهّل على الباحث قراءة الرحلة، وترجمة الأعلام الواردة بالكتاب وبخاصة غير المشهورين منهم، ووضع فهرس فنيّ تفيد القارئ وتسهل عليه البحث.

وفي سبيل إخراج هذا البحث واجهتني عدّة صعاب منها: قلة الدراسات التي أولت عناية بالرحلة المغربي ابن قنفذ القسنطيني، على الرغم من اشتهاره في عصره، وتركه ثلاثين مصنفاً، عكس ابن بطوطة الذي لم يخلف إلاّ رحلته الشهيرة، ومع ذلك ذاع صيته في الآفاق.

إضافة إلى ذلك هناك مشكلة أخرى واجهتني، وتتمثل في صعوبة الجمع بين مادة الرحلتين، وهذا راجع إلى الاختلاف في النوع، فرحلة ابن بطّوطة تصنّف ضمن الرحلات السياحية، ورحلة ابن قنفذ رحلة زيارية ذات طابع صوفي. إلّا أنّ هناك رابطاً يجمع بينهما هو الإقبال على المظاهر الدّينية والتّزوع نحوها. وهذا ما دفعني لدراسة الرحلتين معاً على الرّغم من وجود اختلاف بينهما، فكلّ منهما لديه وجهة نظر خاصة به.

وفي الأخير لا يسعني إلّا أن أشكر كلّ من ساعدني في إنجاز هذا البحث، ومدّ لي يد العون من قريب أو من بعيد، وعلى رأسهم الأستاذ المشرف: د/ عبد العزيز بومهرة، الذي لم ييخل علينا بتوجيهاته وملاحظاته القيّمة، فله منا كل الشكر والعرفان، والتقدير والاحترام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونأمل أن أكون قد وفقت فيما قدمت.

المدخل :

1- مفهوم أدب الرحلة :

أ/ في اللغة .

ب/ في الاصطلاح .

2- أدب الرحلات .

3- أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة .

4- ابن بطّوطة .

5- ابن جزي الكلبي .

6- ابن قنفذ القسنطيني .

1- مفهوم أدب الرحلة:

أدب الرحلة هو لون من الأدب يصور فيه الرحالة كل ما شاهده أثناء رحلته في أماكن وبلدان، ومسالك وممالك، وينقل عادات وتقاليدها خاصة بمجتمعات وشعوب، وبمعنى آخر هو فن يُعبر عن مشاعر تختلج في نفس الأديب تجاه كل ما يراه، وهو فن معروف في الآداب العالمية. ويعدُّ أدب الرحلة نوعاً من أنواع التواصل الثقافي، فبرأساطيه تتعارف الأمم والشعوب وتتقارب، حيث تتعرف كل أمة إلى ثقافة الأمم الأخرى.

أ/ الرحلة في اللغة :

الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج. يقال رَحَلَ الرَّجُلُ إِذَا سَارَ⁽¹⁾ أي أنَّ الرحلة هي السير والانتقال من مكان إلى مكان. والرحلة بالضم الوجه الذي تريده، والرحلة بالكسر هي الارتحال⁽²⁾، ورحل وارتحل بمعنى انتقل، ورحلة تعني سفرة⁽³⁾، كل هذه المفردات تصب في معنى واحد هو الانتقال والضرب في الأرض، والسير في مناكبها.

ب/ الرحلة في الاصطلاح:

هي فن من الفنون النثرية تتعلق بحياة الأفراد والأمم التي زارها الرحالة، حيث تتعرض بشيء من التفصيل لجميع نواح حياتهم ومعيشتهم بأسلوب أدبي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة من أول سطر إلى آخر سطر من دون ملل أو كلل.

احتوى أدب الرحلات على مادة وفيرة وغزيرة؛ تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وأدبية ودينية، كما تضمن الحكايات والأساطير التي: « قد لا ترتقي إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة، أو الشعر، أو المسرحية، أو المقالة الأدبية مثلاً، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن تخضع لمقاييسها »⁽⁴⁾.

(1) تهذيب اللغة للأزهري أبي منصور محمد بن أحمد (370هـ)، تح: عبد الله درديش، مراجعة: محمد علي النجار، (د، ت)، 5/5.

(2) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، 1707/4.

(3) تكملة المعاجم العربية لرينهارت دوزي، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، 1980، 5/ 109 - 110.

(4) أدب الرحلة عند العرب لحسني محمود حسين، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص9.

هذا التعدد في موضوعات أدب الرحلات هو أحد أهم ركائزها وخصائصها الفنية، وهذا ما يزيدها حلاوة، بحيث تجد قارئ الرحلات لا يَمَلُّ من قراءتها، بل تجده متطلّعا لمعرفة المزيد من الأخبار والحكايات عن الشعوب والبلدان.

ويؤكد بعض الدارسين انتساب " أدب الرحلة " إلى حقل السرد: « باعتبارها كتابة أدبية تتوافر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيتها في خانة الأدبي »⁽¹⁾. يُعْتَبَرُ السرد السمة البارزة في أدب الرحلات، لأنّ الرحلة بصدد الإخبار عما صادفه من أمور وأحداث في أثناء رحلته لأحد الأماكن، لذا يمكن اعتبار النصّ الرحلي نصّاً سرديّاً لأنّ المشهد القصصي فيه مستمر من بداية الرحلة إلى نهايتها، أي أنّ الرحلة تجمع بين عنصر القص (الحكى)، والموضوعات المتعددة المتطرفة لجوانب مختلفة. وهناك من يُعرف الرحلة على أنّها: « ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدافع الوجداني العميق والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقة، والبحث عن الأسباب والنتائج ببصيرة وواعية »⁽²⁾. الرحلة تعبير صادق في أغلب الأحيان عمّا شاهده الرحالة، ولهذا فكاتب الرحلة يستقي المعلومات، والحقائق من المشاهد الحية، والتصوير المباشر، وهذا يتطلب منه بصيرة نافذة وواعية في إدراك الأشياء، وفهمها فهماً دقيقاً وعميقاً، ممّا يجعل قراءتها مفيدة وممتعة وشائقة.

اختلفت دوافع الرحيل، وتنوّعت مادة الرحلة، ولعلّ الدافع الأول إليها هو دافع ديني قبل كل شيء، فتوجهوا برحلاتهم صوب المشاعر المقدّسة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، معتمرين أو حاجّين إلى بيت الله الحرام، وزائرين إلى مسجد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة.

كان الحجّ معروفاً منذ الجاهلية؛ إذ كان العرب يحجّون كل سنة إلى مكة المكرمة، وبعد مجيء الإسلام طُهرت الكعبة الشريفة من الأصنام، وأصبحت بيت الله الحرام، الذي يقصده الناس من كلّ فجّ، فالحجّ كان ولا يزال رحلة يتشوق لأدائها كلّ مسلم، ورغبة ملحة تساور النفوس في الخروج من أوطانهم لتأدية فريضة الحجّ، التي هي الركن الخامس من أركان الإسلام، وفريضة واجبة الأداء على كلّ مسلم شرط الاستطاعة لقوله تعالى: ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾⁽³⁾، وقوله أيضاً: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ

(1) الرحلة في الأدب العربي " التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل " لشعيب الحليفي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص40.

(2) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم (أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم) لزردومي إسماعيل، جامعة الحاج الأخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، ص12.

(3) الآية 97 من سورة آل عمران.

مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴿١﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢﴾﴾.

فالحج هو قصد مكة على وجه مخصوص بنية العبادة، وأداء المناسك التي شرعها الله سبحانه وتعالى، والحج من أفضل العبادات، وأجلها قدراً عند الله لأنه أعظمها مشقة تتجلى فيه صورة السفر والصبر على طاعة الله .

كان الحج إلى الديار المقدسة من قبل المسلمين من أعظم دوافع الرحلة، بحيث اتجهوا إلى الأراضي المقدسة لتقديم الفريضة، وزيارة قبر الرسول الكريم، وعند عودتهم إلى ديارهم أخبروا قومهم، وأهل وطنهم عن الطرق التي سلكوها، وعن الأقوام التي شاهدوها واختلطوا بها. فدوّن بعض الحجاج ما شاهدوه وعملوا على أن ينتفع غيرهم بمشاهداتهم وتجاربهم، ويطلق على هذا النوع من الرحلات الرحلة الحجازية. نشأ هذا اللون من الكتابة الرحلية عندما انتهز المغاربة والأندلسيون فرصة خروجهم بغرض أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة النبوية، فدوّنوا رحلاتهم منذ خروجهم قاصدين مكة المكرمة.

ولهذا فالغرض الأول من الرحلات المغربية والأندلسية غرض روحي بإشباع الرغبة الجارحة في أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة التي يرنو كل حاج لزيارتها، وبإشواقه من هذا المقصد الشريف. نصّ الرحالة المغاربة والأندلسيون في بداية رحلاتهم على أن نيتهم من هذه الرحلة الحج، وزيارة المدينة المنورة والسلام على الرسول الكريم؛ فقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام 725هـ معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة البقاع المقدسة، وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره: « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، يوم الخميس الثاني من شهر الله، رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام »⁽³⁾.

(1) الآية 197 من سورة البقرة.

(2) الآية 27 من سورة الحج.

(3) رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة اللواتي الطنجي، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، 153/1.

واستهل أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي رحلته بقوله: « الحمد لله الذي فرض حج البيت على من استطاع إليه سبيلا، وجعله تأسيس إبراهيم خليلا، وقال وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ومن أصدق من الله قيلا »⁽¹⁾. وقال أبو القاسم التُّجيجي حين سأله ابن دقيق العيد عن وجهته: « وسألني عن وجهة قصدي فأخبرته أن معظم أملي الوصول إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج »⁽²⁾.

~~يتضح من هذه الأقوال أن رحالة المغرب الإسلامي قصدوا المشرق لأغراض تعبدية، فنصروا على ذلك~~

صراحة في بداية رحلاتهم: « ينصون صراحة من أن الغرض من رحلاتهم إلى المشرق هو الحج إلى بيت الله الحرام، له أخلصوا نواياهم وإليه شدّوا رحالهم، وعليه عقدوا عزائمهم ومقاصدهم، ومنهم من تآقت نفسه إلى الحج فرحل مرات عدة لأدائه رغم بعد المسافة وشحط المزار بين المغرب والمشرق »⁽³⁾.

حجّ ابن بطّوطة في رحلته الأولى ست مرات، فكّلما انفصل عن البلد الحرام تآقت نفسه إلى العودة من جديد إلى مكّة للحجّ، وزيارة قبر الرّسول صلى الله عليه وسلّم.

كما خرج المغاربة والأندلسيون من أوطانهم، أيضاً، طلباً للعلم والاستزادة منه، ومقابلة الشيوخ، هذا طبعاً بعدما يستكملون الأخذ عن مشيخة المنطقة، فسعوا إلى طلب العلم من منابعه الأصلية: مكّة المكرمة، والمدينة المنورة، وبغداد، ودمشق، وبيت المقدس، والقاهرة، وغيرها من المراكز الإسلامية التي يتطلّع طلاب المغرب لاكمال علمهم بها، وفي هذا الصدد قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة: « الرّحلة لأبدٍ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بِلِقَاءِ الْمَشَائِخِ وَمُبَاشَرَةِ الرِّجَالِ »⁽⁴⁾.

فالرحلة تتيح الفرصة للقاء أهل العلم بالمشايخ على اختلاف وجهاتهم ومشاربهم، فابن خلدون هنا أكد أن العلم لا يكون إلا بالرحلة، والسعي وراء المشايخ، والإمام بالعلوم المختلفة.

حثّ الله ورسوله الكريم على طلب العلم، الذي هو من النعم التي أنعمها علينا، وجعله الرّسول صلى الله عليه وسلّم باباً من أبواب الجنّة ومُوصِلاً إليها فقال: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ

⁽¹⁾ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق لخالد بن عيسى البلوي، تح: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث العربي، مطبعة فضالة، المغرب، (د، ت)، 1/141.

⁽²⁾ مستفاد الرحلة والاغتراب لأبي القاسم التُّجيجي، تح: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (د، ت)، ص 20.

⁽³⁾ فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين لبنعيسى بويوزان، ندوة مكّة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426 هـ، ص 10.

⁽⁴⁾ مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) لعبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، 1/745.

طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ»⁽¹⁾، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحثُّ على الرّحلة في طلب العلم والاستزادة منه؛ حيث ضَرَبَ المولى عزّ وجلّ مثلاً من أروع الأمثلة في طلب العلم برحلة موسى مع الخضر عليهما السلام ليتعلم منه في بضع آيات من سورة الكهف⁽²⁾.

حيث قصَّ الله في هذه الآيات قصة موسى عليه السلام، وهو يرتحل في البحر ليلتقي الخضر عليه السلام، فيتعلم منه علماً: «فمرسى عليه السلام بالرّغم من بلوغه تلك المرتبة العالية عند الله تعالى واختصاصه بكلامه يرحل إصراراً على لقاء العبد الصالح بغض النظر عن المسافة والمشقة وطالبا بأدب وسائلاً إياه أن يعلمه مما علّمه الله تعالى واشترطه بعدم الاستفسار مما يراه مخالفاً لشريعته مقابل ذلك يفسر له ما غمض عليه ويمضى السرد القرآني إلى أن يفترقا»⁽³⁾. فسيّدنا موسى عليه السلام بالرّغم من سموّ قدره، ورفعة مكانته رحل إلى مكان بعيد لطلب العلم، وسلك السبل الموصلة إليه. والرّغبة في طلب العلم تكون بالرّحلة الطويلة وتحمل المشاق والمعاناة، وتتطلب بحث متواصل ونفس طويل وعزيمة قوية.

تمثل طلب العلم في جمع الحديث من أفواه الثقات، وجمع اللغة والأشعار وأيام العرب، وكذا البحث عن مصادر التّصوف من شيوخ وأقطاب: «ولا يفتح باب التّصوف قديماً إلّا بالرّحلة إلى الشيوخ حيث يحصل التلقين وإلباس الخرقة»⁽⁴⁾؛ وأحسن مثال على ذلك هو ابن قنفذ القسنطيني الذي حرّر رحلة في التّصوف "أنس الفقير وعزّ الحقير"، جاب فيها أقطار المغرب إلى أن وصل أخيراً إلى فاس، واستقر بها بحثاً عن أصحاب الشّيخ أبي مدين شبيب (أبر الغرش)، والاستفادة منهم وتقريباً بعض من كلامهم: «رغب إليّ من يتكرّم عليّ من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشّيخ أبي مدين نفع الله به وبأمثاله من المسلمين»⁽⁵⁾.

إذاً تضافر الوازع الدّيني والدافع التعليمي في تكوين أهم دوافع أدب الرّحلات في المغرب، فأغلب الرّحالين انطلقوا من ديارهم بنية الحجّ، ولقاء المشايخ. لم يكن العلم بعيداً عن الخاطر ولا خارج الأذهان،

(1) صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، بحاشية السندي، دار المعارف، بيروت، 1978، 24/1.

(2) الآية [60 - 70] من سورة الكهف.

(3) الرّحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة - لعواطف يوسف نواب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص34.

(4) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم لزردومي إسماعيل، ص18.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقير في التعريف بالشّيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم لأبي العباس أحمد بن الحسن القسنطيني الشهير بابن قنفذ، تح: أبي سهل نجاح عوض صيام، تقديم: علي جمعة، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2002، ص30.

ولذلك فإن: « هاجس العلم كان ملازماً لهاجس الحج، يحرص عليه الرحالة قبل أداء المناسك وبعد أدائها، لذا ينفق صفحات طوال في ذكر من لقيه من أهل العلم في المدن الكبرى كتونس والإسكندرية والقاهرة والقدس وعسقلان وحلب وبغداد، هذا فضلاً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة ⁽¹⁾؛ وقد تتولد عن هذه الرحلات رغبات أخر كحبّ التجوال في البلاد، ومعرفة أحوال العباد كما حصل مع شيخ الرّحّالين ابن بطّرحة الذي زار عديد من البلدان، وخبر ثقافات الشعوب إلاّ أنّ نفسه تنرقّ دوماً إلى الرجوع للحجاز لأداء فريضة الحجّ مرة أخرى، فكان الحجّ وطلب العلم محورا هذه الرّحلات ومركزها اللذين تدور من حولها.

2- أدب الرّحلات :

عرف الإنسان الرّحلة منذ القدم ومارسها، وإن اختلفت وسائل السفر ودوافعه؛ فقد جبل الإنسان عليها منذ بداية الخلق، مع هبوط آدم عليه السلام وحواء من السّماء إلى الأرض، ونزول كل منهما في مكان، وأخذاً يجوبان الأرض لعلّهما يلتقيان مجدّداً، واستمرت رحلتها حين أمرا بالضرب في الأرض، والسعي وراء القوت ومنابع الماء، فكانت هذه أوّل رحلة على وجه الأرض ⁽²⁾، ثمّ تلتها رحلات أخرى. يسلط الضوء أوّلاً على الرّحلات المقدّسة المرتبطة بالدّين الإسلامي ⁽³⁾ مثل رحلة سيّدنا إبراهيم — عليه السلام — وزوجته سارة إلى مصر، ورحلته، أيضاً، مع زوجته الأخرى هاجر، وطفلهما إسماعيل إلى مكّة، ورحلات سيّدنا موسى — عليه السلام — إلى مصر، ورحلته مع الخضر لطلب العلم، ورحلة سيّدنا عيسى — عليه السلام — وأمّه مريم البتول إلى مصر، ورحلة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة المنوّرة، ورحلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (الإسراء والمعراج)؛ ويمكن تصنيف هذه الرّحلات ضمن الرّحلات البريّة. أمّا الرّحلات البحرية المقدّسة، فتتمثل في رحلة النّبي نوح — عليه السلام — وأتباعه من المسلمين في سفينة أنقذتهم من الطوفان، ورحلة النّبي يونس — عليه السلام — في السفينة وفي أعماق الحوت عندما ابتلعه.

⁽¹⁾ فضل الحج على العلم في المغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج لبنعيسى أحمد بويوزان، ص 249.

⁽²⁾ ينظر: - التاريخ الإسلامي قبل البعثة والسيرة لمحمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 7، 1991، 29/1.

- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل لسامي بن عبد الله المغلوث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 6، 2006، ص 26.

⁽³⁾ الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها لعبد الحكم عبد اللطيف الصعدي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط 1، 1992، ص 67.

ومحجىء الإسلام توسعت الرحلات وانتشرت: « وهو قول يصدق على المسلمين أيام عزهم أكثر مما يصدق على غيرهم. سبب ذلك: اتساع مملكتهم، وتطور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، وشغفهم بالحل والترحال، وحبهم للمعرفة والاطلاع والمغامرة والاغتراب »⁽¹⁾.

ساعد الإسلام على ظهور فن الرحلات، وذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية، فظهرت كتابات متعددة في هذا المجال، قام بها الرحالة العرب، وقد عكس أدب الرحلات ثقافة تلك العصور.

ذكرت الرحلة في القرآن الكريم في عدة آيات؛ منها قوله تعالى: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾⁽²⁾؛ وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾⁽³⁾؛ وقوله أيضاً: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾⁽⁴⁾؛ وقد ذكر الله الرحلة، أيضاً، في سورة قريش في قوله عز وجل: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾⁽⁵⁾.

كانت قريش مداومة على رحلة الشتاء والصيف، إذا جاء الصيف رحلوا إلى الشام، وإذا جاء الشتاء رحلوا إلى اليمن، فكانت لهم بذلك رحلتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام.

وذكر في القرآن الكريم أيضاً الإسراء بالرّسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، ومعراجه إلى السماء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾⁽⁶⁾، وهي أطول رحلة في التاريخ الإسلامي على الرّغم من استغراقها فترة وجيزة جداً.

جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن السير والارتحال والتّفكّر في خلق الله من جبال وأشجار ومياه، وجعل هذه الرحلات في مرضاة الله لا لمعصيته. وكل هذا يدل على أنّ الإسلام حثّ معتنقيه، وشجعهم على الرحلة لأغراض شتى.

(1) " بونة (عنابة) كما وصفها الرحالة العرب والغربيون " لبلقاسم بلعرج، حوليات جامعة قالة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة

08 ماي 1945 قالة، ع1، 2007، ص2.

(2) الآية 137 من سورة آل عمران.

(3) الآية 11 من سورة الأنعام؛ الآية 69 من سورة النمل.

(4) الآية 46 من سورة الحج.

(5) الآية [1 - 2] من سورة قريش.

(6) الآية 1 من سورة الإسراء.

ومن ذلك الأبيات الشهيرة المنسوبة للإمام عليّ كرم الله وجهه: ⁽¹⁾ (الطويل)

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجٌ هَمٍّ وَاكْتِسَابٌ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ، وَصُحْبَةٌ مَاجِدِ
فَإِنْ قِيلَ: فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِحْنَةٌ وَقَطْعُ الْفَيَافِي وَارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ مَقَامِهِ بَدَارِ هَوَانٍ يَبْنِ وَأَشٍ وَحَاسِدِ

أمّا الرّحلات التي سجلها التاريخ العربي بعد الإسلام فأهمها :

رحلة التاجر سليمان السيرافي ⁽²⁾ بحراً إلى المحيط الهندي في القرن الثالث للهجرة، ورحلة سلام الترجمان ⁽³⁾ إلى حصون جبال القوقاز، وكذلك رحلة ابن حوقل ⁽⁴⁾ (المسالك والممالك)، ورحلة اليعقوبي ⁽⁵⁾ (كتاب البلدان)، ورحلة المسعودي ⁽⁶⁾ (مروج الذهب)، ورحلة

⁽¹⁾ ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005، ص59. وهذه الأبيات منسوبة أيضاً للإمام الشافعي رضي الله عنه؛ ينظر: ديوان الشافعي، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005، ص49.

⁽²⁾ هي رحلة تجارية بحرية، اشتملت على مجموعة من المعارف والأخبار التي حصل عليها أثناء رحلته عبر المحيط الهندي. ينظر: أدب الرّحلات لأحمد أبو سعد، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1961، ص26.

⁽³⁾ هي رحلة استطلاعية رسمية كلفه بها الخليفة العباسي الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز، وسبب الرّحلة أن الخليفة رأى في منامه أن السّد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح. فقرر أن يبعث رجلاً إلى المكان ليستطلع الأمر، فلم يجد من يصلح لهذه المهمة إلاّ سلام الترجمان. ينظر: أدب الرّحلات لأحمد أبو سعد، ص21.

⁽⁴⁾ جاب هذا الرّحالة (في القرن الرابع للهجرة) مختلف أقطار الأرض لأجل الدرس والتجارة والكسب، ولم تكن زيارته زيارة عابر سبيل، بل كانت مناسبة للدرس والتأمل، فسجل ملاحظات تعد من أهم ما وصل في وصف البلدان. ينظر: الرحلات لشوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط3، 1956، ص12.

⁽⁵⁾ انساح اليعقوبي في البلدان الإسلامية، فوصل إلى أرمينية وفارس ومنهما انتقل إلى الهند، وطاف الجزيرة العربية، وبلاد الشام فالمغرب فالأندلس. ينظر: أدب الرّحلات لأحمد أبو سعد، ص43.

⁽⁶⁾ من أشهر جغرافي العرب، قام برحلتان، الأولى في سنة 921 م ذهب فيها إلى مصر وفارس وإيران والهند وسرنديب ومدغشقر وعمان. وفي سنة 926 م قام المسعودي برحلته الثانية، فذهب إلى ما وراء أذربيجان وجرجان وإلى الشام وفلسطين. وفي سنة 942 م استقر في القسطنطينية (مصر)، وفيها ألف ودون ما شهدته وسمعه أثناء رحلاته. ينظر: أدب الرّحلة تاريخه وأعلامه " المسعودي، ابن بطوطة، الرّحائي " لجورج غريب، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1972، ص29.

المقدسي⁽¹⁾ (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، ورحلة ياقوت الحموي⁽²⁾ (معجم البلدان)، ورحلة الإدريسي⁽³⁾ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ورحلة القزويني⁽⁴⁾ (آثار البلاد وأخبار العباد)، وغيرها من الرحلات التي ألّفت في هذا المجال.

كما عرفت الأمم الأجنبية الرحلة منذ العصور القديمة؛ منها رحلة " هيرودوت " الذي يعدُّ أكبر رحلة عرفه الإغريق: « زار مصر وقبرص وفينيقيّا وآشور وإيران وتوغّل في الشمال إلى البوسنر، وأودع مشاهداته في هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه الكبير »⁽⁵⁾. كما لمع في هذا العهد أيضاً " بطليموس الاسكندري " الذي: « ترك كتابين في الجغرافية والفلك ونراه يدوّن وصفا مفصّلا للبلدان والأماكن في عصره ذاكرة أطوالها وعروضها، ومبيناً بالرسم مواقعها »⁽⁶⁾.

إذاً الرحلة متصلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، فمارسها الرحالة في بلدانهم أو خارجها حسب الحاجة التي اقتضت ذلك. والرحلة أنواع اختلفت باختلاف مقاصد أصحابها ودوافعهم: « فمنها ما هو

(1) أعظم الجغرافيين عند العرب في نظر بعض المستشرقين، انتقل بين ربوع العالم الإسلامي، ثم أخذ في تدوين كتابه " أحسن التقاسيم " مصوراً الأحوال الجغرافية والعمرائية، مهتماً اهتماماً شديداً بالحديث، عن اختلاف أهل البلدان، في كلامهم وأصواتهم وألستهم... ينظر: الرحلات لشوقي ضيف، ص15.

(2) قام أبو عبد الله برحلات لمصلحة سيده ولمصلحته في سبيل التجارة، فتنقل من حلب إلى إربل، فخراسان، فمرو، ثم خوارزم، حيث استقر إلى أن زحف جنكيز بمغوله، فاهزم إلى الموصل، ثم سار إلى سنجان فحلب وأقام فيها حتى مات. وقد أفادته رحلاته كثيراً، فألف من مشاهداته في أثنائها، ومن مطالعته في كتب الجغرافية معجمه الجغرافي " معجم البلدان ". ينظر: أدب الرحلات لأحمد أبو سعد، ص155.

(3) أكبر عالم جغرافي عرفته القرون الوسطى، رحل في البلاد، فتجوّل في شبه الجزيرة الإسبانية وشواطئ فرنسا وغربي البحر الأبيض والمغرب وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية حيث اتصل بالأمير النورماني روجر الثاني، فكلّفه هذا بمهمة عهد إليه فيها بتأليف كتاب له يصف فيه العالم بأقطاره وبلدانه، فقام الإدريسي بالمهمة على أكمل وجه، وألف له الموسوعة الجغرافية الهائلة التي سماها " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ". ينظر: أدب الرحلات لأحمد أبو سعد، ص95.

(4) يعدّ كتابه الجغرافي من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب، وهو فيه لا يهتم بالمسالك، إنّما يهتم بأحوال البلاد والسكان، وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم، تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم. ينظر: الرحلات لشوقي ضيف، ص21.

(5) الرحلات لشوقي ضيف، ص8.

(6) المرجع نفسه، ص9.

سياسي؛ ومنها ما هو ديني؛ ومنها ما هو تجاري؛ ومنها ما هو تعليمي أو سياحي أو سفاري إلى غير ذلك من الأنواع التي تعددت وتنوعت بتعدد وتنوع الأغراض التي كانت تقصد من ورائها⁽¹⁾. وقد حفل التاريخ بأسماء كثير من أعلام هذا الأدب ورؤاده، الذين قاموا برحلات متعددة خارج ديارهم أو داخلها، وطافوا بأنحاء شتى من العالم.

3- أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة :

يزخر التراث الإسلامي برصيد مجيد من أدب الرحلة خلفه رحالة علماء أفذاذ، دونوا فيه ما لم تدونه كتب التاريخ، وسجلوا في رحلاتهم تلك مشاهداتهم المختلفة، وصنفوا عادات وتقاليد الشعوب، وتحدثوا عن طبائع الناس، ووصفوا مسالك الأماكن والبلدان المتنوعة، صاغوا كل ذلك بأسلوب يجمع بين المتعة والتشويق، والحقيقة التاريخية والخيال.

جاء الرحالة العرب البلدان العربية التي تجاورهم، وهناك من وصل إلى بلاد غير عربية وبعيدة كالأندلس والصين وتركيا وغيرها، فشكل أدب الرحلات بذلك أهم تجليات الثقافة في ذلك العصر، فظهرت رحلات كثيرة على مرّ العصور.

ولكن اللافت للانتباه اشتهاه الأندلسيون والمغاربة بصفة خاصة بهذا الأدب، فحظي عندهم بعناية فائقة تفوق عناية المشاركة به. وهذا راجع بطبيعة الحال إلى بعد المغرب عن الأماكن المقدسة، ورغبتهم الملحة في ريارتها والشوق إليها: « فكان جل من يقصد البلاد الحجازية من الأدباء والعلماء لأداء فريضة الحج يشعر بوجوب اطلاع مواطنيه على أخبار تلك البقاع الشريفة البعيدة التي يحن إليها كل مغربي، لما يربطه بها روابط الدين واللغة والدم »⁽²⁾. فوصفوا المسالك والطرق المؤدية إليها، ووقفوا على البلدان التي مروا بها في طريقهم، متعرضين لوصف المساجد والزوايا والعلماء والأدباء، فازدهر بذلك هذا النوع الأدبي، وأقبلوا عليه إقبالاً مفرطاً فنفت سوقه، ولاسيما في القرنين السابع والثامن: « الرحلة فن من فنون الأدب العربي، تخصص وبرع فيه الرحالة المسلمون وخاصة المغاربة والأندلسيون لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات »⁽³⁾. أنتج المغاربة والأندلسيون عديد من الكتب في هذا المجال، وهذا طبعاً بعد جولة طويلة،

(1) مظاهر الثقافة المغربية - دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني - لأحمد بن شقرون، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، 1985، ص172.

(2) " الرحالة المغاربة وآثارهم " لمحمد الفاسي، مجلة دعوة الحق، العدد2، السنة2، نوفمبر، 1958، ص8.

(3) الرحلات المغربية والأندلسية لعواطف يوسف نواب، ص71.

وغياب دام سنوات في اكتشاف المعمورة، وعندما استقر بهم المقام في بلدهم الأصلي أخذوا في كتابة ما شاهدوه، وما استفادوا منه من علوم وتجارب، لكي ينتفع بها أهل بلدهم.

ففن الرحلة تأصل عندهم (المغاربة والأندلسيون)، وأصبح فناً قائماً بذاته، وبخاصة في عهد بني مرين، حيث ازدهر ازدهاراً لم يُر له مثيل من قبل، فألفوا مصنفات كثيرة، قدموا من خلالها منفعة جليلة لمن جاء بعدهم: « ازدهر أدب الرحلة على عهد بني مرين ازدهاراً لم يسبق للمغرب أن عرفه في العصر المريني، مضت، فلم يذكر التاريخ، بل لم يسجل من هذه الرحلات منذ بداية الإسلام في المغرب حتى العصر المريني، أي ما يقرب من سبعة قرون إلا عدداً قليلاً »⁽¹⁾، لم يعرف المغرب قبل المرينيين أية نهضة جليلة في أدب الرحلة، ولم يدوّن قبلهم سوى رحلة " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للشريف الإدريسي⁽²⁾ (562هـ)، ورحلة " تحفة الألباب " لأبي حامد الأندلسي⁽³⁾ (565هـ)، وهي قليلة بالمقارنة بما أُنتج في العصر المريني.

نبغ في سماء المغرب والأندلس في القرن الثامن للهجرة عديد من الأسماء الذين تركوا بصماتهم المتميزة من خلال رحلاتهم، فحفظهم التاريخ على مرّ الأزمان، وأصبحوا مثلاً يقتدى بهم في هذا الفن المتميز، حيث خرجوا من ديارهم كلّ منهم تدفعه رغبة ما في القيام بهذه المهمة، فانساحوا جوابين في الآفاق، راصدين مختلف المشاهدات، وعندما رجعوا إلى مواطنهم كانوا محملين بكمّ هائل من المعلومات، والفوائد عن ثقافات الشعوب فضلاً عن الإجازات والأسانيد التي تحصلوا عليها من العلماء والفقهاء أثناء طلبهم للعلم. ولكي يحافظوا على ما استفادوا منه من مشاهد وعلوم من الضياع والنسيان كانت الكتابة والتدوين خير وسيلة لحفظها من التحريف.

كما ساعدت البيئة المغربية والأندلسية على ذلك، لما اشتهر عنها في ذلك الوقت - ق8هـ - من ازدهار فكري وثقافي، وذلك بانتشار مراكز ثقافية كبرى في المغرب والأندلس، وكثرة العلماء، فازدهر الأدب في هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً في جميع نواحيه، فبرزت فنون معينة، وانكب العلماء والأدباء والفقهاء على دراستها والنبوغ فيها.

(1) مظاهر الثقافة المغربية لأحمد بن شقرون، ص172 .

(2) محمد بن محمد الشريف الإدريسي، من أعلام الجغرافيين المسلمين. ولد في سبتة سنة 493هـ، ودرس في جامعة قرطبة، ثم طاف في الأندلس وشمالي إفريقية وآسيا الصغرى. ينظر: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لركي محمد حسن، ص64.

(3) محمد بن عبد الرحيم، المازني، القيسي، ولد سنة 473هـ، كان حافظاً عالماً أديباً، توفي بدمشق في صفر سنة 565هـ. ينظر: نفح الطيب للمقري، 235/2.

واللآفت للنظر في هذه الفترة من الزمن دور السلاطين الذين كانت لهم يد في الحفاظ على الموروث الثقافي، وذلك بتشجيعهم أهل العلم، والحرص على توفير كل الوسائل المتاحة لتنمية قدراتهم وتطويرها، فجلبوا حشداً هائلاً من العلماء الجهابذة إلى بلاطهم، وأنزلوهم منزلة رفيعة، ومنحوهم الأعطيات الوفيرة لإثارة التنافس، فأبدع هؤلاء الأدباء والعلماء درراً وجواهر بديعة في جوانب مختلفة أثرت المكتبة العربية الإسلامية. وقد ظهرت، في هذا العصر، أيضاً المجالس العلمية، وكان من أهمها مجلس أبي عنان الذي انتقى العلماء والأدباء للتناظر بين يده في شتى العلوم والآداب؛ فقد بذل: «عناية كبرى لرعاية العلم في دولته فكان يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويستدعى أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة، ويشترك معهم في المناقشات العلمية»⁽¹⁾، كما خصّص السلاطين، أيضاً، كتّاب دواوينهم في خدمة الأدباء والرحالة، بخاصة، مثلما حصل مع ابن بطّوطة حين عهد إليه السلطان المريني أبو عنان بكاتبه المشهور ابن جُزَي الكلي لكتابة رحلته.

عملت كل هذه الظروف على ازدهار الحياة الثقافية، ووفرت عوامل الرقي العلمي والأدبي في مجالات مختلفة في عهد بني مرين.

كان أدب الرحلة من أبرز تلك الفنون التي عرفها الأدب المغربي والأندلسي، ولاسيما في هذا القرن، ونقتصر في هذا المجال على ذكر أشهر الرحالة وأبرزهم ممن تركوا رحلات ذاع صيتها في الآفاق نظراً لما احتوته من فوائد جليلة عظيمة الأهمية، وإن اشتهر قبل هذا القرن في هذه الرقعة الجغرافية بالتحديد رحالة مشهورين أمثال ابن جُبَيْر (614هـ) والعبدي (700هـ) ولكن، في هذا البحث، اقتصرنا على الرحلات التي ظهرت في القرن الثامن للهجرة لأنّ رواد أدب الرحلة كثروا، وتهافتوا عليه بشكل غريب، وربما كان وراء ذلك دوافع خفية دفعتهم لتزوع هذا المنحى، واختيار هذا اللون من الأدب.

ومن بين هؤلاء الرحالة الذين برزوا في هذا القرن: ابن رُشَيْد السبّتي⁽²⁾ (721هـ) الذي رحل إلى

(1) ابن بطّوطة في العالم الإسلامي لإبراهيم أحمد العدوي، دار المعارف، مصر، 1954، ص 134-135.

(2) هو محمد بن محمد بن رُشيد أبو عبد الله الفهري السبّتي، ولد بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى سنة 657هـ، تلقى دراسته الأولى ببلده على مجموعة من الشيوخ، ثم انتقل إلى مدينة فاس التي كانت مركزاً علمياً مرموقاً، والتزم مجالس الشيوخ فيها، ولما اكتمل أخذه عن أشياخ منطقته تاقت نفسه إلى الارتحال شرقاً لينهل من علمائه. ترجمته في: - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، 1993، 111/4-112.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983، 382/6.

- النبوغ المغربي لعبد الله كنون، طنجة، ط2، 1960، 206/1.

المشرق سنة (683هـ) لينهل من معين العلم هناك، وليصل إلى السند الأعلى الصحيح في الحديث النبوي الشريف: « كان له تَحَقُّقُ بعلوم الحديث وبرجاله، وبضبط أسانيده ومعرفة انقطاعه واتصاله، إماماً في هذا الشأن مشاراً إليه في هذا الفن »⁽¹⁾، ترك رحلة جليلة الفوائد من الناحية الأدبية ومن نواحٍ أخرى، بخاصة الحديث النبوي الشريف، سَمَّاهَا: " ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهية إلى الحرمين مكة وطيبة ".

والرحالة أبو القاسم التُّجَيْي السَّبَّي⁽²⁾ (730هـ) خرج في رحلته للحجّ منطلقاً من سبتة حوالي سنة (695هـ)، مرّ بمراكز الثقافة الإسلامية المعروفة لعهدده، فلقي بها العلماء وروى عنهم، وكتب رحلته الموسومة بـ: " مستفاد الرحلة والاعتراب ".

الرحالة أحمد التَّجَانِي التونسي⁽³⁾ (721هـ) خرج في رحلة رفقة أحد الأمراء الحفصيين (أبو يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني)⁽⁴⁾ سنة (708هـ)، فدوّن مشاهداته في كتاب أسماه " رحلة التجاني "، التي

(1) أزهار الرياض في أخبار عياض لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تح: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، 348/1.

(2) هو القاسم بن يوسف بن محمد بن عليّ التُّجَيْي البنسي السَّبَّي، ولد حوالي سنة 670هـ. قرأ القرآن بقراءته المشهورة وغيرها، ودرس أهم الكتب في هذا الفن، كاتكافي لابن شريح .

ينظر ترجمته في: مقدمة: " برنامج التُّجَيْي " للقاسم التُّجَيْي السَّبَّي (730هـ)، بقلم: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص: ح، ط .

(3) هو عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني التونسي، ولد سنة 670 هـ، رحالة أديب من أعيان الكتاب، ولد ونشأ بتونس، وعمل بديوان الإنشاء في البلاط الحفصي، كان كاتب الأمير الحفصي زكرياء بن أحمد اللحياني، صحبه في رحلة قام بها، وفارقه في مدينة طرابلس، وعاد إلى تونس، وكانت غيبته عامين وثمانية أشهر وأياماً، دوّن مشاهداته في كتابه " رحلة التجاني " .

ترجمته في : - الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، 125/4.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 376/6.

(4) سافر شيخ الموحدين أبو يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني بالعساكر إلى جربة لتخليصها من أيدي النصارى، فحارب القشتاليين شهرين ثم رحل عنها إلى قابس ثم إلى بلاد الجريد، وانتهى إلى توزر فترها، وخلص مجابي الجريد، ورجع إلى قابس وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره، ولما استقر بفاس صرح بما كان في قصده من أمر الحجّ، وصرف العساكر إلى الحضرة .

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تح: محمد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966، ص56.

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لأبي العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني، تقدم: محمد الشاذلي النيفر، تح: عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص159.

يمكن اعتبارها إحدى أهم مصادر تاريخ إفريقية⁽¹⁾، سياسياً واجتماعياً وأديباً.

الرحالة لسان الدين بن الخطيب⁽²⁾ (776هـ)، قام برحلتين الأولى في الأندلس حين رافق السلطان أبا الحجاج يوسف في زيارته إلى مقاطعات غرناطة⁽³⁾ الشرقية عام (748هـ) عنونها بـ "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف"⁽⁴⁾، والثانية في المغرب حين ذهب إليها لاجئاً عندما نُفي مع سلطانه المخلوع محمد بن محمد يوسف النفي بالله⁽⁵⁾ عام (760هـ). لم يبق ابن الخطيب في فاس⁽⁶⁾ عاصمة بني مرين⁽⁷⁾ إلا

(1) هو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة غرباً جهة الغرب. وحدُ إفريقية من طرابلس من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل إلى مِلانة. ينظر: - معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، 1977، 288/1.

(2) هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، وزير ملوك بني الأحمر في غرناطة، شخصية موسوعية، فهو مؤرخ، وطبيب، وكاتب مترسل، وشاعر فحل، من كبار العلماء الذين أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية.

ترجمته في: - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، 7/5.

- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر لعبد الرحمن بن خلدون، 440/7.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 503/6.

(3) غرناطة: أقدمُ مَدَن كورة ألبيرة من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها، يشقها النهر المعروف بنهر قلزم في القدم، ويعرف الآن بنهر حدارته، وبينها وبين ألبيرة أربعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثين فرسخاً. معجم البلدان لياقوت الحموي، 195/4.

(4) هي رحلة إلى الأندلس مع السلطان يوسف ابن الحجاج إلى وادي آش وبسيطة وقالش، وبرشانة، والمرية، ومرشانة، ولورسانة. ينظر: "لسان الدين بن الخطيب وأدب الرحلة" لمحمد محمود الخزعلي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج18، ع39، ذو الحجة 1427هـ، ص413.

(5) ذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه "اللمحة البدرية في الدولة النصرية" ما يتعلق بخلع سلطانه الغني، ولجوئهما للمغرب وقيام أخيه عليه. ينظر: - نفح الطيب للمقري، 84/5.

(6) مدينة مشهورة كبيرة على برّ المغرب من بلاد المغرب، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تُختط مراكش، وفاس محتطة بين ثنتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه، وقد تفجرت كلها عيوناً تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط. معجم البلدان لياقوت الحموي، 230/4.

(7) بنو مرين فخذ من زناتة، وهم ولد مرين بن ورتاجين بن ماحوخ بن وجديح بن فاتن بن يدر بن ينجت بن يصلين... قامت دولة بني مرين في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة، وظلت حتى سقوطها سنة (869هـ). كانت زعامتهم في أول أمرهم لعبد الحق بن محيو، فلما توفي توارثها أبناؤه الأربع من بعده، وكان أشهرهم يعقوب بن عبد الحق الذي كان أحد رجالات بني مرين المشهورين، وأوّل من تلقب بأمير المسلمين، وفي عهده بُنيت فاس الجديد 674هـ وكانت عاصمة بني مرين.

ظهر بين ملوك بني مرين يوسف بن يعقوب باني مدينة المنصورة قرب تلمسان، والسلطان أبو الحسن المريني (752هـ)، وابنه أبو عنان الذي كان أحد بناء الحضارة المرينية التي ما تزال آثارها واضحة في المدرسة البوعنانية، وساعتها المائية وعدّة مدارس للطلاب في فاس ومكناس وشالة، وسلا.

قليلاً ثم تنقل في أرجاء البلاد المغربية، ووقف مطوّلاً عند جبل هنتاة الذي ينسب إلى قبيلة هنتاة التي تسكن هناك، أطلق على رحلته اسم: " نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ".

الرحالة إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم التُمَيْرِي⁽¹⁾ من أهل غرناطة يكنى أبا إسحاق، ويُعرف بابن الحاج (768هـ)، وصف رحلة أبي عنان المريني إلى تونس عام (758هـ)، وسمّاها: " فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في المركبة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ". تطرق فيها بتفصيل دقيق إلى المركب المريني وجنده، وما يتعلق بالرحلة.

الرحالة أبو البقاء البلوي⁽²⁾ (768هـ)، قاض من فضلاء الأندلسيين، حجّ وصنف رحلته: " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق "، أنجزها في شهر ربيع الأول سنة (767هـ).

= - الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لعلي ابن أبي زرع الفاسي، (د، ت)، ص14.
- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610 - 869هـ) لمحمد عيسى الحريري، دار القلم، الكويت، ط1، 1985، ص: م.

- الحضارة الإسلامية في المغرب لحسن السائح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1986، ص253-254.
(1) أديب أندلسي، من كبار الكتاب، ولد بغرناطة سنة 713هـ، رحل إلى المشرق فحجّ، لقي عديد من كبار علماء الحديث وأخذ عنهم.

ترجمته في : - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني، 534/2.

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، 342/1.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 484/6.

(2) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي، أبو البقاء، تلقى علومه على أبيه، وعلى شيوخه المغاربة والأندلسيين.

ترجمته في : - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني، 532/2.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 297/2.

الرحالة عبد الرحمن ابن خلدون⁽¹⁾ (808هـ)، أصله من إشبيلية، ومولده بتونس، رحل إلى تلمسان⁽²⁾ وفاس وغرناطة وبجاية⁽³⁾ ثم استقر في تلمسان، فأقام بها مع عائلته، ونزل في قلعة بني سلامة من بلاد بني توجين فأقام بها أربع سنوات، في هذه الفترة شرع في كتابة مؤلفه الضخم "التاريخ" فأكمل المقدمة، ودون بعض الفصول من التاريخ، ثم عاد إلى تونس⁽⁴⁾ مسقط رأسه ومكث فيها أربع سنوات، ومنها اتجه إلى مصر، وحلّس التدريس في الأزهر، اشتهر بكتابه "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر" ومن عاصريهم من ذوي الشأن الأكبر "في سبع مجلدات أولها المقدمة وآخرها الرحلة التي عنوانها بـ: "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"⁽⁵⁾، ذكر فيها نسبه وسيرته، وما اتصل به من أحداث زمنه.

الرحالة أبو عبد الله ابن بطوطة صاحب رحلة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، والرحالة ابن قنفذ القسنطيني صاحب رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر"، اللذين سيتطرق البحث بالتفصيل إلى حياتهما لأنهما موضوعا الدراسة.

(1) هو محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد وليّ الدين الحضرمي الإشبيلي، ينسب سلفهم إلى وائل ابن حجر، انتقل سلفه عن مدينة إشبيلية إلى تونس، كان حسن الخلق رفيع القدر ظاهر الحياء وقور المجلس عالي الهمة عزوفاً عن الضيم، صعب المقادة قوي الجأش طامح الرأس للرياسة، متقدماً في فنون عقلية ونقلية شديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور بارع الخط جواد، شخصية موسوعية، كان مؤرخاً وفقيهاً، وفيلسوفاً، وأديباً مشهوراً، مؤسس علم الاجتماع.

دخل مدينة فاس عام 755هـ، واستعمله السلطان أبي عنان فارس بن عليّ بن عثمان المربني في الكتابة سنة 756هـ، ثم انصرف إلى غرناطة، ودخلها عام 764هـ. توفي بالقاهرة سنة 808هـ.

ترجمته في: - جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس لأحمد ابن القاضي المكناسي (960هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص410.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 3/330.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 6/586.

(2) تلمسان: بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمّة حجر، إحداها قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطّها المثلثون ملوك المغرب. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 2/44.

(3) مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. ينظر: معجم البلدان، 1/339.

(4) تونس: مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمّرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة. ينظر: معجم البلدان، 2/60.

(5) رحلة ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) لعبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (808هـ)، عارضها: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص4.

4- ابن بطوطة (703هـ - 770هـ) :

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف (بن عبد الرحمن) ⁽¹⁾ اللواتي ⁽²⁾ الطنجي ⁽³⁾ المعروف بابن بطوطة، والمعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين ⁽⁴⁾ .

ولد بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب 703هـ بالمغرب الأقصى، وينسب ابن بطوطة لأسرة عُثيت بالعلوم الشرعية، وعُرِفَت بالبسطة في العيش، اشتغل بعض أفرادها في القضاء الشرعي؛ وهو ما ذكره لأحد الملوك الذين التقاهم عندما خيّر بين الوظائف، فقال: «أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشخة فشغلي وشغل آبائي» ⁽⁵⁾ . حفظ في طنجة القرآن، ودرس العلوم الدينية والأدب، فشب ورعاً تقياً محباً للعلماء والأولياء، ولكن يبدو أنه لم يتم دراسته لأنه لما بلغ الثانية والعشرين من عمره ألحت عليه الرغبة في مغادرة بلاده، ومفارقة أهله استجابة لنداء الفريضة المقدسة التي كان عليه أن يؤديها. فخرج من طنجة سنة 725هـ قاصدا مكة المكرمة، وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهذا ما أكدته قوله: «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، يوم الخميس الثاني من شهر الله، رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام» ⁽⁶⁾ .

(1) ترجمته في: - الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، 273/3.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 236-235/6.

(2) لواتة: من العرب الداخلين مع البربر إلى المغرب، لهم زقاق بفاس يقال له حارة لواتة (لواتة قبيلة من البربر: وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك، ولوا الأصغر هو نفزا. ولوا اسم أبيهم، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصار لوات، فلما عربته العرب حملوه على الأفراد وألقوا به هاء الجمع)، منهم الفقيه الحسن اللواتي، كان على عهد مغراوة، ومنهم الفقيه علي بن الحسين اللواتي كان على عهد لمتونة، ومنهم الولي الصالح علي اللواتي كان على عهد الموحدون. ينظر: - تاريخ ابن خلدون المسمى " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر " لعبد الرحمن بن خلدون، 152/6.

(3) نسبة إلى طنجة مسقط رأسه، وطنجة مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر، فيها آثار كثيرة للأول وقصور وأقباء... ووطنجة آخر حدود إفريقية من المغرب. ينظر: الروض المعطار في أخبار الأقطار محمد بن عبد المنعم الحيمري، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1975، ص396-397.

(4) ينظر: مقدمة كتاب رحلة ابن بطوطة لعبد الهادي التازي، في رحلة ابن بطوطة " تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تح: عبد الهادي التازي، الرباط، 1997، 80/1.

(5) رحلة ابن بطوطة المسماة: " تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، 233/3.

(6) المصدر نفسه، 153/1.

بالإضافة إلى رغبته في رؤية أحوال الناس في الأقطار المختلفة، وشوقه إلى المعرفة، وولعه بالتنقل والمغامرة والتجربة، ومعرفة أحوال الدنيا من حوله.

رحل ابن بطوطة ثلاث رحلات: أولاها وهي أطولهن بدأها في يوم الخميس الثاني من رجب سنة 725هـ، وانتهى منها يوم الجمعة أواخر شعبان سنة 750هـ .

وفي هذه الرحلة طاف بأجزاء المغرب الأقصى، ثم اتجه نحو الشرق فحجّر تونس أو المغرب الأوسط، إلى تونس وليبيا، وانتهى به المطاف في مصر، ومنها اتجه إلى الإسكندرية ثم القاهرة، وتابع رحلته إلى مكة المكرمة عن طريق بلاد الشام، وذلك سنة 726هـ، فأدى مناسك الحج، ومن مكة رحل إلى العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثم عاد إلى الحجاز سنة 727هـ وحجّ للمرة الثانية، وجاور في مكة ثلاث سنوات، وفي عام 730هـ غادر الحجاز إلى اليمن وبلاد الخليج العربي، ثم سار في الخليج العربي متجها إلى البحرين والأحساء، ومن هناك عاد إلى الحجاز سنة 732هـ، ومن ثم قصد مصر ومنها إلى سورية، ثم غادرها متجها نحو فلسطين، ثم قصد شبه جزيرة القرم⁽¹⁾، وبلاد الأوزبك، ومن هناك رافق إحدى الملكات إلى القسطنطينية.

وبعدها عاد إلى القرم كي ينطلق منها إلى بخارى⁽²⁾ وبلاد الأفغان، إلى أن وصل إلى دلهي على نهر الغانج فاستقر بها مدة عامين، عمل خلالها قاضيا للمذهب المالكي.

ولما أراد السلطان محمد شاه (ملك الهند) أن يرسل وفداً إلى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه، ولكنه لم يتجاوز جزائر ذبية المهل⁽³⁾ (جزر مالديف)، حيث استقر فيها مدة سنة ونصف، تولى فيها من جديد منصب القضاء. ثم شعر برغبة شديدة في زيارة الصين، فقصدتها بعد أن مرّ بساحل البنغال وشبه جزيرة الملايو. وانكفاً بعدها راجعاً من رحلته الأولى عن طريق سومطرة، فالهند، فاليمن، فبلاد العجم، فالعراق، فالشام، فمصر إلى أن وصل مكة في 22 شعبان سنة 749هـ، فأقام بها إلى موسم الحج، وهي

(1) تكون القرم نقطة الإتصال الأساس بين جنوب روسيا المعروف آنذاك باسم قفقز وبين مدينة صنوب التي قضى فيها ابن بطوطة أربعين يوماً، والتي كانت المينا الأساس لروسيا الصغرى على ضفاف البحر الأسود. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 215/2.

(2) بخارى: من أعظم مدُن ما وراء النهر وأجلّها، يُعبر إليها من آمل اللشّط، وما بينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه. معجم البلدان لياقوت الحموي، 353/1.

(3) جزائر جنوب شرق الهند تعرف في الكتب الأوروبية المعاصرة لنا باسم مالديف، وتسمّى اليوم رسمياً محليديف. ينظر: تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 522/6.

المرّة السادسة التي يحجّ فيها، ثمّ سافر إلى المدينة المنورة، ومنها إلى القدس، ثمّ إلى مصر وانتهى عائداً إلى المغرب بعد أن غاب عنه خمساً وعشرين سنة، فدخل فاساً في أواخر شعبان سنة 750هـ.

وبعد أن أقام فيها مدّة عام، عاوده الشوق والحنين إلى الارتحال، فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالأندلس سنة 751هـ، وقد خرج ابن بطّوطة في هذه الرحلة من بلده طنجة، فمرّ بسبّطة وجبل طارق، ثمّ رحل إلى فاس ليهيئ نفسه لرحلة ثالثة إلى بلاد السودان سنة 753هـ، فزار بعض مدنها، ومنها عاد إلى المغرب.

ولما استقر به المقام هناك أخذ في رواية ما شاهدته من عجائب المشاهدات وغرائب الأخبار، فأعجب السُّلطان المريني أبو عنان (729هـ - 759هـ)⁽¹⁾ بقصصه الشائقة، فطلب منه أن يملئها على كاتبه محمد بن جُزَي الكلي.

أملى ابن بطّوطة رحلته على كاتب السُّلطان ابن جُزَي من ذاكرته بحجة ضياع مذكراته، التي سجّل فيها مشاهداته، وملاحظاته لأن الكفار سرقوها منه. فكانت هذه الرحلة هي الكتاب الوحيد الذي خلفه بعد غيبته الطويلة، حيث لم تذكر المصادر مؤلفات أخرى أنتجها الرحالة، وهذا يدل على أنّه كان من هواة الرحلة، محبّ للاطلاع على ثقافات الغير، والانتقال من مكان إلى آخر لمعرفة أحوال الناس، ومزاولة مهنته التي هي القضاء أمّا الكتابة فليست شغله كما قال (ليست لديه الرغبة في الكتابة)، ورُبّما لهذا السبب لم يترك كتباً أخرى، حتى إنّ رحلته ما كان ليكتبها لولا تدخل السُّلطان أبي عنان المريني، الذي يعدّ صاحب الفضل الأكبر في خروج هذه الرحلة إلى النور، واستمتاع الأجيال بقراءتها جيلاً بعد جيل.

(1) فارس بن عليّ بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان، المتوكل على الله من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ولد بفاس الجديدة (الدار البيضاء) في الثاني عشر ربيع الأول عام 729هـ. بويح بتلمسان في حياة أبيه لأنّه غدر أباه في الملك لما غزا إفريقية شهر ربيع الأول عام 749هـ، وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر.

كان فارساً شجاعاً يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهاً يناظر فيه (الفقه)، وكان عارفاً بالمنطق وأصول الدين، وله حظ صالح في العربية والحساب، وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه حافظاً للحديث عارفاً برجاله، فصيح القلم كاتباً بليغاً حسن التوقيع.

توفي مقتولاً، خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي يوم السبت الثامن والعشرين لذي الحجة عام 759هـ، وله ثلاثون سنة. ترجمته في:

- الحلل الموشية لمؤلف مجهول، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص179.

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد ابن القاضي المكناسي، ص508-510.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 127/5.

إلا أن ابن سودة ذكر كتاباً آخر إلى جانب الرحلة نسبته لابن بطوطة عنوانه " الواسيط" ⁽¹⁾ في أخبار من حل مدينة تَمَنْطِيط ⁽²⁾، التي تقع في قبيلة توات، وهي مشهورة بالعلم، وهذا الكتاب عبارة عن مجلد ضخّم كما قال ابن سودة؛ وقد ذكر عبد الهادي التازي أيضاً هذا الكتاب في مقدمة رحلة ابن بطوطة، ونسبه لهذا الرحالة نقلاً عن ابن سودة المري: « وإذا كان ابن بطوطة إنما اشتهر بالرحلة التي توجد بين أيدينا، فإن صاحب كتاب " دليل مؤرخ المغرب الأقصى " يذكر أن لابن بطوطة تأليفاً آخر يحمل اسم (الوسيط في أخبار من حل تَمَنْطِيط) » ⁽³⁾، ولكن سرعان ما يستدرك عبد الهادي التازي ذلك، ويتحقق من صحة نسبة هذا الكتاب إن كان لابن بطوطة أم لا، اعتماداً على زميله السفير الجزائري الدكتور بالسايح عليّ الذي أفاده بنصّ المخطوطة، التي هي من تأليف رجل آخر: « ومن باب الأمانة التاريخية... من تأليف القول البسيط في أخبار تمنطيط وهو تأليف للشيخ محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم المنياري من فقهاء توات » ⁽⁴⁾.

إذاً لم يترك ابن بطوطة تأليفاً آخر غير رحلته الشهيرة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ".

هكذا أمضى ابن بطوطة حوالي تسع وعشرين سنة في الترحال بين المدن والبلدان، من أجل معرفة عادات الشعوب والأقوام، ولهذا فهو شيخ الرحالين، بلا منازع، لكثرة طوافه في الآفاق، فهو من المغامرين الذين دفعهم حب الاستطلاع إلى ركوب كثير، ومثيلاًهما، لا تُعرف من الأخطار والأهوال. وبعد استقراره في المغرب تولّى منصب القضاء بإقليم تامسنا ⁽⁵⁾؛ وهو المنصب الذي تولاه عدّة مرات خارج وطنه؛ فقد تولّى قضاء الرّكب الحجازي عند خروجه من تونس قاصداً الحجاز: « عرف رفاقه في

⁽¹⁾ قد يكون خطأً نحوياً يقصد به الوسيط وليس الواسيط لأنّ ابن سودة المري مؤرخ وليس أديباً، وما يدعّم هذا القول أنّ عبد الهادي التازي ذكر هذا المؤلف بعنوان " الوسيط في أخبار من حل تمنطيط ".

⁽²⁾ دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن عبد القادر بن سودة، ص 42.

⁽³⁾ مقدمة رحلة ابن بطوطة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لعبد الهادي التازي، 1/86.

⁽⁴⁾ مستدركات على تحقيقي رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لعبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ص 21-22.

⁽⁵⁾ هذا ما ذكره لسان الدين بن الخطيب في رحلته " نفاضة الجراب في علالة الاغتراب " (ص 137). وتامسنا بسيط ممتد من وادي أبو رقرق إلى وادي أم الربيع، وهو بسيط الشاوية وما جاوره. ينظر: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي، تح: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1991، ص 12.

السفر تبحره في العلوم الشرعية كما تبينوا فضله ودماثة خلقه، وذلك في طريقهم إلى مصر، فجعلوه قاضياً لهم»⁽¹⁾، كما تولّى هذا المنصب السامي في دلهي وجزر مالديف.

توفي بمراكش عام 770هـ، وتلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالين المسلمين⁽²⁾ لأنه كان نموذجاً متميزاً للرحالة المسلمين، وعلى يده استوت الرحلة ونضجت، وأصبحت فناً قائماً بذاته.

وابن جزى نفسه أطلق على هذا الشيخ اسم رحّال العصر: « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ ابن عبد الله محمد ابن بطوطة، أكرمه الله، ولا يخفى عن كل ذي عقل أنّ هذا الشيخ هو رحّال العصر، ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة »⁽³⁾، طبقت شهرة ابن بطوطة الآفاق، وذاع صيته في كل مكان، حتى إنّه عدّ أكبر رحالة عبر التاريخ.

إلا أنّ هناك من اختلف في صحة مروياته، فانقسموا بين مؤيد ومعارض: « فذهب قوم إلى الشك بأمانتها لكثرة ما أضفى على المرويّات من غرائب... وذهب آخرون - ومنهم أهل الاستشراق - إلى جعل الرحلة أصدق ما للعرب والعجم في تقويم البلدان »⁽⁴⁾.

يبدو من خلال ما رواه ابن بطوطة في رحلته من غرائب، وعجائب إلى التشكيك في صحتها، واتهامه بعدم زيارته لكل تلك البلدان التي ذكرها، وإنّما سمع بها فألف قصصاً وأساطير حول ذلك من نسج خياله، ومن روجه التي تحبّ العجائب. فكان من هؤلاء المشككين العلامة عبد الرحمن بن خلدون (732هـ - 808هـ) الذي قال: « وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينٍ رَجُلٌ مِنْ مَشَيْخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِابْنِ بَطُّوطة كَانَ رَحَلَ مِنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ، وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ، وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي حَاضِرَةَ مَلِكِ الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ شَاهُ، وَاتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيْرُوزْجُوهُ، وَكَانَ لَهُ مِنْهُ مَكَانٌ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خِطَّةِ الْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ، ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ. وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رَحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ الْأَرْضِ. وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ، وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَغْرِبُهُ السَّامِعُونَ مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّفَرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ. وَأَنَّهُ عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاءِ الْبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ

(1) الرحلة والرحالة المسلمون لأحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي، جدة، (د، ت)، ص 369.

(2) الأعلام لخير الدين الزركلي، 236/6.

(3) رحلة ابن بطوطة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لشمس الدين ابن بطوطة، 280/4.

(4) أدب الرحلة تاريخه وأعلامه لجورج غريب، ص 62-63.

وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ مَنَحْنِقَاتٌ عَلَى الظَّهْرِ تُرْمَى بِهَا شَكَائِرُ الدَّرَاهِمِ والدَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِيَّوَانُهُ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَّا جَى النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ ⁽¹⁾. فابن خلدون من خلال هذا القول يشكك في كلام ابن بطوطة، ولا يأخذه على محمل الجد، ذلك أن العطايا من الدراهم والدنانير التي يمنحها ملك الهند لأهل بلده هي كميات خيالية، في نظره، يصعب تصديقها.

ولمناقشة هذا الأمر ذهب ابن خلدون إلى الوزير فارس بن ودرار (وزير السلطان أبو عنان) ليراجعه

في إنكار قصص ابن بطوطة وتكذيبها، وخاصة بعد أن أجمع الناس على عدم صحتها، فاستنكر عليه ابن ودرار ذلك، ودافع عن ابن بطوطة قائلاً: «إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكَرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَنَّ كَابْنِ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السَّجْنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا اعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي السَّجْنِ سِنِينَ رَبِي فِيهَا ابْنُهُ فِي ذَلِكَ السَّجْنِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَدَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشَيَاتِهَا وَنُعُومَهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تُرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ مِنَ الْفَارِ ⁽²⁾». ألقى ابن ودرار اللوم على ابن خلدون في إصداره قراراً متسرعاً في الحكم على مصداقية ابن بطوطة بما أنه لم يزر تلك الدول، ولا يعرف أحوالها، وسبل حياتها.

وهناك أيضاً من استنكر أخبار ابن بطوطة ورماه بالكذب كالشيخ أبي البركات ابن البليقي ⁽³⁾

(771هـ)، فشك أنه دخل القسطنطينية، ورأى كنيستها التي بالغ في وصفها، وأنها على قدر مدينة

(1) مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون، 1/227-228.

(2) المصدر نفسه، 1/228.

(3) محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البليقي السلمي أبو البركات، شهر بابن الحاج المري من ذرية العباس بن مرداس الصحابي. شيخ الحديث والفقه والأدباء والصوفية والخطباء، وسيد أهل العلم بالإطلاق المتفنن الحائز قصب السباق من بيت علم وجمالة وصلاح وعدالة.

رحل في طلب العلم قديماً وحديثاً وحصل من المعقول والمنقول بغية أربه، طلع بالأندلس شمساً منيرة، ونزع باجتهاده في المعارف والروايات إلى مناحيه الشهيرة. ترجمته في:

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ل محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ، 1/250.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكي (ت 963هـ)، إشراف: عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 428.

- نفح الطيب للمقري، 5/471.

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، 2/143.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 7/39.

مسقفة (فيها اثني عشر ألف سقف)⁽¹⁾، أمّا ابن حجر العسقلاني⁽²⁾ (773هـ - 852هـ) الذي نقل رأي أبي البركات في ابن بطّوطة، فيقول في آخر الترجمة له: « ولا أعلم أحدا جال البلاد كرحلته وكان مع ذلك جوادا محسنا »⁽³⁾.

وفي الأخير يبقى ابن بطّوطة شيخ الرّحّالين بلا منازع، ورائد أدب الرّحلة بلا جدال. خرج في مغامراته إلى أراض بعيدة مجهولة، واستكشف أرجاء كثيرة من العالم ليسرد قصة رائعة نقل من خلالها ثقافات شعوب عديدة في عالم عصره من الأندلس غرباً إلى اندونيسيا شرقاً.

5- ابن جُزَيّ الكلبي (721هـ - 757هـ):

محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَيّ الكلبي، من أهل غرناطة وأعيانها، يكنى أبا عبد الله⁽⁴⁾. ولد في شوال عام واحد وعشرين وسبعمائة للهجرة، كان أبوه من أعلام الأندلس.

وابن جُزَيّ هذا فقيه وشاعر وكاتب من الأعلام المشهورين، كان كاتباً للسُّلطان أبي الحجاج يوسف

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، شرحه وضبطه وقدم له: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، 206/3.

(2) أحمد بن علي بن محمد الكناي العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر. من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (فلسطين)، ومولده ووفاته بالقاهرة. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث. رحل إلى اليمن والحجاز، وغيرهما لسماع الشيوخ، كان فصيح اللسان، راوية للشعر، عارفاً بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين. ولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل. أمّا مصنفاته فكثيرة جليلة. ترجمته في:

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 178/1.

- موسوعة أعلام المغرب، تح محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996، 757/2.

(3) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني، 481/3.

(4) ترجمته في : - الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، 256/2 .

- الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، 165/4 .

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 37/7 .

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 468/6.

بن الأحمر النصري⁽¹⁾ من ملوك بني الأحمر⁽²⁾ في غرناطة، ثم ضربه بالسياط من غير ذنب اقترفه. انتقل إلى فاس بالمغرب وتوفي بها.

قال ابن الأحمر في وصفه: « له باع في التاريخ، واللغة، والحساب، والنحو، والبيان والآداب، بصير بالفروع والأصول، والحديث، عارف بالماضي من الشعر والحديث، إن نظم أنساك أبا ذؤيب برقته ونُصيباً بمنصبه ونُفوتَه وإن كتب أربى على ابن مُثَلِّته بخطه، وإن أنشأ رسالة أنساك الساء بحس مساقها وضبطه، وهو ربّ هذا الشأن وفارس هذا الميدان ومع تفننه في الشعر فهو في العلوم قد نبغ، وما بلغ أحد من شعراء عصره ما بلغ »⁽³⁾.

وبعد أن قوض الرّحال عن الأندلس، أصبح كاتباً مقرباً لدى سلطان المغرب أبي عنان المريني. ولما أُعجب هذا السُّلطان برحلة ابن بطّوطة لِمَا احتوته من عجائب المشاهدات، وغرائب الأخبار عهد لابن جُزَيّ بصياغتها. يرجع اختيار السُّلطان المريني لابن جزى الكلبي في صياغة الرّحلة لسببين - كما قال أحد الباحثين - أمّا أولهما فسياسي، وأمّا الثاني فأدبي.

والسياسي يرتبط بالغاية التي قصدها أبو عنان من إذاعة الرّحلة ونشرها: « كان يريد أن يستغلها للدعاية له ولأعماله، وأن يجعلها وسيلة للمس بأعدائه والكشف عن مساوئهم، بحيث لا يقتصر ابن بطّوطة عن نشر الأخبار مجردة بل يضيف إليها في كل مناسبة ما يرفع به من شأن بني مرين على العموم »⁽⁴⁾. ولتحقيق هذا الهدف لا بُدّ من كاتب مقرب للسُّلطان، وعلى علم ودراية بالأحداث والوقائع التي كانت تجري في المغرب في ذلك العصر، وهذا ما لا يتأتى لابن بطّوطة بسبب غيبته الطويلة وبُعد اتصاله عن مجريات بلاده. فلم يجد أبو عنان من بين كتابه خير من ابن جزى للنهوض بهذه المهمة، فعمل هذا الأخير

(1) يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، الأنصاري الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس، أبو الحجاج، تولّى الملك بعد أخيه بوادي السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة عام 733هـ، وسنّه خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر. ينظر ترجمته في:

- نفح الطيب للمقري، 80/5.

(2) أصلهم من أرْجُوثة من حصون قُرْطُبة، ولهم فيها سَلَف من أبناء الجند، ويُعرفون ببني نصر، وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج.

- نفح الطيب للمقري، 447/1.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 26/6.

(3) - نفح الطيب للمقري التلمساني، 526/5-527.

- أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري التلمساني، 190/3.

(4) " بنو مرين من خلال رحلة ابن بطّوطة " لمحمد عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق، ع7، ص5، أبريل، 1962، ص33.

على تحقيق الغاية من اختياره، فكان لا يتردد كلما سمحت له الفرصة عن ذكر محاسن ملوك بني مرين، وخاصة أبي عنان، فأظهر عنايتهم بالعلم، واهتمامهم بالجانب الفكري والثقافي والعمراني، وكل هذا له أثر عظيم في تخليد أثارهم ومنجزاتهم، والرفع من قيمتهم بين الملوك الآخرين.

أمّا الجانب الأدبي فيرجع إلى ما اشتهر عن ابن حزي في ذلك الوقت: « من الظهور في الأدب والشعر والتاريخ واللغة؛ والفقه »⁽¹⁾.

أملى ابن بطّوطة أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلي بمدينة فاس سنة 756هـ، الذي أطلق عليها اسم " **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ". وهو عمل مشترك قام به ابن بطّوطة وابن جزي، وصبغه كل منهما بطابعه الخاص، فجعل فيه ابن بطّوطة روحه التي تحبّ العجائب والغرائب، وجعل فيه ابن جزي أسلوبه الذي لا يخلو من صنعة وتكلف وتنميق، حيث رتب فصولها، وأضاف إليها بعض الأشعار، واستعان في كتابتها ببعض كتب الرحلات مثل رحلة ابن جبير. انتهى من تقييدها في الثالث من ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبع مائة، حيث استغرقت كتابتها ثلاثة أشهر.

إذا كان ابن جزي: « نادرة، ونابعة، وحجة، على بقاء الفطرة الغريزية بالبلاد المغربية، بالغة قال ذلك ابن الخطيب وأقر ذلك ابن حجر. وشهد له صديقه ورفيقه ابن الأحمر »⁽²⁾.

توفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال عام سبعة وخمسين وسبع مائة بفاس، ودُفِنَ وراء الحائط الشرقي الذي بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء⁽³⁾ عن سن ناهز ستاً وثلاثين عاماً.

6- ابن قنفذ القسنطيني (740هـ - 810هـ) :

هو العلامة المتفنّن الرحالة القاضي أبو العباس أحمد بن حسن (حسين) بن عليّ بن ميمون ابن قنفذ،

(1) تاريخ الفكر الأندلسي لأنجل جنال بالنتيا، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د، ت)، ص319.

(2) ابن حزي ومنهجه في التفسير لعلي محمد الزبيري، دار العلم، دمشق، ط1، 1987، 165/1 .

(3) لما فتح جبل تينملل ومُحِيت منه بقية آل عبد المؤمن، وتمهد مُلك المغرب للسلطان يعقوب، واستفحل أمره وكثرت حاشيته رأى أن يخطط بلدا ينسب إليه، ويتميز بسكناه، ويتزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه، فأمر ببناء المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس على ضفة واديهما المخترق لها من جهة أعلاه، وشرع في تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة، وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها، وأسست جدرانها وجميع الأيدي عليها، وحشر الصنائع والعملة لبنائها، وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختراروا لها من الطوالع ما يرضون أثره، ويحمدون سيره وأسست فيه. ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية) لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954،

الشهير بابن الخطيب، وبابن قنفذ⁽¹⁾.

ولد سنة 740هـ في مدينة قسنطينة⁽²⁾ من بلاد الجزائر، نشأ في بيت علم وفضل ووجاهة، كان والده حسن بن عليّ عالماً جماعاً للكتب. توفي وترك ابنه صغيراً لم يتعد العشر سنوات من العمر، فتولّى كفالته جدّه لأُمّه يوسف بن يعقوب الملاوي (764هـ) الذي كان من مشاهير الصوفية في مدينة

قسنطينة.

بدأ دراسته الأولية على يد أبيه وجدّه لأُمّه الذي حفظ على يديه القرآن الكريم، كما لقنه علوم العربية من نحو وصرف وأدب وحديث، أخذ أيضاً على بعض الشيوخ منهم: الحسن بن خلف الله بن باديس القسنطينيّ (784هـ)، والحسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطينيّ (787هـ) وغيرهما، ولما استكمل أخذه عنهم ارتحل إلى تلمسان عاصمة بني زيّان، حاضرة العلم والثقافة ومدينة العلماء آنذاك، والتقى بعلمائها، وأخذ عن شيوخها التفسير والحديث الشريف والفقه والأدب والنحو، وفي هذه المدينة وقف عند زاوية شيخها أبي مدين شُعيب بالعبّاد وتبرّك بضريحه.

وبعد ذلك انتقل إلى المغرب الأقصى، فاستقر بفاس عاصمة بني مرين، وأقام بها مدّة طويلة تقرب ثنائي عشرة سنة (759هـ - 777هـ) طاف خلالها ربوع المغرب الأقصى، فدخل أسفى⁽³⁾ وسلا⁽⁴⁾،

(1) ترجمته في : - تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص 27.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكي، ص 109.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، 250/1.

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد ابن القاضي المكناسي، 510-508/2.

- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق: محمد حجيّ، 9/1.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 117/1.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 610/6.

(2) قسنطينة من مشاهير بلاد إفريقية، بين تيجس وميلة، وهي مدينة كبيرة أهلة فيها آثار، كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة، ينظر: الروض المعطار في أخبار الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري، ص 480.

(3) أسفى: بلدة على شاطئ المحيط بأقصى المغرب. معجم البلدان لياقوت الحموي، 180/1.

(4) ببلاد المغرب، بينها وبين مراكش على ساحل البحر تسع مراحل، وهي مدينة قديمة أزلية، فيها آثار للأول معروفة بضفة الوادي، متصلة بالعمارة التي أحدثها هناك أحد ملوك بني عبد المؤمن. وكان قد اتخذ أرباب البلد مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسلاّ الحديثة، وهي على ضفة البحر، وسلاّ القديمة خراب الآن. وأمّا سلاّ الحديثة فهي منيعة من جهة البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته، وهي حسنة من أرض رمل. ينظر: الروض المعطار في أخبار الأقطار لعبد المنعم الحميري، ص 319.

ودكالة⁽¹⁾، ومراكش⁽²⁾، وأزمور⁽³⁾، وغيرها من النواحي والمدن، فالتقى بعلماء ذلك العهد، وبأقطاب التصوف أمثال أحمد بن عاشر، والأديب الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، وشيوخه، فأخذ عنهم التفسير والحديث والفقه والسيرة والتراجم والأدب.

وما ميّز هذه الفترة اهتمامه بأسرار التصوف والبحث عن خصائصه، وزيارة أضرحة المشاهير من

أعلامه. وفي دكالة تولّى منصب القضاء سنة (769هـ).

قرر ابن قنفذ بعد هذه الرحلة الطويلة في المغرب الرجوع إلى بلدته قسنطينة، لكنّه لم يلبث إلا أياماً قليلة ليسافر بعدها إلى تونس، ليأخذ عن علمائها وفقهائها، إلا أنّه لم يبق بها طويلاً؛ فقد عاد إلى قسنطينة، واستقر بها حتى وفاته (810هـ)، وتولّى بها الإمامة والخطابة في مسجد الجامع، كما عمل على إلقاء دروس في التفسير والحديث في مسجد المدينة وفي بيته، فانتفع بعلمه كثير من طلاب العلم، ثمّ تولّى بعد ذلك منصب القضاء.

ترك هذا العلامة الكبير مجموعة من الكتب القيّمة تزيد عن ثلاثين مصنفاً في علوم شتى؛ منها: "شرح الطالب في أسنى المطالب"، و"تيسير المطالب في تعديل الكواكب"، و"شرح منظومة ابن أبي الرجال"، و"بغية الفارض في الحساب والفرائض"، و"سراج الثقات في علم الأوقات"، و"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، و"الوفيات"، و"أنس الحبيب عن عز الطبيب"، و"القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية"، و"تحفة الوارد في اختصار الشرف من قبل الوالد"، و"أنس الفقير وعزّ الحقيّر" التي هي موضوع البحث؛ وهي رحلة تُقَصَّى فيها تنقلاته بالمغرب الأقصى، ومن لقيهم من أهل العلم والصلاح.

(1) بلد بالمغرب يسكنه البربر، ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 459/2.

(2) تقع شمال أغمات، بناها يوسف بن تاشفين أمير المسلمين في صدر سنة 470هـ، وقيل سنة 459هـ، بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة من أموال واختطها له ولبنى عمّه، وهي في وطاء من الأرض، وليس حولها من الجبال إلاّ جبل صغير يسمى إيجليز. ينظر: الروض المعطار في أخبار الأقطار لعبد المنعم الحميري، ص540.

(3) مدينة واقعة على الضفة الجنوبية لنهر أم الربيع، تبعد 80 كلم عن الدار البيضاء من جهة الجنوب، و17 كلم عن الجديدة من جهة الشمال. وهي إحدى المدن المغربية العتيقة، ولكن تاريخها قبل الإسلام لا يعرف بوضوح، ذكر أبو القاسم الزياني أن أمراء صنهاجة أسسوها لما استقر البربر بالمغرب. كان لها بعد الفتح الإسلامي شأن في العلم والدين والسياسة والعمران. ينظر: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي، ص32.

الباب الأول:

مظاهر التزوع التبني في الرحطين

الفصل الأول :

- ١ / المساجد والجوامع .
- ٢ / الرُّبَط والزوايا .
- ٣ / المشاهد والمزارات .
- ٤ / موضوعات أخرى .

التزوع الديني :

هو الإقبال على المظاهر الدينية وممارستها، والميل إلى كل ما يقرب الإنسان من خالقه، وقد حفلت رحلتا ابن بطّوطة وزميله ابن قنفذ بالتزوع الديني والروحانيات، فكانتا مثالا يُحتذى به في ذلك، وهذا ما ظهر في كل صفحة من صفحتاهما الغنية بالألفاظ الدينية، والعبارات الإسلامية. وسيكشف البحث فيم مثل التزوع الديني في الرحلتين وأهم مظاهره، مع العلم أنّ هذا الفصل خصّص لرحلة ابن بطّوطة فقط، وذلك لعدم اشتراكه مع ابن قنفذ في ذكر هذه المشاهد الدينية، وهي المساجد، والأربطة والزوايا، والمزارات، وموضوعات أخرى، حيث تطرق ابن بطّوطة لذكرها بالتفصيل، في حين لا يولي ابن قنفذ عنايته بها لأنّ رحلته خاضت في التصوف، والترجمة لأقطابه، وذكر مناقبهم وكراماتهم.

في اللغة والاصطلاح:

قبلولوج إلى الموضوع وجب تعريف التزوع لغة، وقد تصفّحنا بعض المعجمات فوجدنا الآتي: نَزَعَ عَنِ الْأَمْرِ نُزُوعًا: انتهى عنه. وَنَزَعَ إِلَى أَبِيهِ فِي الشَّبهِ يَنْزِعُ، أي ذهب⁽¹⁾. وَنَازَعْتَنِي نَفْسِي إِلَى هَوَاهَا نِزَاعًا: غَالَبْتَنِي، وَنَزَعْتُهَا أَنَا: غَلَبْتُهَا. ويقال للإنسان إذا هَوِيَ شَيْئًا وَنَازَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَيْهِ: هُوَ يَنْزِعُ إِلَيْهِ نِزَاعًا وَمِنْهُ نَزَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى أَهْلِهِ يَنْزِعُ نِزَاعًا وَنُزُوعًا: حَنَّ وَاشْتَقَّ⁽²⁾. وهكذا فإنّ كلمة التزوع في اللغة تعني الميل والرغبة.

أمّا اصطلاحاً: فالتزوع هو: «رغبة أو ميل نحو عمل إرادي»⁽³⁾، وهو «عند سبينوزا: الرغبة الواعية التي تسوق الإنسان إلى العمل»⁽⁴⁾.

ومن هنا فالتزوع هو الرغبة أو الميل الذي يسوق الإنسان إلى فعل شيء ما، والانجذاب إليه. بمعنى أنّه يوجد دافع خفي في وجدان الإنسان يدفعه إلى سلوك طريق معين، والاستجابة إلى الرغبة الملحة التي تفرض عليه عملاً معيناً.

(1) الصّحاح: تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حمّاد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979، 1289/4.

(2) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، (د، ت)، 349/8 - 350.

(3) الزعة الزهدية في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثالث هجري (رسالة ماجستير) لليلي فحوج، جامعة العقيد الحاج الأخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، ص6.

(4) المرجع نفسه، ص6.

أَمَّا لَفْظُ الدِّينِ فِي اللُّغَةِ فَمِنْ: دَانَ دَانَهُ، دَيْنًا بِمَعْنَى خَضَعَ وَذَلَّ وَانْقَادَ، وَالدِّينُ: الطَّاعَةُ، وَقَدْ دِنْتُهُ وَدِنْتُ لَهُ أَيِ اطَّاعْتُهُ، وَالدِّينُ لِلَّهِ إِتْمَا هُوَ طَاعَتُهُ وَالتَّعَبُّدُ لَهُ⁽¹⁾.

فكلمة الدين تعني طاعة الإنسان، والتزامه بما يعتنقه من مبادئ وأحكام. والدين: الإسلام⁽²⁾، وهو الدين السماوي الخاتم الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لهداية الناس، وتوحيد الله سبحانه وتعالى، وتنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه، وإقامة حدوده من خلال التمسك بالعقيدة الإسلامية، والامتثال لمكارم الأخلاق، والإخلاص في العبادات.

جاء الإسلام لِيُبدِلَ الظلام نورا، والجهل علما، والشرك توحيدا، فانطوى على تعاليم عظيمة من أهمها أركان الإسلام الخمسة التي بُني عليها، أولها الشهادتان؛ فداخل الإسلام يجب عليه النطق بكلمة لحي يعلن إسلامه، وثانيها الصلاة وهي عبادة بدنية، حيث فرض الله علينا خمس صلوات في اليوم، ولها فوائد كثيرة منها صلة الإنسان بربه، وتهذيب النفس ووقايتها من كل شر يحيط بها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁽³⁾، وثالث ركن الزكاة، وهي عبادة مالية يمدُّ فيها الغني يدَ العون والمساعدة لأخيه الفقير، وصوم رمضان وهو الركن الرابع له فوائد جمّة، لسنا بصدد ذكرها، ولعل أهمها اقتراب الإنسان أكثر في هذا الشهر من خالقه، والوصول إلى درجة التقوى، ثم يأتي الركن الخامس والأخير، وهو حج بيت الله الحرام بشرط الاستطاعة والقدرة، وهو أعظم ركن يؤدّ كل إنسان القيام به، والوقوف على أهميته العظيمة.

فتح الإسلام بمبادئه وقيمه صفحة جديدة في حياة الإنسانية أحال ظلامها نورا، وظلمها عدلا، وفرقتها وحدة، وعبوديتها حرية، وخوفها أمنا، وحرّبا سلما، نادى في الناس أن ليس أفضل الخلق أغناهم، وإتّما أفضلهم عند الله أتقاهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾⁽⁴⁾.

يتضح ممّا تقدم أنّ المقصود بالتزوّج الديني هو الإقبال على المظاهر الدينية، والرغبة في أداء أحكام الشريعة الإسلامية، والسنة النبوية الشريفة، وممارسة طقوسهما.

(1) لسان العرب لابن منظور، 169/13، 170.

(2) المصدر نفسه، 170/13.

(3) الآية 45 من سورة العنكبوت.

(4) الآية 13 من سورة الحجرات.

وهذا ما لوحظ في رحلتي ابن بطّوطة وابن قنفذ اللتين اتسمتا بترعة دينية قوية، فكان كلا الرجلين مثلاً للرجل المسلم المتدين التقيّ الصالح، كل من وجهة نظر خاصة به.

فالوازع الديني هو المحرك الأول لرحلتيهما رغم ما فيهما من متاعب ومشاق؛ فقد كان دافع ابن بطّوطة إلى خروجه من وطنه طنجة الرغبة في أداء فريضة الحجّ، وكذلك زميله ابن قنفذ الذي قرر الخروج من فسنطينة، والانسياح في ربوع المغرب العربي بحثاً عن مصادر التصوف ورجالاته.

كانت الروح الدينية متأصلة في نفسيهما ومتغلغلة إلى حدّ السيطرة على عقائهما وسلوكهما الفردي، فجاءت رحلتاهما سجلاً لألفاظ وعبارات إسلامية، وآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، واهتما اهتماماً شديداً بقاء الأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد، وأصحاب الكرامات؛ فكثيراً ما تخلف ابن بطّوطة عن الركب لزيارة وليّ من أولياء الله تعالى ليسأله الدعاء والبركة: «كان في سلوكه مثالا للأخلاق الفاضلة وللعفة والرزانة وحسن المعاملة، فكان كلما نزل بالمدينة قصد مسجدها ليصلي فيه ويذكر كتاب الله، وقصد أولياءها وصلحاءها وزهادها»⁽¹⁾، كان على طول رحلته رجلاً متديناً معلماً لأصول الدين الإسلامي فقيهاً؛ وما يدل على هذا تولّيه القضاء في أكثر من منطقة (الهند، جزر مالديف)، كما كان شديد الحرص على التمسك بتعاليم الدين الإسلامي، فلا يكاد يسمع برجل صالح إلاّ وسارع للقائه والتبرّك بدعائه، ورحلته تؤكد التقائه بالجمّ الغفير من العلماء والشيوخ والزهاد والصلحاء؛ شديد الرغبة في الاتصال بهم، باحثاً عنهم مقتفياً آثارهم، فكلما نزل بمدينة سأل عن صلحاءها وأوليائها ليأخذ عنهم: «كانت فيه نزعة دينية قوية، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام وزوايا المتصوفة»⁽²⁾.

وكذلك تحلى ابن قنفذ بهذه الصفات الحميدة، وتحملت نفسه بمكارم الأخلاق، والنزعة الدينية القوية، حيث قضى ثماني عشرة سنة جوّاباً في الآفاق سعياً وراء شيوخ التصوف وأقطابه، وبخاصة أبي مدين شعيب الذي كان محور مدار رحلته الطويلة، فترجم فيها للشيخ أبي مدين وشيوخه وتلامذته، تلك الرحلة التي صور فيها حياة الصوفية والمريدين في الرُّبُط والزوايا، والأجواء الدينية التي سادت تلك المنطقة في القرن الثامن للهجرة، وهذا ما سيوضحه الفصل الثاني لأنّ ابن بطّوطة وابن قنفذ أفاضوا في الحديث عنها. أمّا هذا الفصل فسيركز على ذكر أهم المظاهر الدينية الحاضرة بقوة في رحلة التُّحفة، وهي:

(1) مظاهر الثقافة المغربية لمحمد بن شقرون، ص 177.

(2) الرحلات لشوقي ضيف، ص 98.

١/ المساجد والجوامع:

أولى ابن بطوطة عناية فائقة لذكر المساجد والجوامع أينما حلّ وارتحل؛ فلا يكاد يتزل مدينة حتى يشرع في البحث عن مسجدها، ويذهب إلى الصلاة فيه.

والمَسْجِدُ في اللغة: هو كُلُّ موضع يُتَعَبَّدُ فيه⁽¹⁾، وفي الاصطلاح: هو دار عبادة المسلمين، تقام فيه

الصلوات الخمس المفروضة وغيرها.

وقد ورد لفظ المسجد في القرآن الكريم عدّة مرات؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾⁽²⁾، كما روى أهل الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أحاديث كثيرة في المساجد وفضلها وأحكامها، وقد أورد حسين مؤنس⁽³⁾ بعضاً منها نقلاً عن الزركشي في كتابه "إعلام الساجد بأحكام المساجد"، منها «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً» وقوله صلى الله عليه وسلّم «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا»، «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسُ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ».

ويطلق على المسجد أيضاً اسم جامع إذا كان كبيراً، لأنّه يجمع النّاس لأداء صلاة الجمعة: «ظهرت لفظة الجامع، وصفاً تارة حيث يقال: المسجد الجامع، ومضافاً تارة أخرى فيقال: مسجد الجامع. ثم صاروا يطلقون الجامع على المسجد الكبير الذي فيه منبر وتصلّى الجمع وصلاة العيدين فيه مع الصلوات الخمس»⁽⁴⁾. يتضح من هذا النص أنّ الجامع هو وصف للمسجد الكبير الذي تُؤدّى فيه الجماعة صلاة الجمعة.

يحتل المسجد مكانة سامية في الشريعة الإسلامية، وفي وجدان المسلم لأنّه مركز ترابط الأمة ووحدتها، ومنبع إيمانها وقوّتها، ورمز صمودها، وقد أوجب الله تعالى على المسلمين أداء صلواتهم الخمس فيه، فضاعف الأجر لمن يصلي في المسجد خمساً وعشرين مرة، ولاشك في أنّ وراء ذلك أهمية بالغة، ففي المسجد يتلاقى المسلمون، ويتبادلون الآراء، ويناقشون بعض الأفكار والقضايا الدّينية فتزداد صلة

(1) لسان العرب لابن منظور، 204/3.

(2) الآية 18 من سورة التوبة.

(3) المساجد لحسين مؤنس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص21.

(4) المسجد جامع وجامعة لمحمد بن أحمد بن صالح الصّالح، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2000، ص18.

الترابط بينهم، وبذلك يتقربون من المولى عزّ وجلّ، فضلاً عن أنّ المسجد هو المكان الذي يُذكر فيه ربُّ العزّة والجلال وحده لا شريك له.

احتلّت المساجد والجوامع حيزاً لا بأس به في رحلة ابن بطّوطة، فكان ذكره لها أوّل نزوع ديني تجلّى فيها، كما يُعتَبَر، أيضاً، أوّل دليل على أنّه رجل ورع عابد، شديد الحرص على التمسُّك بتعاليم الدين الإسلامي. فجاء اهتمامه منصباً على بعض المساجد دون غيرها، بحيث وصفها وصفاً دقيقاً متناهيًا لمكانتها في نفسه وقداستها، لأنّها ارتبطت بالتاريخ الإسلامي الجيد؛ وهذه المساجد هي: المسجد الحرام في مكة، والمسجد النبوي في المدينة، ومسجد بيت المقدس في فلسطين .

أمّا المساجد الأخرى فلم يقف عندها طويلاً، فمنها من أشار إليها فقط، ومنها من ذكرها وحدد موقعها، ومنها من وقف عندها قليلاً بالوصف وتبيان موقعها ومكانتها من التاريخ الإسلامي. وسيبدأ الحديث بذكر المساجد المشهورة في التاريخ الإسلامي التي وقف عندها الرّحالة مطولاً كالـمسجد الحرام، والمسجد النبوي، ومسجد بيت المقدس أولاً، فهذه المساجد لها أهميّة كبرى في نفوس المسلمين، وإليها تُشدُّ الرّحال من كل الأصقاع لأنّها مساجد مباركة يحلم كل إنسان بزيارتها والصّلاة فيها، والتّمتع بمشاهدتها.

1- المسجد الحرام:

عندما وصل ابن بطّوطة إلى مكة المكرمة بعد رحلة توصف بأنّها ممتعة، والتي سلك فيها الطريق الذي سلكه الرّسول صلى الله عليه وسلّم الذي اقتدى به، فأحرم قبل بدئه الرّحلة بقرب مسجد ذي الحليفة.

وقف الرّحالة أمام المسجد الحرام شرفه الله منبهاً به، فأخذ في وصفه بما يتناسب ومكانته ومزلته في عالم الإسلام، وفي نفسه. والمسجد الحرام هو أعظم مسجد في الإسلام، يقع في قلب مدينة مكّة شرفها الله، وهو قبلة المسلمين في صلاتهم لقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾⁽¹⁾ سُمّي بالمسجد الحرام لحُرمة القتال فيه، ويتوسط هذا المسجد الكعبة الشريفة التي هي أوّل بيت للناس وُضِعَ لهم ليعبدوا فيها الله لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾، والمسجد الحرام: « في وسط البلد الأمين

(1) الآية 144 من سورة البقرة .

(2) الآية 96 من سورة آل عمران.

وهو مَتَّسِع السَّاحَةِ... والكعبة العظمى في وسطه ومنظره بديع ومرآه جميل، لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه ⁽¹⁾، وتبلغ عدد سواري المسجد الحرام أربعمائة وإحدى وتسعون سارية.

* أبواب المسجد الحرام :

- لَمَّا كَانَ المسجد الحرام أكبر المساجد كانت له أبواب كثيرة؛ وقد أحصاها ابن بطوطة فوجدها تسع عشرة باباً وأكثرها يفتح على أبواب كثيرة ⁽²⁾؛ وهي:
- باب الصِّفا: وهو أكبر الأبواب، ومنه يخرج إلى المسعى.
 - باب الأجياد الأصغر: مفتوح على بايين.
 - باب الخياطين: مفتوح على بايين.
 - باب العباس رضي الله عنه: مفتوح على ثلاثة أبواب.
 - باب النبي صلى الله عليه وسلم: مفتوح على بايين.
 - باب بني شيبه: يقع في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال، وهو مفتوح على ثلاثة أبواب.
 - باب بني عبد شمس: ومنه كان دخول الخلفاء.
 - باب الرِّباط: سُمِّيَ بذلك لأنَّه يدخل منه لرباط السِّدرة.
 - باب الندوة.
 - باب صغير لدار العجالة.
 - باب السِّدرة.
 - باب العمرة: وهو من أجمل أبواب الحرم.
 - باب إبراهيم الخليل عليه السلام، " والصَّحيح أنَّه منسوب إلى إبراهيم الخُوزي من الأعاجم " ⁽³⁾، هذا الباب سُمِّيَ باسم رجل خياط كان اسمه إبراهيم.
 - باب الحزوة: مفتوح على بايين.
 - باب الأجياد الأكبر: مفتوح على بايين.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة: " تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة، تح: عبد الهادي التازي، 370/1.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 376-377/1.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 377/1.

- باب يُنسب إلى الأجياد أيضاً: مفتوح على بايين.
- باب يُنسب للأجياد ومُتَّصل بباب الصفا: مفتوح على بايين.
- باب ينسب إلى الدَّقَّاقين.

* صوامع المسجد الحرام :

الصومعة أو المئذنة هي الموضع المرتفع المخصَّص للأذان، ويذكر ابن بطَّوطة أنَّ للحرم خمس صوامع⁽¹⁾؛ وهي:

- واحدة على ركن أبي قُبَيْس عند باب الصفا.
- والأخرى على ركن باب بني شيبَة.
- والأخرى على باب دار الندوة.
- والأخرى على ركن باب السدَّة.
- والأخرى على ركن الأجياد.

2- المسجد النبوي :

المسجد النبوي هو مسجد محمَّد سيِّد المرسلين وخاتم النبيِّين، وفيه قبره. يعدُّ المسجد النبوي ثاني مسجد في الإسلام بعد المسجد الحرام، يقصده النَّاس من كلِّ فجٍّ عميق للتعبُّد فقط. يقع هذا المسجد في المدينة المنورة.

وقف ابن بطَّوطة عند هذا المسجد ووصفه وصفاً دقيقاً؛ حيث قال : « إنه مسجد مستطيل الشكل يحيط به من جهاته الأربعة بلاطات، ويوجد في وسطه صحن مفروش بالحصى والرَّمْل »⁽²⁾. وفي وسط هذا المسجد توجد الروضة المقدَّسة حيث قبر الرِّسول الكريم، وقبري أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقال إن رأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي الرِّسول صلى الله عليه وسلَّم، ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما .

ثمَّ استطرد الرَّحالة إلى ذكر تاريخ بناء الرِّسول صلى الله عليه وسلَّم لهذا المسجد: « فبني رسول الله صلى الله عليه وسلَّم تسليماً المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا

⁽¹⁾ رحلة ابن بطَّوطة، 1/378.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 1/349.

أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك»⁽¹⁾. عندما وصل النبيّ إلى المدينة المنورة من العام الأول من هجرته بركت الناقة في أرض تقع في وسط المدينة، فاشتراها النبيّ صلى الله عليه وسلّم من أهلها واختارها لتكون مسجداً للمسلمين يؤدون فيه صلواتهم وعبادتهم، وشرع مع أصحابه في بنائه. ثمّ تحدث بعد ذلك عن عمل الصحابة رضوان الله عليهم في توسيع المسجد الشّريف لأنّ أعداد المسلمين في المدينة تزداد يوما بعد يوما نتيجة الهجرة إليها، فقام الخليفة عمر بن الخطاب بتوسعة المسجد النبوي: «فأنزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللّبن وجعل الأساس حجارة إلى القامة وجعل الأبواب ستة»⁽²⁾. لم تعد الزيادة التي بناها عمر بن الخطاب تسع المصلين والزوّار، فعمل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بتوسعته: «ووسعه من جهاته إلّا جهة الشرق منها، وجعل له سوارى حجارة مئبّنة بأعمدة حديد والرصاص وسقفه بالسّاج»⁽³⁾. بقي المسجد على حاله كما بناه عثمان بن عفان حتى جاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي رغب في توسعة المسجد الكريم، فأمر واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز ببناء المسجد وتوسعته: «فوسعه وحسنه وبالغ في إتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب»⁽⁴⁾.

أورد ابن بطّوطة من خلال هذه النصوص كل تفاصيل توسعة المسجد النبوي الشّريف من طرف الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ثمّ تحدث بعد ذلك عن تحويل القبلة، وقال بأنّها قبلة قطع، واتجاهها نحو الكعبة الشّريفة: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة»⁽⁵⁾. وذهب إلى أن جبريل عليه السلام هو الذي حدّد موضعها: «وروى أنّ جبريل عليه السلام أشار إلى الجبال فتواضعت فتنحّت حتى بدت الكعبة»⁽⁶⁾.

تحدث الرّحالة أيضا عن المنبر الكريم الذي كان الرّسول صلى الله عليه وسلّم يخطب فيه، وأشار إلى اختلاف الروايات فيمن صنعه، ثمّ ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

(1) رحلة ابن بطّوطة، 352/1.

(2) المصدر نفسه، 352/1.

(3) المصدر نفسه، 353/1.

(4) المصدر نفسه، 353/1.

(5) مساجد في السيرة النبوية لسعاد ماهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص71.

(6) رحلة ابن بطّوطة، 355/1.

« وكان الإمام بالمسجد الشريف في عهد دخولي إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة »⁽¹⁾. كما لم ينس ذكر خُدام المسجد الشَّريف، والمؤذنين به.

3- المسجد الأقصى :

المسجد الأقصى هو واحد من أكثر المعالم قدسية عند المسلمين، يقع هذا المسجد في مدينة القدس في فلسطين. عندما وصل ابن بطّوطة إلى القدس ذكر مسجدها الذي على تربة سيدنا نوح عليه السلام، وبعدها وصل إلى بيت المقدس شرفه الله، وفيه يقول: « ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ومعرجه إلى السماء »⁽²⁾. فبيت المقدس هو ثالث الحرمين الشريفين، وأولى القبلتين في الإسلام قبل أن يُغيّر الاتجاه إلى الكعبة الشريفة لقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾⁽³⁾ يقصدون بذلك بيت المقدس، ويكفي شرفاً لبيت القدس أن إليه أسري محمد صلى الله عليه وسلم، ومنه كان معراجُه إلى السماء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾⁽⁴⁾، وهناك صَلَّى الرَّسُولُ الْكَرِيمُ إماماً بالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فهذا المكان مقدس لِمَا فِيهِ من مشاهد وأحداث مباركة ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾⁽⁵⁾، كيف لا وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين.

أطنب ابن بطّوطة في وصف هذا المسجد المقدس: « وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفاتقة الحسن، يقال أنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، ولا أطول من شرق إلى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمسة وثلاثون ذراعاً، وله أبواب كثيرة من جهاته الثلاث، وأما الجهة القبليّة منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً وهو الذي يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء غير مسقف إلا المسجد الأقصى فهو مسقف في النهاية من إحكام العمل

(1) رحلة ابن بطّوطة، 1/356.

(2) المصدر نفسه، 1/244.

(3) الآية 142 من سورة البقرة.

(4) الآية 1 من سورة الإسراء.

(5) الآية 1 من سورة الإسراء.

وإتقان الصنعة»⁽¹⁾. أشار الرحالة أيضا إلى قبة الصخرة، فقال إنها قائمة على نشز⁽²⁾ في وسط المسجد، ولها أربع أبواب والدائر بها مفروش بالرخام، ونفس الشيء في داخلها وفي ظاهرها: «فهي تتلأأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها»⁽³⁾.

4- مساجد مكة المكرمة :

ذكر ابن بطوطة عدداً من المساجد، وحدد مواضعها بالنسبة إلى مكة المكرمة، ولكنه اكتفى بالإشارة إليها، ولم يقدم معلومات مفصلة كما فعل حين وصف المسجد الحرام. ذكر هذه المساجد لما لها من ارتباط بحوادث تاريخية في العهد الإسلامي، ثم إن الرحالة رجل متدين لا يمر بمدينة إلا وقضى صلاته في مسجدها.

- مسجد بايعت فيه الجنّ الرسول صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁾: يقع هذا المسجد عن يمين مستقبل الجبانة المباركة في مكة المكرمة، ويبدو أن هذا المسجد كان مُحَرَّباً.
- مسجد على نحو ميل من مكة شرفها الله⁽⁵⁾: يوجد هذا المسجد على طريق التنعيم⁽⁶⁾، وبإزائه حجر موضوع على طريق يشبه المسطبة، يعلوه حجر آخر فيه نقش درس رسمه، ويقال إن هذا الموضع قعد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مستريحاً عند مجيئه من عمرته.

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/246.

(2) التَّشْرُ والتَّشْرُ: المَنُْ المرتفع من الأرض وهو أيضاً ما ارتفع عن الوادي إلى الأرض، وليس بالغليظ. ينظر: لسان العرب لابن منظور، 5/417.

(3) رحلة ابن بطوطة، 1/247.

(4) المصدر نفسه، 1/382.

(5) المصدر نفسه، 1/383.

(6) موضع بين مر وسرف، بينه وبين مكة فرسخان، وإنما سمي التنعيم لأنّ الجبل الذي عن يمينه يُقال له نعيم، والذي عن يساره يُقال له ناعم، والوادي نعمان. ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة. وهو الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أن يعمر منه عائشة رضي الله عنها، فقال: "يا عبد الرحمن أردف أختك عائشة فأعمرها من التنعيم، فإذا هبطت بها من الأكمة فلتحرم فإنها عمرة متقبلة". ينظر: الروض المعطار في أخبار الأقطار لعبد المنعم الحميري، ص 138-139.

- مسجد في جبل أبي قُبَيْس⁽¹⁾ : يقع في الجنوب الشرقي من مكة حرسها الله .
- مسجد في جبل الرحمة⁽²⁾ : لم يصف ابن بطّوطة هذا المسجد، وإنّما أشار إلى تراحم النَّاس للصلاة فيه.
- مساجد بُنيت على التنعيم⁽³⁾ : بُنيت على التنعيم ثلاثة مساجد نسبت إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

- مسجد الخيف⁽⁴⁾ : أشار ابن بطّوطة إلى هذا المسجد، ولكنّه لم يذكر شيئاً عنه.
- مسجد المزدلفة⁽⁵⁾ : لم يقدم الرّحالة وصفا لهذا المسجد، وإنّما أشار إلى صلاته به المغرب والعشاء جمعا، حسبما جرت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

5- مساجد المدينة المنورة :

- مسجد قُبَاء⁽⁶⁾ : هو قبلى المدينة. أُسِّسَ هذا المسجد على التّقوى والرضوان، ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾⁽⁷⁾، وهو مسجد مربع الشكل له صومعة (مئذنة) طويلة بيضاء، وفي وسطه مبارك التّاقة بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم.
- مسجد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه⁽⁸⁾ : يقع هذا المسجد في طريق أُحُد، أشار إليه الرّحالة دون أن يدخل في تفاصيل وصفه.
- مسجد سلمان الفارسي⁽⁹⁾ رضي الله عنه.

(1) أبو قُبَيْس: اسم الجبل المشرف على مكة، وجهه إلى قُعَيْقَعَان ومكة بينهما، أبو قُبَيْس من شرقها، وقُعَيْقَعَان من غربها؛ قيل سُمِّيَ باسم رجل من مَذْحِج كان يُكَنَّى أبا قُبَيْس، لأنّه أول من بنى فيه قُبَّة... كان في الجاهلية يُسَمَّى الأمين، لأنّ الرُّكن كان مستودعاً فيه أيام الطوفان وهو أحد الأخشَبَيْن. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/ 80-81.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 383/1.

(3) المصدر نفسه، 383/1.

(4) المصدر نفسه، 383/1.

(5) المصدر نفسه، 409/1.

(6) المصدر نفسه، 361/1.

(7) الآية 108 من سورة التوبة.

(8) رحلة ابن بطّوطة، 362/1.

(9) سلمان الفارسي صحابي كان يسمى نفسه سلمان الإسلام. أصله من مجوس أصبهان. عاش عمراً طويلاً، واختلفوا فيما كان يسمى به في بلاده... ولما علم سلمان بخير الإسلام قصد النبيّ صلى الله عليه وسلّم بقاء وسمع كلامه ولازمه أياماً =

- مسجد الفتح⁽¹⁾: نزلت في هذا المسجد سورة الفتح على الرسول الكريم.
- مسجد يقال له مبرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم⁽²⁾: يقع هذا المسجد في موضع يقال له القليب .
- مسجد ذي الحليفة⁽³⁾: أحرم منه ابن بطوطة اقتداءً بالرسول الكريم .

6- مساجد فلسطين :

- الجامع الأبيض بفلسطين⁽⁴⁾: يقال إنَّ في قبلة هذا الجامع ثلاثمائة من الأنبياء المدفونين عليهم السلام .
- مسجد يوجد في مدينة الخليل⁽⁵⁾: يقال إنَّ سيِّدنا سليمان عليه السلام أمر الجنَّ ببنائه فبنته له .
- مساجد غزة⁽⁶⁾: يوجد بهذه المدينة عديد من المساجد، ومن بينها مسجد جامع حسن، ومسجد آخر تقام به الجمعة على عهد دخول ابن بطوطة إليها، بناه الأمير المعظم الجاوي⁽⁷⁾.
- مسجد اليقين⁽⁸⁾: يوجد بالقرب من تربة لوط عليه السلام.
- مسجد عمر⁽⁹⁾: يقع هذا المسجد في ثغر عسقلان⁽¹⁰⁾؛ في قبلة مشهد الحسين بن عليّ.

= وأظهر إسلامه، وهو الذي دلَّ المسلمين على حفر الخندق، في غزوة الأحزاب. ينظر ترجمته في: الأعلام لخير الدين الزركلي، 112/3.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 363/1.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 365/1.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 364/1.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 254/1.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 239/1.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، 239/1.

⁽⁷⁾ سنجر بن عبد الله الجاوي، أبو سعيد، علم الدين: فقيه فاضل، من أمراء الجند بالديار المصرية. ولد بآمر، ثمَّ كان من ممالك جاول أحد أمراء الظاهر بيبرس، وأخرج في أيام الأشرف خليل ابن قلاوون إلى الكرك، وعاد إلى مصر، وولى نيابة غزة ثمَّ عدة ولايات بمصر والبلاد الشامية، بنى جوامع أحدها بغزة، يعرف بالجاولية. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 141/3.

⁽⁸⁾ رحلة ابن بطوطة، 243/1.

⁽⁹⁾ المصدر نفسه، 252/1.

⁽¹⁰⁾ هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 122/4.

– مسجد مدينة نابلس⁽¹⁾: لم يذكر اسمه⁽²⁾، وإنما أشار إلى حسن بنائه وإتقانه.

يَتَضَحُّ من خلال ما سبق أن ابن بطّوطة مهتم بذكر المساجد التي بناها الأنبياء والتابعون رضوان الله عليهم؛ وقد بُنيت هذه المساجد على أماكن مقدّسة، وهي الأماكن التي حسموا فيها أمر رسالتهم. علاوة على هذا فإنه لا يفوت فرصة الزيارة، ولا يخل على نفسه بمتعة المشاهدة والتبرُّك بالصلاة في هذه الأماكن المقدّسة التي كانت في يوم من الأيام موطناً لخير المرسلين الذين اصطفاهم الله من بين كلّ الخلق. هذا بالنسبة للمساجد المباركة الموجودة بمكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، أمّا بقية المساجد فستذكر حسب أهميتها:

7- مساجد سوريا:

– جامع مدينة حمص⁽³⁾: تميز بالحسن الجامع .

– مسجد على قبر خالد بن الوليد⁽⁴⁾: يقع خارج مدينة حمص .

– مسجد سَرْمِين⁽⁵⁾: أشار ابن بطّوطة إلى عدد قباب هذا المسجد⁽⁶⁾، والتي بلغت تسع قباب .

– مسجد حلب⁽⁷⁾: وصف الرّحالة هذا المسجد بالحسن، وهو في نظره من أجمل المساجد .

– جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية:

عندما وصل ابن بطّوطة إلى دمشق ذكر أعظم مساجدها، وهو جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية، وفيه يقول: « وهو أعظم مساجد الدنيا احتفاًلًا وآة: منها مناعة وأبدعها حسناً ومهجةً وكمالاً، ولا يُعلم له نظير، ولا يوجد له شبيه »⁽⁸⁾. وقف الرّحالة عند هذا المسجد، وذكر تاريخه، ومن أمر بنائه؛ فقد كان موضع هذا المسجد كنيسة، ولمّا افتتح المسلمون دمشق حولوا هذه الكنيسة إلى

(1) مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل، أرضها حجر، بينها وبين

بيت المقدس عشرة فراسخ. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 248/5.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 256/1.

(3) المصدر نفسه، 266/1.

(4) المصدر نفسه، 266/1.

(5) بلدة مشهورة من أعمال حلب. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 215/3.

(6) رحلة ابن بطّوطة، 267/1.

(7) المصدر نفسه، 276/1.

(8) المصدر نفسه، 306/1.

مسجد؛ فوقف عند هذه القصة قليلاً، وسرد قصة استيلاء المسلمين على الكنيسة، وكيف تمّ تحويلها إلى مسجد؛ فقال: لَمَّا افتتح المسلمون دمشق أخذوا نصف الكنيسة عُنْوَةً وحولوها إلى مسجد وبقي النّصف الآخر فصالحوا عليه، وعندما عزم خالد بن الوليد على توسيع المسجد فاوض الروم على أن يبيعوه النّصف الآخر، فرفضوا ذلك، فأخذها عنوة، وكانوا يزعمون أن من يهدمها يَجُنُّ، فأخذ خالد بن الوليد الفأس وجعل يهدم وقال: «أنا أول من يجن في سبيل الله»⁽¹⁾. فلَمَّا رآه المسلمون تتابعوا على الهدم، وهكذا كذّب الله وعد المشركين.

ثمّ انتقل إلى وصف زينة هذا المسجد، والأصبغة الغريبة الحسن، دون أن ينسى ذكر طوله وعرضه، حيث يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائتا ذراع. يوجد في صحن هذا المسجد ثلاث قباب:

- إحداها في غربيّه وهي أكبرها وتُسمّى قبة عائشة أمّ المؤمنين، وهي قائمة على ثنائي سواري من الرخام.
- والقبة الثانية في شرقي الصّحن، وتُسمّى قبة زين العابدين وهي قائمة، أيضاً، على ثنائي سواري رخام.
- والقبة الثالثة في وسط الصّحن.

ثمّ انتقل إلى ذكر قراء القرآن في هذا المسجد وفضائله: «ومن فضائل هذا المسجد أنّه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلّا قليلاً من الزّمان... والناس يجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تُسمّى الكوثريّة يقرؤون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن»⁽²⁾.

وصف ابن بطّوطة هذا المسجد وصفاً بارعاً، وهذا يدل على امتلاكه ذاكرة قوية، فعلى الرّغم من طول غيبته، وتجواله في كثير من بلاد المعمورة إلّا أنّه احتفظ بما اختزنه جعبته من معلومات كثيرة ومفيدة، فوصف المسجد وكأنّه زاره منذ عهد قريب.

– مسجد يُنسب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه⁽³⁾:

يقع هذا المسجد في الباب الشرقي من مسجد دمشق، حيث مشهد رأس الحسين رضي الله عنه.

(1) رحلة ابن بطوطة، 306/1.

(2) المصدر نفسه، 310/1.

(3) المصدر نفسه، 311/1.

– مسجد الأقدام في دمشق:

وهو في قبلى دمشق على بعد ميلين منها على حافة الطريق الآخذ إلى الحجاز الشريف وبيت المقدس، وهو مسجد عظيم كثير البركة يعظمه أهل دمشق تعظيمًا شديدًا. ذكر ابن بطّوطة سبب تسميته بالأقدام؛ حيث قال: « والأقدام التي يُنسب إليها هي أقدام مُصَوَّرة في حجر هناك يقال إنّها أثر قدم موسى عليه السلام، وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه: كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له: ها هنا قبر أخي موسى عليه السلام »⁽¹⁾.

– مسجد في جبل قاسيون⁽²⁾: يقع هذا الجبل في شمال دمشق⁽³⁾، وهو شهير البركة.

– مسجد مغارة الدّم⁽⁴⁾: يوجد في المغارة التي صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط عليهم السلام. وهو مسجد مُتَقَنَّ البناء يُصعد إليه على درج، ويُفتح يومي الاثنين والخميس، وفيه بيوت ومرافق للسكنى .

– مسجد في مغارة الجوع⁽⁵⁾: أشار ابن بطّوطة إلى هذا المسجد، وأنّ السُّرُج توقد به ليلاً ونهاراً.

– مسجد بقرية تُعرف ببيت الإلهية⁽⁶⁾: كان موضع هذا المسجد كنيسة، يقال إنّ آزر والد سيدنا إبراهيم كان يصنع فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام.

– مسجدُ عمر : يبدو أنّ هذا المسجد مُخَرَّب، وهذا ما دلّ عليه قوله: « ولم يبق منه إلّا حيطانه، وفيه أساويلن »⁽⁷⁾.

8- مساجد مصر :

– جامع الأزهر : أشار إليه فقط، ولم يذكر شيئاً عنه، وهو من أهم المساجد وأشهرها في مصر والعالم الإسلامي.

(1) رحلة ابن بطوطة، 325/1.

(2) هو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدّة مغاور وفيها آثار الأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، وهو جبل معظّم مقدّس يُروى فيه آثار وللصالحين فيه أخبار. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 295/4.

(3) رحلة ابن بطوطة، 327/1.

(4) المصدر نفسه، 327/1.

(5) المصدر نفسه، 328/1.

(6) المصدر نفسه، 330/1.

(7) المصدر نفسه، 331/1.

- مساجد مدينة الأبيار⁽¹⁾ : اكتفى بالإشارة إليها عندما وصف هذه المدينة: « وهي قديمة البناء أرجة الأرجاء كثيرة المساجد »⁽²⁾.
- مسجد عمرو بن العاص⁽³⁾ : وقف الرحالة قليلاً عند هذا المسجد، وذكر أنه مسجد شريف كبير القدر، تقام فيه صلاة الجمعة.
- مسجد القسطلاني⁽⁴⁾ : زار ابن بطوطة هذا المسجد⁽⁵⁾ وتبرّك بالصلاة فيه.

9- مساجد العراق :

- مسجد عليّ بن أبي طالب بالبصرة: يقع هذا المسجد وسط المدينة؛ وهو بناء عالٍ يمكن رؤيته على بعد ميلين. لا يُفتح هذا المسجد إلا في يوم الجمعة، وهو من أحسن المساجد، وصحنه واسع مفروش بالحصباء الحمراء، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لمّا قُتل: « وأثر تغيّر الدّم في الورقة التي فيها قوله تعالى: فسيفيكهم الله وهو السميع العليم »⁽⁶⁾.
- يوجد في هذا المسجد سبُعُ صوامع؛ منها التي تتحرك عند ذكر عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه كما يزعمون؛ وقد صعد ابن بطوطة إلى أعلى سطح المسجد، وأمسك المقبض بيده وقال: « أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحرّكي، وهزّزت المقبض فتحرّكت الصومعة، فعجبوا من ذلك »⁽⁷⁾.
- فند ابن بطوطة ما كانوا يزعمون، ولا عجب في ذلك فهو رجل مسلم مالكي المذهب لا ينتصر إلى خليفة دون الآخر.

(1) اسم قرية بجزيرة بني نصر بين مصر والإسكندرية. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 85/1.

(2) رحلة ابن بطوطة، 195/1.

(3) المصدر نفسه، 203/1.

(4) محمد بن أحمد بن علي القيسي الشاطبي، أبو بكر، قطب الدين التوزري القسطلاني: عالم بالحديث ورجاله. أصله من توزر (بإفريقية) من بلاد قسطنطينية، ومولده بمصر، ومنشأه بمكة. قام برحلة سنة 649 فأخذ عن علماء بغداد والجزيرة والشام ومصر. وطُلب من مكة، فتولّى المشيخة بالقاهرة إلى أن توفي. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 323/5.

(5) رحلة ابن بطوطة، 230/1.

(6) المصدر نفسه، 13/2.

(7) المصدر نفسه، 13/2.

- مسجد علي مشهد طلحة بن عبيد الله⁽¹⁾ : أشار ابن بطّوطة إلى هذا المسجد، ولكنّه لم يصفه.
- مساجد في عبادان⁽²⁾ : يوجد في عبادان مساجد كثيرة⁽³⁾، وقد اشتغل الرّحالة في هذه المنطقة بالصّلاة فيها.
- المسجد الجامع بتستر⁽⁴⁾ : لم يتحدّث ابن بطّوطة عن هذا المسجد، وإنّما أشار إليه في معرض حديثه عن الشّيخ الفقيه شرف الدين موسى الذي كان: « يعط الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع »⁽⁵⁾.
- جامع الكوفة⁽⁶⁾ : جامعها الأعظم من أحسن الجوامع، كبير شريف، فيه سبع بلاطات قائمة على سواري حجارة ضخمة.
- مسجد في مدينة الحِلّة⁽⁷⁾ :
- يقع هذا المسجد بالقرب من السّوق الأعظم⁽⁸⁾، مسدول على بابه ستر حرير، أهل هذه البلدة يسمّونه مشهد صاحب الزمان.
- مساجد بغداد⁽⁹⁾ : يوجد بها عديد من المساجد، أحصى ابن بطّوطة المساجد التي تقام بها الجمعة فوجدها أحد عشر مسجداً، منها:

(1) رحلة ابن بطوطة، 14/2.

(2) قال بطليموس: عبادان في الإقليم الثالث، طولها خمس وسبعون درجة وربع، وعرضها إحدى وثلاثون درجة؛ قال البلاذري: كانت عبادان قطيعة لحمران بن أبان مولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، قطيعة من عبد الملك بن مروان وبعضها فيما يقال من زياد. هذا الموضع فيه قوم مقيمون للعبادة والانقطاع. معجم البلدان لياقوت الحموي، 74/4.

(3) رحلة ابن بطوطة، 17/2.

(4) أعظم مدينة بخوزستان اليوم؛ وقد تفرد بعض الناس يجعل تُستر مع الأهواز وبعضهم يجعلها مع البصرة؛ وعن ابن عون مولى المسور قال: حضرت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد اختصم إليه أهل الكوفة والبصرة في تُستر وكانوا حضروا فتحها، فقال أهل الكوفة: هي من أرضنا، وقال أهل البصرة: هي من أرضنا، فجعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها. معجم البلدان لياقوت الحموي، 30/2.

(5) رحلة ابن بطوطة، 22/2.

(6) المصدر نفسه، 54/2.

(7) مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمّى الجامعين، كان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبيس بن عليّ بن مزيد الأسدي. ينظر: معجم البلدان، 294/2.

(8) رحلة ابن بطوطة، 56/2.

(9) المصدر نفسه، 60/2.

* جامع الخليفة أبي جعفر المنصور⁽¹⁾: يقع في الجانب الغربي من بغداد، في محلة باب البصرة. وجامع الخليفة⁽²⁾: يقع في الجهة الشرقية، وهو جامع كبير فيه كثير من السقايات والمطاهر للوضوء والغسيل. وجامع السلطان: يقع، أيضاً، في الجانب الشرقي من بغداد.

وجامع الرصافة: يقع بهذه الجهة، أيضاً، بينه وبين جامع السلطان نحو ميل.

أشار ابن بطوطة إلى هذه الجوامع وحدد موقعها بالنسبة لبغداد، ولكنه لم يصفها.

– مساجد تكرت⁽³⁾: يوجد بها كثير من المساجد.

– مسجد جامع الموصل⁽⁴⁾: يقع هذا المسجد على شط دجلة، وتحيط به شبايك من حديد.

– جامعان بداخل مدينة الموصل⁽⁵⁾: يوجد في داخل هذه المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث.

– مسجد على مشهد جرجيس النبي عليه السلام⁽⁶⁾: حصلت لابن بطوطة زيارة هذا المسجد والصلاة فيه، دون أن يتعرّض لتفاصيل بنائه.

– مسجد في جزيرة عمر⁽⁷⁾: وصفه الرحالة بأنه مسجد جميل عتيق مبني بالحجارة محكم العمل.

– مسجد مدينة نصيبين⁽⁸⁾:

تحدّث عن هذا المسجد في إطار حديثه عن التّهر⁽⁹⁾ الذي في المدينة، والذي يخرق صحن مسجدها الأعظم.

(1) رحلة ابن بطوطة، 61/2.

(2) المصدر نفسه، 64/2.

(3) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راقبة على دجلة، وهي غربي دجلة. ينظر: معجم البلدان، 38/2.

(4) رحلة ابن بطوطة، 80/2.

(5) المصدر نفسه، 81/2.

(6) المصدر نفسه، 82/2.

(7) المصدر نفسه، 84/2.

(8) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام، وبين دُيُوسر يومان (عشرة فراسخ). معجم البلدان لياقوت الحموي، 288/5.

(9) رحلة ابن بطوطة، 84/2.

– مسجد مدينة سِنْجَار⁽¹⁾: مسجدها الجامع مشهور البركة، والدُّعَاء فيه مستجاب.
* جامع الزيتونة⁽²⁾: أوّل جامع ذكره ابن بطّوطة في بداية رحلته، عندما تحدث عن الفقيه أبي عليّ عمر بن عليّ بن قَدّاح الهواري⁽³⁾، يوجد هذا الجامع في مدينة تونس، وهو من أشهر المساجد في العالم الإسلامي.

* مساجد اليمن :

– جامع في مدينة حَلِيّ⁽⁴⁾: يرى ابن بطّوطة أنّ هذا الجامع من أحسن الجوامع، وأتقنها بناءً، فيه جماعة من الفقهاء المنقطعين إلى العبادة، منهم شيخ من كبار الصالحين يدعى قبولة الهندي؛ الذي أقام الرّحالة عنده ضيفاً عدّة أيام في هذا المسجد، وودّ ابن بطّوطة البقاء فيه ما تبقى من عمره إلا أنّ حبّ التّرحال تملّكه من جديد.
– مسجد في مدينة الأحقاف⁽⁵⁾: يوجد هذا المسجد⁽⁶⁾ على ساحل البحر.
– مسجد ظفار⁽⁷⁾: عندما وصل ابن بطّوطة إلى هذه المدينة نزل بدار الخطيب عيسى بن عليّ⁽⁸⁾ بمسجدها الأعظم.

(1) رحلة ابن بطوطة، 85/2.

(2) المصدر نفسه، 168/1.

(3) هو عمر بن علي بن عبد الله الهواري التونسي المالكي ولد قبل سنة 650هـ، واشتغل وتفقه على ابن أحمد الزواوي وغيره وفاق الأقران في عدة علوم، توفي سنة 736هـ. ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني، 179/3.

(4) رحلة ابن بطوطة، 102/2.

(5) وإدّ بين عُمان وأرض مَهْرَة، عن ابن عباس؛ قال ابن إسحاق: الأحقاف رسل فيما بين عُمان إلى حضر موت؛ وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالسّحر من أرض اليمن. وقال الضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وفي كتاب العين: الأحقاف جبل محيط بالدنيا. والصحيح ما روي عن ابن عباس وابن إسحاق وقاتدة: أنّها رمال بأرض اليمن، كانت عادّ تترها. معجم البلدان، 115/1.

(6) رحلة ابن بطوطة، 126/2.

(7) مدينة باليمن في موضعين، إحداها قرب صنعاء، وبها كان مسكن ملوك حمير. ينظر: معجم البلدان، 60/4.

(8) رحلة ابن بطوطة، 125/2.

- مسجد مدينة قلهاة⁽¹⁾: يوجد في هذه المدينة مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاساني⁽²⁾، وهو مرتفع البناء ينظر منه إلى البحر والمرسى، قامت ببنائه وعمارته الصالحة مريم.
- جامع الآبَنُوس⁽³⁾: يقع هذا الجامع في مدينة جُدَّة، وهو معروف البركة، ويقال أن الدُّعاء فيه مستجاب .

- * مسجد الأنبياء⁽⁴⁾: يوجد هذا المسجد في مدينة طبرية⁽⁵⁾، وفيه قبر شُعَيْب عليه السلام وبنته زوج موسى عليه السلام.
- * جامع بيروت⁽⁶⁾: وصفه بأنَّه بديع الحسن.
- * مساجد بلاد عُمان⁽⁷⁾: يوجد في بلاد عُمان، وبالضبط في مدينة نَزْوَا⁽⁸⁾ مساجد معظَّمة نقيَّة.
- * المسجد الذي عمَّره أبو عنان⁽⁹⁾: بنى أبو عنان المريني هذا المسجد في المَدِينَةِ الْبَيْضَاء دار مُلْكِهِ، امتاز هذا المسجد بالحُسْنِ وإِتْقَانِ الْبِنَاء .

(1) مدينة بَعُمان على ساحل البحر إليها ترفأ أكثر سُفنُ الهند، وهي الآن فُرْضة تلك البلاد وأمثلُ أعمال عُمان عامرة آهلة وليست بالقديمة في العمارة. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 393/4.

(2) رحلة ابن بطوطة، 136/2.

(3) المصدر نفسه، 98/2.

(4) المصدر نفسه، 260/1.

(5) هي بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف الجبل، وجبل الطور مطلٌ عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عَكَّا يومان. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 17/4.

(6) رحلة ابن بطوطة، 261/1.

(7) اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند، وعمان في الإقليم الأول، تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع إلا أن حرَّها يُضرب به المثل. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 150/4.

(8) رحلة ابن بطوطة، 137/2.

(9) المصدر نفسه، 202/4.

- * جامع مالقة⁽¹⁾: مسجدها كبير مشهور البركة، وصحنه لا نظير له⁽²⁾.
- * مسجد الكتّيبين⁽³⁾: يوجد هذا المسجد في مدينة مُرّاكش، وهو مسجد عظيم البناء.
- * مسجد مدينة بلش⁽⁴⁾: هو مسجد عجيب⁽⁵⁾ يوجد في هذه المدينة.
- * مسجد أشتر كان⁽⁶⁾: وصفه الرَّحالة بأنّه مسجد بديع الحسن يشقه نهر.
- * مسجد في مدينة يَزْدُ خاص⁽⁷⁾: مسجدها الجامع عجيب الحسن مبني بالحجارة، ومسقف بها.
- * مسجد العتيق⁽⁸⁾: يقع هذا المسجد في مدينة شيراز، ويُعتَبَرُ من أكبر المساجد ساحة، وصحنه مُتَّسِعٌ مفروش بالمرمر، يُجْتَمِعُ فيه كبار أهل المدينة كلّ عشية، ويصلون به المغرب والعشاء.
- * مساجد في مدينة الزّيدّين⁽⁹⁾: أشار إلى أنّه يوجد في هذه المدينة مساجد عجيبة، ولكنّه لم يشر إلى أي منها، أو أن يصفه.

(1) مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رّيّه سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، قال الحميدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، والقولان متقاربان، وأصل وضعها قدم ثم بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعف عمارتها حتى صارت أرشُدونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها أي الرستاق. معجم البلدان لياقوت الحموي، 43/5.

(2) رحلة ابن بطوطة، 218/4.

(3) المصدر نفسه، 229/4.

(4) بلد بالأندلس، ينسب إليه يوسف بن جُبارة البلّشي رجل من أهل الصلاح والعلم. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي،

484/1.

(5) رحلة ابن بطوطة، 220/4.

(6) المصدر نفسه، 29/2.

(7) المصدر نفسه، 34/2.

(8) المصدر نفسه، 36/2.

(9) المصدر نفسه، 52/2.

* المسجد الجامع الذي عمره الوزير عليّ شاه المعروف بجيلان⁽¹⁾:

يوجد هذا المسجد في مدينة تبريز⁽²⁾ في موضع يُعرف بالشّام؛ وقد ذكر الرحّالة شيئاً من عوائد أهل هذه المنطقة في قراءة القرآن في هذا المسجد الجامع؛ فمن عوائدهم أنّهم يقرؤون كلّ يوم به سورة يس، وسورة الفتح، وسورة عم بعد صلاة الصبح.

* مساجد مُنبَسَى⁽³⁾ : بُنِيَتْ هذه المساجد من الخشب⁽⁴⁾، وهي محكمة الإتيان، وعلى كل باب من أبواب هذه المساجد يوجد بئر، ومن أراد دخول المسجد عليه أن يغسل رجليه، ويدخل، وقد وضعت على بابه قطعة حصير ليمسح بها رجليه.

* مساجد مدينة لاذق⁽⁵⁾ : يوجد في هذه المدينة سبع مساجد لإقامة الجمعة.

* المسجد الجامع بمدينة أيا سُلوُق⁽⁶⁾ : المسجد الجامع بهذه المدينة من أبداع المساجد، يراه ابن بطّوطة من أحسن المساجد الذي لا نظير له في الحُسْن كان هذا المسجد من قبل كنيسة للرّوم، ولَمَّا فتح المسلمون هذه المدينة حولوا هذه الكنيسة مسجداً. حيطان هذا المسجد من الرّخام الأبيض، وفرشه أيضاً من الرّخام الأبيض، وسقفه من الرصاص، فيه إحدى عشرة قبة.

* المسجد الجامع بمدينة صُنب⁽⁷⁾ : يُعْتَبَر هذا المسجد من أحسن المساجد في هذه المدينة، وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تحملها أربع أُرْجُل، وساريتان من الرّخام.

(1) رحلة ابن بطوطة، 78/2.

(2) أَشْهَرُ مَدُنْ أَذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والحصن، وفي وسطها عدّة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة. ينظر: معجم البلدان، 13/2.

(3) مدينة كبيرة بأرض الزنج تُرْفَأُ إليها المراكب. ينظر: معجم البلدان، 207/5.

(4) رحلة ابن بطوطة، 120/2.

(5) لاذق أصلاً هي المدينة العتيقة التي تحمل اسم لُؤذِيكة، وقد تحول هذا الاسم إلى لاذق عند افتتاحها. تقع على بعد خمسة كيلومترات شمال denizli. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 169/2.

(6) أيا سُلوُق يرسم الاسم الآن في الخريطة التركية بسلوك. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 189/2.

(7) Sinop على بعد 95 كم شمال شرق طاشكوبرو إحدى المراسي الأساسية للأناضول على البحر الأسود على ذلك العهد، تقع على شبه الجزيرة تتصل باليابسة من جهة الغرب. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 208/2.

* مسجد بمدينة الكفا ⁽¹⁾: يُعرف هذا المسجد بمسجد المسلمين، نزل به ابن بطّوطة ضيفا عندما حلّ بهذه المدينة. أمر أصحابه بالصَّعود إلى صومعة المسجد، وأن يقرؤوا القرآن ويؤذّنوا، وذلك عندما سمع نواقيس الكنيسة، وهذا ما يثبت التّزعة الدّينية المتأصّلة فيه، والروح الإسلامية المتشعّع بها، وغيرته الشديدة على الدّين الحنيف.

* مساجد السّرا ⁽²⁾: يوجد بها ثلاث عشرة مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية ⁽³⁾، وأمّا المساجد سوى ذلك فكثير جدّاً.

* مسجد القاضي أبي حفص عمر ⁽⁴⁾: صلى فيه ابن بطّوطة أثناء إقامته في مدينة زمخشّر ⁽⁵⁾.

* مساجد بلخ ⁽⁶⁾: أشار الرّحالة إلى مساجد بلخ التي خرّبها جنكيز خان، وخرّب من مسجدها نحو الثلث بسبب كثر سمع بأنّه مدفون تحت سارية من سواريه ⁽⁷⁾، وهو من أحسن مساجد الدنيا وأوسعها؛ وقد قارن ابن بطّوطة بين هذا المسجد ومسجد ربّاط الفتح بالمغرب فقال: " يشبهه في عظم سواريه، ومسجد بلخ أجمل منه في سِوى ذلك " ⁽⁸⁾. موقف ابن بطّوطة هذا يشبه موقف لسان الدين بن الخطيب الذي يفتخر بكلّ ما هو أندلسي، من ذلك مفاخرات مالقة وسلا، وهي رسالة تقوم على المفاضلة بين مدينة مالقة الأندلسية، ومدينة سلا المغربية. على الرّغم من إقامته في سلا حين ذهب إليها لاجئاً أيام محنته، إلّا أنّه تميّز لمدينة مالقة مفضّلاً إيّاها على مدينة سلا من وجوه كثيرة مثل: « المنعة والصنعة

⁽¹⁾ Kaffa هي ثيوضوزيا القديمة، فيوضوزيا الحالية. شيدت من لدن الجنويين في القرن (13) كمركز تجاري لهم في القرم وقد خرّبت من لدن المغول عام 1308 ثم أعيد بناؤها فيما بعد. كانت كفا نهاية الطرق البحرية الذاهبة من القسطنطينية وصنوب. رحلة ابن بطوطه (الحاشية)، 216/2.

⁽²⁾ أحد أبواب مدينة هراة، سمّي بذلك لدار عنده لأنّ السّرا هو الدار الواسعة، وسرا من أجل موضع بكرة، منه دخل يعقوب بن الليث. وسرا: قرية على باب نهاوند. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 203/3.

⁽³⁾ رحلة ابن بطوطه، 259/2.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 11/3.

⁽⁵⁾ قرية جامعة من نواحي خوارزم. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 147/3.

⁽⁶⁾ مدينة مشهورة بخراسان، من أجل مدنها وأذكرها وأكثرها خيراً وأوسعها علّة، تُحمل غلّتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 479/1.

⁽⁷⁾ رحلة ابن بطوطه، 42/3.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، 42/3.

والبقعة والشَّنة والمساكن والحضارة والعمارة والآثار والنضارة»⁽¹⁾. فابن بطّوطة يتلاقى مع لسان الدين بن الخطيب في موضوعيته، وتحيزه لبلاده، وإبداء بعض المقارنات بينها وبين البلدان الأخرى، فعلى سبيل المثال تشبيهه سكان مدينة ظفار بسكان المغرب في شؤوهم.

* جامع دهلي⁽²⁾ : وصف ابن بطّوطة هذا الجامع وصفاً بارعاً دقيقاً، فهو جامع كبير الساحة مبني

بالحجارة البيضاء المنحوتة أبدع النحت، فيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره مصنوع من الحجر أيضاً، وله أربعة من الصحن، طوله ثلاثون ذراعاً. كان موضع هذا المسجد بيت للأصنام فلما أُفْتِحتْ جُعِلَتْ مسجداً، ثم وقف معجبا بصومعته التي لا نظير لها في بلاد الإسلام، وقد بُنِيَتْ بِالْحِجَارَةِ الْحُمْرَاءِ خِلافاً لِلْحِجَارَةِ الْمَبْنِيَةِ بِالْحِجَارَةِ الْبَيْضَاءِ؛ كما أَنَّهَا مَفْرُطَةٌ فِي الطُّولِ وَالْإِرْتِفَاعِ، وَالتِّي يَرَاهَا مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا فِي ضَخَامَتِهَا وَسَعَةِ مَمَرِّهَا بَحَيْثُ تَصْعَدُهُ ثَلَاثُ فِيلَةٍ مُتَقَارِنَةٍ .

* مسجد جامع بسيري⁽³⁾ : لم يتم من هذا المسجد سوى الحائط القبلي والمحراب، لأنَّ السُّلْطَانَ الَّذِي أَمَرَ بِنَائِهِ تَوَفَّى قَبْلَ إِتْمَامِهِ. وَأَرَادَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ بَعْدَهُ إِتْمَامَهُ، وَلَكِنَّهُ تَرَاوَعَ تَشَاؤُماً بِالسُّلْطَانِ الَّذِي قَبْلَهُ لِأَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ إِتْمَامِ بِنَائِهِ.

* مسجد جامع مدينة بيّانة⁽⁴⁾ : مسجدها الجامع من أحسن المساجد⁽⁵⁾، بُنِيَتْ حَيْطَانُهُ وَسَقْفُهُ مِنْ

الحجارة، لَمْ يُفَصِّلْ ابْنُ بَطُّوْطَةَ فِي وَصْفِ هَذَا الْمَسْجِدِ، فَكَتَفَى بِالْحَدِيثِ عَنْ حَيْطَانِهِ وَسَقْفِهِ فَقَطْ.

* المسجد الجامع بمدينة هيلي⁽⁶⁾ : يَعَظِّمُ الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ بِسَبَبِ مَسْجِدِهَا الْجَامِعِ، لِأَنَّهُ عَظِيمُ الْبَرَكَةِ مَشْرِقَ النَّوْرِ، وَرُكَّابُ الْبَحْرِ يَنْذِرُونَ لَهُ التَّنْذِيرَ الْكَثِيرَةَ.

(1) " لسان الدين بن الخطيب وأدب الرحلة " لمحمد محمود الخزعلي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها،

ج 18، ع 39، ذو الحجة 1427هـ، ص 414.

(2) رحلة ابن بطوطة، 3/ 107-109.

(3) المصدر نفسه، 3/ 112.

(4) بيّانة تقع على نحو 38 كيلومتراً غرب عليكرة. ونذكر هنا أنه توجد مدينة (البيّانة) بالأندلس. ينظر: رحلة ابن بطوطة

(الحاشية)، 4/ 10.

(5) رحلة ابن بطوطة، 4/ 10.

(6) تحدّث عدد من المؤلفين عن هيلي ويروي ماركو بولو عن الفلفل الأسود (الأبرار) الذي بنيت بها بكثرة وكذا الزنجبيل،

كما تحدّث عنها نيكولو كونتي في القرن 15 أما باربوزا فلم يتحدّث في بداية القرن 16 إلّا عن جبل إيلي، وإن وصف ابن

بطوطة المتعلق بالخور العظيم يمكن من تحديد المكان في ماداي الواقعة بالخور العظيم حالياً على بعد ثمانية أميال جنوب جبل

ديلي. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 4/ 40.

* المسجد الجامع بده فتن ⁽¹⁾: ذكر الرحالة شيئاً من تاريخ هذا المسجد الجامع؛ فقد حدثه الفقيه حسين بأن الذي عمّر المسجد هو أحد أجداد كُوَيْل ⁽²⁾، وأنه كان مسلماً وإسلامه خبرٌ عجيب. يُوجد بإزاء هذا الجامع شجرة عجيبة، حيث تسقط منها ورقة واحدة كل فصل خريف بعد أن يميل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة، ويكون مكتوباً فيها بقلم القدرة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

* مسجد في بد فتن ⁽³⁾: يقع هذا المسجد بالقرب من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين.

* مساجد جزائر ذببة المهل ⁽⁴⁾: يوجد في كل جزيرة من جزائر ذببة المهل المساجد الحسنة.

* مساجد جزيرة كنلوس ⁽⁵⁾: يُوجد في هذه الجزيرة عديد من المساجد، ولكن ابن بطّوطة لم يذكرها.

* مسجد مدينة فتن ⁽⁶⁾: بُني هذا المسجد بالحجارة.

* المسجد الجامع في مدينة الكولم ⁽⁷⁾: ذكر الرحالة هذا الجامع، الذي حضر به صلاة العيد، وسرد شيئاً من عادات أهل هذه المنطقة في أيام العيد، حيث أنهم يأتون المسجد ليلاً ويذكرون الله إلى طلوع الشمس، ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ثم يصلون، ويخطب الخطيب وينصرفون.

* مسجد في مدينة سنّابور ⁽⁸⁾: مسجدها عظيم يشبه مسجد بغداد من حيث البناء والصنعة.

⁽¹⁾ هي دارماباطانام (مكان الرحمة) الموجودة على جزيرة كوتها التقاء مجاري نهر تيليشيري ونهر أنجاراكاندي، شمال مدينة تيليشيري، وحسب ما ورد في أقوال ابن بطوطة فإن هذه المدينة يظهر أنها أيضاً كانت ملكاً في تلك الفترة لالكولاثيري بيد أن أطراف البلاد كانت تكون مملكة كوطايام التي سيصبح لها فيما بعد منفذ على البحر عن طريق هذه المدينة دارماباطام المسجد المتحدث عنه لاشك وأنه كذلك من المساجد التي بناها دينار مالك، ولكنه لا يوجد له أثر الآن. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 43/4.

⁽²⁾ من أكبر سلاطين المليبار (إقليم كبير عظيم يشتمل على مُدُن كثيرة، وهي في وسط بلاد الهند يتصل عمله بأعمال مولتان. ينظر: معجم البلدان، 196/5)، وله مراكب كثيرة تسافر إلى عُمان وفارس واليمن، ومن بلاده ده فتن وبد فتن. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 42/4.

⁽³⁾ رحلة ابن بطوطة، 45/4.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 57/4.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 68/4.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، 96/4.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، 69/4.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، 31/4.

* مسجد عثمان الشيرازي المعروف بشاوش : أشار ابن بطّوطة إلى هذا المسجد، الذي يوجد في مدينة كُنْكَار⁽¹⁾.

* المسجد الجامع بمدينة الخنسا⁽²⁾ : يوجد هذا المسجد في المدينة الثالثة من مدينة الخنسا.

* مسجد تغازي⁽³⁾ : هو مسجد عجيب يوجد في هذه المدينة.

من خلال هذه الوقفة مع المساجد التي أوردها ابن بطّوطة في رحلته نبين أنه رجل متدين مشبع بالثقافة الإسلامية، وهذا ما دلّت عليه رحلته، فكلما نزل بمدينة ما ذكر مساجدها، وذهب للصلاة فيها، فعلى الرغم من أنه كثير الترحال إلا أنه لا يترك فرضه الذي شرعه الله سبحانه وتعالى، والذي يعدّ ثاني ركن من أركان الإسلام؛ وهذا يدل دلالة قاطعة على تلقيه تربية إسلامية متينة، انعكست على تصرفاته وأفعاله .

اختلف وصفه للمساجد، فمرةً يورد وصفاً دقيقاً بارعاً لها كما فعل مع المسجد الحرام، والمسجد النبوي، ومسجد بيت المقدس، وجامع بني أمية، وطوراً آخر يشير إليها فقط دون أن يصفها. كانت المساجد ولا تزال مركزاً للإيمان، يستمدّ منها المسلم قوته، ويوطّد فيها صلته بالمولى عزّ وجلّ، كما كانت هذه المساجد حارسةً للعالم الإسلامي يُذكر فيها لفظ الجلالة ونبّه سيّد المرسلين بكرة وعشية، فهذه المرافق أوّل ما يشدّ انتباه المسلم عند دخوله بلد ما، وبخاصة إذا كان لا يعرفه، ولا يعرف أهله، فيجد فيها، المساجد، رُفقةً وأسوةً وملاذاً روحياً ضدّ الوحشة والوحدة التي يعيشها، علاوة على ذلك فإنّ المسجد هو رمز ترابط الجماعة الإسلامية: « المساجد أحمل ما تقع عليه عين الإنسان في عالم الإسلام فسواء أكانت في قرية صغيرة خافية في بطن الريف أو مستكنة خلف كثبان الرمال في الصحراء، أو كانت في عاصمة كبيرة مترامية الأرجاء متدفقة الحركة عامرة بالعمائر السامقة، فإن

(1) ربما كان القصد Kurungala تقع في داخل البلاد، وهي عاصمة دولة السنهالين منذ تاريخ 1248، وفيها كان يقيم ملوكهم. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 81/4.

(2) يذكر الناشران الفرنسيان أن القصد حالياً إلى (Hang-Tchou-Fou) ويقتصر بيكينكام على كلمة (Hang-Cou)، ومدينة الخنسا هي بالذات التي تعرف حالياً باسم هانكز هو Hangzhou، واسم الخنسا ترجم عن كلمة صينية قديمة يمكن تهجئتها هكذا جينكشي، وهو الاسم المتحلل لكلمة هانكز هو Hangzhou... ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 145/4.

(3) رحلة ابن بطوطة، 239/4.

المساجد بماذها الدقيقة المنسرحة الزاهية في الجو مشيرة إلى السماء، وقبائها الأنيقة، تضيف إلى المنظر عنصرا من الجلال والجمال الروحي لا يتأتى له بدونها»⁽¹⁾.

فالمساجد تضيف على المكان نوعاً من الجلال والقداسة والنور الإلهي والجمال الروحي .

٢/ الأربطة والزوايا:

أ- الرُّبُط الإسلامية:

الرُّبَاطُ والمُرَابَطةُ في اللغة: مُلَازِمَةٌ تُغَرِّ الْعَدُوَّ، والرُّبَاطُ: المُواظَبَةُ عَلَى الأَمْرِ، وفي الحديث عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: « أَلَا أُدْلِكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسولَ اللَّهِ، قال: إِسْبَاغُ الوُضوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكُثْرَةُ الخُطَى إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرُّبَاطُ؛ أَيِ المُواظَبَةِ عَلَى الطَّهَارَةِ »⁽²⁾. وردت تفاسير مختلفة لهذه اللفظة واشتقاقها من الأصل " رَبَطَ " على أَنَّ أَقْرَبَ هذه التَّفاسير ما أوردته الآية القرآنية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الحَيْلِ ﴾⁽³⁾، ومنه أيضاً أُخِذَتِ المُرَابَطةُ أَيِ مُلَازِمَةُ تَغَرِّ الْعَدُوِّ، وجاءت مُقْتَرَنَةً بالصَّبْرِ في آيةٍ أُخْرَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾⁽⁴⁾.

إِذَا الرُّبَاطُ هُوَ الإِقَامَةُ فِي الثَّغْرِ، وَالذَّوْدُ عَنْهُ، وَالْجِهَادُ ضِدَّ الْعَدُوِّ: « الكلمة كانت تطلق اصطلاحاً على منشأة حربية دينية اختص بها المسلمون دون غيرهم »⁽⁵⁾، ثُمَّ تطورت هذه الكلمة وأصبحت تُطْلَقُ على الدُّورِ التي يسكنها الصُّوفِيَّة: « الرابطة صومعة يعتزل فيها المتصوِّف أو الزاهد محاطاً بأتباعه

(1) المساجد لحسين مؤنس، ص 27 .

(2) لسان العرب لابن منظور، 302/7.

(3) الآية 60 من سورة الأنفال.

(4) الآية 200 من سورة آل عمران.

(5) الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري لمحمد بركات البيلي، دار النهضة العربية، القاهرة،

1993، ص 66.

ومريديه»⁽¹⁾. قدم ابن مرزوق التلمساني تعريفاً دقيقاً للرُّبُط فقال: «الرُّبُط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة. وعند المتصوفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة»⁽²⁾. اقترن لفظ الرُّبُط بالصُّوفية والزُّهاد الذين هجروا سكناهم، ورابطوا في مكان بعيد للعبادة، وأداء طقوسهم الدِّينية من صلاة وذكر.

هناك ألفاظ أخرى أدت نفس مدلول كلمة الرُّبُط مثل الزاوية، والخانقاه: «ولكن هناك تمايز بين كل منها»⁽³⁾، يَبْدُ أن الرُّبُط الذي يجمع بينهم هو تشابه الوظيفة التي يؤديها كلٌّ منهم ألا وهي الوظيفة الدِّينية.

أورد ابن بطّوطة في رحلته أسماء عدد لا بأس به من الأربطة بالمقارنة مع رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر" لابن قنفذ الذي اقتصر على ذكر واحدة فقط، وذلك في إطار حديثه عن منطقة العباد التي دُفِنَ فيها شيخ المشايخ أبي مدين شعيب، توجد هذه الرابطة في وسط المنطقة، وتسمى برابطة التونسي⁽⁴⁾ نسبة لأبي محمد عبد السلام التونسي⁽⁵⁾، أمّا الأربطة التي جاء ذكرها في رحلة ثحفة النُّظار فهي كالآتي:

1/ الأربطة بمكة المكرمة :

أ- رباط السِّدرة⁽⁶⁾ : أشار ابن بطّوطة لهذا الرُّبُط أثناء حديثه عن أبواب المَسْجِدِ الحَرَامِ، وهو باب صَغِير قِيلَ لَا اسْمَ لَهُ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا مِنْ يُسَمِّيهِ بَابُ الرُّبُطِ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ مِنْهُ لِرِبَاطِ السِّدْرَةِ.

(1) "مدخل لدراسة الربط الإسلامية" لعادل الألوسي، المورد، بغداد، مج2، ع2، 1973، ص24.

(2) المُسْنَدُ الصَّحِيحُ الحَسَنُ فِي مَأْتَرٍ وَمَحَاسِنِ مَوْلَانَا أَبِي الحَسَنِ مُحَمَّدِ ابْنِ مَرْزُوقِ التَّلْمَسَانِيِّ، تح: مَارِيَا خَيْسُوسُ بِيغِيَا، تقدّم: محمود بوعيّاد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص411.

(3) المسجد رمز الصمود والتحدى لعبد الحكم عبد اللطيف الصعدي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 2002، القاهرة، ص99.

(4) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص151.

(5) أصله من تونس وصحب عمّه عبد العزيز التونسي بأغلمات. فلما مات بها عمّه، نزل هو إلى تلمسان وبها توفي، ودُفِنَ بالعباد في الرابطة المعروفة برابطة التونسي. كان عارفاً بالمسائل زاهداً في الدنيا متقشفاً صليباً في الحق مغلظاً على الأمراء. ينظر ترجمته في: التشوف إلى رجال التصوف، ص110.

(6) رحلة ابن بطّوطة، 377/1.

ب- رباط بأعلى جبل أبي قُبَيْس: يُطَلُّ هذا الرِّبَاط على الحرم الشَّريف⁽¹⁾، أشار إليه الرَّحالة دون أن يصفه، وذكر أن الملك الظَّاهر أراد أن يُعَمِّرَهُ .

ج- رباط الموقِّع: يَقَعُ هذا الرِّبَاط بالقُرْبِ من باب إبراهيم⁽²⁾، وهو من أحسن الرِّباطات سكنه ابن بطَّوطة أيام مجاورته بمكة المكرمة.

د- رباط يسكنه المجاورون⁽³⁾: يَقَعُ هذا الرِّبَاط بين الصفا والمروة، كان في الأصل دار العباس رضي الله عنه، عمره الملك الناصر رحمه الله .

هـ- رباط الربيع⁽⁴⁾: من أحسن الأربطة بمكة المكرمة، بداخله بئر عذبة، وسُكَّان الحجاز يعظِّمونَه تعظيمًا شديدًا.

و- رباط كلاله⁽⁵⁾: أشار إليه عندما تحدَّث عن بعض المجاورين بمكة المكرمة؛ منهم الشَّيخ سعيد الهندي شَيْخُ الرِّبَاط .

كما ذكر ابن بطَّوطة أربطة أخرى زارها في البلدان التي حلَّ بها؛ منها:

2/ الأربطة بمصر :

أ- رباط تاج الدين بن حناء⁽⁶⁾: يَقَعُ هذا الرِّبَاط بدير الطَّين⁽⁷⁾: « وقد بلغني أن بالديار المصرية مزاراً فيه أشياء كثيرة من آثار النبي صلى الله عليه وسلم، اعتنى بجمعها بعض الوزراء المتأخرين »⁽⁸⁾، وهو رِباط عظيم فيه آثارٌ كريمة، أودعها فيه وهي قَصَّة⁽⁹⁾ من قطعة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(1) رحلة ابن بطوطة، 383/1.

(2) المصدر نفسه، 379/1.

(3) المصدر نفسه، 380/1.

(4) المصدر نفسه، 392/1.

(5) المصدر نفسه، 393/1.

(6) المصدر نفسه، 223/1.

(7) بأرض مصر على شاطئ النيل، في طريق الصعيد قرب الفسطاط متصل ببركة الحبش عند العدوية. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 520/2.

(8) البداية والنهاية لابن كثير، 376/8.

(9) القَصَّة: الصفحة الضخمة تشيع العشرة، ج: قَصَّعات، وقصاع، وقصع. ينظر: معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة) لأحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960، 582/4.

والميل⁽¹⁾ الذي كان يَكْتَحِلُ به والدَرَفَشُ⁽²⁾ وهو الأَشْفَى⁽³⁾ الذي كان يَخْصِفُ⁽⁴⁾ به نعله، وبه أيضاً مُصَحَفٌ عَلِيٌّ بن أبي طالب الذي كَتَبَهُ بِحِطِّ يَدِهِ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ. بَاتَ ابن بطُّوطَة في هذا الرِّبَاط عند خروجه من مصر قاصداً الحِجَازَ الشَّرِيفَ.

ب- رباط على مشهد رأس الحسين بن علي رضي الله عنه⁽⁵⁾ :

يُوجد هذا الرِّبَاط في مصر، وهو رباط ضخم البناء على أبوابه حلق الفضة، وهو شهير البركة، والناس يعظّمونه، ويتبرّكون به.

ج- رباط على تربة السيِّدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام⁽⁶⁾.

3/ الأربطة بالعراق :

أ- رباط مالك بن دينار⁽⁷⁾ : يقع هذا الرِّبَاط في البصرة، نزل به ابن بطُّوطَة ضيفاً عندما حلَّ بهذه المدينة.

ب- رباطات عبادان: يوجد في هذه التربة رباطات⁽⁸⁾ كثيرة للصالحين.

ج- رابطة الخضر وإلياس⁽⁹⁾ : تقع هذه الرابطة على ساحل بحر الأبلّة⁽¹⁰⁾.

د- رباط الرواق⁽¹¹⁾ : رباط عظيم فيه الآلاف من الفقراء المتصوّفة.

(1) الميل: المُلْمُول. قال الأصمعي: قول العامة الميل لما تُكْحَلُ به العين خطأ، إنما هو المُلْمُول، وهو الذي يُكْحَلُ به البصر (ما يُجْعَلُ به الكحل في العين). ينظر: لسان العرب لابن منظور، 639/11.

(2) الدَّرَفَشُ والدَّرَفَشُ: اللّمعان. ينظر: معجم متن اللغة لأحمد رضا، 403/2.

(3) الإِشْفَى: مثقب الإسكاف، ج: الأشافي. ينظر: معجم متن اللغة لأحمد رضا، 179/1.

(4) خَصَفَ التعل يَخْصِفُهَا خَصْفًا: ظاهراً بعضهم على بعض وخرزها، وهي نعلٌ خَصِيفٌ. والخَصَفُ والخَصْفَةُ: قِطْعَةٌ مما تُخَصَفُ به النعل. والمُخَصَفُ: المثقَّبُ والإشْفَى. ينظر: لسان العرب، 71-72/9.

(5) رحلة ابن بطوطَة، 205/1.

(6) المصدر نفسه، 206/1.

(7) المصدر نفسه، 11/2.

(8) المصدر نفسه، 17/2.

(9) المصدر نفسه، 17/2.

(10) بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة مُصَرَّت في

أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. ينظر: معجم البلدان، 77/1.

(11) رحلة ابن بطوطَة، 9/2.

و- رابطة بأعلى جبل سنجار⁽¹⁾: أشار الرَّحالة إلى هذه الرَّابطة في أثناء حديثه عن الشَّيخ العابد عبد الله الكردي⁽²⁾ أحد المشايخ الكبار.

هـ- رباط فيه بيوت كثيرة⁽³⁾: يُوجد هذا الرُّباط في تل يونس، وفي وسطه بيت عليه ستر حرير يقال إنَّه المكان الذي وقف به يونس عليه السَّلام، ومحراب المسجد بهذا الرُّباط كان بيت متعبده عليه السَّلام.

4/ الأربطة بالأندلس :

أ- رباط جبل الفتح⁽⁴⁾ :

أعجب ابن بطَّوطة كثيراً بهذا الرُّباط، ووَدَّ التَّعميرَ به إلى نهاية العمر.

ب- رابطة منسوبة إلى سُهَيْل⁽⁵⁾.

ج- رابطة العُقَاب⁽⁶⁾: يُوجدُ هذا الرُّباط في غرناطة بالأندلس، اتجه ابن بطَّوطة لزيارته عند عودته من رحلته الطويلة.

5/ رباط بخارج مدينة يَزْدُ خاص⁽⁷⁾: هو رباط يتزل فيه المسافرون، وبداخله حوانيت يباع فيها كلُّ ما يحتاجون إليه .

6/ رابطة بأعلى جبل لُمعان⁽⁸⁾ : توجد هذه الرَّابطة في وسط البحر.

(1) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال، ويقولون: إن سفينة نوح، عليه السَّلام، لما مرَّت به نَطَحَتْه فقال نوح. هذا سنُّ جبل جار علينا، فسميت سنجار. معجم البلدان لياقوت الحموي، 262/3.

(2) عبد الله بن إبراهيم الكردي؛ فقيه مشارك. ينظر ترجمته في: الأعلام لخير الدين الزركلي، 64/4.

(3) رحلة ابن بطَّوطة، 83/2.

(4) المصدر نفسه، 211/4.

(5) المصدر نفسه، 218/4.

(6) المصدر نفسه، 227/4.

(7) تكتب في الخريطة بالسَّين هكذا (يَزْدُ خَوَاسْت) وقد شَيِّدَتْ على صخرة شديدة الانحدار وُصِفَتْ من لدن ثيفنو thevenot في القرن الحادي عشر الهجري، وهي الآن خراب. رحلة ابن بطَّوطة (الحاشية)، 33/2.

(8) إن الوصف الذي أعطاه ابن بطَّوطة لجبل لُمعان يتوافق وجزيرة حَلَّانية Hallaniya إحدى مجموعة جزر خوريا موريا (Khuriya Muriya) وهي جزيرة من حجر الكرانيت ينتهي طرفها الشمالي على شكل عمودي، بيد أن الجزيرة على بعد 20 ميلاً فقط شرقي حاسك. رحلة ابن بطَّوطة (الحاشية)، 130/2.

7/ رابطة بأعلى جبل تُنسب للخضر وإلياس عليهما السلام⁽¹⁾ : تقع هذه الرابطة في مدينة صنوب، يقصدها النَّاس للعبادة والدُّعاء.

8/ رباط محمد شاه ينجو في يزد خاص⁽²⁾ : يوجد هذا الرُّباط خارج المدينة، شيده الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان إسحاق ملك شيراز، وفيه يتزل المسافرون.

9/ رباط بلخ⁽³⁾ : هذا الرُّباط بنته زوجة أمير بلخ (داود بن علي).

ب- الزوايا:

كلمة الزاوية لغة مشتقة من الفعل انزوى، فنقول: « انزوى القوم بعضهم إلى بعض إذا تدانوا وتضاموا. والزاوية واحدة الزوايا... وزويت الشيء إذا جمعته، وزاوية البيت: رُكنه »⁽⁴⁾.

فالزاوية هي مكان معزول في ركن من الأركان، وتكون جامعة للعباد الذين يجمعهم رباط واحد هو حب الله ورسوله، ويتخذون من هذه الزاوية مكاناً للتعبّد والاعتكاف.

يُطْلَقُ عَلَى الزَّوَايَا لَفْظُ " الخوانق " كما لوحظ ذلك في رحلة ابن بطّوطة حين قال عن أهل مصر أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ الزَّوَايَا الْكَثِيرَةَ بِالْخَوَانِقِ، وَوَحَدْتُهَا خَانِقَاهُ، وَهِيَ كَلِمَةٌ فَارْسِيَّةٌ وَمَعْنَاهَا: « بيت العبادة »⁽⁵⁾.

أمّا اصطلاحاً فتعني مكاناً متسعاً يسكنه الصُّوفِيَّة، وتكون بمثابة مدرسة دينية، وداراً لضيافة عابري السبيل إنَّها: « عبارة عن جامعة أهلية معبّرة وتؤدي رسالتها بجوار المسجد بكفاءة واقتدار، وتتكون من مساحة أصلية للصلاة... حجرة أو أكثر لتحفيظ القرآن، ومكتبة لتعليم مبادئ الإسلام، كما يلحق بها مسكن شيخ الزاوية وضيوفه من الطلبة أو المسافرين »⁽⁶⁾. إنَّ مفهوم الزاوية يطلق على المكان المنعزل عن العالم الخارجي الذي يجتمع فيه المتعبّدون، ويؤدون طقوسهم الدينية من صلاة، وعبادة، وتلاوة الذكر الحكيم، وقد ساعدت هذه الزوايا على نشر الثقافة العربية الإسلامية، ونشر الطرائق الصُّوفية.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 2/209.

(2) المصدر نفسه، 3/34.

(3) المصدر نفسه، 3/43.

(4) لسان العرب لابن منظور، 14/364-365.

(5) المسجد رمز الصمود والتّحدي لعبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، ص 95.

(6) المرجع نفسه، ص 95.

كما أنّها تعدُّ حارسة عالم الإسلام لأنّ فيها قومًا نذرُوا أنفسهم لعبادة الله، وطاعة رسوله الكريم، فحافظوا على التماسك الديني والخلقي والاجتماعي.

زار ابن بطّوطة عديد من الزّوايا، وأقام في ضيافتها عدّة أيام، فكان كلّما نزل بمدينة قصد زاويتها، وأقام فيها لحين خروجه منها إلى بلد آخر؛ وقد امتازت هذه الزّوايا بحسن الضيافة، وإكرام الأعراب، وكسوتهم، وتقديمهم ما يحتاجونه من مؤونة تساعدتهم على مواصلة السّفر، ولو لم يكن هناك زوايا انتشرت في مختلف البلاد لما كان هناك رحالون جابوا مختلف الأقطار، فكان لها الفضل الكبير في تشجيع الناس على التّرحال والانتقال، وذلك بتقديم يدّ العون والمساعدة لهم.

أمّا ابن قنفذ القسنطيني فلم يذكر في رحلته " أنس الفقير وعزّ الحقيّر " سوى زاوية واحدة للحاج ابن عبد الغني⁽¹⁾ بمقربة من الجامع الأعظم⁽²⁾ بفاس، فهذه الزّاوية يأوى إليها الأخيار والمنقطعون للعبادة، وكان حظّ ابن قنفذ وفيراً لأنّه دخلها، وأنزله صاحبها في بيتٍ كُتِبَ، وناوله مفتاح خزانتها، كما أنّه تبرّك بدعائه ولقائه.

يرجع السبب إلى عدم اهتمامه بالزّوايا، وإحصائها، وتحديد مواقعها إلى اهتمامه بالترجمة للشيخ أبي مدين شعيب، وأشياخه الذين أخذ عنهم علم التّصوف، وتلاميذه الذين نقل إليهم ما تعلّمه من شيوخه.

أفاد ابن قنفذ في وصف ارتساماته عن الشخصيات المغربية الفدّة، أبرز من خلالها النهضة الدّينية والعلمية في بعض المدن المغربية، وبخاصة فاس حاضرة المغرب المريّني، فرصد الرّحالة حياة الصوفية بالمغرب في عصره، حيث كثرت خلال القرن الثامن للهجرة في عهد المريّنيين الطوائف الصوفية والزّوايا التي كان يرتادها الطلبة والمريدون، فأحصاها ابن قنفذ فوجدها متعددة في المغرب الأقصى، حيث اختلفت هذه الطرق التي اتّبعها المشايخ باختلاف مشاربهم، وتربيتهم الرّوحية، فهناك من المشايخ من سلك طريق الشّدة في تربية المريدون، كالإكثار من الصيام والسهر والخلوة بالنفس والاعتزال عن

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص129.

(2) يوجد الجامع الكبير في مدينة فاس الجديدة (المدينة البيضاء)، بني على يد أبي عبد الله بن عبد الكريم الحدودي وأبي علي بن الأزرق والي مكناس، تمّ بناؤه في شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وستمئة. ينظر: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لعلّي ابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص162.

الناس والدوام على الذكر، ومنهم من سلك طريقة اللين، ومنهم من اتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين، ومن هذه الطوائف التي ورد ذكرها في رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقيّر⁽¹⁾:

1/الشعبيون: هم طائفة أبي مدين آزمون من أشياخ الشَّيْخ أبي يعزى.

2/الماجريون: هم طائفة أبي محمد صالح الماجري، ومنهم الدكاليون.

3/الصنهاجيون: من طائفة بني أمغار من بلد بيطنطفي من أقران أبي شعيب.

4/الحُجَّاج: هي طائفة لا يدخلها إلا من حجَّ بيت الله الحرام.

5/الحاحيون: منهم جملة من جبل دَرْن، وهم طائفة أبي زكرياء يحيى بن أبي عمر، وعبد الله بن

يحيى الحاحي.

6/الغماتيون: هم طائفة الشَّيْخ أبي زيد عبد الرحمن الهزميري.

كانت هذه جملة الطوائف الموجودة بالمغرب الأقصى، التي ذهب إليها ابن قنفذ، وجلس مع بعض شيوخها، واستفاد من علمهم، وتبرَّك بدعائهم.

والمتصوفة هم مجموعة من المسلمين تَلَبَّسُوا برداء الطُّهر، والعفة، والزُّهد، والتوبة، وابتعدوا عن ملذات الدنيا، فكان في كل زاوية شيخ ومجموعة من الطُّلبة يطلق عليهم اسم المريدين، يتبعونه ويستزيدون من علمه وحكمته، جمعت بينهم روابط مودَّة وأخوة في الله تعالى، وهناك مجموعة من الآداب تحلَّوا بها، سردها ابن قنفذ في رحلته، منها⁽²⁾:

* الإخاء في الله تعالى.

* قوة الإيمان في التخلق والصبر، واحتمال الأذى، وصفاء المعاملة.

* قبول العُذر، والتماسه، والصفح، والإحسان.

* نفي التمييز في المال وجميع الأحوال، ونفي الافتقار إلى الاستئذان.

* أن يحبَّ المرء لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

* الإكثار من صحبة الصَّالحين فإنَّ فيهم الشِّفْعاء.

* إحسان الظَّن.

* التخلق بالأخلاق الجميلة، والتواضع.

(1) أنس الفقير وعزُّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 106.

(2) المصدر نفسه، ص 133 - 134.

أمّا فيما يخصُّ الزَّوايا التي ذَكَرَهَا صَاحِبُ " تُحْفَةِ النُّظَار " فهي كثيرة تصل إلى مئة زاوية زارها، وقضى ليلاليه فيها، وهي كآلاتي:

* زاوية خارج باب إبراهيم⁽¹⁾: (هو باب من أبواب المسجد الحرام).

تقع هذه الزاوية خارج باب إبراهيم، وبإزائها دار إمام المالكية الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المدعو خليل.

* زوايا سوريا:

– زاوية الإبراهيمي⁽²⁾: تقع هذه الزاوية في حصن الأكراد⁽³⁾، سُمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى بعض كبار الأمراء.

– زاوية على قبر إبراهيم بن أدهم⁽⁴⁾:

تقع هذه الزاوية في مدينة جبلة⁽⁵⁾، يوجد بها بركة ماء، وطعام للصادر والوارد، وشيخها في عهد دخول ابن بطوطة إليها من كبار الصالحين يدعى إبراهيم الجُمحي، وهي زاوية مقصودة من سائر أقطار الشام، وبخاصة في ليلة النصف من شعبان.

* زوايا مصر: هناك زوايا كثيرة في مصر، وكلّ منها خاصة بطائفة من الفقراء.

– زاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي⁽⁶⁾: زار الرّحالة هذه الزاوية بمجرد وصوله إلى مدينة فوّا⁽⁷⁾ بغية لقاء شيخها أبي عبد الله المرشدي الذي كان في غاية اللطف والإكرام، حيث استقبله استقبلاً حاراً، وقَدَّم له الطعام، ولما حَضَرَت صلاة العصر قَدَّمَهُ للصلاة إماماً عليهم.

(1) رحلة ابن بطوطة، 378/1.

(2) المصدر نفسه، 266/1.

(3) هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبك وحمص. معجم البلدان لياقوت الحموي، 264/2.

(4) رحلة ابن بطوطة، 291/1.

(5) قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 105/2.

(6) رحلة ابن بطوطة، 193/1.

(7) بليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد، بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 280/4.

- زاوية الشيخ مرزوق ⁽¹⁾: أشار إلى نزوله بها ضيفاً.
- زاوية الشيخ شمس الدين الفلوي ⁽²⁾.
- زاوية الشيخ المعروف بابن قفل ⁽³⁾: قضى ابن بطّوطة ليلة في هذه الزاوية مع الفقراء والمريدين الذين قَطَعُوا ليلتهم في الصلاة وقراءة القرآن.
- زاوية جمال الدين السّاوي ⁽⁴⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة دميّاط ⁽⁵⁾، وشيخها جمال الدين السّاوي قدوة الطائفة المعروف بالقرنْدرية.
- زاوية بشرق مسجد عمر بن العاص ⁽⁶⁾: في هذه الزاوية كان يُدرّسُ الإمام أبو عبد الله الشافعي صاحب المذهب رضي الله عنه .
- زاوية الشيخ شهاب الدين بن الصباغ ⁽⁷⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة أسيوط ⁽⁸⁾، نزل بها ابن بطّوطة في ضيافة الشيخ الصالح شهاب الدين بن الصباغ .
- زاوية برهان الدّين إبراهيم الأندلسي ⁽⁹⁾.
- زاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر ⁽¹⁰⁾: من عوائد رواد هذه الزاوية أنّهم يجتمعون كلّ يوم جمعة، ومعهم الخطيب نور الدين، وأولاده، وقاضي المدينة، فيختمون القرآن، ويذكرون الله إلى صلاة العصر، فإذا صلّوا قرؤوا سورة الكهف.

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/196.

(2) المصدر نفسه، 1/197.

(3) المصدر نفسه، 1/198.

(4) المصدر نفسه، 1/199.

(5) مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهي ثغر من ثغور الإسلام. معجم البلدان لياقوت الحموي، 2/472.

(6) رحلة ابن بطوطة، 1/203.

(7) المصدر نفسه، 1/227.

(8) مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر، وهي مدينة جليلة كبيرة. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/193.

(9) رحلة ابن بطوطة، 1/227.

(10) المصدر نفسه، 1/227.

- زاوية على قبر أبي الحجاج الأقصري⁽¹⁾: أشار إليها الرحالة عندما نزل في مدينة أقصر⁽²⁾.
- زاويتان خارج مدينة قوص⁽³⁾ هما⁽⁴⁾: زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار، وزاوية الأفرم.
- زاوية لبعض المصريين⁽⁵⁾: أشار الرحالة إلى نزوله بهذه الزاوية، وأنه صلى بها الصبح.

* زوايا الأردن:

- زاوية على قبر عبيدة بن الجراح⁽⁶⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة " الغور "⁽⁷⁾، زارها ابن بطوطة، وقضى ليلته فيها.
- زاوية في طبرية: توجد هذه الزاوية في الجُبَّ⁽⁸⁾ الذي أُلقيَ فيه سيدنا يوسف عليه السلام.
- * زاوية يسكنها أربعة من الفقراء⁽⁹⁾: تقع هذه الزاوية على ساحل بحر الأبلّة.
- * زاوية الشيخ أبي محمد بن أبي بكر عيسى⁽¹⁰⁾: توجد هذه الزاوية بالقرب من مدينة ظفار، وهي زاوية معظّمة يأتي إليها أهل ظفار في الصباح والمساء. أقام فيها ابن بطوطة في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد، وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر عيسى.
- * الزاوية العظمى على غدير حمص⁽¹¹⁾: تقع هذه الزاوية خارج المدينة البيضاء.

(1) يوسف بن عبد الرحيم بن عربي القرشي المهدي الأقصري، أبو الحجاج: من كبار الصوفية في عصره. نزل بالأقصر (بصعيد مصر)، وقبره فيها معروف إلى الآن. ينظر: الأعلام، 238/8.

(2) اسم مدينة على شاطئ شرقي النيل بالصعيد الأعلى فوق قوص، وهي أزلية قديمة ذات قصور، ولذلك سميت الأقصر. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 237/1.

(3) مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، بينها وبين القسطنطين اثنا عشر يوما. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 413/4.

(4) رحلة ابن بطوطة، 228/1.

(5) المصدر نفسه، 180/4.

(6) المصدر نفسه، 256/1.

(7) غور الأردن بالشام بين البيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة أيام، وعرضه نحو يوم، فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ومنها مأخذ مياهها. معجم البلدان لياقوت الحموي، 217/4.

(8) رحلة ابن بطوطة، 260/1.

(9) المصدر نفسه، 17/2.

(10) المصدر نفسه، 126/2.

(11) المصدر نفسه، 202/4.

* زاوية اللّجام⁽¹⁾:

توجد هذه الزّاوية بأعلى ربض نجد خارج غرناطة المتصل بجبل السّيبكة، وهناك التقى ابن بطّوطة بالفقيه أبي الحسن عليّ بن أحمد المحروق.

* زاوية على قبر حبيب النجار⁽²⁾: شيخها الصالح محمد بن عليّ الذي ينيف عمره على المئة، التقاه ابن بطّوطة، وتبرّك به، ويوجد في هذه الزّاوية طعام للوارد والصادر.

* زاوية في مدينة صهيون⁽³⁾: أشار ابن بطّوطة إلى وجود زاوية في وسط بُسْتَان في مدينة صهيون⁽⁴⁾، بُنيت على قبر الشّيخ عيسى البدوي.

* زوايا رامز⁽⁵⁾: يوجد في هذه المدينة زوايا على طول الطريق، ولكلّ زاوية شيخ وإمام ومؤذن وخادم للفقراء، وكذا خدّم يطبخون الطعام للوارد والصادر، ومن مأكولاتهم: الخبز واللحم والحلواء التي يصنعونها من رُبّ العنب مخلوطا بالدقيق والسمن.

* زوايا تستر⁽⁶⁾: يوجد فيها عديد من الزوايا منها:

- زاوية الشّيخ صدر الدّين سليمان⁽⁷⁾: نزل الرّحالة في هذه الزّاوية في ضيافة الشّيخ صدر الدين سليمان، ثمّ ذكر شيئا من عوائد أهلها، فهذه الزّاوية يخدمها أربعة فتيان كل منهم موكل بعمل ما، أحدهم موكل بأوقاف الزاوية، والثاني بالتّفقات التي تحتاجها الزّاوية في كل يوم، والثالث خديم السّماط ومرتبّ الطعام، والرابع مهمّة مراقبة الطّباخين والسّوّائين والفرّاشين. أقام ابن بطّوطة في ضيافة أهل هذه الزّاوية ست عشرة يوما.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 227/4.

(2) المصدر نفسه، 284/1.

(3) المصدر نفسه، 286/1.

(4) قال الأزهري قال أبو عمرو: صهيون هي الروم، وقيل: البيت المقدس. فهو موضع معروف بالبيت المقدس محلة فيها كنيسة صهيون، وصهيون أيضا: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر، وهي قلعة حصينة مكيّة في طرف جبل. معجم البلدان لياقوت الحموي، 436/3.

(5) مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، والعامة يسمونها رامز كسلا منهم عن تمة اللفظة (رامهرمز) بكاملها واختصاراً. ورامهرمز من بين مدُن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 17/3.

(6) أعظم مدينة بخوزستان وأصبهان اليوم، وهو تعريب شوشتر؛ وقال الرّجّاجي: سميت بذلك لأن رجلاً من بني عجل يقال له تُسْتَر بن نون افتتحها فسميت بذلك. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 29/2.

(7) رحلة ابن بطّوطة، 22/2.

– زاوية بها جماعة من الفقراء ⁽¹⁾: أهل هذه المنطقة يزعمون أنّها على تربة زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

* زاوية الدّينوري ⁽²⁾: توجد هذه الزّاوية في مدينة إيذج ⁽³⁾، أقام فيها ابن بطّوطة في ضيافة الشّيخ العالم نور الدين الكرمانيّ عدّة أيام، حيث وصل إليها في أيام الحرّ الشّدِيد، فكان يَنَام بأعلى سطحها في الليل، ومعه اثنا عشر فقيراً منهم إمام وقارئان وخادم.

* زاوية تُنسب للشّيخ عليّ بن سهل ⁽⁴⁾: هذه الزّاوية معظّمة، يقصدها النّاس من كلّ مكان للتبرّك بها، شيخها قطب الدين حسين بن الشّيخ الصّالح وليّ الله شمس الدين محمد بن محمود بن عليّ المعروف بالرّجاء. وُضِعَ في هذه الزّاوية طعام للصادر والوارد، وبها، أيضاً، حمام جميل مفروش بالرّخام، وحيطانه بالقاشاني، وُضِعَ خصيصاً لعابري السبيل دون مقابل.

* زاوية عمّرها خواجه كافي ⁽⁵⁾: تقع هذه الزّاوية في مدينة إصفهان.

* زاوية بصرماء ⁽⁶⁾: عمّرها خواجه كافي، وفيها الطعام للوارد والصادر.

* زاوية في بلدة كليل ⁽⁷⁾: أشار ابن بطّوطة إلى هذه الزّاوية دون أن يصف عوائد أصحابها في الطعام والصلاة والذكر.

* زاوية الشّيخ أبي إسحاق ⁽⁸⁾:

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 22/2.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 24/2.

⁽³⁾ كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان، وهي أجل مُدُن هذه الكورة، وهي في وسط الجبال، يقعُ بها ثلج كثير يُحمل إلى الأهواز والنواحي. ينظر: معجم البلدان، 1/288.

⁽⁴⁾ رحلة ابن بطوطة، 31/2.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 33/2.

⁽⁶⁾ Surme قرية قبل منطقة قُلي كوش (QOLIKOSH) على بُعد يومين جنوب يزد خُواسْت. ينظر: رحلة ابن بطوطة

(الحاشية)، 33/2.

⁽⁷⁾ رحلة ابن بطوطة، 40/2.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، 52/2.

توجد هذه الزاوية في مدينة كازرون⁽¹⁾، زارها الرّحالة، وقضى فيها ليلته، واطلع على عوائد أهلها فيها، منها أنّهم يطعمون الضيوف الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق، ومن عادتهم، أيضاً، أن الضيف يقيم عندهم ثلاثة أيام على الأقل، وتعرض حوائجه على شيخ الزاوية لكي يوفرها له.

* زاوية على قبر قازان ⁽²⁾ : بُنيت هذه الزاوية على قبر قازان ملك العراق في مدينة تبريز في مكان يعرف بالشّام.

* زاوية في مدينة الأحقاف ⁽³⁾ .

* زاوية في مدينة جرون ⁽⁴⁾ : يسكنها أحد المشايخ يخدم فيها عابر السبيل .

* زاوية لرجل صالح ⁽⁵⁾ : بات ابن بطّوطة في ضيافة هذا الرّجل .

* زاوية الشيخ أبي دلف محمد ⁽⁶⁾ : تقع هذه الزاوية في مدينة لار⁽⁷⁾، وبها ولده أبو زيد عبد الرحمن، ومعه جماعة من الفقراء، ومن عوائدهم أنّهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر، ويطوفون على دور البلدة لأخذ الرّغيف والطعام ليطعموا بها المارين عليهم.

* زاوية في مدينة خنج بال ⁽⁸⁾ :

سمِعَ ابن بطّوطة بهذه الزاوية التي فيها مجموعة من الصّالحين والمتعبّدين فأحبّ أن يزورها، وبالفعل حصل له ما تمّنى، وسلّم على شيخها ومن معه من العبّاد الذين أثّرت فيهم العبادة، فبدا ذلك واضحاً على وجوههم وأجسامهم، فهم صفر الألوان نحاف الأجسام.

(1) مدينة بفارس بين البحر وشيراز، قال البشّاري: كازرون بلدة عامرة كبيرة وهي دميّاط الأعاجم. ينظر: معجم البلدان

لياقوت الحموي، 429/4.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 76/2.

(3) المصدر نفسه، 126/2.

(4) المصدر نفسه، 136/2.

(5) المصدر نفسه، 137/2.

(6) المصدر نفسه، 145/2.

(7) جزيرة كبيرة بين سيراف وقيس، فيها عدة قرى، وفيها مغاص اللؤلؤ. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 7/5.

(8) Khunj-Upal اسم مزدوج لمدينتين هما: خنج وفال، خنج تقع على بعد 40 ميلاً شمال غرب لار، وكثيراً ما تلبس مع

هونج التي تقع على بعد 50 ميلاً جنوب لار، وإن أطلال وخرائب فال توجد على أربعة أميال جنوب كالا دار، نحو 60

ميلاً غرب خنج على الخط 38-27 شمالاً و39-52 شرقاً. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 146/2.

* زوايا تركيا :

- زاوية لمجموعة من الأخية ⁽¹⁾: تقع هذه الزاوية في أنطالية ⁽²⁾؛ وهي زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومىة.
- زاوية لأحد الفتيان الأخية ⁽³⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة قل حصار ⁽⁴⁾.
- زاوية أخي سينان ⁽⁵⁾.
- زاوية أخي طومان: توجد هذه الزاوية في مدينة أرز الروم ⁽⁶⁾، نزل بها ابن بطوطة وأصحابه، فقام الشيخ أخي طومان بخدمتهم بنفسه، وهو شيخ كبير السن ناهز المائة والثلاثون سنة، نزلوا في ضيافته ثلاثة أيام، وذلك بإلحاح منه لأن أقل الضيافة في عرفهم ثلاثة أيام.
- زاوية لرجل فقير: نزل ابن بطوطة في هذه الزاوية التي تقع في حصن طواس ⁽⁷⁾.
- زاوية لأحد المشايخ: تقع هذه الزاوية في مدينة مغلّة ⁽⁸⁾، وهي لأحد المشايخ عرف بالصلاح والفضل.
- زاوية لأحد الفتيان الأخية ⁽⁹⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة ميلاس .

(1) رحلة ابن بطوطة، 165/2.

(2) بلد كبير من مشاهير بلاد الروم، كان أول من نزله أنطالية بنت الروم بنت اليقن بن سام ابن نوح أخت أنطاكية فسمي باسمها؛ وقال البلخي: إذا تجاوزت قلمية والأمس انتهت إلى أنطالية حصن للروم على سطر البحر منيع واسع الرستاق كثير الأهل، ثم تنتهي إلى خليج القسطنطينية. معجم البلدان لياقوت الحموي، 270/1.

(3) رحلة ابن بطوطة، 168/2.

(4) قال هزار Gul-Hisar حصن يقع في جزيرة على بحيرة 90 كم جنوب غرب بُردور ترتبط مع الأرض بواسطة ممر صغير. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 168/2.

(5) رحلة ابن بطوطة، 170/2.

(6) على بعد 150 كم شرقي أرزنجان، اسم أرز الروم أعطى لهذا الموقع من لدن الأرمنيين الذين انتقلوا إليها بعد تخريب أرزان من لدن السلاجقة عام 440 الاسم المحلي لها هو كرين. لم ينص مصدر آخر على وجود الأنهار بها ولكن فقط السقايات، وكذلك فإنه لا توجد بها دوالي. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 183/2.

(7) هو Tavas الحالية، على بعد 40 كم جنوب دُنزلي (Denizli) وقد ذكرها العُمري كإمارة. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 171/2.

(8) Mugla على بعد 75 كم على الطريق جنوب غرب طواس مغلّة الحالية، لقد دخل ابن بطوطة هنا في إمارة منتشا. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 171/2.

(9) رحلة ابن بطوطة، 172/2.

- زاوية الفتى أخي عليّ: نزل ابن بطّوطة في ضيافة هذا الأخي في مدينة برجين⁽¹⁾.
- زاوية للقاضي ابن قلم شاه⁽²⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة قونية⁽³⁾، تنسب للقاضي ابن قلم شاه، وهو من الفتيان، وزاويته من أحسن الزوايا، وله عدد كبير من الطلبة.
- زاوية الشريف حسين: توجد هذه الزاوية في مدينة أقصرا⁽⁴⁾، وهي للشريف حسين النائب بها عن الأمير أرثنا (نائب ملك العراق).
- زاوية أخي جاروق: نزل فيها ابن بطّوطة عندما وصل إلى مدينة اللارندة⁽⁵⁾.
- زاوية الفتى أخي أمير عليّ⁽⁶⁾:
- نزل الرّحالة فيها ضيفاً عندما حلّ بمدينة قيسارية⁽⁷⁾، وشيخها أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد.
- زاوية الفتى أخي بحفجي⁽⁸⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة سيواس⁽⁹⁾.
- زاوية الفتى أخي جليبي⁽¹⁰⁾: أشار ابن بطّوطة إلى نزوله بهذه الزاوية.

(1) على بعد خمسة كيلومترات جنوب ميلاس. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 172/2.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 173/2.

(3) من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبأقصري سُكنى ملوكها، قال الهروي: وبها قبر أفلاطون الحكيم بالكنيسة التي في جنب الجامع. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 415/4.

(4) Aksaray على بعد 155 كم شمال شرق لارندا على الطريق الآخذ من قونية إلى قيسارية Kayseri، وليس على الطريق التي تذهب من قونية إلى نكدة Nigde عبر لارندة المسلموكة - على ما يظهر - طريق ابن بطّوطة، ومع هذا فيمكن أن يكون الأمر يتعلق بخط سير طريق العودة. المدينة التي أنشأت من لدن الأمير السلجوقي عز الدين كيلىج أرسلان الثاني سنة 566 كانت حسب مستوفي مكاناً خصباً يُنتج الحبوب الرفيعة والعنب الكثير. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 176/2.

(5) هي كَرْمَان الحالية، على بعد 100 كم جنوب شرق قونية، هدمت من طرف إيلخان كيلىج أرسلان سنة 690، وبنيت من جديد حوالي 711 من لدن كرمان أوغلو أحد أمراء آسيا الصغرى، والذي جعل من كرمان محلّ إقامته ومن اسمه أخذت المدينة اسمها. ينظر: رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 175/2.

(6) رحلة ابن بطّوطة، 177/2.

(7) مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، وهي كرسيّ مُلك بني سلجوق ملوك الروم أولاد قلىج أرسلان. ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، 421/4.

(8) رحلة ابن بطّوطة، 179/2.

(9) إحدى المدن المهمة كثيراً في الأناضول على ذلك العهد، وهي سيباسط وتقع على بعد 175 شمال شرقي قيسارية وهي سياستبا القديمة، مقر الحكام المغوليين منذ سنة 704. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 179/2.

(10) رحلة ابن بطّوطة، 180/2.

- زاوية أولاد وليّ الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي: نزل الرحالة في بلدة سُوسَى⁽¹⁾ في هذه الزاوية .
- زاوية الأخي مجد الدين: توجد هذه الزاوية في مدينة كُمِشْ⁽²⁾، نزل بها ابن بطّوطة، وأقام في ضيافة الأخي مجد الدين ورفقائه ثلاثة أيام.
- زاوية الفتى أخى نظام الدين⁽³⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة أرزنجان.
- زاوية الفتى أخى محمد⁽⁴⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة تيرة⁽⁵⁾، وشيخها الفتى أخى محمد من كبار الصالحين صوام الدهر.
- زاوية الشيخ يعقوب⁽⁶⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة إزمير⁽⁷⁾، نزل فيها ابن بطّوطة في ضيافة شيخها الفاضل يعقوب.
- زاوية لرجل من الفتيان: أشار ابن بطّوطة إلى نزوله بهذه الزاوية عندما حلّ بمدينة مَغْنِيسِيَّة⁽⁸⁾.
- زاوية لفقيه من الأحمديّة⁽⁹⁾.
- زاوية للواردين: بُنِيَتْ هذه الزاوية خِصِيصاً للواردين، ومدة مقامهم فيها ثلاثة أيام، تقع في مدينة بُرْصَى⁽¹⁰⁾، عَمَرَهَا أحد ملوك التركمان.

(1) المدينة الحالية Sounsa على بعد 50 كم على الطريق شرق أماصيا في سافلة نهر yesil Irmam. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 181/2.

(2) كُومِشْ أو كُوموشان Gumusane يوجد على بعد أكثر من 60 كم شرق سُوسَى، ومن المفروض أن لا يصلها المرء إلا انطلاقاً من طرابزون أو من بايبورت Baiburt 70 كم شرقها. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 181/2.

(3) رحلة ابن بطوطة، 183/2.

(4) المصدر نفسه، 198/2.

(5) قلعة حليلة حصينة من نواحي قَرْوِين من جهة رَنْجَان. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 66/2.

(6) رحلة ابن بطوطة، 191/2.

(7) Smyrna كانت تتوفر على قلعتين إحداها بـ Mons Pagus وما تزال إلى الآن أطلالها شاخصة، انتزعها عام 717 الأمير محمد بك من لدن الجنويين، ثانيتهما قريبة من الميناء، احتلت عام 729 من قبل عُمر بك. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 189/2.

(8) Magnesi هي مانيزا Manisa الحالية على بعد 35 كم شمال شرق آزميز، استولى عليها صاروخان (Saru-Khan) مؤسس الدولة التركمانية عام 713. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 193/2.

(9) رحلة ابن بطوطة، 195/2.

(10) Bursa تقع على 120 كم شمال شرق بَلَى كَسْرَى انتزعها أورخان من لدن البيزنطيين الإغريق بضعة أيام قبل وفاة والده عثمان عام 726، وهي مهد العثمانيين. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 196/2.

- زاوية الفتى أخى شمس الدين ⁽¹⁾: هذا الفتى أخى شمس الدين من كبار الفتيان، عَزَمَ ابن بطوطة ورفاقه للاحتفال معهم بيوم عاشوراء في زاويته، فوضع لهم طعاماً كثيراً، كما دعا أهل المدينة للإفطار عنده، ثم قرأ القُرْأُ بالأصواتِ الحسانِ، ثم أَلْقَى الفقيهُ مجد الدين القونوي خطبةً خشع لها الحضور.
- زاوية أحد الأخية ⁽²⁾: أشار الرحالة إلى أنه نزل بهذه الزاوية عندما وصل إلى مدينة كاوية ⁽³⁾.
- زاوية بمدينة كَرْدِي يُولِي ⁽⁴⁾.

- زاوية شيخ يعرف بالأطرش : نزل فيها الرحالة عندما حلَّ بمدينة قَصْطُمُونِيَّة ⁽⁵⁾.
- زاوية بإحدى القرى ⁽⁶⁾: أُعْجِبَ الرحالة بهذه الزاوية كثيراً، فعَدَّها من أحسنِ الزوايا التي رآها في تلك البلاد.

- زاوية عمَّرها بعض الفتيان الأخية ⁽⁷⁾: عَمَّرَ هذه الزاوية فتى من الأخية يُعرف بنظام الدين من أهل قَصْطُمُونِيَّة على جبل شامخ.

- زاويتان في مدينة صُنُوب ⁽⁸⁾ هما: زاوية عز الدين أخي جلبي، وزاوية على قبر بلال الحبشي ⁽⁹⁾.
- * زاوية الشَّيْخ راده الخراساني في مدينة قِرم ⁽¹⁰⁾.

- * زاوية بناها الأمير فخر الدين ⁽¹¹⁾: زاوية عظيمة بناها أمير كبير يُعرف بفخر الدين .

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 196/2.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 201/2.

⁽³⁾ هي Geyve على بعد 50 كم شرق إيزنيك. أنظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 198/2.

⁽⁴⁾ هي (BOLU) (Gerede) الحالية على بعد 37 كم شرقي بولو (BOLU) سالفة الذكر. على بعد قليل نحو الشرق من هذه المدينة. نجد ابن بطوطة يغادر الطريق الرئيسي لأنطاليا متَّجهاً نحو شاطئ البحر الأسود. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 204/2.

⁽⁵⁾ Kastamonu على بعد 90 كم شرقي سَافَرَا بَنُولُو (Safronbolu). ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 205/2.

⁽⁶⁾ رحلة ابن بطوطة، 208/2.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، 208/2.

⁽⁸⁾ (Sinop) على بعد 95 كم شمال شرق طاشكوبر إحدى المراسي الأساسية للأناضول على البحر الأسود على ذلك العهد، تقع على شبه جزيرة تتصل باليابسة من جهة الغرب. رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 208/2.

⁽⁹⁾ رحلة ابن بطوطة، 209/2.

⁽¹⁰⁾ المصدر نفسه، 217/2.

⁽¹¹⁾ المصدر نفسه، 208/2.

- * زاوية علي تربة الشيخ جلال الدين المعروف بمولانا ⁽¹⁾.
- * زاوية الأمير تُلكُتمور ⁽²⁾: توجد هذه الزاوية في موضع يُعرف بسجّجان.
- * زاوية الشيخ محمد البطائحي ⁽³⁾: أشار ابن بطّوطة إلى نزوله بهذه الزاوية، ولم يذكر شيئاً من عوائد أهلها. سوى أنّه يأتي إليها السلطان والخواتين للتبرّك.
- * زاوية الشيخ رجب النهر ⁽⁴⁾: نزل فيها الرحالة في ضيافة هذا الشيخ.
- * زاويتان في مدينة السرا ⁽⁵⁾ هما: زاوية الشيخ الصالح الحاج نظام الدين، وزاوية الفقيه نعمان الدين الخوارزمي.
- * زاوية أطا: تقع في مدينة سراجوق ⁽⁶⁾.
- * زاوية علي تربة نجم الدين الكبرا ⁽⁷⁾: تقع هذه الزاوية بخارج خوارزم ⁽⁸⁾.
- * زاوية الشيخ جلال الدين السمرقندي ⁽⁹⁾: نزل بها ابن بطّوطة في ضيافة هذا الشيخ.
- * زاوية الشيخ سيف الدين الباخري ⁽¹⁰⁾:
- تقع هذه الزاوية في مدينة بُخارى ⁽¹¹⁾، وشيخها من كبار الأولياء الصالحين، بُنيت هذه الزاوية على قبره، وهي زاوية عظيمة لها أوقاف ضخمة.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطّوطة، 2/173.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 2/221.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 2/238.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 2/240.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 2/260.

⁽⁶⁾ هي بالذات سرايشيك Sarachiq الحالية على بعد 40 ميلاً من مصب نهر أوزال، المسمى أولو سو (ULU-SU) من لدن الأتراك، يعني النهر الكبير والمسمى يايك (YAYIK) من قبل الجغرافيين العرب. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 7/3.

⁽⁷⁾ رحلة ابن بطّوطة، 3/10.

⁽⁸⁾ خوارزم ليس اسماً للمدينة، إنّما هو اسم للناحية يجمعتها. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 2/395.

⁽⁹⁾ رحلة ابن بطّوطة، 3/12.

⁽¹⁰⁾ المصدر نفسه، 3/24.

⁽¹¹⁾ من أعظم مدُن ما وراء النهر وأجلّها، يُعبر إليها من آمل الشطّ، وما بينها وبين جيحون يومان. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/353.

* زاوية على قبر قُتم ابن العباس⁽¹⁾:

أشار إليها الرحالة عند نزوله بمدينة سمرقند⁽²⁾.

* زاوية الشيخ عزيزان⁽³⁾: شيخ هذه الزاوية من كبار المشايخ، نزل ابن بطّوطة في ضيافته عندما وصل إلى مدينة ترمذ⁽⁴⁾.

* زاوية الشيخ قطب الدين النيسابوري⁽⁵⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة نيسابور⁽⁶⁾، وشيخها من كبار الصالحين والعلماء.

* زاوية الشيخ أبي زيد البسطامي⁽⁷⁾.

* زاوية بشير سيّاه⁽⁸⁾: أشار الرحالة إلى نزوله بهذه الزاوية.

* زاوية أطا أولياء⁽⁹⁾: توجد هذه الزاوية في جبل بَشَاي.

* زاوية على قبر عُكاشة بن مِخْصَن الأسدي⁽¹⁰⁾: هو صَحَابِي من المقرّبين إلى الرّسول صلى الله عليه وسلّم، بُنيت على قبره زاوية يتبرّك بها النّاس، وشيخها في عهد دخول ابن بطّوطة يُعرّف بالحاج خُرْد.

* زاوية الشيخ إسماعيل الأفغاني⁽¹¹⁾:

(1) رحلة ابن بطوطة، 38/3.

(2) بلد معروف مشهور، فيما إله من أبنائه ذي العريين بما وراء النهر، وهو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 246/3-247.

(3) رحلة ابن بطوطة، 40/3.

(4) مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 26/2.

(5) رحلة ابن بطوطة، 57/3.

(6) مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء، اختلف في تسميتها بهذا الاسم فقال بعضهم: إنما سميت بذلك لأنّ سابور مرّ بها وفيها قصب كثير، فقال يصلح أن يكون ههنا مدينة، فقل له نيسابور. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 331/5.

(7) رحلة ابن بطوطة، 58/3.

(8) المصدر نفسه، 60/3.

(9) المصدر نفسه، 98/3.

(10) المصدر نفسه، 99/3.

(11) المصدر نفسه، 63/3.

توجد هذه الزاوية في مدينة كابل⁽¹⁾، شيخها إسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الأولياء الصالحين.

* زاوية الشيخ عثمان المرندي⁽²⁾: نزل فيها ابن بطوطة عندما ذهب للقاء الشيخ محمد البغدادي.
* زاوية الشيخ فريد الدين البدائي⁽³⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة أجودهن⁽⁴⁾، نزل فيها ابن بطوطة في ضيافة برهان الدين البدائي، وهو الشيخ الذي حدّثه عنه الشيخ برهان الدين الأعرج بالإسكندرية، وقال له أنّه سيلقاه في الهند، وبالفعل قدّر لابن بطوطة زيارة الهند، ومن ثمّ ذهب إلى هذه الزاوية للتبرّك بالشيخ، والانتفاع بدعائه.

* زاوية في مدينة بكار⁽⁵⁾: بُنيت هذه الزاوية في خليج عمّرها كشلوخان⁽⁶⁾ أيام ولايته على السند، فيها طعام لعابري السبيل.

* زاوية في مدينة برج بوره⁽⁷⁾: زاوية حسنة، شيخها من أولياء الله الصالحين يدعى محمد العريان.

* زاوية للتاجر خواجه إسحاق⁽⁸⁾: تقع هذه الزاوية في مدينة كُنباية⁽⁹⁾.

* زاوية الشيخ محمد الناقوري⁽¹⁰⁾: توجد هذه الزاوية في مدينة هنور⁽¹¹⁾.

(1) اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو الهند، وكابل ولاية ذات مروج كبيرة بين الهند وغزنة. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 426/4.

(2) رحلة ابن بطوطة، 63/3.

(3) المصدر نفسه، 81/3.

(4) تقع بين ملتان وأبو هر، مكان عبور وادي سوتلج الأكثر شرقاً للبنجاب، وقد سميت من قبل الإمبراطور أكبر ياكبطان تكريماً للشيخ فريد الدين. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 99/3.

(5) قرية من قرى شيراز من أرض فارس. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 474/1.

(6) رحلة ابن بطوطة، 89/3.

(7) المصدر نفسه، 87/3.

(8) المصدر نفسه، 15/4.

(9) مدينة بأرض الهند من مملكة بلهري وهي على خليج من البحر أعرض من النيل، فيحزر الماء في هذا الخليج حتى يبدو الرمل وقر الخليج ويبقى فيه اليسير من الماء. وأهل هذه البلدة عبدة أصنام. ينظر: الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص 496.

(10) رحلة ابن بطوطة، 33/4.

(11) Honavar تقع في إقليم كَانَارَا KANARA عند مصب نهر شاراواقي SHARAVATI. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 33/4.

* زاوية بَكُولَم⁽¹⁾: أقام الرّحالة في ضيافة أهلها مدّة من الأيام، وكان شيخها فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني.

* زاوية عمّرها الشيخ الصالح نجيب⁽²⁾: شغف ابن بطّوطة الزائد بالزّوايا جعله يزور كل زاوية يسمع بها، أو يجدها في طريقه وعندما سمع بهذه الزّاوية التي عمّرها الشيخ نجيب قصدتها للزيارة والتبرّك.

* زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي⁽³⁾:

تقع هذه الزّاوية في بلاد الصين⁽⁴⁾، قصدتها الرّحالة لزيارة شيخها برهان الدين الصاغرجي صاحب الكرامات العجيبة، وهو صديق الشيخ جلال الدين التبريزي.

* زاوية الشيخ برهان الدين الكازروني⁽⁵⁾.

* زاوية تُعرف بالعثمانية⁽⁶⁾: توجد هذه الزّاوية في المدينة الثالثة من مدينة الخنساء، وهي زاوية حسنة بها طائفة من الصّوفية.

* زاوية الشيخ إبراهيم⁽⁷⁾: بات فيها ابن بطّوطة ليلة عندما سلك طريق أحنديقان.

من خلال هذه الوقفة مع الأربطة والزّوايا يتضح أنّ ابن بطّوطة أفاض في وصف حياة المريدين في الزّوايا والرُّبُط، حيث قال: «إنّ ترتيب أمورهم عجيب»⁽⁸⁾، فليكلّ رابطة وزاوية ظُروفها، وعوائدها في الطّعام والشّراب والصّلاة والذكر: «يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطّعام. فإذا احتسروا الأكل حوّلوا أكلهم إلى خبز ومرة في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرّتان في اليوم»⁽⁹⁾. فالحياة داخل الزّوايا مُنظمة بدقة، والسّاعات مُوزعة بانتظام، فوقّت للطعام، ووقت للنّوم، ووقت للذكر والصّلاة، حيث يجتمعون بشكل مُنظم يُمارسون طقوسهم

(1) رحلة ابن بطّوطة، 33/4.

(2) المصدر نفسه، 51/4.

(3) المصدر نفسه، 69/4.

(4) بلاد في بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشمالها الترك. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 440/3.

(5) رحلة ابن بطّوطة، 106/4.

(6) المصدر نفسه، 146/4.

(7) المصدر نفسه، 190/4.

(8) المصدر نفسه، 204/1.

(9) المصدر نفسه، 204/1.

ومراسيمهم كالقيام بالنوافل، وتلاوة القرآن، والتَّهَجُّد والتَّعَبُّد، فكانت هذه الطُّقوس والتَّراتيل تقريباً تُمارس يومياً، وخاصة بعد صلاة العشاء، وقد أبدى ابن بطوطة دهشته من الحياة الاجتماعية المنظمة داخل الرُّبُط والزوايا لأنها حافظت على تماسكها من الطبقية، وذلك باتحادها واتزانها، وتربط أعضائها كترابط أعضاء جسد الكائن الحي: « المجتمع الربطي يحافظ على اتزانه من حيث التكوين العام وسنرى أنَّ الطبقيَّة تلاسنى فيه »⁽¹⁾. وسنَّ الوُضائف التي تقوم بها الرُّبُط والزوايا، والانتسابات التي تنهض بها هي: تعليم العلم؛ إذ كانت من أهمِّ مراكز نشر التَّصوف الإسلامي، والعلوم الدِّينية، والانتقطاع إلى العبادة والإكثار من الذِّكر الحكيم، وقراءة الأوراد والأذكار بالإضافة إلى أنَّهما كانتا دوراً لعبري السبيل، وللفقراء والمساكين الرَّاغبين في ترك الدُّنيا، والعمل من أجل الآخرة. كانت تلك، إذًا، حياة الصُّوفية والعباد داخل الرُّبُط والزوايا.

٣/ المشاهد و المزارات:

كثر حديث ابن بطوطة عن المشاهد والمزارات خلافا لابن قنفذ، الذي لم يتحدث عنها إطلاقاً، فجاءت رحلته سجلاً حافلاً بها. والشَّهادة والمَشْهَدُ: المَجْمَعُ من النَّاسِ، والمَشْهَدُ: مَسْجِدُ النَّاسِ. ومَشَاهِدُ مَكَّة: المَوَاطِنُ التي يجتمعون بها⁽²⁾.

يَقْصِدُ الرِّحَالَةُ بِالْمَشَاهِدِ وَالْمَزَارَاتِ الْأَمَاكِنَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي وَطَّئَتْهَا أَقْدَامُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَأَقْدَامُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. كان ابن بطوطة شغوفاً بزيارة هذه الأماكن للتبرُّك بها، وبَلَّ أشواقه منها، وما دامت قدماه قد وطَّئَتْهَا فلا ينبغي أن يحرم نفسه مُتعة المشاهدة والزيارة.

أ/ مَكَّة المَكْرَمَةُ:

* الكعبة الشَّريفة زادها الله طيباً: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁽³⁾، تُعْتَبَرُ الْكَعْبَةُ الشَّريفة أَقْدَسُ مَكَانٍ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ عِنْدَ كُلِّ الْمُسْلِمِينَ، فَهِيَ مَكَانٌ طَوَافُهُمْ فِي الْحَجِّ، تَهْوَىٰ كُلُّ الْأَفْتَدَةِ، وَتَتَطَلَّعُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ، إِضَافَةً إِلَىٰ أَنَّهَا قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي صَلَوَاتِهِمْ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ

(1) "مدخل لدراسة الرُّبُط الإسلامية" لعادل الألوسي، ص31.

(2) لسان العرب لابن منظور، 241/3.

(3) الآية 125 من سورة البقرة.

دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿١﴾، فالكعبة الشَّريفة هي أول بيت بُنِيَ على سطح الأرض ليكون مكاناً لعبادة الخالق عزَّ وجلَّ، فضلاً عن أنَّه بيته المعمور الذي لا يخلو من طائف، يُذَكَّرُ فيه اسم الله منذ أول يوم وُضِعَ فيه. أبدع ابن بطَّوطة في وصفها، وإضفاء هالة من التقدير والتعظيم عليها، ومن صفتها أنَّها مُربعة الشكل، تَقَعُ وسط المسجد الحرام، وارتفاعها ثمان وعشرين ذراعاً من جهاتها الثلاث، أمَّا الجهة الرَّابعة التي بين المسرِّ الأسود والرُّكن اليماني فتسح وعشرين ذراعاً.

• أركان الكعبة^(٢):

- الرُّكن العراقي .
- الرُّكن اليماني .
- الرُّكن الشامي .

بُنيت الكعبة الشَّريفة بالحجارة الصُّمِّ السُّمر، ويُلُغ ارتفاع بابها أحد عشر شبراً ونصف، وطوله ثلاث عشرة شبراً^(٣)، وعرض الحائط خمسة أشبار، يُفْتَح هذا الباب في كل يوم جمعة، وفي مولد الرِّسول صلى الله عليه وسلَّم، وقد ذكر الرِّحالة كيفية فتحه.

أمَّا الأرضية فمغطاة بالرَّخام، والحيطان كذلك، وله ثلاث أعمدة مصنوعة من خشب الساج متوسطة الطول بُنيت داخل الكعبة الشَّريفة، وأستارها من الحرير الأسود مكتوب عليها بالفضة آيات قرآنية. ومن عجائبها أنَّها لا تخلو من طائف، وهي مُتَّسِع لكلِّ الحجاج الذين يزُورونها من كلِّ الأمم والبلدان.

* الميزاب المبارك: ميزاب الكعبة هو الجزء المُثبت على سطح الكعبة، والممتد نحو حجر إسماعيل عليه السلام، وُضِعَ لتصريف المياه المحتمة على سطح الكعبة، صُنِعَ من الذهب^(٤)، وسِعَتُهُ شبراً واحداً.

* الحجر الأسود: يُلُغ ارتفاع هذا الحجر عن الأرض ستة أشبار، وهو موجود في الرُّكن الشرقي، وهو الحجر الذي يُقْبَلُ الحاج: « ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه، خاصية مودعة فيه

(١) الآية 96 - 97 من سورة آل عمران.

(٢) رحلة ابن بطَّوطة، 371/1.

(٣) المصدر نفسه، 372/1.

(٤) المصدر نفسه، 373/1.

وعناية ربانية به»⁽¹⁾، والتَّاس يتزاحمون في تقبيل هذا الحجر المبارك. وقد تَعَرَّض للكسر، حيث اختلفت الروايات فيمن كسره، هناك من يقول أنَّ القرمطي هو الذي كسره، وهناك من يقول أنَّ رجلاً آخر كَسَرَهُ بدَبْرَسِه.

* المقام الكريم: يَقَعُ المقام ما بين باب الكعبة والرُّكن العراقي⁽²⁾، طوله اثنا عشر شبراً، وعرضه نصف ذلك، وارتفاعه سبرين، يُقَالُ إِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِهِ رَكْعَتَي سُنَّةِ الطَّوَافِ لَتَوَلَّ تَبَالَى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾⁽³⁾.

* الحجر والمطاف: ذرع تدوير الحجر تسع وعشرون خطوة، وارتفاعه خمسة أشبار، وسعته خمسة أشبار ونصف شبر⁽⁴⁾، وهو من الرِّخام، وله مدخلان مدخل من الرُّكن العراقي، ومدخل من الرُّكن الشامي، أمَّا موضع الطواف فمفروش بالحجارة السوداء.

* زمزم: تقع بئر زمزم⁽⁵⁾ مقابل ركن الحجر الأسود، والمسافة بينهما أربع وعشرين خطوة، داخلها مفروش بالرِّخام الأبيض، أمَّا تَنْوَرُ البئر فيميل قليلاً عن الوسط إلى جهة الجدار المقابل للكعبة الشريفة، ودوره أربعين شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، عمقه إحدى عشر قامة. جُعِلَ فِي قُبَّةِ الْعَبَّاسِ مَاءُ زَمْزَمٍ فِي دَوَارِقٍ كَي يَبْرُدَ لِسَقَايَةِ الْحَجَّاجِ، وَهِيَ أَيْضاً مَخْزَنٌ لِلْمَصَاحِفِ وَالْكِتَابِ الَّتِي بِالْحَرَمِ الشَّرِيفِ.

* قبة الوحي ودار خديجة أم المؤمنين: تقع هذه الدار بالقرب من المسجد الحرام⁽⁶⁾، تُعْتَبَرُ دار خديجة عليها السلام أفضل موضع بمكة بعد المسجد الحرام. وتوجد قبة الوحي فيها بالقرب من باب النبي صلى الله عليه وسلم، وفي هذا البيت أيضاً قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام.

* دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه: تقع هذه الدار بالقرب من دار خديجة عليها السلام⁽⁷⁾، يشك

(1) رحلة ابن بطوطة، 373/1.

(2) المصدر نفسه، 374/1.

(3) الآية 125 من سورة البقرة.

(4) رحلة ابن بطوطة، 375/1.

(5) المصدر نفسه، 376/1.

(6) المصدر نفسه، 379/1.

(7) المصدر نفسه، 380/1.

ابن بطوطة بأنه هو الخوخة ⁽¹⁾ التي ورد ذكرها في الحديث النبوي الشريف، وأمر النبي بإبقائها وسد ما سواها.

* الحجر المبارك : يقابل دار أبي بكر الصديق جدار مبارك يُقال: « إِنَّهُ يُسَلَّمُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ⁽²⁾.

* الصفاء والمروة: السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْحَجِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ⁽³⁾.

أشار الرَّحَّالَةُ إِلَى الْمَسَافَةِ بَيْنَ بَابِ الصَّفَا الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الصَّفَا سِتْ وَسَبْعُونَ خُطْوَةً، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَرْبَعُمِائَةٍ وَثَلَاثَ وَتِسْعُونَ خُطْوَةً، وَلِلصَّفَا أَرْبَعُ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَلِلْمَرْوَةِ خَمْسُ دَرَجَاتٍ.

* دار العباس رضي الله عنه: تُوجَدُ دَارُ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالَّتِي أَصْبَحَتْ فِي عَهْدِ دُخُولِ ابْنِ بَطُوطَةَ إِلَيْهَا رِبَاطًا يَسْكُنُهُ الْمَجَاوِرُونَ.

* مشاهد خارج مكة :

• الْحَجُّونَ: هُوَ الْجَبَلُ الْمُطَّلُ عَلَى الْجَبَانَةِ (مَقْبَرَةُ الْحَجُّونِ) ⁽⁴⁾.

• الْمُحَصَّبُ ⁽⁵⁾.

• خَيْفُ بَنِي كِنَانَةَ ⁽⁶⁾ الَّذِي نَزَلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(1) "سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ". صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري،

بِحَاشِيَةِ السَّنَدِيِّ، دَارُ الْمَعْرِفَةِ، 1978، 93/1.

(2) رَحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ، 380/1.

(3) الْآيَةُ 158 مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(4) رَحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ، 382/1.

(5) هُوَ مَوْضِعٌ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَمِنَى، وَهُوَ إِلَى مَنَى أَقْرَبُ، وَهُوَ بِطَحَاءِ مَكَّةَ وَخَيْفُ بَنِي كِنَانَةَ وَحَدَّهُ مِنَ الْحَجُّونِ ذَاهِبًا إِلَى مَنَى؛

وَالْمُحَصَّبُ أَيْضًا: مَوْضِعٌ رَمَى الْجَمَارِ بِمَنَى. معجم البلدان لياقوت الحموي، 62/5.

(6) رَحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ، 382/1.

- ذو طُوًى: هو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحَصْحَاص⁽¹⁾، قال ابن بطّوطة أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم كان يغتسل بهذا الوادي إذا قدم مكّة المكرّمة، وكذلك فعل عبد الله ابن عمر رضيّ الله عنهما .
- ثنية كُدى: تقع هذه الثنية بأعلى مكّة⁽²⁾، وهي التي دخل منها الرّسول عليه الصلاة والسلام بني حجة الوداع إلى سكة المكرّسة.
- ثنية كدّاء: يقال لها الثنية البيضاء⁽³⁾، تقع أسفل مكّة، ومنها خرج الرّسول صلى الله عليه وسلم عام الوداع.
- الموضع الذي قعد فيه الرّسول صلى الله عليه وسلّم: يقع هذا الموضع على نحو ميل من مكّة⁽⁴⁾، وهو المكان الذي قعد فيه الرّسول مستريحاً عند مجيئه من عمرته. وهو مكان يتبرّك الناس بتقبيله.
- التنعيم: يبعد عن مكّة بنحو فرسخ⁽⁵⁾، وهو مكان يَعْتَمِرُ منه أهل مكّة، وقد اعتمرت منه عائشة أمّ المؤمنين رضيّ الله عنها حين بعثها الرّسول صلى الله عليه وسلّم مع أخيها عبد الرحمن رضيّ الله عنه في حجة الوداع.
- الزاهر: على بُعد نحو ميل من مكّة على طريق التنعيم⁽⁶⁾.
- جبل أبي قُبَيْس: يوجد في هذا الجبل مكان مرقف النبيّ صلى الله عليه وسلّم حين انشقّ له القمر⁽⁷⁾، ويُذَكَّرُ أن جبل قُبَيْس هو أول جبل خلقه الله، واستودع فيه الحجر زمان الطّوفان.
- جبال الطير: يُقال إنّها الجبال التي وُضِعَ عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثمّ دعاها حسبما نصّ الله في القرآن الكريم⁽⁸⁾.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 382/1.

(2) المصدر نفسه، 382/1.

(3) المصدر نفسه، 382/1.

(4) المصدر نفسه، 383/1.

(5) المصدر نفسه، 383/1.

(6) المصدر نفسه، 383/1.

(7) المصدر نفسه، 383/1.

(8) المصدر نفسه، 384/1.

• جبل حراء: هو الجبل الذي كان يَخْتَلِي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نُزُول القرآن عليه، يَقَعُ جبل حراء شرق مكة المكرمة، وفيه يُوجد غار حراء؛ وهو المكان الذي نزل الوحي فيه لأول مرة على النبي صلى الله عليه وسلم: « وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحي، وهو الذي اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً أثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد »⁽¹⁾.

• جبل ثور: هو جبل يَقَعُ جنوب مكة، وفيه الغار الذي مكث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ثلاث ليالي أثناء هجرته إلى المدينة المنورة، وهنا استشهد ابن بطوطة بقول الأزرقي الذي قال: « أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، وقال: إلي يا محمد إلي، فقد أويت قبلك سبعين نبياً »⁽²⁾.

ب/ المدينة المنورة :

- دار فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: تقع هذه الدار في جوفي الروضة المقدسة⁽³⁾.
- دار عمر وابنه عبد الله رضي الله عنهما⁽⁴⁾: تقع دارهما بإزاء دار أبي بكر رضي الله عنه.
- دار أيوب الأنصاري رضي الله عنه⁽⁵⁾.
- دُور تنسب إلى أبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم⁽⁶⁾.
- بئر أريس: يَقَعُ غرب مسجد قباء⁽⁷⁾، كان مأوئها أجاجاً ولما نفل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أصبح عذباء، سَقَطَ فيه خاتم الخلافة من عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- قبة حجر الزيت: تقع هذه القبة خارج المدينة الشريفة، يُقال: « إن الزيت رشح من حجر هناك للنبي صلى الله عليه وسلم »⁽⁸⁾.

(1) رحلة ابن بطوطة، 384/1.

(2) المصدر نفسه، 384/1.

(3) المصدر نفسه، 351/1.

(4) المصدر نفسه، 351/1.

(5) المصدر نفسه، 361/1.

(6) المصدر نفسه، 361/1.

(7) المصدر نفسه، 361/1.

(8) المصدر نفسه، 362/1.

- قُباء : وهو على قبلي⁽¹⁾ المدينة، على نحو ميلين منها.
- جبل أحد: مطل على المدينة المنورة⁽²⁾، وقعت تحت سفحه غزوة أحد بين المسلمين والكفار.
- بئر ذات العَلم: فيها قاتل الإمام عليّ كرم الله وجهه الجن والغفاريت⁽³⁾.
- بدر: أشار ابن بطّوطة إلى هذا المكان الذي وَقَعَتْ فيه غزوة بدر الكبرى⁽⁴⁾ التي نصر فيها الله رسوله الكريم والمسلمين، وقع أحداثها في 17 رمضان من السنة الثانية للهجرة.
- موضع القليب⁽⁵⁾.
- جبل الرحمة: هو الجبل الذي نَزَلَتْ فيه الملائكة⁽⁶⁾، تُقامُ عنده أهم مناسك الحجّ، والتي تسمّى بوقفه عرفة، وذلك في التاسع من شهر ذي الحجة.
- جبل الطبول⁽⁷⁾.
- موضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلّم⁽⁸⁾: هو المكان الذي كان به يوم بدر يناشد ربّه جلّ وتعالى.
- اهتم ابن بطّوطة منذ وصوله إلى البقاع المقدّسة؛ مكة المكرمة، والمدينة المنورة بكلّ المشاهد الكريمة التي تحتويها، كما اعتنى بالتاريخ الإسلامي، وأحداثه المهمة، فذكر المواطن التي وطئها أقدام النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وأصحابه التابعين رضي الله عنهم، وما فعلوه في سبيل نشر الدّعوة الإسلامية.
- ج/ بعض المشاهد بمدينة فلسطين :
- بحيرة لوط: كانت هذه البحيرة مَوْضِعاً لديار قوم لوط⁽⁹⁾ عليه السلام.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 362/1.

(2) المصدر نفسه، 362/1.

(3) المصدر نفسه، 365/1.

(4) المصدر نفسه، 365/1.

(5) ماء بنجد فوق الحربة من ديار بني أسد لبطن منهم يقال لهم بنو نصر بن قَعْن ابن الحارث بن ثعلبة بن دُودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة. معجم البلدان لياقوت الحموي، 394/4.

(6) رحلة ابن بطّوطة، 365/1.

(7) المصدر نفسه، 365/1.

(8) المصدر نفسه، 365/1.

(9) المصدر نفسه، 243/1.

- موضع سجود إبراهيم عليه السلام: سجد إبراهيم في هذا الموضع شكراً لله عندما سمع بهلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام، فساخ⁽¹⁾ مَوْضِعُ سُجُودِهِ قليلاً عن الأرض⁽²⁾.
- موضع ميلاد عيسى عليه السلام: يُوجد هذا الموضع في بيت لحم⁽³⁾، زاره ابن بطّوطة، واستمتع بمشاهدته.

* يعض المسامد المباركة بالتقدس الشريف⁽⁴⁾.

- مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء: يقع هذا المصعد على تل وادي جهشم في شرقي البلد على تلّ مرتفع.

• موضع مهد عيسى عليه السلام: يقع هذا الموضع في بطن وادي جهشم.

* بئر إبراهيم عليه السلام⁽⁵⁾: توجد هذه البئر في عسقلان في قبلة مسجد عمر.

* عين البقر⁽⁶⁾: أشار الرحالة إلى هذه العين، التي يقال إنّ الله أخرج منها البقر لآدم عليه السلام⁽⁷⁾.

* مشهد رأس الحسين بن عليّ عليه السلام: يوجد هذا المشهد في مدينة عسقلان⁽⁸⁾.

د/سوريا:

* مشاهد جبل قاسيون:

- مصعد الأنبياء عليهم السلام⁽⁹⁾: يوجد هذا المصعد في جبل قاسيون حسبما أورده ابن بطّوطة.

(1) سَاخَ الشيءُ سَخَانًا: رَسَخَ، وساخ في الأرض سيوخ ويسخ إذا دخل فيها، ويروى بالصاد وهو الأصل: انصاحت

الصخرة هكذا بمعنى انشقت. ويقال انصاخ الثوب إذا انشق من قبل نفسه. ينظر: لسان العرب لابن منظور، 3/27-35.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 1/243.

(3) المصدر نفسه، 1/254.

(4) المصدر نفسه، 1/249.

(5) المصدر نفسه، 1/254.

(6) قرب عكا تُزار، يزورها المسلمون والنصارى واليهود ويقولون: إنّ البقر الذي ظهر لآدم فحرث عليه منها خرج. ينظر

معجم البلدان لياقوت الحموي، 4/176.

(7) رحلة ابن بطّوطة، 1/274.

(8) المصدر نفسه، 1/252.

(9) المصدر نفسه، 1/327.

• الغار الذي ولد فيه إبراهيم الخليل ⁽¹⁾: وصفه الرحالة بأنه غار مستطيل الشكل ضيق عليه مسجد كبير، وفي ظهره يُوجد المقام الذي كان يخرج إليه. إلا أنه يوجد موضع آخر ذكره الرحالة، أيضاً، يُقالُ إنه مكان مولد إبراهيم الخليل، في قرية تُعرفُ بـبرص في العراق، وهي قرية من بلد ذي الكفل ⁽²⁾ عليه السلام.

• مغارة الدِّم: في هذا المكان قَتَلَ قابيلُ أخاه هابيل ⁽³⁾. رها ابنُ آدم عليه السلام: «رقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً حمراً» ⁽⁴⁾.

• مُصَلَّى إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط عليهم السلام جميعاً ⁽⁵⁾: قيل إن هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صلُّوا في مغارة الدِّم.

• كهف يُنسب لآدم عليه السلام ⁽⁶⁾: يقع هذا الكهف بأعلى جبل قاسيون.

• مغارة الجوع: ذُكرَ أنه أوى إليها سبعون نبياً عليهم السلام: «كان عندهم رغيف فلم يزل

يُدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم» ⁽⁷⁾.

• الرّبوة المباركة ⁽⁸⁾: توجد في آخر جبل قاسيون، وهي مذكورة في كتاب الله.

• مصلى الخضر عليه السلام ⁽⁹⁾: يوجد هذا المصلى بإزاء الرّبوة المباركة.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 327/1.

⁽²⁾ قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الآية 85، 86 من سورة الأنبياء]، فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه، مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء، أنه نبي، وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً، وحكماً مُقسِطاً عادلاً. ينظر: البداية والنهاية لابن كثير، 516/1.

⁽³⁾ وردت هذه القصة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ ذُرِّيَّةً بَارَةً وَاجْعَلْ لِّيَ الْآخِرَ كَالْأَوَّلِ وَالْأَوَّلَ كَالْآخِرِ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الآية 27، 30 من سورة المائدة].

⁽⁴⁾ رحلة ابن بطوطة، 328/1.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 328/1.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، 328/1.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، 328/1.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، 328/1.

⁽⁹⁾ المصدر نفسه، 329/1.

* متعبّد الخليل عليه السلام:

يوجد هذا المتعبّد في مدينة حلب⁽¹⁾، قصده الرّحالة للتعبد والتبرّك.

* مسكن إبراهيم عليه السلام: عندما دخل الرّحالة إلى حلب أطلق عليها اسم حلب إبراهيم لأنّه، عليه السلام، كان يسكنها.

* متعبّد إبراهيم بن ادهم⁽²⁾: يوجد في مدينة جبّلت، وقد عُرف عن هذا الرّسل نبذة للسُّلك، والانقطاع لعبادة المولى عزّ وجلّ.

* دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه⁽³⁾: توجد هذه الدار بإزاء مسجد دمشق.

* مشهد أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب: يوجد مشهد أم كلثوم في قرية تبعد عن دمشق بمقدار فرسخ، اسمها الحقيقي زينب وكنّاها الرّسول صلى الله عليه وسلّم بأم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم⁽⁴⁾.
* مبرك ناقة صالح عليه السلام: يوجد هذا المشهد بين جبّلين من ديار ثمود⁽⁵⁾.

* الجُبّ الذي أُلقي فيه يوسف عليه السلام: زار الرّحالة هذا الجُبّ عندما حلّ بمدينة طبرية⁽⁶⁾، وهو جب عميق فيه ماء مُتجمّع من ماء المطر.

* مدينة النبيّ سليمان عليه السلام⁽⁷⁾:

عندما حلّ ابن بطّوطة بمدينة تدمر⁽⁸⁾ سمّاها مدينة النبيّ سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن.

هـ/ مصر :

* قرافة مصر ومزاراتها :

• مشهد رأس الحسين بن عليّ عليهما السلام: أشار الرّحالة إلى وجود مشهد رأس الحسين في

(1) رحلة ابن بطّوطة، 274/1.

(2) المصدر نفسه، 290/1.

(3) المصدر نفسه، 213/1.

(4) المصدر نفسه، 323/1.

(5) المصدر نفسه، 348/1.

(6) المصدر نفسه، 260/1.

(7) المصدر نفسه، 177/4.

(8) مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 17/2.

مصر⁽¹⁾، وعليه رباط ضخمة عجيب البناء.

و/ العراق :

* المشاهد المباركة بالبصرة :

• مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم⁽²⁾: هو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أحد العشرة الذين بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة، وأهل البصرة يحتضنون مشهداً تنظيماً شديداً.

• مشهد الزبير بن العوام رضي الله عنه: الزبير بن العوام بن خويلد حواري⁽³⁾ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، يوجد مشهده خارج البصرة.

• متعب سهل بن عبد الله التستري: يقع هذا المتعب بين البصرة والأبلة⁽⁴⁾، والناس يشربون من الوادي الذي بجانبه، ويدعون عنده تبركاً به.

* بعض المشاهد في الكوفة⁽⁵⁾ :

• بركة المرجوم: نزل ابن بطوطة بهذه البركة، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من الحجارة⁽⁶⁾، كان هذا الرجل الذي رُجم بهذا المكان رافضياً رحل مع موكب برسم الحج، فوقعت بينه وبين أهل السنة من الأتراك مجادلة عنيفة، فلحق بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة .

• مشهد علي بن أبي طالب⁽⁷⁾ بالنجف⁽⁸⁾ .

(1) رحلة ابن بطوطة، 205/1.

(2) المصدر نفسه، 14/2.

(3) المصدر نفسه، 14/2.

(4) المصدر نفسه، 16/2.

(5) المصدر نفسه، 54/2 - 55.

(6) المصدر نفسه، 414/1.

(7) المصدر نفسه، 421/1.

(8) قال السهيلي: بالفُرْع عيان يقال لإحداهما الرُّبُص وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة، وهو بظهر الكوفة كالمُسْتَاة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرهما. معجم البلدان لياقوت الحموي، 271/5.

- مصلى إبراهيم الخليل عليه السلام: يُوجد هذا المصلى في مدينة الكوفة، في وسط مسجدها قُرب المحراب عن يمين مستقبل القبلة.
- محراب عليّ بن أبي طالب: يوجد بالقرب من مصلى إبراهيم الخليل، ذكر الرحالة أنّه، عليه السلام، قُتِلَ بهذا المكان عندما ضربه الشّقي ابن مُلجم بالخنجر.
- بيت نوح عليه السّلام .
- متعبّد إدريس عليه السلام.
- موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام.
- دار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والبيت الذي غُسل فيه .
- كل هذه المشاهد الكريمة توجد بالجامع الأعظم في مدينة الكوفة .

* مشهد صاحب الزمان :

يوجد هذا المشهد في مدينة الحِلّة، ومن عوائد أهل هذه المنطقة أنّهم يأتون إلى هذا المشهد، فيقفون عند بابه ويقولون: « باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله أخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم، وهذا أوان خروجك ليفرق الله بك بين الحق والباطل »⁽¹⁾.

* مشهد الحسين بن عليّ عليهما السلام⁽²⁾: يوجد هذا المشهد، في مدينة كربلاء .

* بعض المشاهد في مدينة الموصل⁽³⁾:

- مشهد جرجيس النّبّي عليه السلام: حصلت لابن بطّوطة زيارته والصلاة في مسجده .
- تل يونس عليه السلام: يَقَعُ على بُعْد ميل من العين المنسوبة إليه .
- موضع مدينة يونس عليه السلام المعروفة بِنينوى⁽⁴⁾.
- الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام، وبيت مُتعبّده.

* مشهد الرضا⁽⁵⁾ : هو عليّ بن موسى الكاظم.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 56/2.

(2) المصدر نفسه، 57/2.

(3) المصدر نفسه، 83/2.

(4) هي قرية يُوُس بن متى عليه السلام، بالموصل؛ وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 339/5.

(5) رحلة ابن بطّوطة، 52/3.

ل/ بعض المشاهد بشيراز:

- مشهد أحمد بن موسى أخي الرضا عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم⁽¹⁾: مشهد معظّم عند أهل شيراز يتبرّكون به، ويناجون الله بفضله.
- مشهد الإمام أبي عبد الله ابن خفيف⁽²⁾: مشهد مُعظّم عند أهل بلاد فارس⁽³⁾، يدعو به بالشيخ ويأتون إليه كلّ يوم للتبرّك منه .

ن/ مشاهد جزيرة سيلان⁽⁴⁾:

- مشهد الشيخ الصالح روزجهان البقلي⁽⁵⁾: من كبار الأولياء في تلك المنطقة .
- مشهد الشيخ الصالح زركوب⁽⁶⁾ .
- قدم آدم عليه السلام⁽⁷⁾: ذهب ابن بطّوطة عن قصّدٍ إلى جزيرة سيلان لزيارة القدم الكريمة قدم أينما آدم عليه السلام.

ي/ مزار يُنسب للخضر وإلياس عليهما السلام⁽⁸⁾: يوجد هذا المزار على بعد ستة أميال من مدينة جرّون⁽⁹⁾، قيل أنّهما كانا يصليان فيه.

أطال ابن بطّوطة وقوفه أمام هذه المشاهد والمزارات والمواقف، وخاصة تلك التي وُجِدَتْ في الحرمين الشّريّين، حيث خصّص لها عدّة صفحات في كتابه "تُحفة النُّظار" فاقت غيرها من المشاهد التي وُجِدَتْ في أمكنة مختلفة داخل البلاد الإسلامية، وهذا يعدُّ دليلاً على ثقافته الدّينية، وتربيته الإسلامية.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 47/2.

(2) المصدر نفسه، 47/2.

(3) ولاية واسعة، أول حدودها من جهة العراق أرّحان ومن جهة كرمان السّيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيرااف ومن جهة السند مُكران. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 226/4.

(4) جزيرة عظيمة دورها ثمانمائة فرسخ، بها سرّنديب وعدّة ملوك لا يدين بعضهم لبعض، وهي متوسطة بين الهند والصين. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 298/3.

(5) رحلة ابن بطّوطة، 49/2.

(6) المصدر نفسه، 49/2.

(7) المصدر نفسه، 80/4.

(8) المصدر نفسه، 141/2.

(9) عاصمة هرمز الجديدة، وهي مدينة حسنة كبيرة، وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين، وفارس وخراسان. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 140/2.

الأصيلة التي تشبّع من نبعها، ولو لم يكن تلقى تربية إسلامية متينة لما شغل باله بذكر كل هذه الأمكنة المقدّسة.

٤/ موضوعات أخرى :

حفلت رحلتا ابن قنفذ وابن بطّوطة بسمات دينية واضحة؛ فقد عكست كل صفحة من صفحاتها العقيدة الإسلامية، والروح الدّينية العالية المختلطة في نسيية الرّسّلين الذين تربّوا في بيئة دينية حسنة؛ وشربا من نبع الثقافة الإسلامية، ولا عجب في ذلك لأنّ كليهما تلقى تربية إسلامية أصيلة منذ الصغر؛ فقد درس ابن بطّوطة الفقه في طنجة قبل أن يسافر، وكذلك ابن قنفذ الذي حفظ القرآن، ودرس علم الحديث، والفقه على يد جدّه لأُمّه، وبعض شيوخ منطقته: « لا غرابة في ذلك، فإن القوم كانوا من صميم البيئة المغربية، تشبعوا بتربية إسلامية متينة، كما تشبعت بيئتهم بها »⁽¹⁾، فانعكس ذلك على سلوكهما القولي والفعلي، وأصبحت رحلتاهما سجلاً حافلاً بالألفاظ الدّينية، والعبارات الإسلامية، فضلاً على استشهادهما بالذّكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشّريفة.

كان ابن بطّوطة رجلاً متديناً بكلّ معنى الكلمة، وهذا ما لمّس في كل صفحة من صفحات رحلته المشعة بالتزّرع الدّيني، فجاءت حافلة بالمعاني الإسلامية زاخرة بالعبارات الدّينية تدل على إخلاص صاحبه لدينه، وثقافته الإسلامية الواسعة، وتشبّثه القوي بعقيدته، فتحدث عن عبادته، وصلاته، وصيامه، وزهده، وتلاوته للذّكر الحكيم، إضافة إلى أمور أخرى تدخل في دائرة التقوى والعبادة.

خرج ابن بطّوطة من وطنه طنجة برسم الحجّ، فكانت حجّته الأولى عام 726هـ، وفيها ذكر كلّ شعائر الحجّ، وكلّ الأماكن المقدّسة، وتطرّق، أيضاً، إلى عادات أهل مكّة في أول يوم من شهر ذي الحجة؛ حيث تُضرب الطّبول والدّبّادب في أوقات الصلوات بكرة وعشية إشعاراً بالموسم المبارك، ولا تزال إلى يوم الصعود إلى عرفات: « فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويُعلمهم بيوم الوقفة »⁽²⁾، وفي اليوم الثامن يكرّ الناس

(1) مظاهر الثقافة المغربية لأحمد بن محمد بن شقرون، ص 177.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 1/405.

بالصعود إلى منى، وفي اليوم التاسع يرحلون منها بعد صلاة الصبح إلى عرفة اقتداءً بأَمِ إسماعيل عليه السلام، فيمرون في طريقهم بوادي مُحَسَّر⁽¹⁾، فيهرولون عند بلوغهم هذا الموضع، وذلك سُنَّة. ولعرفة ثلاثة أسماء عرفة، وجمْع، والمشعر الحرام⁽²⁾، ويوجد في آخر بسيط عرفات جبل الرحمة، وفيه الموقف، والعلمان قبله بنحو ميل، وهما الحد ما بين الحل والحرم، وبالقرب منهما ممّا يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتجاع عنه، والسنن سنة والإسك عن التنوير⁽³⁾ حتى يتمكن سقوط الشمس.

وعن جبل الرحمة يقول: « وهو من الحجارة منقطع بعضها عن بعض، وفي أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه »⁽⁴⁾، وإذا حان وقت النفر أشار المالك بيده، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض، وترجف الجبال: « فيا له موقفاً كريماً... ومشهداً عظيماً ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحمائه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه »⁽⁵⁾، وبعد غروب الشمس وصل الحجاج إلى مزدلفة عند العشاء الآخرة، فصلّوا بها المغرب والعشاء جمعاً، مقتدين في ذلك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولمّا صلوا الصبح بالمزدلفة غدو منها إلى منى بعد الوقوف، والدعاء بالمشعر الحرام: « ومزدلفة كلّها موقف إلا وادي مُحَسَّر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه »⁽⁶⁾. ومن المستحب أن يصطحب الناس حُصَيَات الجمار من مزدلفة، وهناك من يلتقطها حول مسجد الخيف، ولما وصل الناس إلى منى بادروا رمي جمره العقبية.

(1) هو موضع ما بين مكة وعرفة، وقيل: بين منى وعرفة، وقيل: بين منى والمزدلفة وليس من منى ولا مزدلفة بل هو واد برأسه. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 62/5.

(2) ربما وقع خطأ في إطلاق هذه التسميات على عرفة لأن ابن جُبَيْر أطلقها على المزدلفة وليس على عرفة، ويمكن أن نرجع هذا الخطأ إلى كاتب الرحلة الذي لم يفهم ما ورد في رحلة ابن جُبَيْر التي نقل منها كثير من المعلومات. ينظر: رحلة ابن جُبَيْر

" تذكرة بالأخبار، عن اتفاقات الأسفار " لأبي الحسن أحمد بن جُبَيْر الكناي، دار صادر، بيروت، (د، ت)، ص 150.

(3) نَفَرَ الْحَاجُّ مِنْ مَنَى نَفَرًا وَنَفَرَ النَّاسُ مِنْ مَنَى يَنْفِرُونَ نَفَرًا وَنَفَرًا، وهو يوم النَّفَرِ وَالنَّفَرِ وَالنُّفُورِ وَالنَّفِيرِ، وَلَيْلَةُ النَّفَرِ وَالنَّفَرِ، بالتحريك، ويوم النُّفُورِ ويوم النَّفِيرِ، وفي حديث الحج: يَوْمُ النَّفَرِ الْأَوَّلِ؛ قال ابن الأثير: هو اليوم الثاني من أيام التشريق، والنَّفَرُ الْآخِرُ الْيَوْمُ الثَّالثُ، ويقال: هو يوم النَّحْرِ... ويقال يوم النفر وليلة النفر لليوم الذي يَنْفِرُ الناس فيه من منى. ينظر: لسان

العرب لابن منظور، 225/5.

(4) رحلة ابن بطوطة، 409/1.

(5) المصدر نفسه، 409/1.

(6) المصدر نفسه، 410/1.

ثمّ: « نَحْرُوا وَذَبَحُوا وَحَلَّوْا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا النَّسَاءَ وَالطَّيِّبَ حَتَّى يَطُوفُوا طَوَافَ الْإِفاضة، وَرَمَى هَذِهِ الْجُمُرَةَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ، وَلَمَّا رَمَوْهَا تَوَجَّهَ أَكْثَرُ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ ذَبَحُوا وَحَلَّقُوا إِلَى طَوَافِ الْإِفاضة ⁽¹⁾، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِيمُ إِلَى الْيَوْمِ الثَّانِي، وَفِيهِ يَرْمِي الْحِجَاجَ عِنْدَ الزَّوَالِ بِالْجُمُرَةِ الْأُولَى سَبْعَ حُصَيَّاتٍ، وَبِالْوَسْطَى كَذَلِكَ، وَيَقْفُوا لِلدُّعَاءِ فِيهِمَا اقْتِدَاءً بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ.

أَعْطَى ابْنُ بَطُّوطة مِنْ حَالَاتٍ وَصَفَهُ مُسَافِرُ الْحَجِّ فِكْرَةَ سَنَ الْمَسَالِكِ وَالطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْحَاجُّ عِنْدَ أَدَائِهِ لِفَرِيضَةِ الْحَجِّ، وَمَا يَتَوَجَّبُ فَعْلُهُ عِنْدَمَا يَحِلُّ فِي مَكَانٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ الْمُقَدَّسَةِ، فَجَاءَتْ رِحْلَتُهُ زَاخِرَةً بِالْمَعْلُومَاتِ الْقِيَمَةِ وَالْمُفِيدَةِ. وَلِذَلِكَ فَمِنْ رَغْبٍ فِي الْحَجِّ عَلَيْهِ الْإِطْلَاعُ عَلَى رِحْلَةِ ابْنِ بَطُّوطة لِيَأْخُذَ فِكْرَةَ عَامَةً عَنْ كَيْفِيَّةِ أَدَاءِ مَنَاسِكَه، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِخْلَاصِهِ لِدِينِهِ وَتَشَبُّهِهِ بِعَقِيدَتِهِ.

كَشَفَتْ رِحْلَتُهُ عَنِ النَّزْوَعِ الدِّينِيِّ الَّذِي قَصَدَهُ قَصْدًا، فَهُوَ لَا يَتِمَالِكُ نَفْسَهُ عِنْدَمَا يَمُرُّ بِمَكَانٍ مُقَدَّسٍ أَوْ يَتَرَلَّ بِمَسْجِدٍ أَوْ يَلْتَقِي بِوَلِيٍّ صَالِحٍ، فَوْصَفَ كُلَّ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَابِ وَالْفَرَحَةِ، وَعَبَّرَ عَنْهُ صِرَاحَةً، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عِنْدَمَا دَخَلَ مَدِينَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « دَخَلْنَا الْحَرَمَ الشَّرِيفَ وَانْتَهَيْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ الْكَرِيمِ فَوْقْنَا بَابُ السَّلَامِ مُسَلِّمِينَ وَصَلَيْنَا بِالرَّوْضَةِ الْكَرِيمَةِ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمَنِيرِ الْكَرِيمِ... وَأَدِينَا حَقَّ السَّلَامِ عَلَى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَشَفِيعِ الْعَصَاةِ وَالْمُذْنِبِينَ، الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْهَاشِمِيِّ الْأَبْطَحِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا وَشَرَفًا وَكَرَمًا... وَانْصَرَفْنَا إِلَى رِحْلَتِنَا مُسْرُورِينَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ مُسْتَبْشِرِينَ نَيْلَ هَذِهِ الْمُنَّةِ الْكُبْرَى، حَامِدِينَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْبُلُوغِ إِلَى مَعَاهِدِ رَسُولِهِ الشَّرِيفَةِ ⁽²⁾، وَقَوْلُهُ أَيْضًا عِنْدَمَا دَخَلَ الْبَلَدَ الْأَمِينَ مَكَّةَ شَرَفَهَا اللَّهُ: « فَوَرَدْنَا مِنْهَا حَرَمَ اللَّهِ تَعَالَى وَمُبُورًا خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَبْعُوثَ صَفِيهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَخَلْنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ الَّذِي مِنْ دَخْلِهِ كَانَ آمَنًا مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، وَشَاهَدْنَا الْكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى تَعْظِيمًا وَهِيَ كَالْعُرُوسِ تُجَلَّى عَلَى مَنَصَّةِ الْجَلَالِ، وَتَرْفُلُ فِي بَرُودِ الْجَمَالِ، مُحْفُوفَةٌ بِوَفُودِ الرَّحْمَنِ مُوصِلَةٌ إِلَى جَنَّةِ الرِّضْوَانِ، وَطَفْنَا بِهَا طَوَافَ الْقُدُومِ وَاسْتَلَمْنَا الْحَجَرَ الْكَرِيمَ، وَصَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ⁽³⁾».

رِحْلَةُ ابْنِ بَطُّوطة مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ رِحْلَةٌ مُمْتَعَةٌ رَائِعَةٌ يَتَشَوَّقُ كُلُّ إِنْسَانٍ لَزِيَارَتِهَا، وَالْإِحْسَاسَ بِالشَّعُورِ نَفْسَهُ الَّذِي انْتَابَ الرَّحَالَةَ، وَلِهَذَا وَجَدْنَاهُ كَثِيرَ الْحَمْدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِنْدَ بُلُوغِهِ

⁽¹⁾ رِحْلَةُ ابْنِ بَطُّوطة، 349/1.

⁽²⁾ الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، 349/1.

⁽³⁾ الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، 367/1.

مقصده الشريف بزيارة مكة والمسجد الحرام، والمدينة والمسجد النبوي: « الحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم »⁽¹⁾ وقوله: « حامدين لله تعالى على البلوغ إلى معاهد الرسول الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة، داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سنرته »⁽²⁾.

كان ابن بطوطة كثير الحمد لله تعالى في كل وقت، ومصلياً على نبيه صلى الله عليه وسلم لأنه شرفه بالوفادة على هذه الأماكن المقدسة التي يرنو كل إنسان لزيارتها، والوقوف عليها. اقتدى ابن بطوطة برسولنا الكريم، وذلك عند قطعه الطريق المطروق بين المدينتين الشريفتين منذ أيام الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فأحرم قرب مسجد ذي الحليفة على خمسة أميال من المدينة، وبالقرب منه وادي العقيق الذي اغتسل فيه الرحالة، ولبس ثوب إحرامه وصلى ركعتين، ومن هنا أحرم للحج: « ولم أزل ملياً في كل سهل وجبل وصعود وحُذور إلى أن أتيت شعب علي عليه السلام »⁽³⁾.

استهوت هذه الأماكن المقدسة ابن بطوطة، فما ينفك يخرج عنها إلا ويعود إليها مرة أخرى، لدرجة أنه حج ست مرات، فكانت مكة كرمها الله مركز رحلته وقرّة عينه، يرحل من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ثم يعود إليها لأنه وجد فيها زاداً روحياً يساعده على مواصلة رحلته، وإعانتته على اكتشاف المجهول، وقد أصيب الرحالة في حَجّته الثانية بإسهال لازمه طوال مدّة الحج، إلا أن هذا المرض لم يكن عائقاً أمامه في أدائه لمناسك الحج، فكان يصلي قاعداً، وطاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً فرساً أعطاه إياها أمير ركب الحجاج العراقيين البهلوان محمد بن حُويج، ولم يُشف إلى أن وصل منى، وأفاض منها، وبعدها شُفي تماماً من مرضه، فقال: « فكنت في أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتماد »⁽⁴⁾. وكانت حَجّته الثانية عام 727هـ، وقد جاور ابن بطوطة في مكة المكرمة ثلاث سنوات، وكانت حَجّته الثالثة عام 728هـ، والرابعة عام 729هـ، وبعد ذلك خرج من مكة

(1) رحلة ابن بطوطة، 367/1.

(2) المصدر نفسه، 349/1.

(3) المصدر نفسه، 364/1.

(4) المصدر نفسه، 88/2.

قاصداً اليمن فزار بعض البلدان، ثم عاد إلى الحجاز سنة 732هـ وحجّ للمرة الخامسة، ثم خرج منها قاصداً الرحلة إلى الهند والصين، ورجع مرة أخرى إلى بلاد العرب، واتجه إلى مكة المكرمة، وأدى فريضة الحجّ للمرة السادسة عام 749هـ: « ثم سافرت على الركب الشامي إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت قبره المكرم المطيب زاده الله طيباً وتشريفاً في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيماً وزرت من باليتبع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورشي عنهم »⁽¹⁾.

إنّ الحجّ كان محور رحلة ابن بطّوطة ومركزها، يطوف بالبلاد ثم يعود إلى الحجاز (مكة) ليعتمر ويحجّ، ثم ينهض للرحلة من جديد، فالتزوع الدّيني للأماكن المقدّسة يجرفه لزيارتها والوقوف عليها، وما إن يغادرها حتى يعاوده الحنين إلى زيارتها من جديد، وبلّ أشواقه منها.

إذا فابن بطّوطة رجل متدين يحبّ زيارة الأماكن المقدّسة، فاستمتع وأفاد من خلال إمتاع المتلقي بما شاهد وشهد؛ فقد ذكر شيئاً من عوائد أهل مكة في صلواتهم، ومواضع أئمتهم فكان إمام الشافعية هو أول من يصلي خلف المقام الكريم، وبعده يصلي إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنيفة قبالة الميزاب الكريم: « ترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، وأمّا صلاة المغرب فإنهم يصلّونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته »⁽²⁾، وذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة: « وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم »⁽³⁾. وذكر، أيضاً، عاداتهم في استهلال شهر رجب وعمرته، وهم يسمون هذه العمرة بـ (العمرة الأكمية) لأنهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ فأشار ابن بطّوطة إلى أصل هذه العمرة بالعودة إلى التاريخ الإسلامي: « والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها... فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد »⁽⁴⁾.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 4/182.

(2) المصدر نفسه، 1/397.

(3) المصدر نفسه، 1/398.

(4) المصدر نفسه، 1/400 - 401.

* إحرار الكعبة :

تشم أستاذها في السابع والعشرين من ذي القعدة إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع: « وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة »⁽¹⁾.

هذا بالنسبة للمشاعر المقدسة في مكة المكرمة، وما أساط بها من الأساك الشريفة، التي راح ابن بطوطة بزيارتها، والوقوف عليها، والتي اعتبرت مركز رحلته ومحورها؛ حيث يقول: « ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على التروع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثل. بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكناً في القلوب فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها إلا أسفاً لفراقها، متولهاً لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهي نائية »⁽²⁾.

اصطبغت رحلته، أيضاً، بصبغة عملية سلوكية تجلّت في الصلاة، والصيام، وتلاوة القرآن، فكان حريصاً على دينه متشبهاً بأركانها، حتى إنه كلما نزل بمدينة قصد مسجدها ليصلي فيه، ويذكر كتاب الله، والأمثلة كثيرة جداً؛ من ذلك حرصه على صلاة الجمعة: « فصلينا بمدينة المأجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة، والقراء يقرؤون بين يديه ووعظ وذكر »⁽³⁾، وحضر أيضاً صلاة الجمعة عندما نزل في قرية الجرخ، وصلى أيضاً الجمعة مع سلطان مدينة جاوه: « فأتيت المسجد، وصليت به الجمعة »⁽⁴⁾. وعندما وصل إلى مدينة كَرْدِي يولي قال: « صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة »⁽⁵⁾. وكان أيام إقامته بخوارزم يصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر⁽⁶⁾ بمسجده.

أمّا الأوقات الأخرى فكان يصلي الصبح في مدينة، والظهر في مدينة أخرى.

(1) رحلة ابن بطوطة، 404/1.

(2) المصدر نفسه، 367/1 - 368.

(3) المصدر نفسه، 224/2.

(4) المصدر نفسه، 115/4.

(5) المصدر نفسه، 204/2.

(6) المصدر نفسه، 11/3.

والشيء اللافت للانتباه أنه كثير الذكر للأوقات التي يصليها عندما يتزل بمدينة، ومثال ذلك قوله: «صليت صلاة العصر مع السلطان محمد أوزبك»⁽¹⁾، و«صليت الظهر في مدينة السرا»⁽²⁾، وقوله أيضاً: «وصلنا إلى مدينة بلغار في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنّا وأذن العشاء في أثناء إفطرنّا وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك»⁽³⁾.

ينفضّل ابن بطّوطة أداء صلاته في المساجد، لأن صلاة الجمعة أفضل، ويكون فيها الأجر متضاعفاً: «ذهبت يوماً لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي»⁽⁴⁾.

فابن بطّوطة رجل مسلم بآتم معنى الكلمة، تقيّ ذو أخلاق سامية، سعى لكسب ثواب الله عزّ وجلّ بالاجتهاد في العبادة أينما حلّ وارتحل؛ والدليل على ذلك عدم تخليه عن صلاته في أوان البرد القارس: «ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات، وذلك أيام البرد الشديد المهلك»⁽⁵⁾.

أشار أيضاً إلى وضوئه بالماء الساخن قرب النار في مدينة سلطوق⁽⁶⁾ التي كانت شديدة البرد. وهذا يدل على الروح الإسلامية المتأصلة فيه، التي تفرض عليه عدم ترك ثاني ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين مهما كانت الظروف التي يمرّ بها.

ففي إحدى الأيام نقد ابن بطّوطة رجلاً لأنه لا يحسن الوضوء، فلم يتحمّل الرحالة السكوت عن هذا الخطأ الفادح، بل جعلته غيرته على الدين يصحّح مباشرة وضوء هذا الرجل، حيث قال: «نزلت بها (مدينة صور) مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض، ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذت عليه في فعله»⁽⁷⁾.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 224/2.

(2) المصدر نفسه، 259/2.

(3) المصدر نفسه، 236/2.

(4) المصدر نفسه، 29/3.

(5) المصدر نفسه، 29/3.

(6) المصدر نفسه، 259/2.

(7) المصدر نفسه، 258/1.

كان ابن بطّوطة صارماً في إقامة الصلوات عندما تولّى القضاء في جزائر ذبية المهل: « واشتدّت في إقامة الصلوات »⁽¹⁾.

كما لم تخل رحلته أيضاً من تلاوته للذكر الحكيم، فكثيراً ما ذكر أنّه ختم القرآن عدّة مرات في اليوم: « كنت أختم القرآن كل يوم، ثم كنت أختم مرتين في اليوم، أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح فأحسم عند الروايل وأجند الوضوء وأبتدئ القراءة فأحسم الخمسة النائية عند المغرب، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت منها أربعين يوماً »⁽²⁾. فكان يقعد بالمساجد لتلاوة كتاب الله إثر انتهائه من الصلاة.

وقد أورد ابن بطّوطة أيضاً في رحلته حكاية المنام الذي راوده وهو في قُري مَنسي⁽³⁾؛ حيث قال: « رأيت ليلة فيما يرى النائم، كأن إنسانا يقول لي: يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم »⁽⁴⁾.

ومن ذلك اليوم لم يترك الرّحالة قراءتها أبداً، كما كان، أيضاً، كثير الذكر للقرآن عندما تحل به نازلة أو معضلة لاعتقاده بأنّه لا خلاص له منها إلّا باللجوء إلى المولى تبارك وتعالى الذي لا يردّ دعوة الداعي إذا دعاه؛ فقد تداركه لطف الله عزّ وجلّ، ونجا من عقاب سلطان الهند عندما خرج إلى الغار الذي بهاه الشيخ شهاب الدين بن الشيخ الجامع ساريج دلهي، فلما أسند السلطان سأل أولاده عن كان يزوره، فذكروا أناساً كان ابن بطوطة من جملتهم، فقرر حينئذ معاقبته، وألهمه الله تلاوة قوله سبحانه وتعالى: " حسبنا الله ونعم الوكيل " فقرأها ثلاثاً وثلاثين ألف مرة، وبات بالمشور، وواصل إلى خمسة أيام في كل يوم منها يختم القرآن، ويفطر على الماء، وتخلص بعدها من عقاب السلطان الذي قتل الشيخ، وذلك بفضل الله سبحانه وتعالى.

(1) رحلة ابن بطوطة، 73/4.

(2) المصدر نفسه، 51/4.

(3) تقع على مقربة من القرية التي تحمل اسم كوكري (KOKRI) شمال شرقي سانسا ندينغ (SANSANDINQ).

ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 269/4.

(4) رحلة ابن بطوطة، 269/4.

كما أورد إشارات أخرى تدل على تلاوته للقرآن والصلاة، وبخاصة عندما يتزل بالزوايا، لأن هذه الأمكنة مخصّصة لذكر الله وحده لا شريك له، فكثيراً ما ذكر ابن بطّوطة أنّ أهلها يبيتون الليل كله في الذكر، والقراءة.

أما بالنسبة لصلاة الاستخارة؛ فقد أورد ذكرها في رحلته مرتين، حيث صلى الأولى بتلمسان⁽¹⁾ عندما أشاروا عليه. مرافقه عبد الله حمد بن أبي بكر بن عليّ بن إبراهيم الفراوي، والشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي، فقضى ثلاثة أيام في تلمسان بعد صلاة الاستخارة، ثم خرج بعد ذلك يقتفي أثرهما.

والثانية عندما علم أنّه وُلِدَ له ولدًا ذكرًا من زوجته التي تركها في جزائر ذبية المهل⁽²⁾، فخاف من العودة لِمَا كان بينه وبين الوزير عبد الله من خصومة وثُفرة: ففتح المصحف لقراءة القرآن، لعل الله يُنير له دربه، ففتح على قوله تعالى: ﴿تَتَزَلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فاستخار بعد ذلك الله تعالى، وسافر فوصل بعد عشرة أيام إلى جزائر ذبية المهل.

إذاً فالترّوع الديني في رحلة ابن بطّوطة جلياً واضحاً، بحيث أنّه لم يخلع إيهاب الرّجل المسلم المتدين أينما نزل، فكثيراً ما ذكر، أيضاً، مكان قضائه شهر رمضان المعظم، ومن ذلك أنّه أفطر أربع ليال من رمضان في دمشق في ضيافة نور الدين السخاوي مدرس المالكية، كما قضى هذا الشهر المبارك عند سلطان أكرِيدُور أبو إسحاق بك بن الدُّنْدَارِ بك⁽³⁾ الذي ذكر الرّحالة شيئاً من عوائده: «ومن عادته أنّه يأتي كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع فإذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه... فقرأوا سورة الفتح والمُلك وعم بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشعرّ الجلود وتدمع العيون»⁽⁴⁾.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 157/1.

(2) المصدر نفسه، 98/4.

(3) أبو إسحاق هو الملك الثالث من دولة حميد أوغلو دوندار ابن حميد الذي كان له لقب فلك الدين. ينظر: رحلة ابن بطّوطة

(الحاشية)، 167/2.

(4) رحلة ابن بطّوطة، 167/2.

كما نزل في الثامن والعشرين من رمضان في موضع يعرف ببش دغ التي وجد فيها محلة السلطان محمد أوزبك، فحضر معه صلاة العيد الذي صادف يوم الجمعة. كما قضاه أيضاً في جزائر ذبية المهل، وبقي فيها إلى أن حضر عيد الفطر، وصام أيضاً شهر رمضان في مدينة مالي عندما رحل إلى السودان. ولأبد من الإشارة، هنا، إلى أنه ذكر عادات بعض الأماكن عند استهلال رمضان وارتقاب هلاله، وسأورد قطعة من قوله ني كينية ارتقاب سكان المدينة المورة للال رمضان المنظم: «رعادتم نيد أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيبة حسنة، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه، قائلاً: بسم الله سيدنا فلان الدين! فيسمعه القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به، فإذا تكاملوا هناك ركب القاضي وركب من معه أجمعين من بالمدينة من رجال ونساء والعبيد والصبيان وينتهون إلى موضع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس... هكذا فعلهم كل سنة»⁽¹⁾. كما ذكر، أيضاً، عادة أهل مكة في شهر رمضان الكريم: «وإذا أهل رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام... وتتفرق الأئمة فرقاً، وهم الشافعية، والحنفية، والحنبلية، والزيدية وأما المالكية فاجتمعون على أربعة من قراء: يتناوبون القراءة، ويوقدون الشمع، ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعته فيرتج المسجد لأصوات القراء، وترق النفوس، وتحضر القلوب، وتمل الأعين»⁽²⁾.

وتظهر الروح الدينية عند ابن بطوطة عندما نذر الله تعالى بصوم شهرين متتاليين عندما يخلصهم من شر أهل سردانية، الذين عزموا على اللحاق بابن بطوطة ورفاقه، وهذا يدل على أنه كان كثير المناجاة لله سبحانه وتعالى، والتوسل إليه لنيل مرضاته، ورحمته.

هناك أنواع أخرى من النزوع الديني نلمسها في رحلة تحفة النظار، وذلك من خلال سلوكات صاحبها سواء أكانت هذه السلوكات فعلية أم قولية؛ فقد أورد في رحلته حكاية مباركة⁽³⁾ مفادها أنه رأى في أيام مجاورته بمكة، زاده الله تعظيماً، الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في النوم وهو جالس

(1) رحلة ابن بطوطة، 195/1 - 196.

(2) المصدر نفسه، 402/1 - 403.

(3) المصدر نفسه، 388/1.

بمجلس التدريس في المدرسة المظفرية، والناس يبايعونه، وعندئذ دخل الشيخ أبو عبد الله المدعو خليل، وقعد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له أبايعك على كذا وكذا، ومن الأمور التي بايعه عليها أنه لا يردّ عن بيته مسكيناً خائباً، فتعجب ابن بطّوطة من قوله، وقال في نفسه كيف يقدر على فعل ذلك مع كثرة فقراء مكة، واليمن، والزيالعة، والعراق، والعجم، ومصر، والشام.

رأى ابن بطّوطة حمداً سيّد المرسلين وخاتم النبيّين، وهذا لا يتأتّى إلّا لرسل تامّ الإيمان شديد الصلّة بخالقه، لأنّه ليس من هبّ ودب يرى الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه. فهذا المنام يؤكّد أنّ تدين الرّحالة أصيل متأصل في نفسه، ذلك أنّه تلقّى منذ صغره تربية إسلامية متينة تؤكّد أنّ أسرته كانت أسرة مثقّفة غنيّة بالعلوم الفقهيّة والدينيّة، وعملت على ترسيخها في ابنها الناشئ.

ولما استقرّ ابن بطّوطة في الهند بنى إزاء داره مسجداً، فأنفق أمواله في سبيل الله عزّ وجلّ، ورتب المقبرة عندما تولّى القضاء بها، حيث رتب من قرّاء القرآن مائة وخمسين: « وهم يسمّوهم الخدّمين »⁽¹⁾، ورتب من الطلبة ثمانين، ورتب أيضاً الإمام والمؤدّنين والقرّاء بالأصوات الحسان.

ومن جليل صنعه في المواسم الدينيّة (العيدان، والمولد النبوي الكريم، ويوم عاشوراء، وليلة النصف من شعبان) التصدّق على الفقراء والمساكين، وإطعامهم ما رزقه الله، فكان يعطيهم: « مائة منّ من الدقيق، ومثلها لحماً »⁽²⁾.

أشار ابن بطّوطة، أيضاً، إلى أنّ سلطان مدينة برّكي⁽³⁾ طلب منه أن يكتب إليه حديثاً من أحاديث الرّسول عليه الصلاة والسلام، فكتب له ما طلبه منه، لكنّه لم يشر إلى الحديث الذي دوّنه، حيث اكتفى بالإشارة إليه فقط.

تظهر غيرة الرّحالة على الدّين الإسلامي حين شتم اليهودي الذي جلس بجانب السّلطان التركي، فقال له: « يا ملعون بن ملعون كيف تجلس فوق قرّاء القرآن وأنت يهودي »⁽⁴⁾، لم يتحمل الرّحالة رؤية هذا الترتيب المعكوس، وتفضيل اليهودي على قرّاء القرآن ممّا جعله ينطق وينتقد، فهذا غير جائز في

(1) رحلة ابن بطّوطة، 243/3.

(2) المصدر نفسه، 244/3.

(3) تقع في شمال شرقي أودميش (ODEMISH) شرقي إزمير. ينظر: رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 183/2.

(4) رحلة ابن بطّوطة، 188/2.

نظره، فابن بطّوطة لا يحبّ أن يرى الباطل، والمنكر ويسكت عليه، وإنّما يسعى إلى تغييره من خلال ردّة فعله.

وكان في بعض الأحيان يذكر مذهب بعض المدن التي حلّ بها، ويذكر عوائدهم في الصلاة، والاختلاف بين هذه المذاهب، ومذهبه المالكي (فابن بطّوطة مالكي، وهو مذهب أغلب المغاربة والأندلسيين).

علّق على مذهب بلاد عُمان؛ حيث قال: « وهم إباضية المذهب ويصلّون الجمعة ظهراً أربعاً، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلامه ما يشبه الخطبة يرضى فيه عن أبي بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعليّ، وهم إذا أرادوا ذكر عليّ رضي الله عنه كنّوا عنه بالرجل، فقالوا ذكر عن الرجل ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قانع الفتنة »⁽¹⁾.

فهذا اختلاف جلّي بين المذهب الإباضي والمالكي؛ ففي المذهب المالكي تُصلّى الجمعة ركعتين، كما أنّهم لا يفرقون بين الخلفاء الراشدين الأربعة لأنّهم من أختيار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، ويؤكد هذا قول ابن بطّوطة حيث وصف قاتل عليّ كرم الله وجهه بالشقي اللعين ابن ملجم، أي أن هذا الرجل في نظره ملعون إلى يوم الدّين، ولن يُغفر له أبداً على فعلته النكراء.

ويظهر التّزوع الدّيني عند ابن بطّوطة حين رفض دخول مدينة بئر ملاحّة⁽²⁾، فتزل بخارجها بحجة أنّ أهلها روافض. وقد ذكر الرّحالة مذهب المالكي حين اتّهمه أهل مدينة صنّوب أنّه من الرّوافض، وذلك عندما رآهم أهل هذه المنطقة يصلّون مسبلي الأيدي، وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك: « كان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق ويصلون مسبلي أيديهم، فاتّهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك فأخبرناهم أنّنا على مذهب مالك »⁽³⁾.

وأشار أيضاً إلى أنّ الروافض يُغيّرون في الآذان، وهذا حين تحدث عن مذهب سكان مدينة قطيف⁽⁴⁾، وقال فيهم أنّهم رافضية غلاة، حيث يقول مؤذّنهم في آذانه بعد الشهادتين: « أشهد أن عليّاً

(1) رحلة ابن بطّوطة، 137/2.

(2) ملاحّة هي (الكفل) حالياً، وتقع بين الكوفة والحلّة. ينظر: رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 55/2.

(3) رحلة ابن بطّوطة، 210/2.

(4) هي مدينة بالبحرين، وهي اليوم قصبتها وأعظم مدنها. ينظر: معجم البلدان، 378/4.

وليَّ الله، ويزيد بعد الحيعلتين: حي على خير العمل، ويزيد بعد التكبير الأخير: محمد وعليّ خير البشر ومن خالفهما فقد كفر»⁽¹⁾.

أما بالنسبة للمعارك التي خاضها المسلمون في سبيل نشر الدعوة، وخدمة الأمة الإسلامية، وما منَّ الله عليهم من هزيمة المشركين، وكسر شوكتهم، فخصَّص لها حيزاً في رحلته، فكلما مرَّ ابن بطَّوطة مكان شهد فيه الصَّحابة والتَّابعون معركة إلَّا وذكرنا، وأثنى عليهم، وس ذلك ذكر، لمركبة بدر حين نزل فيها فقال: « ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأنجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين »⁽²⁾. وعندما حلَّ ببُتوك قال إنَّه الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأشار، أيضاً، للوقعة الشهيرة على الفرس عندما مرَّ بالقادسية؛ حيث قال: « أظهر الله فيها دين الإسلام وأذلَّ المجوس عبدة النار، فلم تتم لهم بعدها قائمة، واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي الوقاص رضي الله عنه »⁽³⁾.

كانت هذه بعض المشاهد التي تؤكد نزوع الرِّحالة نحو ذكر كلِّ ما يتعلق بالأحداث التي شهدت عزَّ الإسلام والمسلمين.

إذاً تلقى ابن بطَّوطة تربية إسلامية متينة منذ الصِّغر؛ فقد ارتوى من معين البيئة المغربية المحافظة، ومن منابع الثقافة الدِّينية الأصيلة، حيث بدا ذلك واضحاً وجلياً من خلال أقواله وأفعاله. وقد عكست رحلته الثقافة الدِّينية التي سادت، ذاك العهد، هذا العصر هر عصر التَّصوف، والأولياء والصَّالحاء، وأصحاب الكرامات.

عانى المغرب في هذه الفترة من الزمن من الانقسامات، والتفكك، والانحطاط السياسي داخلياً، بالإضافة إلى الخطر المحدق بالمنطقة وسكانها خارجياً. كل هذا دفع المثقفين من الأدباء، والعلماء، والفقهاء إلى الرِّحلة لأنَّهم وجدوا فيها ملاذاً ومتنفساً عن الأوضاع السيئة التي خيَّمت على بلادهم، فكانت معظم رحلاتهم باتجاه المشرق قصد حجِّ بيت الله الحرام، وبلوغ مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وزيارة المشاهد المباركة، وقبور الصَّحابة والتَّابعين، وأولياء الله الصَّالحين، ولقاء المشايخ والفضلاء، وأصحاب الكرامات الظاهرة، وكأنَّهم يستنجدون بهم، ويستغيثون طلباً لنصرتهم ضدَّ الخطر الأجنبي الذي كان يتهدد مصيرهم.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطَّوطة، 2/162.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 1/365.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 1/416.

الفصل الثاني :

المقابر والعلماء والأولياء والصلحاء:

١- المقابر :

أ/ المقابر في رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقيير.

ب/ المقابر في رحلة تُحفة النُّظار.

٢- العلماء والأولياء والصلحاء :

أ/ رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقيير.

ب/ رحلة تُحفة النُّظار.

هيمنت الثقافة الدينية والروحية، وانتشر التصوف خلال القرن الثامن للهجرة، حيث كثرت الطوائف الصوفية والزوايا، التي كان يرتادها المريدين والزائرين بصفة عامة. فعملت الزوايا، والربط على نشر التصوف، وتربية مختلف طبقات المجتمع على الأخلاق الحميدة، وترويض النفس على هجران الماديات، ونبذ الدنيا، والاجتهاد في العبادات، فكانت بمثابة مؤسسات دينية واجتماعية. وهذا ما عكسته رحلة " ثحفة النظار " التي احتوت وصفاً دقيقاً لكثير من زوايا العالم الإسلامي، تضمنتها حديث عن نظامها، وطريقة تسييرها، ولم تكن رحلة " أنس الفقير وعز الحقيير " أقل شأناً من رحلة " ثحفة النظار"، بخاصة في جانب رصد حياة الصوفية بالمغرب برجالها، وفرقها، وتجمعاتها، حيث أفاض ابن قنفذ في هذا الكتاب عن أخبار جولاته بالمغرب، وانسياحه داخل مدنه وأريافه باحثاً عن الشخصيات المغربية المتميزة. ولتوضيح ذلك خُصِّصَ هذا الفصل للحديث عن المقابر، والتصوف ورجالاته من خلال رحلتي ابن بطّوطة وابن قنفذ، وهو الجانب الذي اشتركا فيه الرجلين.

١/ المقابر :

القبر: مدفن الإنسان، وجمعه قبور، والمقبّر المصدر. والمقبّرة، بفتح الباء وضمها موضع القبور، وقبره يقبره ويقبره: دفنه، وأقبره جعل له قبراً⁽¹⁾.
والقبر هو مكان ضيق يُدفن فيه الموتى، وهو موطن العظماء والحُفراء، والأغنياء والفقراء، ومترل للصالحين، وحفرة من نارٍ للكافرين، وهو إما دار كرامة وسعادة، أو دار إهانة وشقاء؛ يقول مالك بن دينار⁽²⁾: (المتقارب)

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُمْ	نَّ أَيْنَ الْمُعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ
وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ	وَأَيْنَ الْمُزَكِّي إِذَا مَا افْتَخَرَ
تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا مُخْبِرٌ	وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبِرُ
تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ الثَّرَى	فَتَمَحُّوْ حَاسِنَ تِلْكَ الصُّوْرِ

تحدّث النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَنِ الْمَوْتِ وَالْقُبُورِ وَأَهْلِهَا، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ

(1) لسان العرب لابن منظور، 69، 68/5.

(2) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط9، 1986، ص400.

سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾⁽¹⁾، وخيرُ زاد يأخذه المرء معه بعد موته التقوى، والعمل الصالح.

تحدث كل من ابن بطوطة وابن قنفذ عن القبور في رحلتيهما، فكان حديث ابن بطوطة أوسع وأشمل من حديث صاحبه لأنه تحدث عن قبور الرسل والصّحابة والتابعين رضي الله عنهم، أمّا ابن قنفذ فاقصر علمه ذكر قبور أولياء الله الصالحين لأن رحلته كانت في التّصوف، وتتبّع الأولياء.

أ- المقابر في رحلة ابن قنفذ:

• قبر الشيخ أبي مدين :

هو، شيخ المشايخ، أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، زار ابن قنفذ قبره، ووقف عليه: « رأيت من قبور الأولياء كثيرا من تونس إلى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفي فما رأيت أنورَ من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره »⁽²⁾.

مات أبو مدين شعيب بالعبّاد في تلمسان، قيل سأل أصحابه عن هذا الموضع عندما احتمله والي بجاية إلى بني عبد المؤمن ف قيل له: العبّاد، فقال: « أي موضع هو للرقاد فمرض يومئذ ومات، ودفن هناك »⁽³⁾. يأتي الناس لزيارة قبره من كل مكان، والدعاء عنده مستجاب.

• قبر ابن عاشر⁽⁴⁾ :

دفن ابن عاشر في سلا⁽⁵⁾، كان فريداً في الورع والعبادة، تخرج على يده ثلاثمائة صلحاء أخيار. اجتمع به ابن قنفذ، وتحدث معه، وطلب منه الدعاء حتى تعجب الحاضرون من ليانه، وانشرحه في معاملته مع الرّحالة لما عُرف عنه نفوره من الناس.

(1) الآية 88 من سورة القصص.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 149.

(3) بغية الرّواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى بن خلدون، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، 1/126.

(4) أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي الأصل السلاوي المولد، أحد العلماء الأخيار من رجال الكمال والأولياء الأبدال مشهور بإجابة الدعوة معروف بالكرامات، جمع بين العلم والعمل. ترجمته في:

- شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، 1/234.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكي، 1/96.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 42.

• قبر ابن حرزهم⁽¹⁾:

زاره ابن قنفذ سنة 759هـ قبره خارج باب الفتوح⁽²⁾، وقد تكررت للرحالة زيارته عدّة مرات أثناء إقامته بالمغرب .

• قبر الوليّ أبي الفضل قاسم القرطبي⁽³⁾: قبره قريب من قبر أبي زكرياء الزواوي⁽⁴⁾.

• قبر الشّيخ أبي تميم عبد الرحمن الهزميري⁽⁵⁾: قبره قريب من مكناسة الزيتون⁽⁶⁾.

• قبر الشّيخ أبي محمد عبد الحق الإشبيلي⁽⁷⁾: يوجد قبره بمدينة بجاية⁽⁸⁾ خارج باب المرسى.

• قبر الشّيخ أبي مسعود ابن عريف⁽⁹⁾: قبره يُزار، ويُتبرّك به، يوجد في جبال الشلف.

• قبر أبي بكر ابن العربي⁽¹⁰⁾: قبره بين مدينتي فاس القديم وفاس الجديد⁽¹¹⁾، ظهرت عليه بركات عجبية، زاره ابن قنفذ ووقف عليه.

(1) أبو الحسن عليّ بن إسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن حرزهم، من أهل مدينة فاس، وبها توفي في أواخر شعبان عام 559هـ. كان فقيها، حافظا للفقهاء زاهدا في الدنيا. ينظر ترجمته في: التشوف إلى رجال التصوف لتادلي، ص 168-169.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 48.

(3) المصدر نفسه، ص 66.

(4) أبو زكريا يحيى بن أبي عليّ المشتهر بالرواوي. ولد في بني عيسى س قبائل " زواوة ". قرأ أول أمره " بقلعة بني حماد " على الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن الخراط وغيره ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي الفضلاء والمشايخ من الفقهاء والمتصوفة. ينظر ترجمته في: عنوان الدراية للغبريني، ص 127.

(5) أبو تميم عبد الواحد الأسود، تلميذ أبي يعزى، كان عبدا صالحا، انفرد بموضع على أميال من مكناسة، وبني فيه مسجدا. فلما مات دفن في رحبة ذلك المسجد. ينظر: التشوف إلى رجال التصوف لتادلي، ص 269.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 68.

(7) أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الأشبيلي، الفقيه الجليل، المحدث الحافظ المتقن المجيد رحل إلى بجاية وتخيرها وطناً، فألف التآليف، وصنف الدواوين، وولّى الخطبة، وصلاة الجماعة بجامعها الأعظم. ينظر: عنوان الدراية للغبريني، ص 41.

(8) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 71.

(9) المصدر نفسه، ص 78.

(10) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر بن العربي. قاض من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. مات بقرب فاس، ودفن بها. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 230/6.

(11) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 80.

• قبر أبي شعيب آزمور⁽¹⁾:

يُعرفُ بأيوب السارية، يوجد قبره خارج آزمور في بلاد المغرب الأقصى.

• قبر أبي الحسن عليّ الأندلسي⁽²⁾: يوجد قبره في مدينة قسنطينة بالجزائر.

• قبر الشيخ أبي محمد صالح⁽³⁾: زار ابن قنفذ قبره بآسفي سنة 763هـ، وهناك التقى بأحفاده.

• قبر أبي زيد عبد الرحمن الهزميري⁽⁴⁾: يوجد قبره في روضة الأنوار داخل باب الفتوح⁽⁵⁾ من أبواب

مدينة فاس بمحاذاة جامع الصابرين.

• قبر أبي عبد الله ابن تيجلات⁽⁶⁾: زار الرحالة قبره بمدينة أغمات⁽⁷⁾، والناس يتبركون به، ويتزاحمون عليه.

• روضة الأنوار: دُفِنَ بهذه الروضة عدد كبير من أولياء الله الصالحين، ولهذا السبب سُميت بهذا الاسم، وآخر من دُفِنَ فيها، في اعتقاد ابن قنفذ، الشيخ أبو العباس أحمد المكناسي⁽⁸⁾.

• قبر عبد العزيز⁽⁹⁾: زاره الرحالة سنة 763هـ⁽¹⁰⁾ بأغمات.

ب- المقابر في رحلة ابن بطّوطة:

أمّا فيما يخص القبور التي ورد ذكرها في رحلة ابن بطّوطة، فهي كثيرة تُفوق ما ذكره زميله ابن قنفذ، وسيبدأ الحديث بأهم المقابر التي يَأمَلُ كل إنسان في زيارتها، والوقوف على تربتها:

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص80.

(2) المصدر نفسه، ص89.

(3) المصدر نفسه، ص102.

(4) أبو زيد عبد الرحمن، وليّ شهير شيخ الطائفة، وإمام أهل الحقيقة ذو المناقب، والكرامات الكثيرة. توفي بفاس سنة 706هـ. ينظر ترجمته في: شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف، 1/201.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص108.

(6) المصدر نفسه، ص111.

(7) ناحية من بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السُّوس الأقصى بأربع مراحل، ومن سجلماسة ثماني مراحل نحو المغرب. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/225.

(8) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص112.

(9) أبو محمد عبد العزيز التونسي، أصله من تونس، أخذ الفقه عن أبي عمران الفاسي، وأبي إسحاق التونسي، واستقر أخيرا بأغمات حتى توفي سنة 486هـ. ينظر ترجمته في: التشوف إلى رجال التصوف، ص92.

(10) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص151.

1/ الجبانة المباركة (الحجون)⁽¹⁾:

توجد هذه الجبانة في مكة المكرمة خارج باب المعلى، ويُعرف ذلك الموضع، أيضاً، بالحجون⁽²⁾، دُفن فيها كثير من الشخصيات البارزة في تاريخ الإسلام، وفيما يأتي أسماء بعضهم:

* قبر أم المؤمنين، ووزيرة سيد المرسلين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أم أولاد النبي كلهم: القاسم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله عدا إبراهيم.

* قبر أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم .

وفي هذه الجبانة الموضع الذي صُلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

*** مقبرة جبل أحد :**

يرتبط اسم هذا الجبل بموقعة تاريخية وقعت في السنة الثالثة للهجرة، وسميت (غزوة أحد). دارت معركة بين المسلمين والمشركين رجحت فيها كفة المسلمين، وبدأ الكفار بالهرب، ولكن الرماة الذين كانوا متحصنين في الجبل نزلوا، وظنوا أن المعركة حُسمت لصالح المسلمين، ولم يلتفتوا لنداءات الرسول الكريم، وانتهز المشركون بقيادة خالد بن الوليد الفرصة الذي التف بغرسانه من حول الجبل، ثم هاجموا المسلمين فتشتت صفوفهم، واستشهد منهم كثير، ثم انسحب المشركون، ودُفن الشهداء في موقع المعركة: وكان منهم حمزة بن عبد المطلب⁽³⁾ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* قبر إسماعيل عليه السلام تحت الميزاب في الحِجْر⁽⁴⁾، وإلى جانبه مما يلي الركن العرافي قبر أمه هاجر عليها السلام.

(1) رحلة ابن بطوطة، 381/1.

(2) موضع بمكة عند الحصب، وهو الجبل المشرف بجذء المسجد الذي يلي شعب الجزارين إلى ما بين الحوضين اللذين في حائط عوف، وقيل الحجون مقبرة أهل مكة تجاه دار أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. الروض المعطار في أخبار الأقطار لعبد المنعم الحميري، ص 189.

(3) رحلة ابن بطوطة، 362/1.

(4) المصدر نفسه، 373/1.

2/ الروضة المقدسة :

توجد في وسط المسجد النبوي الشريف⁽¹⁾، وبالضبط في غرفة عائشة رضي الله عنها، دُفِنَ فيها خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وصديقيه المقرَّين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

* قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يقال هو قبرها والله أعلم »⁽²⁾ في جوف الروضة المقدسة.

* مقبرة البقيع :

- هي مقبرة أهل المدينة المنورة تقع في شرقها، فيها قبور الجَمِّ الغفير من المسلمين؛ منهم⁽³⁾:
- قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، وهي عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّ الزبير بن العوّام رضي الله عنه.
- قبر مالك بن أنس رضي الله عنه إمام المدينة المنورة.
- قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة: إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عليه قبة بيضاء.
- قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه.
- قبر عبد الله بن ذي الجَنَاحَيْن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما (سُمي جعفر بذي الجَنَاحَيْن لأنّ كلتي ذراعيه قطع في معركة مؤتة فاستبدلها الله له بجناحين في الجنة).
- قبور أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.
- قبر الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، وَصَفَ ابن بطّوطة قبره؛ فقال: « وهي قبة ذاهبة في الهواء بديعة الإحكام عن يمين الخارج من باب البقيع، ورأس الحسن إلى رجلي العباس عليهما السلام، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشّيان بألواح بديعة الإلصاق »⁽⁴⁾.
- قبور المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة رضي الله عنهم .

(1) رحلة ابن بطوطة، 349/1.

(2) المصدر نفسه، 351/1.

(3) المصدر نفسه، 361/1.

(4) المصدر نفسه، 361/1.

- قبر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، عليه قبة كبيرة .
- قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .
- تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ⁽¹⁾، توجد هذه التربة خارج المدينة الشريفة في بقيع العرقد.

3/ فلسطين :

* جبانة عسقلان ⁽²⁾ :

- قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- أشار ابن بطوطة إلى هذه الجبانة التي يوجد بها جم غفير من قبور الشهداء والأولياء، ومع ذلك لم يشر إلى أي قبر من هذه القبور.
- * تربة يوسف عليه السلام ⁽³⁾ في مدينة القدس.
- * يوجد في مدينة الرملة في جامعها الأبيض نحو ثلاثمائة من الأنبياء المدفونين عليهم السلام في قبلته، وفيها من كبار الفقهاء محمد الدين النابلسي ⁽⁴⁾.
- * قبر رابعة البدوية ⁽⁵⁾ الذي يقع شرق القدس في مكان مرتفع .
- * قبر مريم عليها السلام ⁽⁶⁾ في كنيسة يُعَظَّمُهَا النصارى، وقبر ابنها عيسى عليه السلام في كنيسة أخرى يُحَجُّهَا النصارى.
- * قبر فاطمة بنت الحسين بن عليّ عليهما السلام في مغارة قرب مسجد اليقين، كُتِبَ على قَبْرِهَا بخط جميل: « بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء، وله ما ذرأ ⁽⁷⁾ وبرأ ⁽⁸⁾ وعلى خلقه كتب الفناء، وفي

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 361/1.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 256/1.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 244/1.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 254/1.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 254/1.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، 249/1.

⁽⁷⁾ ذرأ: في صفات الله عز وجل، الذاري، وهو الذي ذرأ الخلق أي خلَقَهم، وكذلك الباري: قال الله عز وجل: ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً أي خلقنا. وذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرأاً: خلَقَهم. ينظر: لسان العرب لابن منظور، 79/1.

⁽⁸⁾ برأ: الباري: من أسماء الله عز وجل، والله الباري الذاري. وفي التزويل العزيز: الباري المصور. وقال تعالى: فتوبوا إلى باريكم. قال: الباري: هو الذي خلَقَ الخلق لا عن مثال. ينظر: لسان العرب لابن منظور، 31/1.

رسول الله أسوة. هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه ⁽¹⁾.

* قبر يوسف عليه السلام ⁽²⁾ في مدينة الخليل.

* قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات الله عليهم في غار مُقدَّس في مدينة الخليل في المسجد الذي يُقال أن سليمان عليه السلام أمر الجنّ ببنائه، ويقابل هذه القبور ثلاثة قبوراً لأزواجهم. ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشَّيْفة بهذا المكان ما نقله ابن بطَّوطة من كتاب عليّ بن جعفر الرازي: "المسفر للقلوب، عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب" "أُسند فيه إلى أبي هُريرة قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أُسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل على قبر إبراهيم، فقال: انزل فصلّ ركعتين فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام، ثم أتى بي إلى الصخرة، وذكر بقية الحديث » ⁽³⁾.

ولكي يثبت الرّحالة صحة نسبة هذه القبور الثلاثة لأصحابها رأيناه يستشهد بالحديث النبوي الشريف، وليتأكد أكثر ذهب ليسأل إمام المدينة برهان الدّين الجميري عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هناك، فأكد له هذا الشَّيْخ صحة الخبر الذي لا يطعن فيه إلا أهل الشرك.

* قبر الصالح عيسى البدوي في مدينة صهيون ⁽⁴⁾.

4/ سوريا :

* قبور في قاسيون ⁽⁵⁾ :

دفن في جامع قاسيون سبعمائة نبّي، وبعضهم يقول سبعون ألفاً.

* المقبرة العتيقة ⁽⁶⁾ :

توجد هذه المقبرة خارج مدينة دمشق، دُفن فيها الأنبياء والصلحون، وفي طرفها أرض منخفضة يقال إنَّها مدفن سبعين نبياً، وقد نُزّهت هذه المقبرة من أن يُدفن فيها أحد.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 249/1.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 243/1.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 239/1.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 286/1.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، 328/1.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، 328/1.

* مقبرة دمشق :

تقع هذه المقبرة بين باب الجابية والباب الصغير، وهي مدفن لمجموعة من الصحابة رضي الله عنهم⁽¹⁾ :

- قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية.

- قبر بلال الحبشي، أول مؤذن في الإسلام.

- قبر أُوَيْسُ الْقُرَني⁽²⁾.

- قبر كعب الأحبار.

ويلي باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها⁽³⁾ :

- قبر أُبَيِّ بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- قبر رَسْلَان⁽⁴⁾ المعروف بالباز الأشهب.

وبغربي دمشق جبانة تُعرف بقبور الشهداء فيها⁽⁵⁾ :

- قبر أبي الدرداء، وزوجته أم الدرداء.

- قبر فضالة بن عبيد⁽⁶⁾.

- قبر واثلة بن الأسقع⁽⁷⁾.

- قبر سهل بن حنظلية.

(1) رحلة ابن بطوطة، 319/1.

(2) أُوَيْسُ بن عامر بن جَزْء بن مالك، أحد النساك العبّاد المتقدمين، من سادات التابعين. أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة. وشهد وقعة الصفين مع عليّ، ويرجح الكثيرون أنه قُتل فيها. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 32/2.

(3) رحلة ابن بطوطة، 321/1.

(4) أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن الجعيري: أحد الزهاد الصالحين المشهورين، من أهل دمشق. وقبره فيها معروف. يقال له الشيخ رسلان تخفيفاً. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 288/1.

(5) رحلة ابن بطوطة، 322/1.

(6) فَضَالَة بن عُبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي، أبو محمد: صحابي شهد أحداً وما بعدها. وشهد فتح الشام ومصر، ولّه معاوية قضاء دمشق، وتوفي بها. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 146/5.

(7) واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل، الليثي الكنايني: صحابي من أهل الصفة. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي،

- قبر سعد بن عباد⁽¹⁾ في قرية تُعرف بالمنيحة شرقي دمشق، كُتِبَ على قبره: « هذا قبر سعد بن عباد رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً »⁽²⁾.
- قبر أمّ مريم عليها السلام بجامع التّيرب في دمشق⁽³⁾.
- قبر أبي مسلم الخولاني⁽⁴⁾، وقبر أبي سليمان الدّاراني⁽⁵⁾ رضي الله عنهما، في قرية داريا⁽⁶⁾ غربي البلد.
- قبر زكريا عليه السلام في وسط جامع دمشق (بني أمية)، قبره مكسو بثوب حرير أسود مكتوب فيه بالأبيض: « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى »⁽⁷⁾.
- قبر النبيّ هود عليه السلام إزاء الجدار القبلي في جامع بني أمية الذي بناه بنفسه، ويوجد قبر آخر رآه ابن بطّوطة في مدينة الأحقاف منسوب إليه أيضاً، عليه السلام، مكتوب عليه: « هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم »⁽⁸⁾.
- قبر إبراهيم بن الأدهم، وهو من الصّالحين المُنقَطِعين لعبادة الله تعالى، يُوجد قبره على نحو ميل من مدينة جبلة⁽⁹⁾.

(1) سعد بن عباد بن دليم بن حارثة، الخزرجي، أبو ثابت : صحابي، من أهل المدينة. كان سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أحداً، والخنديق، وغيرهما. ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، 85/3.

(2) رحلة ابن بطوطة، 323/1.

(3) المصدر نفسه، 323/1.

(4) عبد الله بن ثوب الخولاني: تابعي، فقيه عابد زاهد، نعتة الذهبي بريحانة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم يره. ينظر: الأعلام، 75/4.

(5) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان؛ زاهد مشهور من أهل داريا رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثمّ عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين. ينظر: الأعلام، 294/3.

(6) رحلة ابن بطوطة، 325/1.

(7) المصدر نفسه، 310/1.

(8) المصدر نفسه، 310/1.

(9) المصدر نفسه، 290/1.

- قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ⁽¹⁾ خارج مدينة المعرة ⁽²⁾.
- قبر سيف الله المسلول خالد بن الوليد خارج مدينة حمص ⁽³⁾.
- قبر شعيب عليه السلام، و بنته زوجة موسى عليه السلام في مسجد طبرية ⁽⁴⁾، وبه، أيضاً، قبر سليمان عليه السلام، وقبر يهودا، وقبر روييل عليهم السلام.
- قبر صالح عليه السلام في مدينة عكة ⁽⁵⁾.
- قبر أبي عبيدة بن الجراح ⁽⁶⁾ أمين هذه الأمة رضي الله عنه في العُور، وهو وادٍ بين التلال.

5/ مصر :

- قبر أبي الحجاج الأقصري ⁽⁷⁾ في مدينة أقصر.
- قبر الولي أبي الحسن الشاذلي ⁽⁸⁾ في حُمَيْثَرَا ⁽⁹⁾.
- تربة عبد الظاهر جد أبي العباس بن عبد الظاهر ⁽¹⁰⁾ في مدينة إخميم ⁽¹¹⁾.

(1) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم. ينظر: الأعلام، 50/5.

(2) هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 156/5.

(3) رحلة ابن بطوطة، 266/1.

(4) المصدر نفسه، 260/1.

(5) المصدر نفسه، 258/1.

(6) المصدر نفسه، 256/1.

(7) المصدر نفسه، 229/1.

(8) علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشاذلي المغربي، أبو الحسن: رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة "حزب الشاذلي". ينظر ترجمته في:

- سلوة الأنفاس ومحاذئة الأكياس. من أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، 83/1.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 305/4.

(9) رحلة ابن بطوطة، 230/1.

(10) المصدر نفسه، 227/1.

(11) بلد صغير على شاطئ النيل بالصعيد؛ وفي غربيّه جبل صغير، من أصغى إليه بأذنه سمع خرير الماء، ولغطاً شبيهاً بكلام الآدميين، لا يُدرى ما هو. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 124/1.

- تربة السيِّدة نفيسة بنت زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام في قرافة مصر: « هذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء »⁽¹⁾.

- تربة الإمام عبد الله محمد بن إدريس الشافعي⁽²⁾ رضي الله عنه في قرافة مصر أيضاً.

6/ العراق :

* مقبرة البصرة⁽³⁾ :

- قبر حليلة السعدية مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى جوارها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- قبر أبي بكر⁽⁴⁾ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- قبر أنس بن مالك⁽⁵⁾ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- قبر الحسن بن أبي الحسن البصري⁽⁶⁾ رضي الله عنه.

- قبر محمد بن سيرين⁽⁷⁾ رضي الله عنه.

- قبر محمد بن واسع⁽⁸⁾ رضي الله عنه.

- قبر عتبة الغلام رضي الله عنه.

- قبر مالك بن دينار⁽⁹⁾ رضي الله عنه.

(1) رحلة ابن بطوطة، 206/1.

(2) المصدر نفسه، 206/1.

(3) المصدر نفسه، 14/2 - 15.

(4) نفع بن الحارث بن كلدة الثقفي، أبو بكر: صحابي، من أهل الطائف. توفي بالبصرة، وإنما قيل له " أبو بكر " لأنه تدلى ببكرة من حصن الطائف إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ينظر: الأعلام، 44/8.

(5) أنس بن مالك بن نضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة، أو أبو حمزة: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخادمه. ينظر: الأعلام، 24/2 - 25.

(6) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحرر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ينظر: الأعلام، 226/2.

(7) محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر: إمام وقته في علوم الدين بالبصرة. تابعي. من أشرف الكتاب. ينظر: الأعلام، 154/6.

(8) محمد بن واسع بن جابر الأزدي، أبو بكر: فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. ينظر: الأعلام، 133/7.

(9) مالك بن دينار البصري، أبو يحيى: من رواة الحديث. ينظر: الأعلام، 260/5.

- قبر حبيب العجمي رضي الله عنه.
 - قبر سهل بن عبد الله التستري⁽¹⁾ رضي الله عنه.
 يوجد على كل قبر من هذه القبور قبرة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته، كما يوجد بهذه المقبرة، أيضاً، قبور عدد هائل من الصحابة والتابعين المستشهدين في موقعة الجمل الشهيرة التي دارت رحاها بين عليٍّ وعائشة رضي الله عنهما عام 35هـ.
 عندما رجع ابن بطوطة من رحلته مرّ على البصرة للمرّة الثانية، وزار القبور الكريمة التي بها، وأشار إلى أنّه زارها، ووقف عليها، ولم يود ذكرها جميعاً كما فعل في المرّة الأولى تفادياً للتكرار قائلاً: « وقد تقدم ذكرها جميعها »⁽²⁾.
 * قبر مُسلم بن عَقِيل⁽³⁾ بن أبي طالب رضي الله عنه في الجهة الشرقية من جامع الكوفة⁽⁴⁾، وبالقرب منه قبر عاتكة وسُكينة بنّي الحسين عليه السلام.
 * في باب الحضرة بالتّجف⁽⁵⁾ (الكوفة) قبر آدم ونوح عليهما السلام، وقبر عليّ رضي الله عنه كما يزعمون هناك .

* القبور التي في الجانب الغربي من بغداد⁽⁶⁾:

- قبر معروف الكرخي⁽⁷⁾ رضي الله عنه في الجانب الغربي من بغداد .
 - قبر عرن من أولاد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، في طريق باب البصرة، وهو قبر متّسع السنّام مكتوب عليه اسمه.
 - قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق⁽⁸⁾ والد عليّ بن موسى الرضا، وإلى جانبه قبر الجواد.

(1) سهل بن عبد الله يونس التستري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية، وعلمائهم. ينظر: الأعلام، 143/3.

(2) رحلة ابن بطوطة، 174/4.

(3) مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم: تابعي، من ذوي الرأي، والعلم، والشجاعة. ينظر: الأعلام، 22/7.

(4) رحلة ابن بطوطة، 60/2.

(5) المصدر نفسه، 423/1.

(6) المصدر نفسه، 62/2.

(7) معروف بن فربوز الكرخي، أبو محفوظ: أحد الأعلام الزهاد، والمتصوفين. كان من موالى الإمام عليّ الرضى بن موسى الكاظم. ينظر: الأعلام، 269/7.

(8) موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، أبو الحسن: سابع الأئمة الاثني عشر، عند الإمامية. ينظر: الأعلام، 321/7.

* قبور الخلفاء ببغداد، وقبور بعض العلماء، والصالحين بها: يكفي في هذا المقام ذكر قبور العلماء والصلحاء⁽¹⁾؛ منهم:

- قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، عليه قبة عظيمة، وزاوية فيها طعام للوارد والصادر بالقرب من الرصافة.

- قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

- قبر أبي بكر الشَّيْبَلِي⁽²⁾.

- قبر سري السَّقَطِي⁽³⁾، وقبر بشر الحافي⁽⁴⁾، وقبر داود الطائي⁽⁵⁾، وقبر أبي القاسم الجنيد رضي

الله عنهم أجمعين.

وبغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله عنهم .

* قبر إبراهيم عليه السلام في قرية بُرْص (من أعمال العراق).

7/ مقابر في بلدان أخرى :

* قبر الإمام أبي الحسن اللحي⁽⁶⁾ المالكي مؤلف كتاب " التبصرة في الفقه " خارج مدينة صفاقس (تونس).

* قبر الوليِّ الصالح عبد الرحيم القيناوي⁽⁷⁾، يوجد قبره في مدينة قنا⁽⁸⁾ (اليمن).

* قبر نبيِّ من الأنبياء عليهم السلام في مدينة صنعاء⁽⁹⁾ (اليمن)، ولسوء الحظ لم يتمكن الرحالة من معرفته.

(1) رحلة ابن بطوطة، 65/2.

(2) دلف بن جحدر الشَّيْبَلِي: ناسك. كان في مبدأ أمره والياً في ديناوند (من نواحي رستاق الريّ)، ووليَّ الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك الولاية، وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح. ينظر: الأعلام، 341/2.

(3) سري بن المغلس السَّقَطِي، أبو الحسن: من كبار المتصوفة. ببغداد المولد، والوفاء. ينظر: الأعلام، 82/3.

(4) بشر بن الحارث بن عليّ بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. ينظر: الأعلام، 54/2.

(5) داود بن نصير الطائي، أبو سليمان: من أئمة المتصوفين. كان في أيام المهدي العباسي. ينظر: الأعلام، 335/2.

(6) رحلة ابن بطوطة، 169/1.

(7) المصدر نفسه، 228/1.

(8) موضع باليمن. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 399/4.

(9) رحلة ابن بطوطة، 111/2.

- * قبر حبيب النجار ⁽¹⁾ رضي الله عنه في أنطاكية ⁽²⁾ (تركيا).
- * قبر الشيخ مرزوق ⁽³⁾ صاحب المكاشفات في بلاد البُرس ونَسْتَرُو.
- * قبر الشيخ الولي أبي النجاة ⁽⁴⁾ الشهير.
- * قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي ⁽⁵⁾ بقرية تُعرف بأم عبيدة.
- * تربة زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ⁽⁶⁾:
- توجد هذه التربة بمدينة تستر، وهي تربة معظّمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة، وينذرون ⁽⁷⁾ لها النذور .
- * تربة الشيخ الصالح المعروف بالسعدي ⁽⁸⁾ خارج مدينة شيراز ⁽⁹⁾ (بلاد فارس).
- * قبر الشيخ أبي إسحاق الكازروني ⁽¹⁰⁾: خرج الرحالة من شيراز قصد زيارته، والتبرّك به.
- * قبر زيد بن ثابت ⁽¹¹⁾، وزيد بن الأرقم ⁽¹²⁾ الأنصاريين صاحبي ⁽¹³⁾ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدينة الرّيدّين.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 1/284.

⁽²⁾ قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاقها، موصوفة بالتراهة، والحسن، وطيب الهواء، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه، وسعة الخير. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/266.

⁽³⁾ رحلة ابن بطوطة، 1/207.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 1/193.

⁽⁵⁾ المصادر نفسه، 2/9.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، 2/22.

⁽⁷⁾ التَّنْذَرُ: التَّحَبُّ، وهو ما يَنْذُرُهُ الإنسان فيجعلهُ على نفسه نَحْبًا واجبًا، وجمعه تَنْذُور. قال أبو سعيد الضرير: إنما قيل له تَنْذَرُ لأنه تَنْذَرُ فِيهِ أي أَوْجِبَ، من قولك تَنْذَرْتُ عَلَى نَفْسِي أي أَوْجَبْتُ. ينظر: لسان العرب لابن منظور، 5/200.

⁽⁸⁾ رحلة ابن بطوطة، 2/50.

⁽⁹⁾ بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث. بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخاً. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 3/380.

⁽¹⁰⁾ رحلة ابن بطوطة، 2/52.

⁽¹¹⁾ زيد بن ثابت بن الضحاك الخزرجي، أبو خازجة: صحابي من أكابرهم. كان كاتب الوحي. ينظر: الأعلام، 3/57.

⁽¹²⁾ زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري: صحابي. غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة. ينظر: الأعلام، 3/56.

⁽¹³⁾ رحلة ابن بطوطة، 2/53.

- * تربة الشيخ قطب جلال الدين ⁽¹⁾ المعروف بمولانا في مدينة قونية ⁽²⁾.
- * قبر الإمام عبد الله البخاري صاحب كتاب " الجامع الصحيح " كُتِبَ على قبره: « هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري وصنف من الكتب كذا وكذا » ⁽³⁾.
- * قبر الشيخ الزاهد سيف الدين البخاري ⁽⁴⁾ في بخارى برَبضها المعروف بفتح آباد.
- * قبر قُتَيْب بن عباس بن عبد المطلب ⁽⁵⁾ رضي الله عنهما، وهو الذي استشهد حين فتح سمرقند.
- * قبر عكاشة بن محصن الأسدي ⁽⁶⁾ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدخل الجنة بلا حساب، خارج بلخ، وعلى قبره زاوية نزل بها ابن بطوطة، وبهذه المدينة، أيضاً، قبر حَزَقِيل النبي عليه السلام، عليه قبة حسنة.
- زار الرحالة قبوراً كثيرة في بلخ للصلحين، لكنه لا يتذكرها، لأنّ مذكراته التي دوّن فيها مشاهداته للبلاد التي دخلها ضاعت لأنّ كُفَّار الهند سلبوها منه. وما أورده ابن بطوطة في رحلته من أماكن ومشاهد كانت من ذاكرته، ولهذا لا نلومه إن نُسِّيَ أسماء أماكن معينة وأصحابها.
- * قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني ⁽⁷⁾ ببسطام ⁽⁸⁾.
- * قبر الشيخ قطب الدين بختيار الكعكي ⁽⁹⁾ في مدينة دلهي، ظهرت على قبره كرامات، والناس يعظّمونه أشد تعظيم، وبها، أيضاً، قبر نور الدين الكرلاني، وكذا قبر الفقيه علاء الدين الكرمانلي.
- * قبر الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله ⁽¹⁰⁾.

(1) رحلة ابن بطوطة، 173/2.

(2) من أعظم مدن الإسلام وبها وبأقصرى سُكِنَى ملوكها. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 415/4.

(3) رحلة ابن بطوطة، 26/3.

(4) المصدر نفسه، 24/3.

(5) قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ابن عبد المطلب: أمير. ولاء منصور العباسي إمارة اليمامة سنة 143هـ. ينظر: الأعلام، 195/5.

(6) عكاشة بن محصن بن حريث الأسدي، من بني غنم: صحابي من أمراء السرايا. شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقُتِلَ في حرب الردة. ينظر: الأعلام، 244/4.

(7) رحلة ابن بطوطة، 58/3.

(8) بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 421/1.

(9) رحلة ابن بطوطة، 113/3.

(10) المصدر نفسه، 174/4.

من خلال ما تقدم يمكن القول إنَّ الرّجلين عبّرا عن ثقافتهما الدّينية، وذلك بذكر قبور الأنبياء والرّسل والأولياء الصّالحين، وهم خير البشر الذين يُقنّدى بهم، كما أنّ ثرّبتهم تُزارُ ويُبرّكُ بها، ويُلاحظ أنّ ابن بطّوطة أكثر من ذكر القبور خلافاً لابن قنفذ الذي اقتصر على ذكر بعض منها للمشايخ والصلحاء فقط، لأنّ الطّابع الذي اتسمت به رحلته طابعاً زيارياً، وذلك بتتبّع أولياء التّصوف، والترجمة لهم، وذكر بعض من كراماتهم. أمّا رحلة ابن بطّوطة فجمعت بين كثير من الأغراض، لهذا جاءت رحلته غنية كثيرة الفوائد محيطة بجميع الجوانب، ما ترك جانبا إلّا وأشار إليه إمّا إشارة عابرة أو وقفة مطوّلة أو ما بين ذلك.

٢ / العلماء والأولياء والصلحاء :

اهتم ابن بطّوطة وابن قنفذ بلقاء العلماء والمشايخ الصّالحاء، واقتفاء أثرهم، وتتبعهم في كلّ مكان للالتفاع بهم، والاستزادة من علمهم، حيث سعى ابن بطّوطة سعيّاً حثيثاً وراء عباد الله الصّالحين، شديد الإيمان بولايتهم حتى إنّ في كثير من الأحيان يودّ ترك الرّحلة والانسياح في البلاد لخدمة وليّ من أولياء الله سبحانه وتعالى بقية عمره، وكذلك فعل زميله ابن قنفذ الذي حرر رحلة كاملة في التّصوف ترجم فيها للشيخ أبي مدين شعيب، وأشياخه، وتلامذته، حيث قضى مدّة ثماني عشرة سنة جواباً في ربوع المغرب الأقصى باحثاً عن شيوخ وأقطاب الصّوفية، وبعد استقراره في قسنطينة، طُلب منه تقييد رحلته، لكي يستفيد منها الخلف من بعده، فترك رحلة مشهورة في مجال التّصوف، وأعلامه.

والأولياء جمع وليّ، وهو الصّديق والنّصير⁽¹⁾، والولاية ضدّ العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، وقد قيل: « إن الولي سُمّي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعتة لها »⁽²⁾ أفرد ابن قنفذ في رحلته باباً في صفة الولي؛ حيث قال دلّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم على صفة الأولياء فقال: « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ »⁽³⁾، أي أنّهم قوم يُذكر الله لرؤيتهم لما عليهم من سمات الخير والبشر، قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾⁽⁴⁾.

(1) لسان العرب لابن منظور، 411/15.

(2) الفرقان بين أولياء الرّحمّن وأولياء الشّيطان لتقي الدين أحمد بن تيمية، مكتبة المعارف، الرياض، 1982، ص5.

(3) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص32.

(4) الآية [62، 63، 64] من سورة يونس.

وقوله أيضاً: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾⁽¹⁾، بمعنى أنّ الوليّ الحق هو المؤمن التّقيّ الصّادق الإيمان بالمولى تبارك وتعالى، متّبِعاً لما جاء به المصطفى لأنّ المؤمن قد يكون ولياً، ولكن لا يظهر على يديه أي فعل خارق يُسَانِدُ ويؤكد صحة ولايته، ولهذا فالكرامة ليست شرطاً للولاية.

ومن العناصر الأساسية في الولاية الصّلاح، والتّقوى، ومعرفة الله بأسمائه الحسنی وصفاته، ومعرفة الشّريعة الإسلامية التي جاء بها خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام.

الترّم الأولياء بما أمر به سبحانه وتعالى في كتابه، وسنة نبيّه، واجتنبوا المنهيات خوفاً من عذابه وسخطه، أملاً في شفاعته وجنته، وهذا لا يتأتى لهم إلا بالتّفقه في الدّين، والإحاطة بأحكامه، وحمل كتاب الله، واتباع سنة نبيّه صلى الله عليه وسلّم. فأولياء الرحمن هم الذين تولّى الله أمرهم ووفّقهم، وأنعم عليهم بالكرامات التي من أعظم أنواعها معرفة الحق، والاستقامة في الدّين، فالله يحبّ المؤمنين، ويدافع عنهم، ففي الحديث النبوي الشريف⁽²⁾: ﴿من آذى لي ولياً فقد آذنته بحرب﴾.

إذا فالوليّ هو كلّ مؤمن تقيّ مع العلم أنّ الوليّ ليس نبياً، وإنّما هو مؤمن خُصّ بالعناية الإلهية، يتميز بالتّقوى، وترك ما نهى عنه الله ورسوله، مواظب على القيام بالعبادات، شديد الخوف من عقاب الله، مخلص في محبّته راجياً لقاءه، والتي هي أفضل نعمة، ونيل جنّته ونعيمه، وذلك بتركهم للدُّنيا، والانصراف عنها، وعن ملذّاتها.

ظهرت على أيدي بعضهم كرامات مختلفة، والكرامة لغة مصدر كَرَم، والكرامة من الكرم، وهو نقيض اللّؤم، والكرامة: اسم يوضع للإكرام كما وضعت الطّاعة موضع الإطاعة⁽³⁾.

تعدّ الكرامة نوعاً من خوارق العادات إلا أنّ هناك فرقا بين المعجزة والكرامة⁽⁴⁾، فالمعجزة تكون للنبيّ مصحوبة بالتحدي أمّا الكرامة فللوليّ، ولا يشترط فيها التحدي. وليست الكرامة من شرط حصول الولاية كما يقول ابن قنفذ، أي أنّها ليست شرطاً للولاية، ولا دليلاً عليها لأنّ الولاية تكون مبنية على الكتاب والسنة، لا على الكرامة. وإن حصلت، الكرامة، للوليّ فهي دليل على صدق ولايته،

(1) الآية 34 من سورة الأنفال.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص 39.

(3) لسان العرب لابن منظور، 510/12-512.

(4) المعجزات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها لتقي الدين بن تيمية، تح: أبي عبد الله محمود بن إمام، مكتبة

الصحابية، طنطا، ط1، 1986، ص9.

وعبادته على شرط اتباع ما أمر به المولى عزّ وجلّ، ورسوله الكريم، وحصول الكرامة على أيدي أوليائه: «أمر ممكن يقره الدين ولا يأباه العقل»⁽¹⁾.

يرى أبو الحسن الشاذلي أنّ الكرامة الحقيقية: «إنّما هي حصول الاستقامة، والوصول إلى كمالها»⁽²⁾، ويرى القشيري في رسالته: «اعلم أنّه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه... فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من عقائد»⁽³⁾، بينما يرى شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية⁽⁴⁾ أنّه لا تلازم بين الكرامة والولاية ذلك: «أنّ الولاية ليست ملازمة لخوارق العادات، بل قد يكون ولياً وليس له أي خارق»⁽⁵⁾.

نظر ابن تيمية، وأبو الحسن الشاذلي إلى الكرامة من المنظور نفسه، فيريان أنّ الاستقامة أفضل درجات الكرامة بل أعلاها، وأنّ الكرامة ليست من شروط الولاية، وإن وجدت فلا ضير من ذلك لأنّها تدعم الولي، وتدل على علو مكانته، وصدقه على شرط اتباعه الكتاب، والسنة النبوية الشريفة، وإلاّ فهي من عمل الشيطان.

والكرامة نوعان، كما يرى الشيخ الأكبر، ابن العربي حسية ومعنوية، فالحسية مثل الكلام عن الخاطر، وطّي الأرض، والتصرف في الكون، والاحتجاب عن الأبصار وغيرها، وأمّا المعنوية فلا يعرفها العامة من الناس بل يعرفها الخواص من عباد الله الصالحين، وهي حفظ آداب الشريعة، والإتيان بمكارم

(1) معالم الفلسفة الإسلامية: نظرات في التصوف والكرامات لمحمد جواد مغنّية، مكتبة الهلال، بيروت، 1982، ص250.

(2) أبو الحسن الشاذلي: حياته.. تصوفه.. تلاميذه وأوراده لمأمون غريب، دار غريب، القاهرة، 2000، ص89.

(3) معلمة التصوف الإسلامي لعبد العزيز بن عبد الله، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 2001، 185/3.

(4) أبو القاسم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، ولد سنة 661هـ، وانتقل مع والده إلى دمشق سنة 667هـ فنشأ فيها، وتلقى على أبيه، وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. بدأ تقي الدين حياته بتعلم القرآن، فحفظه صغيراً، وتعلم التفسير والفقه، ولما توفي والده خلفه، وقد كان يجلس بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على المنبر، وقد هيب له لتفسير القرآن الكريم.

كثير مناظروه ومخالفوه من علماء عصره من الشافعية، والمالكية، والحنفية، وانتقدوا عليه أموراً يعتقدون أنّه قد خرج بها على إجماع علماء عصره، ولذلك سُجن عدّة مرات؛ منها سنة 705هـ في قلعة الجبل في مصر، ثمّ سجن مرة أخرى بسبب دعاوى بعض الصوفية عليه سنة 709هـ، ثمّ امتحن مرة أخرى عام 726هـ، ومُنِع من الإفتاء، واعتقل وظل في سجنه سنتين وأشهرًا، ومات في ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة 728هـ. ترجمته في:

- الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، 144/1-145.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 144/1.

(5) المعجزة وكرامات الأولياء لتقي الدين بن تيمية، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ص13.

الأخلاق، واجتناب مساوئها، والمصارعة إلى فعل الخيرات، والبعد عن الحقد والبغض، والمحافظة على أداء الواجبات في أوقاتها، وتطهير النفس والقلب من الرذائل، وغيرها من الخصال الحميدة التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن التقي الصادق الإيمان. ومن الصالحين من يعلم بكرامته، ومنهم لا يعلم بها⁽¹⁾، والعالمون بها منهم من يكتمها، ومنهم من يظهرها، ويصرح بها.

ظهرت كرامات كثيرة على أيدي الصحابة⁽²⁾، رضوان الله عليهم مثل قصة سارية الذي أرسله عمر بن الخطاب على رأس الجيش، فبينما عمر يخطب، فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل يا سارية الجبل، فتحصن سارية والجند الذي معه بالجبل فسلموا من العدو. وكذلك قصة البراء بن مالك الذي كان إذا أقسم على الله تعالى أبرّ قسمه، فإذا اشتدت الحرب على المسلمين في الجهاد يقولون يا براء أقسم على ربك، فيقسم على الله فيهزم العدو، فلما كان يوم القادسية قال أقسمت عليك يا ربّ بهزيمة العدو، وجعلتني أول شهيد فهزم أعداء الله، وقُتل البراء شهيداً. وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين. هذه الأمثلة من كرامات الصحابة قليل من كثير، وهي الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه المتقين، وفي الحقيقة كرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، والافتداء بما أمر به، والنهي عما زجر عنه.

يؤكد ابن قنفذ في رحلته أنّ كرامات الأولياء لا تنقطع بعد الموت، بل تظهر: «فكثير من لا يعرف، في الحياة تُشتهر بركاته بعد الممات، وتلوح على قبره البركات»⁽³⁾، فالكرامة بعد الموت جائزة الوقوع.

إذاً فالكرامات خصّ بها الله تبارك وتعالى عباده الصالحين المتقين الماشين على الصراط المستقيم، المتبعين الشريعة الإسلامية، وهي تؤكد صدق ولايتهم، وورعهم، وتُظهر إخلاصهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعندما يعلم بها العامة من الناس يزدادون إيماناً، وخشوعاً، وخوفاً من العذاب الأليم الذي يعدّه الله للكافرين.

اهتم ابن بطوطة وابن قنفذ بلقاء الأولياء الصالحين، والزهاد المنقطعين العبادة، فاستشهدوا بالكرامات على صدق ولايتهم.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 34.

(2) المصدر نفسه، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ص 39.

أ- العلماء والأولياء في رحلة ابن قنفذ:

جاءت رحلة ابن قنفذ أوسع من رحلة ابن بطوطة في هذا الجانب لأن ابن قنفذ خصّص رحلته " أنس الفقير وعزُّ الحقيّر " لتتبع حياة، وسيرة الأولياء والصلحاء المغاربة، فأفاض في وصف الجوّ الروحي في المغرب العربي، حيث قضى مدّة طويلة بين بلدانها يتقصّى أثرهم، وبركاتهم، فقد وضع رحلته خصّصاً للترجمة بأبي مدين شعيب، وشيوخه، وتلاميذه، والطرق الصوفية التي انتشرت في المغرب في ذلك العهد.

وسيداً الحديث بشيخ المشايخ، وقدوة الأولياء: أبو مدين شعيب.

1/ أبو مدين شعيب :

هو شعيب بن الحسين الأندلسي⁽¹⁾، شيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدوة السالكين. كان ولياً من أولياء الله الصالحين. ولد نحو سنة 515هـ، وتوفي عن عمر، كما قيل، ناهز الثمانين، فكانت وفاته سنة 594 هـ في منطقة العباد بأحواز تلمسان، نشأ في قطينانة من قرى إشبيلية في أسرة غير معروفة، كان والداه فقيرين، جاز البحر إلى المغرب، فأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن عليّ بن حرزهم، والشيخ أبي عبد الله الدقاق⁽²⁾ الذي ألبسه الخرقة، والشيخ أبي يعزى⁽³⁾، وبعد أن مكث مدّة أعوام بفاس قرر الرّحيل إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ، والاستزادة من العلم، وهناك لقي الصّوفي الكبير عبد القادر

(1) ترجمته في: - تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، 172/2.

- عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية لأبي العباس الغريبي، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص22.

- سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، 416/1.

(2) من أهل سجلماسة، كان يتردد إلى مدينة فاس. من كبار مشايخ الصوفية. وأحد أشياخ أبي مدين. كان يصرح بأنّه وليّ، ويتكلم بأشياء تنكر عليه. ينظر: التشوف إلى رجال التصوف، ص156.

(3) أبو يعزى يُلَنور بن ميمون، قال قوم إنه من هزميرة إيروجان، وقيل من بني صبيح من هسكورة، مات وقد أناف على مائة سنة بنحو الثلاثين سنة، ودفن بجبل إيروجان، كان قطب عصره، وأعجوبة دهره. ينظر: التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص213-214.

الجيلاني ⁽¹⁾ فنشأت بينهما علاقات ودّية، واستفاد منه في علم التّصوف، ولما عاد من المشرق استوطن بجاية، وانصرف إلى تعليم التّصوف ⁽²⁾.

كان من الفضلاء، وأعلام العلماء، عالماً بأحكام الشريعة حافظاً للحديث النبوي الشريف، وكانت ترد إليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت ⁽³⁾، شُهر بشيخ المشايخ لتخرج ألف شيخ من الأولياء أو إلى الكرامات ⁽⁴⁾ علم يديه، أحد أقطاب الصّوفية المشهورين في بلاد المغرب، فأقبل عليه طلاب العلم، وكثر تلامذته، وظهرت بركاته عليهم، وأفضل تلامذته على الإطلاق الشّيخ الأكبر محي الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية.

وضع ابن قنفذ رحلته خصيصاً ليرجم للشّيخ أبي مدين شعيب، ولذلك عقد فصلاً في الحديث عن وصاياه، فساق أربع وأربعين وصية منها ⁽⁵⁾:

* أسماء الله تعالى تعلّق، وتخلّق، وتحقّق. فالتعليق: الشعور بمعنى الاسم، والتخلّق: أن يقوم بك معنى الاسم، والتحقيق: أن تفنى في معنى الاسم.

* من اشتغل بطلب الدّنيا ابتلى فيها بالذلّ.

* لا ينفع مع الكبر عمل، ولا يضرّ مع التواضع بطالة.

* توكل على الله حتى يكون الغالب على ذكرك، فإن الخلق لن يغنوا عنك شيئاً.

* التعظيم امتلاء القلب باجلال الربّ.

* الفقر أمانة على التوحيد، ودلالة على التفريد.

* من شغل مشغولاً برّبّه أدركه الموت.

(1) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان وانتقل إلى بغداد، واتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ وتفقه وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. تصدر للتدريس، والإفتاء في بغداد وتوفي بها. ينظر: الأعلام للزركلي، 4/47.

(2) دائرة المعارف الإسلامية لمحمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، مج1، ع5، مطبعة مصر، ط1، 1934، ص399.

(3) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، 1349هـ، ص164.

(4) تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي، ص172.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص53-57.

كانت هذه بعض وصايا الشيخ، وهي عبارة عن حكم؛ وهي نوع من النثر يعكس فيه الصوفي تجاربه، وخبراته في ميدان التصوف: « ظهرت في بجاية خلال القرن السادس هجري على يد أبي مدين شعيب الذي استطاع أن يختزل وييسط الأطروحات الصوفية التي جاء بها القشيري في رسالته والغزالي في إحيائه وابن العريف في كتابه محاسن المجالس في عبارات بسيطة لكنّها عميقة ودالة راعى فيها الأسلوب والخيال الصوفي »⁽¹⁾.

* الكرامات التي ظهرت على يد أبي مدين شعيب :

بدأت كرامات الشيخ أبي مدين منذ أن كان صغيراً، توفي والده مبكراً، وتركه صغيراً، فكفله إخوته، وكلفوه برعي مواشيهم ورعايتهم، وكان إذا غدا أو رجع بها يرى أناساً يصلون، ويقرؤون القرآن، فيعجبه منظرهم، ويدنو منهم إلا أن إخوته زجروه ونهوه عن فعل ذلك، فحز ذلك في نفسه، وجعله يطيل التفكير فكانت عزمته تقوى كل يوم على سلوك هذا الطريق، فقرر الفرار من البيت. تفقده إخوته، فلم يجدوه في البيت فأيقنوا أنه فرّ. أدركه أحد إخوته، وهدده بالضرب إن فعل ذلك ثانية. عاد الغلام حزينا لما جرى له، وعدم فلاحه في الهروب، وإدراك مقصده، واستمر في رعي الغنم فترة من الزمن، وفي هذه الفترة كان يدبر طريقة تجعله يهرب دون أن ينتبه إخوته إلى ذلك، فقويت عزمته على الفرار ليلاً، ولسوء الحظ أدركه أحد إخوته، وكان في قلبه قسوة حيث سل عليه السيف ليضربه، فاتفق الغلام الضربة بعصا كانت معه، وهنا حدثت معجزة إلهية فإذا بالسيف يتكسر إلى أجزاء، فعجب أخوه من ذلك، ووقف مذهولاً أمام قدرة الله عز وجل، وقال لأخيه الأصغر: « يا أخي اذهب حيث شئت »⁽²⁾.

ومن كراماته، أيضاً، ما أخبره به أبو محمد عبد الله الصنهاجي، وهو من أصحاب الشيخ أبي مدين، من أن رجلاً أراد أن يعترض طريق أبي مدين شعيب لكنه لم يفلح في ذلك، وكشف أمره حيث دخل عليه، وهو في مجلس إقرائه، فسأله الشيخ عن سبب مجيئه فأجابه جئت لأقتبس من أنوارك. قال له

(1) " نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط " لظاهر بوناني، مجلة حوليات التراث، جامعة المسيلة، ع2، 2004،

ص20 .

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص45.

الشيخ أخرج ما في كمك، وقرأ أول سطر فيه، فأخرج الرجل المصحف، وقرأ قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾⁽¹⁾ فقال له أبو مدين: «أما يكفيك هذا»⁽²⁾؛ ومنها:

كان الشيخ أبو مدين شعيب يقيم مجالس لتعليم الصوفية، وفي أحد الأيام أخذ الشيخ في قراءة، وشرح كتاب "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" فأحب الشيخ أبو عبد الله محمد حمادو الصنهاجي⁽³⁾ تقييد كلامه في أول يوم دون أن تعلم به أحد، فلما أصبح اليوم التالي قال لهم الشيخ: «لا أريد أن تقيّد عني شيئاً مما أقوله في هذا الكتاب»⁽⁴⁾.

• كرامة له :

ذات يوم ذهب الشيخ أبو الزهر الربيع الأنصاري⁽⁵⁾ إلى والدته ليشتكو لها ضيق حاله، فأعطته رسماً لدار أبيه كانت قد اغتصبت ليطلبها، ويأخذ حقه. فاستفتى فقهاء الدنيا فأذنوا له في ذلك، وكان في قرارة نفسه يودّ أن يستفتي فقهاء الآخرة، فقرر الذهاب إلى الشيخ أبي مدين شعيب ليستأذنه في ذلك، فوجده في مسجد أبي زكرياء الزواوي في بجاية، فسأله مراده، فأجابه الشيخ بأن يستفتي ربّه ثمّ قاما إلى الصلاة، وكانت صلاة الصبح، فلما كان أبو زهر في الركعة الثانية سمع صوتاً يقول: «اطلب حقاً واجباً! اطلب حقاً واجباً»⁽⁶⁾، وعند إتمام الصلاة سأله الشيخ أبو مدين: هل أفتاك ربك؟ فأجابه أبو زهر: نعم أفتاني يا سيدي .

• كرامة أخرى :

في إحدى الأيام وقع نزاع شديد بين الطلبة في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا مات المؤمن أعطي نصف جنته»، فاعتقدوا أنّه إذا مات مؤمنين أخذوا الجنة بكاملها، فذهبوا إلى الشيخ أبي مدين ليقطعوا الشك باليقين، فوجدوه يقرأ الرسالة القشيرية، فلما جلسوا قال لهم الشيخ نجيبكم عن

(1) الآية 92 من سورة الأعراف.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 135.

(3) محمد بن عليّ بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي، نزيل بجاية، أبو عبد الله، قاض، مؤرخ، أديب. ينظر: الأعلام لخبر الدين الزركلي، 280/6.

(4) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 137.

(5) أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد الأنصاري. ولد ببجاية، وقرأ بها، ولقي مشايخ. كان يحمل فنوناً من العلم، والفقه والأصلا، أصول الدين وأصول الفقه، والمنطق والتصوف. ينظر: عنوان الدراية للغريبي، ص 57.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 146.

السؤال من غير أن تسأله، أراد الرسول الكريم بنصف جنته: «لأن لكل مؤمن جنة، فإذا مات أعطي نصف جنته، وبعد الحشر يعطى النصف الثاني»⁽¹⁾.

• كرامة له :

كان الشيخان أبو محمد عبد الحق الإشبيلي، وأبو عليّ المسيلي⁽²⁾ أخوين في الله تعالى زاهدين في الدنيا منقطعين إلى عبادة الله، سمعا بالشيخ أبي مدين، وأنه يأتي من العلم بفنون، فلم يصدقا ذلك، وكلما سمعا عنه شيئا كان يفندانه ويُنكرانه، فقررا الذهاب إليه، والتأكد من صحة ولايته وصدقه وورعه، فاجتمعا به في أحد مسجديه اللذين يقعد فيهما مع خواصه، فوجداه يفيض نورا، جمع الله له علم الشريعة، والحقيقة فلما انتهى من درسه سلما عليه وسلّم عليهما، وما رآهما أو اجتمعا بهما قبل هذا اللقاء قط، فقال الشيخ: «أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق، وأما هذا فالفقيه أبو عليّ المسيلي فقالا: نعم»⁽³⁾، فعجبوا من صحة ذلك، وصدقوا ما قيل فيه.

ومن كراماته:

لما عاد أبو مدين من المشرق استوطن بجاية، وقام بنشر تعاليم الصوفية، فاجتمع من حوله عدد كبير من الناس فكثّر أتباعه. كانت هذه التعاليم تخالف مذاهب الفقهاء الموحدين، فخافوا منه، وأعلموا السلطان الموحيدي أبو يوسف يعقوب المنصور بأمر هذا العالم الزاهد فطلب إلى عامله على بجاية أن يبعث به إلى مراکش، فصدع أبو مدين لأمر السلطان، وشق ذلك على أتباعه فقال لهم اطمئنوا، فإنه لن يراني ولن أراه؛ فقد قيض الله لي من يحملني إلى مكان الدفن برفق، فلما بلغ تلمسان سأهم عن المكان الذي نزلوا فيه، فقبل له العباد، فقال لرفقائه: «لا بأس بالنوم في هذا المكان ووافته المنية بهذا المكان في عام 594هـ رحمه الله تعالى»⁽⁴⁾.

هذه، إذاً، أشهر كرامات الشيخ أبي مدين شعيب الذي كان من أولياء الله الصالحين، وعباده المتقين.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص51.

(2) أبو عليّ حسن بن عليّ بن محمد المسيلي، كان يسمى أبا حامد الصغير، جمع بين العلم والعمل والورع، وبين علمي الظاهر والباطن. ينظر: عنوان الدراية للغريبي، ص33.

(3) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص71.

(4) المصدر نفسه، ص147.

أولاً: أشيأه :

1- أبو الحسن عليّ ابن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم :

من كبار الفقهاء المتصوفين صاحب الكرامات الشهيرة، وهو الذي أخذ عنه أبو مدين العلم في مدينة فاس، فثبت كلامه في قلبه خلافاً لبقية العلماء الذين حضر مجالسهم حيث لم يثبت في قلبه ما سمعه منهم، فاحتار أبو مدين، وقرر سؤال الشيخ ابن حرزهم بذلك، فلما فرغ من الدرس اقترب منه، وأخبره بما جرى له، فقال له ابن حرزهم: « هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب »⁽¹⁾. أعجب ردُّ الشيخ أبا مدين، فإلزمه، وأخذ عنه علم التّصوف مدّة اشتغاله في أوقات فراغه مع النّسّاحين ليحصل على قوته، ويقضى ليله في المراجعة والعبادة، وعن ابن حرزهم سمع أبو مدين رعاية المحاسبي.

• كرامة له :

كان الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم يستحم كلّ يوم في الحمام، فلما أصبح اليوم الثاني قال لخدمة الحمام: « اليوم بقي لكم وتستريحون مني »⁽²⁾، وعندما رجع إلى المتزل استلقى على ظهره، فجاء أحد تلامذته ليوظّنه فوجده ميتاً.

• كرامة له أيضا :

ذات يوم سجن سلطان مراكش الشيخ أبا الحسن فقال لتلامذته في الطريق، لن أمكث طويلاً في السجن، فقالوا له أسكت: ما سُجنت إلّا على مثل هذه الأقوال؛ فقال لهم: « إنّ الشيخ أبا يعزى ها هو ذاك ينظرني ولا يتركني فإنّه كل ما يطلبه من مولاه يعلمه له، وبينهما مسيرة خمسة أيام فأُطلق من ساعته »⁽³⁾.

2- الشيخ أبو يعزى :

زاره أبو مدين مدين شعيب أثناء إقامته بفاس للتبرّك بلباقته لِمَا شُهر عنه من كرامات كثيرة، فسلك طريقه في التّصوف إلى أن وصل، وحقق: « طالعت أخبار الصّالحين من زمن أويس القرني

(1) أنس الفقير وعزُّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص46.

(2) المصدر نفسه، ص47.

(3) المصدر نفسه، ص62.

إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالأحياء للغزالي»⁽¹⁾.
امتنح أبو يعزى أبا مدين عدّة مرات، تارة بالإعراض عنه، وطوراً بزجره من الأكل، لاختبار صبره على الجوع، ولما اشتاقت نفس أبي مدين إلى الحجّ، وأداء مناسكه استأذن شيخه أبا يعزى فأذن له.
* كراماته :

قال لأبي مدين شعيب، ترى الأسد يعتضك في الطريق، فلا تخاف منه، وإن خفت فقل له بحرمة أبي يعزى اذهب عني⁽²⁾! ثمّ تجذ ثلاث لصوص فتعضّهم، فيتوب اثنان، ويُعرض الثالث عن التوبة، ويُضرب عنقه، ويُصلب على الشجرة. وبالفعل لقي أبو مدين الأسد، وأقسم عليه بأبي يعزى، فتنحى عنه، ولما خرج عن الشعب تعرض له ثلاث رجال فوعظهم، فأثر كلامه في اثنين فانصرفا، وأمّا الثالث فعاد إلى الشجرة فسمع به بعض الولاة فأخذه، وضرب عنقه، وصلب على تلك الشجرة .

• كرامة له أيضا :

شكا الناس إليه احتباس المطر، فألقى بشاشيته على الأرض، ونادى بصوت مرتفع ينادي الله سبحانه وتعالى قائلاً: ما بال هؤلاء القوم يطلبون مني المطر، وأنا عبد ضعيف لا قدرة لي على فعل ذلك ثمّ بكى: « فأَنْزَلَ اللهُ المَطَرَ »⁽³⁾.

• كرامة أخرى :

أخبر الشيخ أبو يعزى أبا مدين بأنه ستهوى له حارية حبشية يكون له منها ولد ذو شأن عظيم، وبالفعل أُهْدِيَتْ له حارية، وولدت له ولداً سمّاه محمّداً: « وظهرت له العجائب في الولد بعد مدّة نفع الله به وبأبيه »⁽⁴⁾.

3- الشيخ أبو عبد الله الدقاق⁽⁵⁾ :

من أكابر الصوفية، وهو أول من أخذ عنه أبو مدين علم التصوف، وعنه لبس الخرقة⁽⁶⁾.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص57.

(2) المصدر نفسه، ص49.

(3) المصدر نفسه، ص55.

(4) المصدر نفسه، ص73.

(5) من أهل سجلماسة كان يتردد إلى مدينة فاس. من كبار مشايخ الصوفية، وأحد أشياخ أبي مدين. ينظر: التشوف للتادلي،

ص156.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص64.

4- أبو الحسن ابن غالب⁽¹⁾ فقيه فاس :

قرأ عليه أبو مدين كتاب " السنن لأبي عيسى الترميذي " لأنه كان مهتماً جداً بعلمي الحديث والتفسير، وكان إذا سمع تفسير آية من القرآن الكريم، ومعه حديث واحد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قنع بهما، وذهب إلى مكان منعزل لقراءتهما والتمعن في تفسيرها.

• كرامة له :

إذا أشكلت عليه مسألة علمية، ولم يتمكن من الوصول إلى حقيقتها أو فهمها نظر إلى جهة من جهات البيت فيجدها مكتوبة في الجدار⁽²⁾.

5- أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي⁽³⁾ :

من أهل بلد أزموور، ومن أشياخ أبي يعزى. مات بأزموور عام 561هـ يعرف بأيوب السارية من مشاهير الأولياء: « ومن يطير في الهواء »⁽⁴⁾.

6- الشيخ الفقيه أبو محمد يسكر بن موسى⁽⁵⁾ :

من فقهاء فاس⁽⁶⁾، تردد أبو مدين كثيراً عليه؛ ومن تلامذته أبو محمد صالح المسكوري، وأبو محمد يسكر أبو خزر.

• كرامة له :

دخل أبو محمد يسكر في الليل جامع فاس، وليس فيه إنارة، فأضاء الجامع بقدرة الله إلى غاية انتهائه من صلاته ثم خرج.

7- عبد القادر الجيلاني :

أخذ أبو مدين علم التصوف عن هذا الشيخ عندما التقاه في المشرق .

(1) أبو الحسن علي بن خلف ابن غالب القرشي، نشأ بشلب، وقرأ بقرطبة. واستقر بقصر كتامة، وبه مات، شيخه في طريقة التصوف أبو العباس ابن العريف. ينظر: الشوف للتادلي، ص 228.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 63.

(3) من أهل بلد أزموور، ومن أشياخ أبي يعزى، يقال إنه من الأبدال. ينظر: الشوف، ص 187.

(4) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 57.

(5) نشأ بتاجنيت من بلد تادلا ثم نزل مدينة فاس وبها مات. ينظر: الشوف للتادلي، ص 337.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 59.

ثانيا : أصحابه :

1- الشيخ أبو زكريا يحيى الزواوي :

من إخوان الشيخ أبي مدين، كان عالماً صالحاً زاهداً في الدنيا قعد لتدريس الحديث، والتفسير بجامع بجاية، شديد الخوف من الله عزّ وجلّ كثير التخويف للناس من عذاب الله، قال له الشيخ أبو مدين: « لا تُقنط الناس وذكّرهم بأنعم الله تعالى، قال: لا أقدر إلاّ عليّ هذا »⁽¹⁾.

2- الشيخ أبو عليّ يعزى⁽²⁾ :

من إخوان أبي مدين، وهو ابن الشيخ أبي يعزى يلنور بن ميمون.

• كراماته :

قال أبو عليّ التاودي، رحمه الله، حضرت ذات يوم عند أبي عليّ يعزى، وجيء له برجل قعد عن الحركة « فما زال يتفل عليه حتى قام »⁽³⁾.

3- الشيخ أبو جعفر محمد الصنهاجي :

من أصحاب الشيخ أبي مدين شعيب من كبار الصالحين، صاحب الكرامات الشهيرة.

• كرامة له :

كان الشيخ أبو يعزى يناديه من مكانه فيحييه، وبينهما خمسة أيام، فعاتبه مرّة وقال له: « ناديتك ثلاث مرات فلم تجبني إلاّ في الثالثة فاستغفر الله تعالى »⁽⁴⁾.

4- الشيخ أبو عبد الله التاودي⁽⁵⁾ :

من فقهاء فاس، كان يدرس الأولاد القرآن، ويأخذ الأجرة من الأغنياء، ويدفعها للفقراء، كما كان يخيّط الثياب للمساكين.

5- الشيخ أبو الحسن عليّ الصنهاجي :

تلميذ الشيخ أبي الحسن ابن جرّهم، من عباد الله الصالحين، دُفن في مدينة الإسكندرية⁽⁶⁾.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص66.

(2) ينظر ترجمته في: التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص231.

(3) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص64.

(4) المصدر نفسه، ص67.

(5) من أهل فاس. من أصحاب أبي يعزى. مات بفاس عام 580هـ. ينظر: التشوف، ص272.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص67.

6- الشيخ أبو تميم الهزميري⁽¹⁾ :

من إخوان الشيخ أبي مدين، كان حافظاً للمسائل.

• كرامة له :

حدث عنه الشيخ أبو الحسن ابن عبد الكريم⁽²⁾ قال: ذهبت إليه مع أختي المريضة بالبرص في وجهها فلما دخلت عليه قال له: لماذا لم تحضها لي لكي أعالجها، ذهبت بها إلى الأطباء، ولما صلبا الصبح قعدا في المصلّى، وجاءت أخت ابن عبد الكريم، وسلّمت على الشيخ وقعدت، وجعل الشيخ يتحدث، ويمسح بريقه على موضع البرص حتى غلب النوم على عبد الكريم، وهو جالس، وعندما استيقظ وجد الشيخ مستنداً يذكر الله، فنظر إلى وجه أخته فإذا هو قد ذهب البرص منه، فأعلمها بذلك فقامت مسرورة ليس بها سوء بفضل الله تبارك وتعالى.

7- الشيخ أبو الصبر السبتي⁽³⁾ :

قرأ عليه الفقيه أبو الحسن عليّ بن غالب الذي قرأ عليه الشيخ أبي مدين شعيب بمدينة فاس، ولأبي صبر، هذا، كتاب عرف فيه: « بالشيخ أبي مدين وذكر فيه فضله »⁽⁴⁾.

8- الشيخ يحيى بن صالح⁽⁵⁾ :

خدم الشيخ أبي يعزى، كثير الخوف من الله تبارك وتعالى، قيل: « بكى حتى سقطت عيناه من كثرة البكاء »⁽⁶⁾، ولما أصابه العمى ضاعف من عبادته، وتقرب به إلى المولى.

9- الشيخ أبو محمد عبد الجليل الأنصاري⁽⁷⁾ :

(1) أبو تميم عبد الواحد الأسود، تلميذ أبي يعزى، كان عبدا صالحا. انفرد بموضع على أميال من مكناسة، وبنى فيه مسجدا.

فلما مات دفن في رحبة ذلك المسجد. ينظر: التشوف، ص269.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص68.

(3) أبو الصبر أيوب ابن عبد الله الفهري من أهل سبتة، قدم مراکش، واستشهد في وقعة العقاب. ينظر: التشوف، ص415.

(4) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص69.

(5) من آل تاورجين من بلد هسكورة. شيخه أبو عبد الله ابن أمغار، خدم الشيخ أبا يعزى. كان عبدا صالحا مجتهدا كثير

البكاء، والخوف من الله تعالى. ينظر: التشوف، ص362.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص70.

(7) تلميذ أبي الحسن عليّ بن خلف بن غالب القرشي من أهل قصر كتامة. قيل إنه مات بمدينة سبتة. ينظر: التشوف للتادلي،

يعرف بالقصري⁽¹⁾، من عباد الله الصالحين المنقطعين للعبادة .

10- الشيخ أبو محمد عبد الحق الإشبيلي :

صاحب الأحكام الكبرى والصغرى في الحديث، والعافية في التذكير إلى غير ذلك من التوفيق⁽²⁾.

11- الشيخ أبو محمد بن ينصارن الماجري⁽³⁾ :

تلمذ الشيخ عبد الرزاق الجزولي⁽⁴⁾، ومن كبار تلامذة الشيخ أبي مدين شعيب، لازمته مدة طويلة، وأخذ عليه علماً غزيراً.

12- الشيخ حسن بن محمد الغافقي :

من أصحاب الشيخ أبي مدين شعيب لازمته ثلاثين سنة، ولم يفارقه إلا بالموت في العباد⁽⁵⁾.

13- الشيخ أبو عبد الله محمد الأنصاري⁽⁶⁾ :

من كبار تلامذة الشيخ أبي مدين، كثير الرواية عنه.

14- الشيخ أبو علي عمر الصباغ :

من أصحاب الشيخ أبي مدين شعيب. له كرامات منها أنه ذات يوم، صلى المغرب مع الشيخ أبي مدين، فرأى وهو يصلي ثلاثاً أو أربعاً من الحور العين يلعبن، فلما سلّم من الصلاة، أخبر الشيخ ما رأى، فقال أبو مدين: « هل رأيتهن؟ » قالت: نعم، قال: أين؟ قالت: في المصلى. فإني رأيت ناحية من ناحيت الحور العين⁽⁷⁾.

15- الشيخ أبو عمران موسى الحلاج⁽⁸⁾ :

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص70.

(2) المصدر نفسه، ص71.

(3) المصدر نفسه، ص72.

(4) أبو محمد عبد الرزاق الجزولي: تلميذ أبي مدين. استقر أخيراً بالإسكندرية، وبها مات. كان من كبار المشايخ. ينظر: التشوف للتادلي، ص327.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص73.

(6) المصدر نفسه، ص74.

(7) المصدر نفسه، ص74.

(8) ترجمته في: التشوف للتادلي، ص330.

من أصحاب الشَّيْخ أبي مدين، خرج من بلده خائفاً على نفسه لما شاع عنه في ذلك الوقت من مكاشفات وكرامات؛ ولم يجد ملجأ خيراً من أبي مدين شعيب، فلما دخل سلَّم عليه، وسأله الشَّيْخ عن اسمه، وهو يعرفه، فقال له موسى فردَّ عليه الشَّيْخ قائلاً: أنا اسمي شعيب: « وقد أمنت فإن موسى - عليه السلام - لم يأمن حتى لقي شعيباً عليه السلام »⁽¹⁾.

• ومن كراماته أيضاً:

غاب موسى الحلاج عن أبي مدين فترة من الزمن، ثمَّ قدم عليه فوجده في مجلسه، فلما انتهى من درسه قام إليه الحلاج وسلَّم عليه، فقال له الشَّيْخ على من وجبت الضيافة على الزائر أم المزور؟ فسكت الحلاج ثمَّ ردَّ عليه الشَّيْخ، وقال له: عليَّ الطعام وعليك العسل، فأمر الشَّيْخ بصحفة فجاءوا بها فأخذها موسى الحلاج، وجعلها خارج البيت ثمَّ صلى ركعتين، وعندما افتقدها لم يجد فيها شيئاً، فطلب منه الشَّيْخ أبو مدين أن يعطيه رداءه ليغطي به الصحيفة، ثمَّ عاد الحلاج إلى رُكن الزاوية، وصلى ركعتين ولما انتهى من صلاته تفقد الصحيفة فإذا هي مملوءة بالعسل الأبيض.

16- الشَّيْخ أبو مسعود ابن عريف⁽²⁾ :

هو شيخ والد جدّ ابن قنفذ للأئمَّ يعقوب بن عمران البويوسي.

• كرامة له :

اشتهر هذا الشَّيْخ بكراماته، ولما بُويع السُّلطان أمير المؤمنين أبو يحيى أبو بكر سنة 710هـ - بقسنطينة، وضع الشَّيْخ يده على السُّلطان، وقال له: تطول مُدَّتُكَ بإذن الله، وتأمين من القتل، وأطلق عليه اسم المتوكل على الله فكانت وفاة السُّلطان بعد 36 سنة من تولّيه منصب الحكم.

17- الشَّيْخ أبو محمد عبد الله الصنهاجي⁽³⁾:

من أصحاب الشَّيْخ أبي مدين شعيب .

18- الشَّيْخة فاطمة الأندلسية⁽⁴⁾:

من إخوان⁽⁵⁾ الشَّيْخ أبي مدين .

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص75.

(2) المصدر نفسه، ص78.

(3) المصدر نفسه، ص135.

(4) من أهل قصر كتامة، كانت من الصالحات. ينظر: التشوف للتادلي، ص331.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص135.

19- الشيخ أبو محمد عبد الله الصنهاجي الزرهوني⁽¹⁾:

تَمَيَّزَ بالفضل والعلم والصلاح⁽²⁾، وهو من إخوان الشيخ أبي مدين شعيب .

20- الشيخ أبو عبد الله محمد حمادو الصنهاجي :

التقى بالشيخ أبي مدين شعيب، وتَفَقَّه عليه في داره في بجاية، وقرأ عليه كتاب " المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى " ⁽³⁾ من بدايته إلى نهايته.

21- الشيخ بلال⁽⁴⁾:

وهب نفسه لخدمة الشيخ أبي مدين، كان سالكاً على طريقته، وسكن بعده عبّاد تلمسان.

22- الشيخ أبو عبد الله البوني⁽⁵⁾:

من أختيار عباد الله الصالحين، ومن الأصحاب المقربين للشيخ أبي مدين شعيب.

23- الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم⁽⁶⁾.

24- الشيخ أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر:

من أصحاب الشيخ أبي مدين، دخل خلوته بقصر المستنير، وبقي فيه مدّة أربعين يوماً، فقال إمام جامع المهدية: إن مات فلا يُصلى عليه لأنّه قتل نفسه، وعندما بلغ ذلك عبد العزيز أغاضه الأمر وقال: « هو يموت وعبد العزيز يصلى عليه » ⁽⁷⁾.

25- الشيخ أبو محمد عبد الخالق التونسي⁽⁸⁾.

26- الشيخ أبو زهر ربيع الأنصاري⁽⁹⁾:

⁽¹⁾ أبو محمد عبد الله ابن عثمان الصنهاجي المعروف بالزهروني. كان من العلماء بطريق التصوف حافظاً لأخبار الصالحين.

أدرك ابن حرزهم، وأبا شعيب، وأبا يعزى، وغيرهم من صالحى المغرب. ينظر: التشوف للتادلي، ص424.

⁽²⁾ أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص136.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص138.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص140.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ص140.

⁽⁶⁾ المصدر نفسه، ص140.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، ص143.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، ص145.

⁽⁹⁾ المصدر نفسه، ص146.

والد الفقيه محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري البجائي، كان كاتباً للعمال ببجاية ثم تاب إلى الله، وانقطع إلى العبادة، واشتغل بالقراءة .

* اجتماع ابن قنفذ بعلماء المغرب وأوليائها الصالحين :

اجتمع ابن قنفذ في شهر ربيع الأول سنة 769هـ بحجّ غفير من أولياء المغرب وصلاحائه، وقد حضر هذا الاجتماع، أيضاً، المرضى كالمعاقين، وغيرهم من ذوي العاهات، وكلّ يتضرع لشفائه وصلاح جسده: « رأيت في ذلك المجمع العظيم والمشهد الجسيم غرائب وعجائب لا يرى مثلها أبداً لتغير الأحوال بعد ذلك »⁽¹⁾؛ ومن هؤلاء الأولياء والفقهاء:

1- الشيخ أبو الحسن بن يونس الصنهاجي⁽²⁾:

كان هذا الشيخ من جملة العلماء الذين لقيهم ابن قنفذ، وحصلت بركته بالدعاء له. وهو من عباد الله الصالحين، كثير الخشوع إلى درجة أنّه لا يكف عن البكاء كلّما سمع آية قرآنية أو حديثاً من الأحاديث النبوية الشريفة.

2- الشيخ أبو الحجاج يوسف بن عمر⁽³⁾:

من كبار الصالحين، أول من التقى به ابن قنفذ في هذا الاجتماع⁽⁴⁾.

3- الشيخ محمد المشتراي⁽⁵⁾:

من الزاهدين في الدنيا، ومن خيار عباد الله الصالحين، يظن ابن قنفذ أنّه يحفظ إحياء علوم الدين للغزالي.

• كرامة له :

قال ابن قنفذ، ذات يوم طرقت بابه وكان جالساً في ركن بيته مع قرائه، فرفع صوته وقال: ادخل يا أبا العباس! فدخلت، وتعجّب الحاضرون من ذلك.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص115.

(2) المصدر نفسه، ص115.

(3) أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي، كان أحد فقهاء فاس، وسادتها علماً، وصلاحاً، ودينياً، وزهداً، وورعاً. ينظر:

شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف، 1/233.

(4) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص116.

(5) المصدر نفسه، ص118.

4- الشيخ أبو عبد الله محمد الجنائي⁽¹⁾:

من جملة الأولياء الذين حضروا الاجتماع، ذا علم وصلاح ودين، رافقه ابن قنفذ في المغرب ثماني عشرة عاماً.

5- الشيخ أبو الحسن عليّ اللجائي⁽²⁾:

كان كثيراً ما يتفقد حال ابن قنفذ، ويسأل عنه، وهو من أئمة الفقهاء، وأحسنهم معاملة يتكلم بكلام عذب ساحر، يودّ من يجلس معه أن لا يفارقه أبداً.

6- الشيخ أبو عليّ الرجراجي⁽³⁾:

اشتهر بالفضل والصلاح⁽⁴⁾، وهو من أولياء الله الصالحين، لازم ابن قنفذ، وقرأ عليه كتاب "الحوفي في الفرائض".

• كرامة له :

سُرق يوماً لابن قنفذ حذاءه في المسجد في صلاة العصر، فسكت وانعقد المجلس، وجلس وفي نفسه منه شيء، فجاء الرجراجي على عادته للحضور، وجلس بجانب ابن قنفذ، ثم خرج خلافاً لعادته، وجاء بجذاء، وقدمه له محتفياً، وقال له: خذ هذا الحذاء وطيب نفسك على من أخذ قبقابك، فقبله الرحالة وعجب من مكاشفته له .

7- الشيخ أبو عبد الله الرندي⁽⁵⁾:

من عباد الله الأخيار، زاهد في الدنيا⁽⁶⁾، حضر مجلس الشيخ الفقيه أبي عمران موسى العبدوسي⁽⁷⁾، رحمه الله، وهو من كبار أصحاب ابن عاشر، رحمه الله، ومن أفضل تلامذته.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص119.

(2) المصدر نفسه، ص120.

(3) أبو عليّ عمر بن محمد الرجراجي الفاسي الوليّ تاج الزهاد، وإمام العباد، وشهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم. ينظر: شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف، 1/250.

(4) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص121.

(5) أبو عبد الله محمد ابن الشيخ إبراهيم النفزي المعروف بابن عباد شيخ العلماء والزهاد، وإمام الصلحاء والعباد. ينظر: شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد بن مخلوف، 1/238.

(6) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص123.

(7) أبو عمران موسى بن محمد بن معطى العبدوسي، عالم فاس ومفتيها. ينظر: شجرة النور، 1/234.

8- الشَّيْخَةُ الْمُؤْمِنَةُ التَّلَمْسَانِيَّةُ ⁽¹⁾:

حضرت هذه الشَّيْخَةُ الاجتماع، وكانت تَمَنِّي تَبْرَكَ ابْن قَنْفَذَ بِلِقَائِهَا، وَتَمَتَّعَ بِدَعَائِهَا.

9- شَيْخٌ مِنَ الْمَصَامِدَةِ ⁽²⁾:

هَذَا الشَّيْخُ دَائِمُ الْجُلُوسِ وَحْدَهُ، لَا يَأْلَفُ إِلَى إِنْسَانٍ، وَلَا إِلَى مَكَانٍ؛ وَقَدْ جَلَسَ مَعَهُ ابْنُ قَنْفَذَ، وَأَرَادَ أَنْ يَحْتَسِرَّ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الْوَضوءِ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: "تَحْتَسِرُّ بِي"، فَاسْتَغْفَرَ الرَّحْمَةَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فَعْلَتِهِ، وَاعْتَذَرَ لِلشَّيْخِ حَتَّى طَيَّبَ نَفْسَهُ مِنْهُ.

• كَرَامَةُ لَهُ :

قَالَ ابْنُ قَنْفَذَ جَلَسْتُ مَعَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ، وَمَعَنَا إِمَامُ الْمَسْجِدِ وَبَعْضُ أَهْلِ الدَّارِ. فَسَأَلَهُمُ الشَّيْخُ عَنْ حَالِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ بِخَيْرٍ يَا سَيِّدِي إِذَا أَمَطَرْنَا اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَمْطِرْهُمْ اللَّيْلَةَ، اللَّيْلَةَ، وَافْتَرَقَ النَّاسُ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى سَقُوطِ الْأَمْطَارِ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ الْغَزِيرَ، فَخَرَجَ النَّاسُ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ كَرَمَاتِهِ، وَعِنْدَمَا طَلَبُوهُ لَمْ يَجِدُوهُ.

10- شَيْخٌ مَجْهُولٌ ⁽³⁾:

التَقَى بِهِ ابْنُ قَنْفَذَ خَارِجَ مَدِينَةِ سَلَا فِي مَسْجِدٍ مَنْقُطَعٍ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ "الْعَلَانِي"، وَالْأَغْلَبُ أَنَّهُ مِنْ بِلَادِ "حَاخَةَ".

11- شَابٌ مَجْهُولٌ ⁽⁴⁾:

12- الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَيُّوبَ ⁽⁵⁾:

التَقَى بِهِ ابْنُ قَنْفَذَ فِي مَدِينَةِ سَلَا.

• كَرَامَةُ لَهُ :

لَجَأَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يَشْكُو وَجَعًا فِي بَطْنِهِ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى مَوْضِعِ الْأَلَمِ، وَحَرَّكَ شَفْتَيْهِ فَذَهَبَ أَلَمُهُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِرَكَتِهِ.

(1) أنس الفقير وعزّ الحَقِير لابن قَنْفَذَ الْقُسْنُطِينِي، ص 125.

(2) المصدر نفسه، ص 126.

(3) المصدر نفسه، ص 127.

(4) المصدر نفسه، ص 128.

(5) المصدر نفسه، ص 128.

13- الشيخ أبو عبد العزيز الصنهاجي⁽¹⁾:

زاره السلطان العزيز المريني، فكاشفه الشيخ بأشياء تعجب منه بسببها، فعظم أمره عنده، وكان لا يرد له طلباً البتة.

14- الشيخ القصار⁽²⁾:

آه ابن قنفذ وتبرك بلقائه، كان معدوداً من الأهلَاء الصالحين.

15- الشيخ ابن مصباح⁽³⁾:

هذا الشيخ من أقران ابن عاشر.

16- الحاج ابن عبد الغني⁽⁴⁾:

نزل الرحالة في زاويته التي يأوي إليها الأخيار المنقطعون للعبادة.

• كرامة له :

ذهب هذا الشيخ ذات مرة إلى وزير المغرب عمر بن عبد الله بن عليّ البياني في حاجة فأبى أن يقضيها، وسمع من الوزير كلاماً لم يعجبه، فخرج من عنده غاضباً قائلاً: اللهم أرحنا منه، وكرر ذلك، وما هي إلا أيام حتى سمعوا بمقتل الوزير.

17- رجل مجهول⁽⁵⁾:

التقى به ابن قنفذ في مدينة " صفرو " من أحواز مدينة فاس منقطعاً في المسجد، كان نحيف الجسم، لم يسمع منه ابن قنفذ شيئاً إلا رد السلام عليه.

18- الشيخ عبد الواحد الصنهاجي وزوجته⁽⁶⁾:

التقاها في صنهاجة آزمون من بني تامدد، وتبرك بحما، وحصلت له غنيمة دعائهما.

• كرامة لعبد الواحد الصنهاجي:

(1) أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص128.

(2) المصدر نفسه، ص128.

(3) المصدر نفسه، ص128.

(4) المصدر نفسه، ص129.

(5) المصدر نفسه، ص129.

(6) المصدر نفسه، ص136.

قصد رجل صنهاجة في فصل العنب، وبينما هو يسير بين كرمها، وأهلها يجنون عنبها، فقال في نفسه ما أبجلهم؛ لم يعرض علي أحد منهم ولو بحبات منه؛ وأكمل سيره فإذا بشيخ ينادي عليه؛ وهو عبد الواحد، أن يتوقف، ثم أعطاه عنقوداً عظيماً، وقال له: لا تقل إننا بخلاء فنحن على العكس من ذلك.

19- الشيخة عزيزة السكسوية⁽¹⁾:

تبرّك الرّحالة بلقائها، والجلوس معها، وهي متوجهة للصلح بين فئتين متخاصمتين.

20- الشيخ عبد الله الصنهاجي⁽²⁾:

من كبار الصالحين، والأولياء الأخيار.

• كرامة له ولرجل منقطع :

حدث بين عبد الله الصنهاجي ووالي صنهاجة " ابن بطان " خلاف أدخله من أجله السجن أحد عشر يوماً ثم أطلقه، فقال: خرجت لزيارة الصالحين، فكان أول ما رأيت منهم رجلاً منقطعاً قال له: كم سجنك ابن بطان فأجابه عبد الله أحد عشر يوماً، قال له الرجل: أسجنته أحد عشر سنة. وما مرّت إلا أيام معدودة حتى وصل كتاب السلطان أبي الحسن المربني بسجن ابن بطان الذي ما ترك وسيلة إلا وجربها لينفذ من سجنه، وكان يقول لهم عبد الله: لن يخرج حتى تتم المدة التي عُيّنَ له.

ذكر الرّحالة، أيضاً، كرامتان لأبي زيد الهزميري، وكرامة لأبي الفضل يوسف بن النحوي، وهي:

كرامات أبو زيد الهزميري⁽³⁾:

قال الشيخ الإمام الصالح أبو العباس أحمد بن محمد ابن عثمان البناء العددي المراكشي⁽⁴⁾، كلما ذهبت إليه وجدت الازدحام عليه، وكنا نسمع جواب السؤال الذي قصدناه فيه من طرف الحلقة دون أن نسأله.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص131.

(2) المصدر نفسه، ص131.

(3) المصدر نفسه، ص109.

(4) أبو العباس أحمد بن محمد الأزدي المراكشي عرف بابن البناء، الامام العالم المشهور المتفنن في العلوم. ينظر: شجرة النور

الزكية، 216/1.

• كرامة أخرى:

ذهب هذا الشيخ للسلطان المريني أبي يعقوب ⁽¹⁾ ليطالب منه أن يفك الحصار على تلمسان، ويبلغه بالحالة التي وصل إليها أهل تلمسان؛ فقد بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير من الذهب، وأصبح الفأر يباع بثمان معتبر، فرفض السلطان طلبه، وغادر الشيخ وفي نفسه شيء منه، فاعتكف بجامع الصابرين ⁽²⁾، وما هي إلا أيام حتى قُتل أبو يعقوب، وفك الحصار عن تلمسان سنة 706هـ.

• كرامة لأبي الفضل النحوي ⁽³⁾:

درّس أبو الفضل يوسف بن النحوي أصول الدين، والفقه بفاس في عقبة ابن دبوس القاضي، ولما طفق يدرس الأصول ظنّ الناس أنّه يريد أن يدخل عليهم علوماً لا يعرفونها، فشكرو أمره لابن دبوس فأمر بإخراجه من فاس؛ وفي تلك الليلة التي عزم فيها على الرحيل دعا على القاضي؛ فقال: « اللهم عليك بابن دبوس، فمات في صبيحة تلك الليلة » ⁽⁴⁾. وخرج مسافراً، ومعه مجموعة من أتباعه من جملتهم ابن القاضي فقال له أبو الفضل: يا ولدي ارجع تحضر جنازة والدك ⁽⁵⁾، فتعجّب الفتى من ذلك، ورجع فسمع الصراخ في الدار فسأل، فقالوا له توفي والدك.

* يوسف بن يعقوب الملاري وتلامذته:

1- جدّ ابن قنفذ :

هو الشيخ يوسف بن يعقوب بن عمران الملاري الملقب بأبي يعقوب، ولد بمنطقة ملارة سنة 680هـ، نشأ وترعرع بزاوية أبيه، وتربى على يديه، حيث نقل عنه حفيده من ابنته، ابن قنفذ، قوله: « أمرني والدي في ابتداء أمري بالاعتكاف في شهر رمضان، وناولني في الليلة الأولى ثلاثين تمرة وفي الليلة

(1) أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. كانت مدته إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر، ونصف شهر. جاز الأندلس سنة تسعين وستمائة، ونزل على الجزيرة، وقد جاز إليها مع أبيه.

حاصر تلمسان الحصار الشهير، وعليها هلك، فكانت وفاته بتلمسان في ذي القعدة سنة ست وسبعمائة، ونقل منها إلى سلا. ينظر: الحلل الموشية لمؤلف مجهول، ص177.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص112.

(3) من قلعة بني حماد، وأصله من توزر، دخل سجلماسة وفاسا، ثم عاد إلى القلعة، وبها مات سنة ثلاث عشر وخمسمائة. ينظر: التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص95.

(4) المنفرجة لأبي الفضل يوسف بن النحوي، شرح: أبي الحسن البوصيري، تح: أحمد بن محمد أبو رزاق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص7.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص153.

الثانية تسعاً وعشرين ثمرة، ثم ما زال ينقص لي واحدة في كل ليلة وما رأيت تشوفاً لشيء في ذلك الشهر»⁽¹⁾، وهكذا سلك جَدَّ الرَّحالة طريق الزُّهد، والعبادة، وترك الدُّنيا وملذاتها. أقام نحواً من خمسين سنة لا يطلع عليه الفجر إلا في المسجد، ولا يتوانى عن الذكر جهراً بعد صلاة الصبح.

حظي بمكانة خاصة عند الأمراء الحفصيين، فكانوا يعاملونه بكل مودة وتقدير، فاستغل ذلك في قضاء حاجات الفقراء، وقبول الشفاعات على مدعا عليهم.

تميّز يوسف بن يعقوب بسمات أخلاقية كريمة مثل إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل، والذكر أثناء الليل، وأطراف النهار، كان كريماً سخياً، ففي أحد الأيام مرض مرضاً شديداً ظنَّ أنه ميت لا محالة، فوزع على المحتاجين من أقربائه كل ما يملك من أموال، كما قسم على ورثته ما يستحقونه من ميراث، ولم يبق لنفسه إلا الثياب التي كان يرتديها، ولما أصبح اليوم الثاني شُفي تماماً من مرضه ومع ذلك لم يسترد أمواله، بل شعر براحة تامة لأنه تخلص منه، وأعطى لكل ذي حقَّ حقه.

توفي سنة 764هـ⁽²⁾، وهو جالس في مرضه يسبح بيده اليمنى، حضر جنازته عدد لا يحصى من الناس، وما هي إلا شهرين حتى توفيت زوجته بعده. أقامت معه في الزوجية سبعين سنة بعشرة قريمة، وحباً واحترام.

يتصل سند يوسف بن يعقوب إلى الشيخ أبي مدين بمشيخته عن والده عن أبي مسعود، وأبو مسعود عن أبي مدين، حيث كان بينه وبين أبي مدين رجلاً، هكذا سمع ابن قنفذ سنة ثمان وخمسين وسبعمائة.

وأخذ أبو مدين عن الشيخ الولي ابن حرزهم عن القاضي أبي بكر ابن العربي عن أبي حامد الغزالي، وأخذ الغزالي رحمه الله عن إمام الحرمين أبي معالي عبد الملك بن أبي محمد ابن يوسف الجويني عن أبي طالب المكي عن أبي القاسم الجنيد عن السري عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري، وأخذ الحسن البصري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذ علي عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

(1) أنس الفقير وعزُّ الحقيّر لابن قنفذ القسطنطيني، ص 83.

(2) دفن بزأوته بملاحة على مرحلتين إلى الغرب من قسنطينة. ينظر: الوفيات - معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من سنة 11 - 807هـ - لابن قنفذ القسطنطيني، تح: عادل النويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1983، ص 362.

لبس ابن قنفذ القسنطيني الخِرقة ⁽¹⁾ على يد الشيخ الولي أبي موسى القروي، كما لبسها، أيضاً، على يد الخطيب أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح أبي العباس أحمد بن مرزوق التلمساني الذي أدركه الرحالة قبل مماته، وسمع منه بعضاً من صحيح البخاري.

2- تلاميذه :

له تلامذة، وإخوان مباركون ⁽²⁾؛ منهم: الخطيب حسن ابن الخطيب علي ⁽³⁾ (والد ابن قنفذ)، والشيخ أبو عبد الله الصفار، والشيخ أبو الحسن علي الأندلسي، والشيخ أبو الهادي مصباح الصنهاجي، والشيخ عبد المؤمن أبو لقمان، والشيخ أبو عبد الله محمد المسفر، والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف بالإضافة إلى ابن قنفذ القسنطيني - صاحب هذه الرحلة - الذي يعدُّ أشهر تلامذته على الإطلاق.

هذا بالنسبة لرحلة " أنس الفقير وعز الحقير " لابن قنفذ التي ترجم فيها لعلماء التصوف وصلحاته، حيث عكست ترجمته الجانب الثقافي والروحي في بلاد المغرب في تلك المرحلة من الزمن، فكان للتصوف المغربي أثر كبير في تلوين الحياة بمختلف اتجاهاتها، ومن هذا المنطلق فرحلة ابن قنفذ يمكن اعتبارها مصدراً من مصادر التصوف في المغرب لأنه أعطى صورة عن مدى استقامة الصوفية في القرن الثامن للهجرة، والروح الدينية العالية التي تشبعوا بها؛ فقد أفاض في وصف الجو الروحي الذي أشاعه، في المغرب الإسلامي، الصوفي الكبير الشيخ أبو مدين شعيب.

مقابل ذلك لم تخل رحلة ابن بطوطة، هي الأخرى، من ذكر العلماء والفقهاء والأولياء، بل كانت مثلاً حياً على ذلك، حيث عُثر فيها على معلومات تتصل بالتصوف والصوفية، فسعى سعيًا حثيثاً للقاء الشيوخ، وعباد الله الصالحين، فكان شديد الإيمان بهم إلى درجة تخلفه عن الركب للقاء ولي من أولياء الله.

جاءت رحلة ابن بطوطة أوسع من رحلة ابن قنفذ، من حيث البحث عن مصادر التصوف، إذا نُظر لها من زاوية الرقعة الجغرافية، فابن بطوطة جال كثيراً من البلدان انطلاقاً من المغرب وصولاً إلى المشرق ثم دخل بلاد السند والهند والأناضول، ثم رجع إلى المغرب، ودخل الأندلس، لينطلق من جديد

(1) أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني، ص 138.

(2) المصدر نفسه، ص 85.

(3) ولد سنة 694هـ. بمدينة قسنطينة وتعلم بها وبجاية. رحل إلى المشرق مرتين، كانت الثانية قبل سنة 745هـ، توفي في

سنة 750هـ. ينظر: الوفيات لابن قنفذ القسنطيني، ص 355.

إلى بلاد السودان، ففي كل بلد من هذه البلدان، وغيرها سعى باحثاً عن صلحائها وفقهائها يتبرّك بدعائهم، ولقائهم، أمّا ابن قنفذ فاقصر على بلاد المغرب العربي فقط، وبالضبط في مناطق محددة، حيث انتشر التصوف بشكل لافت للانتباه. فرحلة ابن بطّوطة ليست عميقة في الجانب الصوّفي كرحلة ابن قنفذ لأنّها جامعة لمختلف النواحي: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، ودينية، فكان التصوف مظهراً من تلك المظاهر التي تناولها بالوصف، أمّا رحلة أنس الفقير فاهتم فيها صاحبها كثيراً بالحركات الصوفية، وأعلام التصوف المشهورين، حتى لا تكاد صفحة من صفحاتها تخلو من ترجمة لهذا الوليّ أو ذاك، والتعريف بهم.

ب- العلماء والأولياء في رحلة ابن بطّوطة:

1/ صلحاء مكة وعلمائها :

من الشيوخ الصالحين في مكة المكرمة ⁽¹⁾ قاضيها العالم العابد نجم الدين محمد بن الإمام محي الدين الطبري، والخطيب الإمام بمقام إبراهيم بهاء الدين الطبري، وإمام الموسم بالحرم الشريف أبي عبد الله محمد بن الفقيه الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن، والفقيه زين الدين الطبري، والفقيه محمد بن فهد القرشي، والزاهد صالح محمد بن البرهان.

* بعض المجاورين بمكة المكرمة ⁽²⁾:

الإمام العالم الصوفي عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليميني الشافعي الشهير باليا فعي، والصالح العابد نجم الدين الأصفهاني، والشيخ شمس الدين محمد الحلبي، والصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، والزاهد خضر العجمي، والشيخ المجوّد برهان الدين إبراهيم المصري، والعابد عز الدين، والفقيه الزاهد أبو الحسن عليّ بن رزق الله الأنجري.

2/ الشيوخ المجاورون بالمدينة الشريفة :

من الشيوخ المجاورين بالمدينة الشريفة ⁽³⁾ الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق، والشيخ الصالح سعيد المراكشي الكفيف، والشيخ أبو مهدي عيسى بن حرزوز المكناسي.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطّوطة، 388/1 - 390.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 391/1 - 392.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 358/1.

ومن شيوخ دمشق، أيضاً، الذين التقاهم الرحالة المغربي ابن بطوطة الشيخ الفقيه تقي الدين ابن تيمية؛ فقد صرح الرحالة بلقائه يعظ الناس بالجامع، ويمثل لهم صفة النزول كتزوله هو من على المنبر، فكان ممّا قاله عنه: « كنت إذ ذاك بدمشق، فحضرت يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إنّ الله يتزل إلى سماء الدنيا كتزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال»⁽¹⁾.

وصف ابن بطوطة شيخ الإسلام ابن تيمية بمس الجنون: « إلا أنّ في عقله شيئاً »⁽²⁾، على الرغم من شهرته، وتعظيم الشاميين له أخذوا عليه تشبيه نزول الله إلى السماء الدنيا بتزوله هو من درج المنبر؛ فقد مثل هذا الشيخ، وشبهه صفة إلهية بصفة بشرية.

أثبت بعض الباحثين والمختصين أنّ ابن بطوطة لم يلتق ابن تيمية، ولا رآه يعظ الناس بالجامع، وإنّما هي حكاية سمعها الرحالة من خصوم ابن تيمية للنيل منه، والافتراء عليه، وذلك استناداً على مجموعة من الأدلة منها: أنّ ابن بطوطة دخل مدينة دمشق في التاسع من رمضان سنة 726هـ⁽³⁾، وفي هذه الفترة كان شيخ الإسلام ابن تيمية مسجوناً بقلعة دمشق منذ السادس عشر من شعبان سنة 726هـ⁽⁴⁾، ولم يخرج من السجن إلى أن توفي رحمه الله في العشرين من ذي القعدة سنة 728هـ⁽⁵⁾.

فهذا دليل قاطع ينسف ما رواه ابن بطوطة عن الفقيه ابن تيمية، وإنّما رواه ممّا سمعه من حُساد الشيخ، وأعدائه المعاصرين له من أهل الكلام، والمبتدعة. فابن بطوطة هنا لم يتحر الدقة، وإنّما نقل كلامهم جُزأً دون أن ينتبه إلى أنّ هذا الخطأ قد يحسب عليه؛ فقد كان في معظم رحلته يتحرى الدقة عندما يتعلق بأمر يشكّ في صحته، مثل تأكده من صحة نسبة القبور الثلاثة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وربما يكون السبب وراء هذا الكلام أنّ الوشاة والحساد أوغروا صدر الرحالة على الشيخ ابن تيمية

(1) رحلة ابن بطوطة، 317-316/1.

(2) المصدر نفسه، 316/1.

(3) المصدر نفسه، 297/1.

(4) البداية والنهاية لعلماد الدين بن كثير، 267/18.

(5) ينظر: - المصدر نفسه، 289/18.

- شرح العقيدة الأصفهانية لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تح: سعيد بن نصر بن محمد، مكتبة الرشد، الرياض،

ط1، 2001، ص18.

باعتباره حنبلي المذهب، وابن بطّوطة مالكيّاً، مع العلم أنّ هناك اختلافاً بين المذهبيين، ولا بُدّ من وجود تنافر وتناحر بين علماء وفقهاء وأنصار كلا المذهبين، فضلاً عن المناقشات، والمنافسات التي كانت تدور بينهم، وكل منهم يسعى للإطاحة بالآخر، والانتصار لمذهبه، فلّفّقوا له هذه التهمة الكاذبة التي رواها الرّحالة في رحلته بدافع غيرته على الإسلام، ونسبة صفات بشرية إلى الخالق تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾⁽¹⁾.

لما نزل ابن بطّوطة في مدينة جَبَلَة لم ينس ذكر الوليّ الشهير الزّاهد الورع إبراهيم بن الأدهم⁽²⁾، الذي لم يكن من بيت ملك، وإنّما ورثه عن جدّه لأُمّه لأنّ أباه أدهم كان من الفقراء الصالحين المنقطعين للعبادة، تزوج بنت الملك لُيْبَرِيّ ذمته من الدّين الذي في رقبتّه، ويتمثل هذا الدّين في تفاحة حملها له ماء النّهر، فأكلها دون أن يستحلها من أهلها، ولم يستحلّه الملك إلّا بعد زواجه من ابنته.

* حكاية الصالحين المنقطعين في جبل لبنان :

ساق ابن بطّوطة في رحلته حكاية الصالحين المنقطعين في جبل لبنان⁽³⁾، حيث اشتهر هذا الجبل بكثرة الزّهاد فيه، ورأى فيه الرّحالة جملة منهم ممّن لم يشتهر اسمه. حكى له بعض الصالحين قائلاً له كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء إبان البرد الشديد، فأوقدنا ناراً عظيمة، وأحطنا بها فنطق بعض الفقراء ممّن تدرّيه العبر، أنّي كنت عند صلاة العصر بمتعبّد إبراهيم بن الأدهم فرأيت حمار وحش قد أهدق الثلج به من كل جانب، فلو ذهبتم إليه لأحضرتموه وشويتم لحمه. فقام هؤلاء الصالحون إل المتعبّد، فوجدوا الثور كما وصفه الرجل فأتوا به، وذبحوه، وشووا لحمه في تلك النار، وعندما طلبوا ذلك الفقير لم يجدوا له أثر، فتعجّبوا من أمره.

5/ علماء مصر وصلاحواها :

تحدث ابن بطّوطة عن علماء الإسكندرية، وعبّادها: ومنهم القاضي عماد الدّين الكِندي، والقاضي فخر الدين بن الرّيغي، ولما سمع، أثناء إقامته بالإسكندرية، بالشيخ العابد أبي عبد الله المرشدي⁽⁴⁾، وهو من كبار الأولياء المُكاشفين، منقطعاً بمُنية ابن رُشد، قرر زيارته ليسأله الدّعاء والبركة، فذهب إليه،

(1) الآية 180 من سورة الصّافات.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 290/1.

(3) المصدر نفسه، 294/1.

(4) المصدر نفسه، 194/1.

وحصلت له كرامته بأن كاشفه برؤياه، حيث رأى ابن بطوطة في تلك الليلة التي قضها على سطح زاوية الشيخ مناماً وكأنه على ظهر طائر عظيم يطير به في سمت القبلة، ويذهب به ناحية الشرق ثم يعرج به ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وبعدها يتزل به في أرض مظلمة خضراء، ويتركه بها. فكاشفه الشيخ المرشدي برؤياه، وقال له سوف تحجّ، وتزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وتجول في بلاد اليمن، والعراق، وبلاد الترك، والهند التي تقضي فيها مدة طويلة، وستلتقي بأخي دلشاد الهندي الذي ينقذك من أزمة تقع فيها.

ومن كبار الزهاد، والعباد الذين لقيهم ابن بطوطة في مدينة الإسكندرية، وأقام في ضيافتهم ثلاثة أيام برهان الدين الأعرج⁽¹⁾ الذي قال للرحالة: أراك تحبّ الترحال والانسياح في البلاد، فقال له ابن بطوطة: نعم إنني أحبّ ذلك، فقال له الشيخ: لأبدّ لك، بإذن الله تعالى، من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكريا بالسند، وأخي برهان الدين بالصين، وعندما تلقاهم أبلغهم سلامي، فتعجب ابن بطوطة من قول الشيخ، ولم يكن عندئذ قد خطر في باله أن يزور البلدان البعيدة، إلا أنّ القدر شاء أن يكمل ترحاله من مكان إلى مكان حتى وصل تلك البلدان التي أخبره بها الشيخ برهان الدين، ولقي إخوانه الثلاثة، وأبلغهم سلامه.

أشار ابن بطوطة في هذه الكرامة إلى بعض الأشخاص الذين تنبأ بهم الشيخ برهان الدين الأعرج، وأنّه سيلتقي بهم، فذكر أنّه التقى ببلاد السند بالشيخ برهان الدين، والتقى في الهند والصين بالشيخين الكريمين الآخرين، كما ذكر أيضاً دلشاد الهندي الذي خلصه من محنة وقع فيها في بلاد الهند، وذكر أنّ الشيخ المصري قال له: إنّه سوف يلتقيه.

كانت رحلة ابن بطوطة، إذًا، تحقيقاً لمكاشفة هذين الشيخين .

ومن صلحاء مدينة دمياط في مصر الشيخ جمال الدين السّاوي⁽²⁾ قدوة الطائفة القرندرية، وهم الذين يخلقون لحاهم، وحواجبهم. لزم هذا الشيخ مقبرة دمياط، وكان بهذه المنطقة قاض يدعى ابن عميد الذي خرج يوماً لتشيع جنازة أحد الأعيان، فرأى الشيخ جمال الدين في المقبرة فأغاضه ذلك، وسخر منه قائلاً: أنت الشيخ المبتدع، فرد عليه الشيخ قائلاً: وأنت القاضي الجاهل تمرّ بدابتك بين القبور غير آبه بأنّ حرمة الإنسان ميتاً كحرمة حياً، ثمّ زعق ورفع رأسه فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة، ثمّ زعق

(1) رحلة ابن بطوطة، 186/1.

(2) المصدر نفسه، 199/1.

ثانية فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة، ثم زعق ثلاثة فإذا هو بلا لحية فعجب القاضي ومن معه، وقبّل يده، وتلمذ عليه، وبني له زاوية، وصحبه بقية حياته.

ذكر ابن بطّوطة، أيضاً، ست عشرة شيخاً⁽¹⁾ من علماء مصر، وأعيانها؛ منهم: شمس الدين الأصبهاني، وشرف الدين الزواوي، وركن الدين ابن القوبع التونسي.

من أولياء الله تعالى، أيضاً، الذين لقيهم ابن بطّوطة بالإسكندرية الشيخ الصالح أبو عبد الله الفاسي، الذي يذكر عنه: «أنه كان يسمع ردّ السلام عليه إذا سلّم من صلاته»⁽²⁾.

ومنهم، أيضاً، الشيخ الزاهد خليفة الذي رأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم في النوم، فقال له صلى الله عليه وسلّم: يا خليفة زُرنا، فرحل الشيخ إلى المدينة الشريفة حيث مسجد الرسول صلى الله عليه وسلّم، فدخل من باب السلام، وحَيّ المسجد وسلّم على الرسول صلى الله عليه وسلّم، ثم قعد مستنداً إلى بعض سواري المسجد، ووضع رأسه على ركبتة: «وذلك يسمى عند المتصوفة التزييق»⁽³⁾ فلما رفع رأسه وجد أربع أرغفة، وآنية لبن، وطبقاً فيه تمر أكل منه هو وأصحابه.

الشيخ يعقوب الحبشي تلميذ أبي العباس المرسى، وهذا الأخير تلميذ أبي الحسن الشاذلي ذي الكرامات الجليلة، كان أبو الحسن الشاذلي⁽⁴⁾، حسبما أخبروا به ابن بطّوطة، يحجّ كل سنة، ويجاور بمكة شهر رجب، وما بعده لانقضاء الحجّ، ويزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم.

ومن كراماته، أيضاً، أنه قال لخديمه: استصحب فأساً وقفة وحنوطاً، وكل ما يجهز به الميت فسأله الخديم عن سبب أخذ هذه الأدوات، فقال له الشيخ في حُميْثراً سوف ترى، فلما وصلا إليها اغتسل الشيخ أبو الحسن، وصلى ركعتين، توفي في آخر سجدة منهما، ودُفن هناك.

ومن الشيوخ الذين التقاهم الرحالة، أيضاً، الشيخ تقيّ الدين ابن السراج⁽⁵⁾ الذي نزل في مدرسته في مدينة "هو"، وهذه المدرسة تتبّع الطريقة الشاذلية، حيث أنهم يقرؤون أوراد أبي الحسن الشاذلي بعد كل صلاة صبح من كلّ يوم، وحزب البحر.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 218/1.

(2) المصدر نفسه، 186/1.

(3) المصدر نفسه، 186/1.

(4) المصدر نفسه، 187/1.

(5) المصدر نفسه، 227/1.

وبهذه المدينة، أيضاً، الشَّيْخ أبو محمد عبد الله الحسني⁽¹⁾ الذي زاره الرَّحالة، وأخبره بأنَّه يريد الحجَّ، وزيارة البقاع المقدَّسة، فقال له الشَّيْخ لا يحصل لك الحجَّ على هذه الطريق، وإنَّما تحجَّ في العام المقبل على الطريق الشامي، وبالفعل لم يتمكن ابن بطَّوطة من الحجَّ على طريق مصر، وإنَّما كانت أول حَجَّاته على الدَّرب الشامي.

من علماء مدينة قوص⁽²⁾ جمال الدين بن السديد، وخطيبها فتح الدين بن دقيق العيد، أمَّا صلحاء مدينة أَرَمَنْتَ⁽³⁾ فقاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين، والشَّيْخ نور الدين عليّ، والشَّيْخ عبد الواحد المكناسي.

وصف ابن بطَّوطة بلاد البُرْلُس⁽⁴⁾ ونَسْتَرُو⁽⁵⁾ ببلاد الصالحين⁽⁶⁾، لأنَّ فيها كثيراً من الأولياء المنقطعين إلى عبادة الله تبارك وتعالى.

ومن مشايخ مدينة البَهْنَسَة⁽⁷⁾: الشَّيْخ العالم شرف الدين، والشَّيْخ أبو بكر العجمي⁽⁸⁾ الذي نزل ابن بطَّوطة في ضيافته.

ونزل، أيضاً، في ضيافة الشَّيْخ شهاب الدين بن الصباغ⁽⁹⁾ في مدينة أسيوط. والتقى كذلك بالشَّيْخ القسطلاني⁽¹⁰⁾ صاحب البركات الشهيرة، حيث ذهب إليه، وتبرَّك به في مدينة عيذاب⁽¹¹⁾، وبها، أيضاً، الشَّيْخ الصالح موسى، والشَّيْخ المُسنِّ محمد المراكشي.

(1) رحلة ابن بطوطة، 227/1.

(2) المصدر نفسه، 228/1.

(3) المصدر نفسه، 229/1.

(4) بُليدة على شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. ينظر: معجم البلدان، 402/1.

(5) جزيرة بين دمياط والإسكندرية. ينظر: معجم البلدان، 284/5.

(6) رحلة ابن بطوطة، 196/1.

(7) مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل، وتضاف إليها كورة كبيرة، وليست على ضفة النيل، وهي عامرة كبيرة كثيرة الدخل. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 517/1.

(8) رحلة ابن بطوطة، 224/1.

(9) المصدر نفسه، 227/1.

(10) المصدر نفسه، 231-230/1.

(11) بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ينظر: معجم البلدان، 171/4.

6/ علماء العراق :

من علماء بغداد الشيخ الإمام الصالح سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني⁽¹⁾.

* كرامات روضة التجف :

بهذه الروضة يوجد قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما يزعم أهل هذه المنطقة، وقد ظهرت بهذه الروضة كرامات كثيرة منها ليلة السابع والعشرين من رجب، حيث يأتي إليها المقعدون من بلاد العراق، وخراسان، وبلاد فارس، والروم، فيجتمع بها نحو ثلاثين أو أربعين مريضاً يضعونهم فوق الضريح بعد صلاة العشاء، والناس ينظرون إليهم، وهم ما بين مصل، وذاكر، وقارئ فإذا مضى نصف الليل قام الجميع أصحاب دون عاهات، وهم يسبحون الله قائلين: « لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلي ولي الله »⁽²⁾.

7/ علماء تونس :

كان من أوائل العلماء الذين لقيهم ابن بطوطة في أثناء رحلته: الخطيب أبو إسحاق الرّبعي، والفقير أبو علي بن قذّاح الهواري⁽³⁾ الذي كان يستند بعد صلاة الجمعة إلى بعض أساطين جامع الزيتونة، ويفتي الناس في مسائل مختلفة كانت قد استغلت عليهم.

8/ علماء اليمن :

لا يفوت ابن بطوطة الفرصة لزيارة الأولياء الصالحين، والتّنعّم برؤيتهم، فعن علماء مدينة زبيد⁽⁴⁾ يقول: « وعلماء تلك المنطقة وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق »⁽⁵⁾، لقي منهم: الشيخ العالم أبو محمّد الصنعاني، والفقير الصوفي أبو العباس الأبياني، والفقير المحدث أبو علي الزّبيدي، والفقير أبو زيد عبد الرحمن الصوفي، الذي حكى له كرامة للشيخ الزّاهد أحمد بن العجيل اليمني⁽⁶⁾ الذي أتاه كبار فقهاء الزّيدية فاستقبلهم خارج زاويته، حيث جلسوا هناك، ودار بينهم جدال في مسألة

(1) رحلة ابن بطوطة، 64/2.

(2) المصدر نفسه، 423/1.

(3) المصدر نفسه، 168/1.

(4) مدينة مشهورة باليمن أحدثت في أيام المأمون وبازائها ساحل غلافة وساحل المنذب، وهو علم مرتجل لهذا الموضع. ينظر:

معجم البلدان، 131/3.

(5) رحلة ابن بطوطة، 105/2.

(6) المصدر نفسه، 106/2.

القَدْر، وكان فقهاء الزيدية يقولون إنّ الإنسان مكلف، يخلق أفعاله فخالفهم الشَّيخ في رأيهم، وقال لهم إن كنتم على ما تقولون فقفوا من أماكنكم، فأرادوا القيام إلّا أنّهم لم يستطيعوا. تركهم الشَّيخ على حالتهم تلك، ودخل الزاوية، وأقاموا كذلك إلى أن تابوا، ورجعوا عن مذهبهم الفاسد، واعتذروا من الشَّيخ الذي عاهدهم على الرجوع إلى الحقّ، وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثة أيام، وبعدها انصرفوا إلى ديارهم.

ومن بلاد زبيد قصد ابن بطّوطة زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي⁽¹⁾، وهو من كبار الصالحين، والتقى، أيضاً، وليّاً من أولياء الله تعالى في جبل لُمعان⁽²⁾، إلّا أنّه لم يُكلّمهم بل اكتفى برّد السّلام عليهم، وصلّوا معه العصر والمغرب، وعندما حان وقت صلاة العشاء قام فأذن، فصلوا معه، وكان ذا صوت حسن مجيد.

أمّا في مدينة حلي⁽³⁾ فيوجد بها مجموعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة؛ منهم الشَّيخ الزاهد قبولة الهندي⁽⁴⁾ من كبار الصالحين.

أبدى ابن بطّوطة من خلال رحلته اهتماماً كبيراً بكبار المتصوفة، وشيوخ الطرق الصوفية، وأشار في كثير من الأحيان إلى لبسه الخِرقة الصوفية على يد بعض العلماء.

9/ علماء غرناطة وفضلاؤها⁽⁵⁾:

لقي الرّحالة في غرناطة جملة من فضلائها منهم: القاضي أحمد بن محمّد الحُسَيني السبتي، والفقيه أبو عبد الله بن محمّد بن إبراهيم البياني، والمُقرئ أبو سعيد فرج بن قاسم، وقاضي الجماعة أبو البركات محمّد بن محمّد بن إبراهيم السّلمي البليقي، وشيخ المتصوفة أبو عليّ عُمر ابن الشَّيخ الوليّ أبو عبد الله محمّد بن المحروق، والتقى، أيضاً، بالخطيب أبي زكرياء يحيى بن السراج الرّندي⁽⁶⁾ في جبل الفتح.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 106/2.

(2) المصدر نفسه، 132/2.

(3) مدينة باليمن على ساحل البحر. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 297/2.

(4) رحلة ابن بطّوطة، 102/2.

(5) المصدر نفسه، 226-223/4.

(6) المصدر نفسه، 211/4.

ولابد من الإشارة، هنا، إلى أن ابن بطوطة زار، في طريقه، الشيخ أبا مدين شعيب الذي ترجم له ابن قنفذ في رحلته " أنس الفقير وعز الحقيير " ⁽¹⁾، وهو مدفون في عبّاد تلمسان.

حرص ابن بطوطة على لبس المرقعات والخِرقة، وقد لبسها أكثر من مرّة، وله فيها أسانيد، فكان شديد الاعتزاز بلبسها حريصاً عليها. كانت ثاني خِرقة تصوف لبسها الرحالة على يد الشيخ قطب الدين حسين ⁽²⁾ ابن الشيخ الصالح وليّ الله شمس الدين محمد بن محمود بن عليّ المعروف بالرجاء في أصفهان، وهكذا انضم ابن بطوطة إلى زمرة المتصوّفة .

10/ صلحاء شيراز:

بعد مغادرته مدينة أصفهان متجها نحو شيراز حلّ ضيفاً لدى عالم المدينة القاضي مجد الدين إسماعيل ⁽³⁾ في مدرسته التي أقام فيها مستفيداً من الدروس التي قدّمها الشيخ حيث سمع عليه كتاب مسند الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وللشيخ مجد الدين إسماعيل بن محمد كرامات شهيرة منها أن السلطان محمد خدابنده أمر برمي الشيخ إلى كلاب ضخم مُعدّة لأكل لحم بني آدم، فلما رآته الكلاب بصبت إليه، ولم تهجم عليه فبلغ ذلك السلطان، وعندها خرج من داره مسرعاً حافي القدمين، فأكبّ على رجلَي القاضي يُقبّلهما، وطلب منه العفو على ما بدر منه، وخلع عليه ما كان يرتديه من ثياب فخمة ليكفر بها عن ذنبه، وهي أعظم كرامات السلطان عند أهل شيراز. تكررت لابن بطوطة زيارته للمرة الثانية عند خروجه من الهند متبركاً بقلائه.

ومن صلحاء شيراز، أيضاً، الوليّ أبو عبد الله بن خفيف ⁽⁴⁾ من كبار الأولياء المشهورين، يحكى أنّه كان معه نحو ثلاثين فقيراً قصدوا جبل سرّنديب، فأصابتهم مجاعة، ولم تكن هناك عمارة، فطلبوا من شيخهم أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار فأبى الشيخ فعل ذلك، ولكن الجوع تغلب عليهم فتعدّوا على قول الشيخ، وقبضوا على فيل صغير ثم ذبحوه، وأكلوا لحمه إلاّ أبا عبد الله الذي أضرب عن أكله، فلما ناموا جاءت الفيلة، والتفت بهم، وأخذت في قتلهم واحداً تلو الآخر، ولما وصلت إلى الشيخ شمت رائحته وتركته، ولم تلحق به مكروهاً بل أخذته الفيل، ولفّ عليه خرطومها ورمى به

⁽¹⁾ أنس الفقير وعزّ الحقيير لابن قنفذ القسنطيني، ص 45.

⁽²⁾ رحلة ابن بطوطة، 32/2.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 49/2.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 48/2.

على ظهره، وأتى به إلى مكان مأهول، فلما رآه أهل تلك البلدة عجبوا منه، واستقبلوه وتعرفوا أمره، فجاؤوا إليه وتمسحوا به، واعتبروا قصته كرامة من كراماته.

حكى ابن بطوطة، أيضاً، كرامة أخرى لبعض الصالحين ⁽¹⁾ في شيراز، بينما كان هو في مسجد من مساجدها إثر صلاة الظهر وبعد انتهائه من الصلاة، خطر بباله قراءة القرآن، لكن لم يكن لديه مصحفاً، وبينما هو يفكر في ذلك دخل عليه شاب، وقال له خذ، فرفع ابن بطوطة رأسه فألقى في حجره مصحفاً كريماً، ثم ذهب ولما ختمه الرحالة ذلك اليوم قراءة انتظره ليرده إليه إلا أن الشاب لم يعد فسأل عنه فقيل له: إنه بهلول الشوّلي.

كما التقى أيضاً ⁽²⁾ بالفقيه الإمام صدر الدين الحنفي، والقاضي أبي حنيفة، والشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي في مدينة بكار ⁽³⁾.

11/ علماء دلهي وصلاحها ⁽⁴⁾:

منهم الشيخ الصالح محمود الكبا من كبار الصالحين، والشيخ الصالح علاء الدين النيلي، والشيخ الصالح صدر الدين الكهزاني، والإمام العابد الخاشع كمال الدين عبد الله الغاري الذي انقطع ابن بطوطة لخدمته فلزمه خمسة أشهر تحول فيها إلى رجل صوفي زاهد في الدنيا منقطع إلى الله سبحانه وتعالى، ووهب كل ما عنده من أموال إلى الفقراء ثم انتقل إلى الحجاز، ونزل بزاوية تنسب إلى الملك بشير، ولهذا الشيخ كرامات كثيرة؛ منها:

كان لابن بطوطة غلام تركه عند أحد الأتراك، وعندما رجع لأخذه، قال له الشيخ لا تأخذه لأنه لا يصلح لك، وكان التركي راغباً في الاحتفاظ به فاشتراه من الرحالة بمائة دينار، ولما انقضت ستة أشهر قتل الغلام سيده فاقتص منه أولاده وقتلوه. لما شاهد ابن بطوطة هذه الكرامة لهذا الشيخ لازمه، وانقطع لخدمته، فهو يحب الصالحين إلى درجة أنه يرغب في ترك متاع الدنيا لخدمة هؤلاء الزاهدين المنقطعين إلى الله تعالى إلا أن الحنين إلى التجوال، والانسياح في أرجاء المعمورة يتغلب عليه فيترك كل ما كان عليه، ويتأهب من جديد للرحيل واكتشاف البلاد.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 52/2.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 87/3.

⁽³⁾ قرية من قرى شيراز من أرض فارس. ينظر: معجم البلدان، 1/474.

⁽⁴⁾ رحلة ابن بطوطة، 115-114/3.

ومن أولياء الهند، أيضاً، وليّ صالح أنقذ ابن بطّوطة من محنة حلّت به، فتبين له في الأخير أنّه دلّشاد الذي أخبره عنه عبد الله المرشدي حسبما ذكره في السفر الأول، وأنّه سيخلصه من محنة يقع فيها.

قصد ابن بطّوطة جبال كامرو⁽¹⁾ قصد لقاء وليّ من أولياء الله بها، وهو الشّيخ جلال الدين التبريزي من كبار الأولياء له كرامات شهيرة، منها أنّه أوصى تلامذته قبل موته بيوم بتقوى الله، والإخلاص في عبادته، وله كرامة أخرى، أيضاً، لما قصد الرّحالة زيارته لقّنه أربعة من أصحاب هذا الشّيخ على مسيرة يومين، فذهبوا لاستقباله لأنّ الشّيخ أخبرهم أنّه سيأتي عنده سائحاً من المغرب، لم يكن للشّيخ علم بابن بطّوطة وإنّما كُشف به، وعندما دخل الرّحالة على الشّيخ رأى فرجة أعجبه، فقال في نفسه ليت الشّيخ أعطانيها، فلما تأهب ابن بطّوطة للرّحيل قام الشّيخ، وأعطاه الفرجة مع طاقة من رأسه، ولم تكن عادته من قبل أن يلبس الفرجة، وإنّما لبسها لأمر كُشف به؛ فقد أخبر مرّديه بأنّ هذه الفرجة يطلبها مغربي، ويسلبها منه سلطان كافر، ويعطيها لأخيه برهان الدين الصّاغري، فهذه الطاقة كانت برسمه في الأصل، وبالفعل حدث لابن بطّوطة ما أخبره به الشّيخ.

12/ بعض المشايخ الذين التقاهم الرّحالة أثناء رحلته:

ومن الصالحين الذين التقاهم الرّحالة الشّيخ أبو الحسن الأقصري الذي أضافه في زاويته، وألبسه ثوباً وأعطاه كمّر الصّحبة⁽²⁾: « وهو يحتجّ به فيعين الجالس فيكون كأنّه مستند »⁽³⁾.

ومنهم الشّيخ الخضر⁽⁴⁾، من أهل الهند، الذي ساق الرّحالة كرامة له؛ فقد كان هذا الشّيخ معهم في الرّكب ويدعونه: مولانا؛ لأنّه كان حافظاً للقرآن الكريم حسناً الكتابة، وبينما هم على ظهر البحر هبت ريح قوية كادت تُغرق المركب. بمن فيه، فلمّا رأى الشّيخ هول البحر لفّ رأسه بعباءة وتناوَم، ولما أفرج الله عنهم ذلك سأله ابن بطّوطة عن حاله، فأجابه أنّه كان يفتح عينيه عند الهول ليرى هل جاء الملائكة الذين يقبضون الأرواح، فلا يراهم وعندها يحمد الله، لأنّه لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح، وبقيّ على تلك الحالة إلى أن فرج الله عنهم، ونجاهم من الغرق.

(1) كامرو: الكلمة من أصل سنسكريتي kamarupa، قسم من ولاية أصام Assam يقع بين بهوتان وبنغلاديش. ألحقت أصام بمملكة الهند عام 653هـ. رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 104/4.

(2) كمّر الصّحبة، بالفارسية (Canard-band) عبارة عن شبه حزام يُحتجّ به. فيعين الجالس ويكون بمثابة مستند له.

ينظر: رحلة ابن بطّوطة (الحاشية)، 141/2.

(3) رحلة ابن بطّوطة، 141/2.

(4) المصدر نفسه، 134/2.

ومن الشيوخ الذين التقاهم بابا الششتري⁽¹⁾، والفقير نعمان الدين الخوارزمي⁽²⁾ الذي نهي ابن بطوطة عن الرحيل إلى خوارزم، لكن نفسه نازعته للسفر لأنه وجد رفقة طيبة تؤنسه في الطريق، فاتفق على السفر معهم، وأخبر الشيخ بذلك فقال له الشيخ لا بد لك من الإقامة، إلا أن ابن بطوطة عزم على الرحيل، فبقي له غلام أقام بسببه، ولم يجده إلا بعد مرور ثلاثة أيام، فكانت هذه من كرامات الشيخ نعمان الدين.

ومنهم، أيضاً، الشيخ الصالح عبد الله المصري السايح⁽³⁾، وهو من كبار الصالحين، والواعظ مجد الدين القنوي، والشيخ الإمام تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء، والعالم المدرس صدر الدين سليمان الفينيكي، والشيخ المعمر الصالح دادا أمير علي⁽⁴⁾. هؤلاء الشيوخ التقاهم جميعاً، وأخذ عنهم. يُلاحظ أن ابن بطوطة يطرب أشد الطرب إذا جلس مع وليٍّ؛ ولهذا نجده لا يتردد أبداً في زيارتهم، وإذا لم يحصل له لقاء الوليِّ، وهو على قيد الحياة، والجلوس معه، والاستماع إليه، يكفيه زيارة قبره، والتمسح به والوقوف على تربته، وأخذ البركة منه، فما دام الوليُّ صالحاً منقطعاً إلى الله عز وجل فالبركة تحصل بلقائه حياً أو بزيارة قبره، فهو شديد الإيمان بهم حريص على زيارتهم، لا يحلّ بمدينة إلا وسأل عن صلحائها، وفقهائها، وأوليائها الصالحين، فمن الوعاظ والمذكرين الذين التقاهم في خوارزم⁽⁵⁾ زين الدين المقدسي، والخطيب حسام الدين المشاطي الذي وسمه بالخطيب المصقع، والشيخ قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ الصالحين صاحب الكرامات العجيبة، وقد حدثت لابن بطوطة كرامته، وذلك عندما اشترى غلاماً تركياً، فلما رآه الشيخ قال له: هذا الغلام لا يصلح لك فبعه، فانصاع الرحالة لنصيحة الشيخ وباعه، ولما حلّ بمدينة بسطام⁽⁶⁾ كتب إليه أحد أصحابه في نيسابور أن الغلام قُتلَ أولاد الأتراك وقتل به، فكانت هذه كرامة جليلة لهذا الشيخ.

(1) رحلة ابن بطوطة، 2/172.

(2) المصدر نفسه، 2/260.

(3) المصدر نفسه، 2/197.

(4) المصدر نفسه، 2/206.

(5) المصدر نفسه، 3/11.

(6) بلدة كبيرة يقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمحلتين. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/421.

لَبَسَ ابن بطوطة الخِرقة للمرة الثالثة على يد الشَّيخ قطب الدين حيدر العلوي ⁽¹⁾ في أُوْجَه ⁽²⁾، وظل محتفظاً بها إلى أن فقدها في البحر حين سلبها منه كفار الهند.

ومن كبار الأولياء الذين التقاهم ابن بطوطة، أيضاً، إمام مدينة بَيَّانَة ⁽³⁾: عزّ الدين الزُّبيري من ذرية الزُّبَيْر بن العوام رضي الله عنه، والشَّيخ الصالح شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين، والشَّيخ الصالح قطب الدين المسمى حيدر الفرغاني ⁽⁴⁾ الذي طلب منه الدُّعاء. ومن هؤلاء الصالحين الذين لقيهم الحاج ناصر من أهل ديار بكر، والتاجر خواجه إسحاق ⁽⁵⁾.

نزل ابن بطوطة، إلى جانب زوايا الصَّوفية، في مدارس العلوم الدِّينية ليتفقه على أيدي علمائها، ويأخذ منهم العلم؛ فقد نزل في تستر في مدرسة الشَّيخ الإمام الصالح المتفَنَّ شرف الدين موسى ⁽⁶⁾ بن الشَّيخ الصالح صدر الدين سليمان، وهو شيخ فاضل يجمع بين العلم والدين والصلاح.

إنَّ ابن بطوطة رجل مؤمن عميق الإيمان شديد الثقة بالأولياء إلى درجة كبيرة جداً فهو يلتصقهم ويسألهم بركاتهم، ويكون في قمة السعادة إذا التقى بوليٍّ وجلس معه واستمع إليه. ومن الفضلاء الذين لقيهم الشَّيخ الصالح برهان الدين الكازروني ⁽⁷⁾.

عُني ابن بطوطة، من خلال رحلته، بلقاء الأولياء والصالحين وزيارتهم، والتماس بركاتهم، متحدثاً عن أخلاقهم العالية بترك الدُّنيا ومتاعها، والانقطاع إلى عبادة المولى جلَّ جلاله في مكان بعيد، كانوا كثيري الصلاة والصوم يكرِّمون الآخرين، ويؤثرونهم على أنفسهم، فإذا جاءهم غريب قاموا معه بحقِّ الضيافة، وذلك بإنزاله منزلة حسنة، وهذا ما تَوَكَّده رحلته التي أبدى فيها اهتماماً كبيراً بكبار المتصوفة، وشيوخ الطرق، فأكد صحة ولايتهم بما حصل له هو شخصياً من تَحَقُّقِ كراماتهم، ولهذا نجد أنه يشعر

(1) رحلة ابن بطوطة، 87/3.

(2) أُوْجَه (Uch) على طريق ملتان جنوبها وفي غرب ولاية بَهَاوَلْپُور (Bahawalpur) كانت على ذلك العهد مركزاً إسلامياً هاماً. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 87/3.

(3) رحلة ابن بطوطة، 10/4.

(4) المصدر نفسه، 17/4.

(5) المصدر نفسه، 29/4.

(6) المصدر نفسه، 22/2.

(7) المصدر نفسه، 135/4.

بالسعادة عند زيارته لوليّ، وإقامته عنده وأثناء مغادرته يكون أيضاً في قمة السعادة لأنّه حصلت له بركة ذلك الشيخ.

في الخلاصة إنّ ابن بطّوطة وابن قنفذ تشبعا بالروحانيات، والإيمانيات لأنّهما شربا من معين البيئة المغربية المتدينة، كما أنّ رحلتيهما عكست الثقافة الدّينية الإسلامية في القرن الثامن للهجرة، حيث انتشرت مدارس الصّوفية والزوايا بشكل لافت للنظر، فالتف من حولهما الناس طلباً للعلم، والاستزادة منه، كما لجأ الناس إلى الزوايا والأولياء مستغيثين ومتوسلين إلى الله حين يتعرضون للمظالم والأخطار خاصة وأنّ القرن الثامن للهجرة هو قرن الفتن، والأزمات، والثورات المزلزلة: « وهذه الظاهرة طبيعية ومنطقية من الناحية التاريخية والنفسية في عالم الإسلام في الشرق والغرب على السواء: فقد ابتلي العالم الإسلامي كله خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بنكبات متوالية يرجع السبب في معظمها إلى تدهور نظم الحكم وفسادها وضياع هيبتها ويأس الناس منها »⁽¹⁾.

عانى المغرب الإسلامي في هذه الفترة من أزمات كثيرة الواحدة تلو الأخرى داخلياً وخارجياً، فلم يجد الناس ملجأ لحل هذه المشكلات إلاّ التوجه إلى الزوايا والرّبط متضرعين إلى الله بأوليائه الصالحين، أو كتابة رسائل الشفاعة، وبعثها مع الرّكب الذي يتوجه إلى الحجّ لقراءتها في البقاع المقدّسة. ولعل هذا ما يفسر احتفال رحلتنا ابن بطّوطة وزميله ابن قنفذ بالألفاظ الدّينية، والعبارات الإسلامية، فلا تكاد تخلو كل صفحة من صفحاتهما من ذلك.

إذاً كانت رحلة " ثحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " ورحلة " أنس الفقير وعزّ الحقيير " خير مثالين على التّزوع الدّيني في أدب الرّحلات في القرن الثامن للهجرة، وإنّ كانت رحلة ابن بطّوطة أوسع وأشمل من رحلة ابن قنفذ لأنّها جمعت بين الدافع الدّيني ودوافع أخرى أهمها السياحة وحبّ الاستطلاع، ومع ذلك يبقى الدّافع الدّيني مسيطراً على رحلته من بدايتها إلى نهايتها، ولذا يمكن اعتبارها مصدراً من مصادر التّصوف السائد في ذلك العصر داخل المغرب وخارجه، وهذا راجع لما احتوته من معلومات غنية بين دفتيها، أمّا رحلة ابن قنفذ فهي غنية عن كلّ تعليق لأنّ دافعها ديني؛ فقد رصد فيها المؤلف الشّخصيات الصّوفية البارزة في المغرب، والفرق المشهورة، وتجمعاتها بتفصيل ودقة.

⁽¹⁾ ابن بطّوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل لحسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 2003، ص26.

الباب الثاني:

الملح الثاني لزروع النبي في الرحلتين

الفصل الأول : بنية الرحلتين.

1- بنية رحلة ابن بطّوطة :

١- المقدمة .

٢- السفر .

٣- الخاتمة .

2- بنية رحلة ابن قنفذ :

١- المقدمة .

٢- السفر .

٣- الخاتمة .

مفهوم البنية:

إنَّ البحث عن الجذر اللغوي لكلمة البنية في المعاجم العربية لا يوصل إلى تعريف جامع محدد لها، ذلك أنَّها لم ترق في الاستعمال اللغوي لدى النقاد العرب القدماء إلى المصطلح المتداول، ومع ذلك أشاروا إليها من خلال بعض المفاهيم. ففي لسان العرب مثلاً البنية والبُنْيَة: ما بُنِيَته، وهو البِنَى والبُنْي، والبناء: المُنْبِيُّ والجمع أُنْنة، والبُنَّة كَأَنَّها الهنَّة التي بُنِيَ عليها⁽¹⁾.

ويعرّف ابن فارس البنية في معجم مقاييس اللغة: « بنى: الباء والنون والياء أصلٌ واحد، وهو بناء الشيء بضمٍّ بعضه إلى بعضٍ »⁽²⁾.

وورد في مختار الصحاح أن: « فُلَانٌ صَحِيحُ البِنْيَةِ أي الفِطْرَةِ »⁽³⁾. إنَّ البنية شيء يتعدى ظاهر الشيء إلى ماهيته، فالملاحم الخارجية وحدها غير كافية للدلالة على صحة الفطرة أو اعتلالها، بل لأبد من النفاذ إلى ما وراء هذه الملاحم.

وقد ورد أصل الكلمة في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة: « أربع عشرة مرة منها على صورة الفعل الماضي والأمر، وثلاث عشرة مرة على صورة الاسم مثل: بناء وبنيان »⁽⁴⁾.

وتحدث التّحاة عن البناء، وذلك في سياق حديثهم عن الإعراب: « وجعلوا البناء يعنى الثبات ولزوم آخر كلمة حالة واحدة لفظاً وتقديراً، فيما يعنى الإعراب تغير آخر كلمة بتغير العامل »⁽⁵⁾. فالبنية كلمة تعنى البناء أو المعمار أو الطريقة التي يشيّد بها مبنى ما.

أمّا في النقد الحديث فقد انتشر مفهوم البنية، وتمخّض عنه كما هائلاً من التعاريف، منها أن البنية هي: « البناء أو المعمار يتكون من عناصر مختلفة ترتبط فيما بينها بعلاقات وظيفية أو جمالية »⁽⁶⁾. تحفظ هذه العلاقات الوظيفية والجمالية للنصّ تماسكه، وتناسقه. ونقصد بالبنية أيضاً: « بيان مدى التوافق بين

(1) لسان العرب لابن منظور، 14 / 94.

(2) مقاييس اللغة لابن فارس، 1 / 302.

(3) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص 27.

(4) بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني) لعلي مرأشدة، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1،

2006، ص 7.

(5) المرجع نفسه، ص 7.

(6) نظام الرحلة ودلالاتها " السندباد البحري- عينة " لعليمة قادري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006، ص 192.

أجزاء النص فيما بينها، وبيان مدى الانسجام بين النص وهدفه»⁽¹⁾. إذا البنية نظام يفسر ائتلاف العناصر المكوّنة للعمل الأدبي.

تصنف الرحلة ضمن الكتابة الأدبية النثرية، والنثر لون من ألوان التعبير الأدبي يلتزم فيه الكاتب بالتعبير عن قضايا معينة دون التقيّد بالوزن والقافية.

يقوم هذا الفن الأدبي غالباً على أسس معينة تميّزه عن باقي الفنون النثرية الأخرى، وأهم عنصر من أدب الرحلات هو البنية. كل خطاب كيفما كان نوعه له شكل، وطريقة معينة في البناء: « والبناء له صلة وطيدة بزمينة الخطاب. إن خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يتدبّر بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه. وكلما انتقل الرحالة في مكان واكب الخطاب هذه الانتقالات والتحوّلات، وصولاً إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع على نقطة البداية»⁽²⁾.

أعطت هذه البنية للرحلات شكلاً خاصاً ومغايراً، ولكنّها اختلفت من رحلة إلى أخرى حسب المضمون، والهدف الرئيس الذي قصده الرحالة من وراء خروجه من وطنه. فتعددت أنواع الرحلات، وتعددت تبعاً لذلك بنياتها، ولاشك في أنّ هذه البنيات زادت من رونق الرحلات، فأضفت عليها طابعاً خاصاً جعلت القراء يتهافون على قراءتها، والاستمتاع بحكاياتها المتنوّعة، وقصصها الطريفة. فهناك الرحلات الحجازية، وغرضها الرئيس الشوق إلى زيارة البقاع المقدّسة، وتأدية مناسك الحجّ؛ وهو شوق يؤججه بُعد المغرب الإسلامي عن المشرق، وهاجس ينتاب كلّ سكان هذه المنطقة، ويشغل بالهم، بل إنّ رحلة يتمناها كلّ مسلم، ويسعى إلى تحقيقها.

اتسم هذا النوع من الرحلات ببنية خاصة تمثلت في إعلان صاحب الرحلة في مقدمته عن وجهته حامداً لله سبحانه وتعالى الذي بلغه مراده، ويسرّ له أسباب الرحلة للخروج من أرضه إلى المشرق لأغراض دينية تعبّدية، وفي هذه الطريق رصد الرحالة كل شاردة وواردة تعترضه، فوصف المسالك المؤدية إليها، مسجلاً لحظة الوصول واللقاء، وعبر عن المشاعر، والفرحة التي انتابته عند بلوغه مرامه، والوقوف على هذه الأراضي الطيّبة المباركة، وبعد ذلك وصف الرحالة كل مناسك الحجّ التي أداها.

(1) الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع) لناصر عبد الرزاق المواني، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1995، ص68.

(2) السرد العربي مفاهيم وتجليات لسعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص207.

ولهذا النوع من الرحلات ثوابت معينة اشتركت فيها، وإن اختلفت الأزمنة التي كُتبت فيها، لأنّ هناك مجموعة من المبادئ، والقيم تمنحها صفة الانتماء إلى الرحلة الحجازية؛ وهي:

* هدفها الأساس الذهاب إلى الحجاز لأغراض دينية.

* يتخللها حديث عن مراحل السفر، ووصف الطريق، واستعراض المشاق والصعاب التي صادفها الرحالة.

* الحديث عن مناسك الحجّ، وشعائره التي شرعها الله سبحانه وتعالى للناس من إحرام وطواف، ووقوف بعرفات، وسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات.

* الإسهاب في وصف الحرمين الشّريّفين وصفاً دقيقاً.

* زيارة مواقع أخرى إضافة إلى الحجّ منها قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم، ومسجده الشّريف بالمدينة المنورة، وزيارة أضرحة الأنبياء، والأولياء الصالحين.

وقد يجمع الرحالة بين غرضين هما: المقصد الدّيني والغرض العلمي، وهذا النوع من الرحلات يطلق عليه اسم الرحلات الحجازية العلمية، وهي تلك التي تجمع بين الحجّ والعلم، فتكون بذلك قد جمعت بين بنيتين هما: بنية الرحلة الحجازية كما تقدم ذكرها من وقوف على المعالم المقدّسة، وأداء مناسك الحجّ، وبنية الرحلة العلمية، فارتداد آفاق العلم، ولقاء الشّيوخ السمة الأولى المميّزة للرحلة العلمية؛ فقد مثّل المشرق في نظر طلاب العلم المغاربة والأندلسيين قيمة علمية كبرى، ففيه كبار العلماء والمشايخ الذين تطلع هؤلاء الطلاب للقائهم، والجلوس معهم، والأخذ عنهم دراية ورواية.

لازم طلب العلم الحجّ، لأنّ الحاج المغربي يمرّ في أثناء طريقه إلى الحجّ بمعظم المراكز العلمية في ذلك العصر مثل تونس، والإسكندرية، والقاهرة وصولاً إلى المدينة المنورة، ومكّة المكرمة، وبعد الانتهاء من مناسك الحجّ يعرّج على بغداد، ودمشق، وبيت المقدس ليعود مرة أخرى إلى المدينة، ومكّة لأداء المناسك للمرة الثانية، هذه المراكز العلمية، والعواصم الثقافية والسياسية لا مندوحة لكل طالب علم أن يمرّ بها لمخالطة علمائها، والرّكون إليهم، والجلوس في حلقاتهم العلمية، والأخذ عنهم، والاستفادة منهم. ويمكن أن نمثّل لهذا النوع من الرحلات برحلة ابن رُشيد السبتي، ورحلة أبي القاسم التّجيني، ورحلة أبي البقاء البلوي، الذي صرح في بداية رحلته أنّ الغرض منها الجمع بين الحجّ والعلم؛ فاستهل ذلك قائلاً: « الحمد لله الذي فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً... هذا التقييد أطلّعه عَوْنُ من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية...إني خرجت قاصدا الحج

وطالبا العلم من بلدي قنورية»⁽¹⁾. هنا يأتي العلم في المرتبة الثانية بعد أداء فريضة الحج؛ فالحاج المغربي انتهز فرصة مروره بهذه الأماكن ووجوده بها لينهل من نبع علمها، ومن معين علمائها. وأخذ الإجازات والأسانيد من الشيوخ الكبار المشهورين، وهذا راجع لكون المشرق الإسلامي يمثل في نظر المغاربة والأندلسيين قيمة علمية كبرى لأنه مهد الحضارة، والثقافة العربية فضلا عن أنه مهبط الوحي، وموطن النبوة، والدعوة الإسلامية.

بعد أن استكمل ابن رُشيد السبتي، وأبو القاسم التُّجيبّي، والبلوي أخذهم عن مشيخة المنطقة، تآقت أنفسهم إلى الارتحال شرقا، لينهلوا من علمه ما تيسر لهم. وما أكد تلازم الحج والعلم في رحلاتهم هو تلك العناوين التي وسموها بها، فقد أسمى ابن رُشيد السبتي رحلته بـ "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكة وطيبة"⁽²⁾، هذا يدل على أنه قام برحلة طويلة قصد فيها مكة المكرمة، والمدينة المنورة، التقى فيها بجم غفير من المشايخ والعلماء والأدباء، وجمع منهم ما وضعه بين دفتي رحلته.

وكذلك وسم زميله أبو القاسم التُّجيبّي رحلته بـ "مستفاد الرحلة والاغتراب"⁽³⁾، حيث خرج من وطنه قاصداً الحجاز، وفي أثناء طريقه التقى بابن دقيق العيد الذي سأله عن وجهته، فأجابه بأن الوصول إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج هو أمله.

وكان التُّجيبّي حريصاً على لقاء الشيوخ والاستفادة منهم، وتؤكد رحلته خروجه بزاد لا بأس به من العلم، واستفادته كثيراً ممن لقيهم.

سعى ابن رُشيد والتُّجيبّي سعياً حثيثاً للوصول إلى السند الأعلى الصحيح في جمع الحديث النبوي الشريف، فوقفا على أمّهات تصانيف كتب الحديث.

أمّا رحلة أبي البقاء البلوي الموسومة بـ "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" فتعبر صراحة عن استفادته من علماء المشرق.

ويمكن القول إنّ بنية الرحلة الحجازية العلمية جمعت بين:

(1) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق لأبي البقاء خالد بن عيسى البلوي، تح: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث العربي، مطبعة فضالة، المغرب، (د، ت)، 141/1 - 142.

(2) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكة وطيبة لابن رُشيد السبتي، تح: الحبيب بن خوجة، الدار التونسية للنشر، 1982.

(3) مستفاد الرحلة والاغتراب لأبي القاسم التُّجيبّي، تح: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (د، ت).

* بنية الرحلة الحجازية التي تضمّنها حديث عن الرغبة في أداء مناسك الحجّ، ووصف لكلّ الشعائر الدّينية.

* الالتحاق بمجالس العلماء التي تعجّ بها مختلف المدن التي كانت على الطريق الحجازي. فالرحلة لأبداً منها في طلب العلم كما أشار إلى ذلك العلامة الكبير ابن خلدون في مقدمته الشهيرة. وما يلاحظ على الرّحلات الحجازية العلمية هو هيمنة الجانب العلمي عليها.

* قلة اعتناء أصحاب هذه الرّحلات بالمعالم والآثار العمرانية، بل جُلّ اهتمامهم انصب على ملاقة العلماء، وزيارتهم، والترجمة لهم، وما استفادوا منهم من العلوم المسموعة، مع الحرص على أخذ الإجازات والأسانيد منهم، فضلاً عن تبادلهم الكتب المهمة فيما بينهم.

إضافة إلى هذين النوعين من الرّحلات هناك صنف آخر يطلق عليه اسم الرّحلات الداخلية؛ والتي قد تكون رفقة أحد الأمراء إلى قطر من الأقطار كرحلة التيجاني⁽¹⁾ التي رافق فيها السلطان الحفصي أبا زكرياء بن أحمد اللحياني داخل إفريقية (البلاد التونسية وطرابلس). أخفى هذا السلطان أمر نيّته في الذهاب إلى الحجّ، فجعل سبب خروجه من تونس هو تخلص مدينة جربة من أيدي النصاري، واسترجاعها إلى حضرة الإسلام. ولما نال مراده أعلن ذهابه إلى الحرمين الشّريفيين. لكن الرّحالة عاد أدراجه إلى مدينة تونس.

وكذلك ذهب ابن الحاج النّميري صاحب رحلة " فيض العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة من قسنطينة إلى الزاب " ⁽²⁾ إلى قسنطينة والزاب رفقة سلطان المغرب أبي عنان المريني لإخماد نار الفتنة التي أثارها الأعراب هناك. فعرض الرّحالة إلى وصف موكب السلطان المريني، والجيش الذي كان يصحبه معه.

ورافق لسان الدين بن الخطيب سلطان غرناطة أبا الحجاج يوسف بن نصر في رحلة تفقّدية للجانب الشرقي لمملكة غرناطة، هذه الرّحلة تضمّنها كتاب " خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ". تعرضت هذه الرّحلات الثلاثة لوصف الموكب السلطاني وجنده، وما يحيط به من أبهة وعظمة، وما تحف به من رايات، مع الوقوف على أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

(1) رحلة التجاني لأبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

(2) فيض العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لابن الحاج النّميري، إعداد: محمد بن شقرون،

دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.

وللسان الدين بن الخطيب رحلة أخرى عنوانها " نفاضة الجراب في علالة الاغتراب " ⁽¹⁾؛ وهي رحلة قام بها في جنوب المغرب الأقصى حين ذهب إليه لاجئاً عندما نُفي. جاب فيها معظم أقطاره وصولاً إلى جبل هنتانة الذي وقف عنده مطولاً مسجلاً بذلك مشاهداته وارتساماته.

وهناك نوع آخر من الرحلات يمكن تسميته بالسيرة الذاتية، وأحسن مثال على ذلك رحلة ابن خلدون " التعريف بان خلدون ورحلته غرباً وشرقاً " هذه الرحلة ذُكِّلَ لها كتابه الشهير في التاريخ " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ذكر فيها نسبه وسيرته، وما اتصل به من أحداث سياسية واجتماعية وغيرها من الأحداث التاريخية التي جرت في زمنه. اختلف بهذا عن غيره من رحالة عصره من حيث مضمون رحلته، لأنَّ جلَّ اهتمامه تمحور حول السياسة ومناصبها. فغلب طموحه السياسي عليه، وسيطر على عقله ووجدانه، وهذا ما عكسته رحلته التي نادراً ما اعتنى فيها بطبيعة البلاد، وأحوال العباد، ووصف عادات السكان وتقاليدهم، بل اكتفى بالسعي وراء طموحه السياسي، ونيل مقام مرموق يليق به وبشخصيته الفذة الموسوعية، ومع هذا لم تخل رحلته من التعرّيج على التواحي الأدبية والثقافية مثله في ذلك مثل غيره من الرحالة.

انتقل ابن خلدون من تونس إلى المغرب فالأندلس، ولما أحس بغيرة الوشاة من حوله رحل إلى مصر، ومنها إلى الحجاز برسم الحج، ولكنّه في الواقع فرّ وهرب خشية من أن يلقي المصير الذي لقيّه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب.

أمّا الصنف الآخر من الرحلات، فهي الرحلات السياحية التي جمعت بين الحجّ وحبّ التّجوال والانسياح في البلاد كرحلة ابن بطّوطة، هذه الرحلة غنية عن التعريف لما جمع فيها صاحبها من فوائد جلية.

والنوع الذي بقي من هذه الرحلات: هو الرحلات الزيارية ذات الطابع الصّوفي. انصب الاهتمام فيها بشيوخ الصوفية، وأصحاب الطرق الكبرى، وتتبّعهم ونيل البركة والدعاء منهم، وخير من مثل هذا الاتجاه هو ابن قنفذ القسنطيني في رحلته " أنس الفقير وعزُّ الحقير " التي ترجم فيها لمشايخ الصوفية بدءاً بالشيخ أبي مدين شعيب في القرن الخامس للهجرة إلى غاية القرن الثامن.

⁽¹⁾ نفاضة الجراب في علالة الغتراب لسان الدين بن الخطيب، تعليق: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، (د، ت).

هذه أنواع الرحلات المغربية والأندلسية في القرن الثامن للهجرة؛ وقد اتسمت بطابع خاص ميّزها عن غيرها. حيث لعبت شخصية الرّحال، وعمق ثقافته واتساعها في صيغ الرحلة بسمات خاصة عكست نفسيته وميولاته إلى جوانب بعينها دون أخرى.

كانت الناحية الأدبية حاضرة بقوة في كل هذه الرحلات، وإن اختلفت مضامينها، فاحتفلوا بذكر الأشعار في ثناياها، وهذه الأشعار إما أن تكون من تأليف صاحب الرحلة، أو لشاعر آخر استحضرها الرّحالة لأنّها توافق المقام الذي هو فيه. هذا فضلاً عن الرسائل الإخوانية التي تبادلوها مع إخوانهم وأصحابهم، سجلوا فيها عبارات الودّ والشوق إلى الأهل والأحباب.

أعطت هذه الأشعار والرسائل لأدب الرحلات قيمة أدبية فنية مميّزة، أضفت عليها مسحة جمالية، وذلك من خلال اعتمادها على أسلوب لا يخلو من الصنعة والبديع والزخارف اللفظية. ممّا جعل قراءتها ممتعة، وشائقة تُحبّبُ القراء فيها، وفي متابعة أحداثها وتفصيلها دون كلل أو ملل، لأنّها تُعرجُ بهم من موضوع إلى آخر، ومن أسلوب رفيع إلى أسلوب متوسط إلى آخر عادي بسيط.

وفي الأخير يمكن القول إنّ رحلات القرن الثامن للهجرة اشتركت في بنية نمطية واحدة وهي: المقدمة والسفر والخاتمة، ولكن هذه العناصر اختلفت من رحلة إلى أخرى حسب هدف الرّحالة، وغرضه، وطريقة تناوله للموضوع، والأحداث التي صادفته أو عرض لها كلّ حسب ذوقه، وشخصيته، وثقافته.

وسيلقى الضوء في هذا الفصل على دراسة بنية رحلتي ابن بطّوطة وزميله ابن قنفذ، حيث يمكن تقسيم البنية: « إلى متواليات كبرى تشتمل على عدّة وحدات، وكل وحدة كبرى تشتمل على وحدات صغرى، ووحدات أصغر ذلك أن توفر العمل الأدبي على شكل خاص به هو الذي يميزه عن غيره »⁽¹⁾ إلى ثلاث وحدات هي:

* المقدمة.

* السفر: { - مرحلة الذهاب.
- مرحلة العودة.

* الخاتمة.

⁽¹⁾ فن الرحلة في الأدب المغربي لزردومي إسماعيل، ص 42.

1- بنية رحلة " تُحفة النُّظار " لابن بطّوطة:

سيبدأ البحث بتحليل بنية رحلة " تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطّوطة، التي يمكن تقسيمها كآآي:

١ / المقدمة:

تُفتتح معظم الرّحلات، مقدّمة، وهي: « أول ما يقع في السمع »⁽¹⁾ من الكلام، وذلك وحب أن تكون عباراتها جذابة أنيقة تأسر المتلقي؛ حيث أوصى بعض الأدباء الكتاب بضرورة تحسين مقدّماتهم فقال: « أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان »⁽²⁾ على الكاتب أن يفتتح حديثه بما يروق السامع، وتستحسنه أذنه، ويستسيغه ليكون سبباً في مواصلة قراءته لما كتبه الكاتب، وليكون مطية لنجاحه، ولابد أن تكتب المقدمة بأسلوب رشيق، وألفاظ وعبارات منتقاة، ومعان طريفة تنم عن مقدرة الكاتب.

وما يلاحظ على رحلة ابن بطّوطة أنّها مبدوءة بمقدمتين الأولى لابن جزّي كاتب الرحلة، وصاحب الفضل في إخراجها على شكل كتاب، والثانية للراوي، وهو صاحب الرحلة.

- مقدمة ابن جزّي:

افتتح ابن جزّي الكلبي رحلة ابن بطّوطة بقوله: « قال الشيخ الفقيه الكاتب البارع الناظم أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه العالم المتفنن أبي القاسم محمد بن جُزّي الكلبي الغرناطي عفا الله عنه: الحمد لله الذي ذلّل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتاً وإعادة وإخراجاً... ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملّى ما شهدته في رحلته... وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم، المنقطع إلى باهم المشرف بخدمة خبابهم، محمد بن محمد بن جُزّي الكلبي أعانه الله على خدمتهم وأوزعه شكر نعمتهم، بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله، من ذلك في تصنيف يكون مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً »⁽³⁾.

(1) كِتَابُ الصَّنَاعَتَيْنِ الْكُتَابَةِ وَالشَّعْرِ لِأَبِي هَلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ (ت 395هـ)، مطبعة محمود بك، جادة أبي السعودة، ط1،

1320هـ، ص348.

(2) المصدر نفسه، ص344.

(3) رحلة ابن بطّوطة، 149/1-152.

رسم ابن جزى الكلبي في هذه المقدمة أهدافه، وحدد منهجه في الكتابة، وتتلخص في المحطات الآتية:

- التعريف بشخصه (ابن جُزِّي)، وبكتابته لهذه المقدمة، حيث قال: قال الشيخ الفقيه العالم.. أبو القاسم محمد بن جزى.

- افتتاح المقدمة بعبارة الحمدلة، وألفاظ دينية تنزه بقدره الله تعالى، وعظمته جلّ جلاله، ثم الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وحمله مشعل الرسالة، وهداية الخلق إلى الطريق القويم.

- الثناء على السلطان المريني أبي عنان الذي كانت له يد في تدوين هذه الرحلة، بل كانت له أياد بيضاء في النهوض بالثقافة المغربية بعامة، والرقي بها، من الكساد والخمول، إلى الازدهار.

- التعريف بصاحب الرحلة: « وكان ممن وفد على بابها السامي، وتعدّى أوशल البلاد إلى بحرها الطامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جَوَّاب الأَرْض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض، أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة »⁽¹⁾.

- تنفيذ إشارة أبي عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة، وذلك من خلال:

• إملاء ما شاهده في رحلته من أمصار.

• حكاية نواذر الأخبار.

• ذكر من لقيهم من الملوك والعلماء والأولياء الأبرار.

- صدور أمر السلطان بكتابة رحلة ابن بطوطة من قبل ابن جزى الكلبي.

- طرح منهجيته في الكتابة:

• تنقيح الكلام وتهذيبه.

• نقل معاني كلام الرحالة بألفاظ موفية للمقاصد التي ذهب إليها.

• تقييد جميع ما أورده من حكايات وأخبار.

• تقييد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط.

• شرح الأسماء الأعجمية التي تلبس على الناس بعجمتها.

- الخاتمة ورفع فيها الدعاء بالتوفيق فيما كتبه، وإن كانت هناك هفوات فهو يأمل من السلطان

المريني أن يتغاضى عنها، فمن مكارمهم وأخلاقهم الحميدة السماح والعفو عند المقدرة.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطوطة، 1/151.

– مقدمة ابن بطّوطة: حدّد فيها بعض المحطات التي وقف عندها، وجاءت كالآتي:

- الإعلان عن تاريخ خروجه من طنجة، وهو يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام 725هـ.
- بواعث السفر والهدف من الرحلة: حجّ بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

– خروجه منفرداً عن صحبة أو ركب، يكون في حياته، فأراجع الشرق والحين إلى الأندلس دفعته إلى الخروج، وتحمل المشاق والصعاب لنيل هذه الأمنية الكبرى.

- وصف مفارقة الأهل، والبعد عن الوالدين، عن سن ناهز اثنتين وعشرين سنة.
- اشترك ابن جزّي وابن بطّوطة في تأليف مقدمة "ثحفة التُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ابتدأها ابن جزّي بمقدمة طويلة شرح فيها خطته ومنهجه في التأليف، فكانت مقدمته تدل على أنّه أديب بارع صاحب صنعة وأفانين في القول. تلتها مقدمة شيخ الرحّالين ابن بطّوطة الذي حدّد فيها وجهة رحلته، وإعلانه عن تاريخ خروجه.

٢/ بنية السّفر:

« وهي الهيكل الأساس في الرحلة، بما تندفع الأحداث إلى الأمام، وعليها يدور كل ما يكتب »⁽¹⁾، ففي هذا السفر وصف الرّحالة سير الرّحلة، وما اعترضه في طريقه من مسالك وممالك. وما ميّز أدب الرّحلات هو امتلاك أصحابها لقوة ملاحظة عجيبة مكنتهم من التفوّق في فن الوصف، ورصد كل ما يحيط بهم سواء تعلق ذلك بالناحية الجغرافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، فتحدثوا عن أحوال السكان والمدن والملوك والحكّام، والعلماء والأولياء، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالبلاد والعباد.

فجاءت الرّحلات جامعة بين عدّة موضوعات نلخصها في النقاط الآتية:

- الناحية الاجتماعية: وذلك بالحديث عن أحوال النّاس، وعاداتهم وتقاليدهم، وكلّ ما يتعلق بهم.
- الناحية الاقتصادية: وفيها ذكر الرّحالة الأسواق، وما يوجد بها، وما يقننيه منها، والحديث عن الأسعار والغلاء والرخص والبيع والشراء.
- الناحية الدّينية: في هذا الجانب تحدث الرّحالة عن المشايخ والأولياء، ووصف المساجد والزوايا والأربطة.

⁽¹⁾ فن الرحلة في الأدب المغربي القديم لإسماعيل زردومي، ص 10.

• الناحية الثقافية: وذلك بالحديث عن الأدباء والعلماء، وحلقات التدريس.

وفيما يأتي توضيح بنية رحلة ابن بطّوطة ومنهجه؛ إذ قُسمت إلى ثلاث رحلات: الأولى وهي أطولهن زار فيها شمال إفريقيا والشرق، وفي الثانية رحل إلى الأندلس، وفي الثالثة اتجه إلى بلاد السودان.

* الرحلة الأولى:

أ- مرحلة الذهاب: انطلقت فيها من طنجة سنة 725هـ، وحاد إليها سنة 750هـ.

كان الانطلاق من طنجة، والوصول إلى مدينة تلمسان، وإقامته فيها ثلاثة أيام. ثم خروجه منها إلى مليانة، لكي يلتحق برسولي ملك إفريقية: القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عليّ بن إبراهيم النفزاوي، والشيخ أبي عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي، وفي أثناء طريقهم مات القاضي، فرجع ابنه ورفيقه أبو عبد الله القرشي الزبيدي إلى مليانة لدفنه.

أتم ابن بطّوطة سيره مع رفقة من تجار تونس، فدخل مدينة الجزائر، ورحل منها على متيجة إلى جبل الزّان، ثم إلى بجاية، حيث أصيب بالحمى، ولكنه أصرّ على مواصلة السير، ليدخل إلى قسنطينة، ثم إلى بونة، وإصابته بالحمى للمرة الثانية ورغم ذلك لم يتوقف عن الرحيل. فدخل مدينة تونس، التي كان أهلها في استقبال ابن القاضي إبراهيم النفزاوي والشيخ أبي عبد الله الزبيدي، أثار هذا الموقف استياء ابن بطّوطة، فحزن على نفسه لأنّه لم يجد من يستقبله إلاّ شيخ هناك أحس به فأقبل عليه بالإيناس. نزل في هذه المدينة بمدرسة الكتبيين حركت، هذه الحادثة ذاكرة ابن جزّي، فقطع كلام الرحالة لسرد حكاية جرت لابن الحاج البلفيقي في مدينة بلش تشبه إلى حدّ كبير ما جرى لابن بطّوطة. ليرجع الحديث للرحالة الذي ذكر سلطان تونس (أبو يحيى ابن السلطان أبي زكرياء يحيى)، وعلمائها. وشهوده عيد الفطر بها، واحتفال السكان به. وعندما تأهب الركب التونسي للرحيل إلى الحجاز عيّنوا ابن بطّوطة قاضياً عليهم. فسلّكوا طريق الساحل إلى سوسة، ومنها إلى صفاقس التي أثارت حافظة ابن جزّي فاستشهد بأربع أبيات شعرية لعليّ بن حبيب التّونخي⁽¹⁾ في مدحها، وفي مقابل ذلك استشهد

(1) وهي: سَقِيًّا لِأَرْضِ صَفَاقِسٍ ذَاتِ الْمَصَانِعِ وَالْمُصَلَّى
فَجَمَى الْقَصِيرَ إِلَى الْخَلِيجِ فَقَصَرَهَا السَّامِيُّ الْمَعْلَى
بَلَدٌ يَكَادُ يَقُولُ حِينَ تَرُورُهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا!
وَكَأَنَّهُ وَالْبَحْرُ يَحْسُرُ تَارَةً عَنْهُ وَيَمْلَأُ
صَبُّ يُرِيدُ زِيَارَةَ فَإِذَا رَأَى الرُّقْبَاءَ وَلَّى !!

- رحلة ابن بطّوطة " ثُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، 170/1.

بأربع أبيات أخرى للأديب أبي عبد الله محمد بن أبي تميم⁽¹⁾ في ذمها وهجائها.

واصل ابن بطوطة سيره، فدخل مدينة قابس، وأقام فيها عشرة أيام، وفيها ذكر ابن جزى بيتين من الشعر لأحد الشعراء⁽²⁾. ليخرج منها الركب الحجازي بما فيهم الرحالة إلى طرابلس التي أمضوا مدة خارجها، أقاموا خلالها بشعيرة عيد الأضحى، ولكنهم ظلوا حتى أمنت لهم الطريق، ثم دخلوا المدينة، وفيها تزوج ابن بطوطة بنت أحد أمناء تونس.

في أواخر شهر محرم عام 726هـ خرج منها ماراً بمسلاتة ومسرارة. وفي أثناء طريقه تشاجر مع صهره والد زوجته الصفاقسية، وانتهى الخلاف إلى طلاقه منها، ثم تزوج مرة أخرى بنت أحد طلبة فاس.

وصل في أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية. فذكر أبوابها ومرساها ومناراتها وعمود السواري بها؛ وقد وقف عنده ابن جزى برهة لسرد قصة أحد الرماة التي سمعها عن بعض أشياخه الرحالة. ثم روى الرحالة عن أميرها في عهد دخوله إليها (صلاح الدين)، وتحدث عن علمائها، فذكر حكاية سمّاها بـ (الفأل الحسن)؛ هذه الحكاية جرت لجد القاضي فخر الدين الريغي، وسرد مجموعة من الكرامات لبعض المشايخ المصريين.

رحل من الإسكندرية إلى مدينة النحرارية فالأبيار، وفيها التقى بقاضيه عز الدين المليحي الشافعي. وفي التاسع والعشرين من شعبان حضر يوم الركب (ارتقاب هلال رمضان). ثم اتجه إلى مدينة المحلة الكبيرة لزيارة قاضيه عز الدين بن خطيب، الأشمونين. وبعدها قصد بلاد البرلس ونسّرو لزيارة قبر الشيخ مرزوق، حيث نزل بزأوته. استطرد ابن جزى بذكر ثلاث أبيات شعرية للشاعر أبي

(1) وفي عكس ذلك: صَفَاقِسُ لَا صَفَا عَيْشُ لِسَاكِنِهَا وَلَا سَقَى أَرْضَهَا عَيْثُ إِذَا انْسَكَبَا
نَاهِيكَ مِنْ بَلَدَةٍ مَنْ حَلَّ سَاحَتَهَا عَانِي بِهَا الْعَادِيَيْنِ: الرُّومَ وَالْعَرَبَا!!
كَمْ ضَلَّ فِي الْبَرِّ مَسْلُوبًا بِضَاعَتَهُ وَبَاتَ فِي الْبَحْرِ يَشْكُو الْأَسْرَ وَالْعَطْبَا
قَدْ عَانِيَ الْبَحْرُ قُبْحًا فِي جَوَانِبِهَا فَكَلَّمَا هَمَّ أَنْ يَدْنُو لَهَا هَرَبًا!

- رحلة ابن بطوطة، 170/1.

(2) والبيتان هما: لَهْفِي عَلَى طِيبِ لَيْالٍ خَلَتْ بِجَانِبِ الْبَطْحَاءِ مِنْ قَابُسٍ
كَأَنَّ قَلْبِي عِنْدَ تَذْكَارِهَا جُذُوءُ نَارٍ بِيَدَيَّ قَابُسٍ!

- رحلة ابن بطوطة، 171/1.

الفتح بن وكيع⁽¹⁾ عندما تحدث ابن بطوطة عن بحيرة تَنيس. وذكره لحكاية الراجز⁽²⁾ الذي قال بيتين من الشعر لقاضي البرُّس الذي كان رجلاً صالحاً.

ليرجع الحديث لابن بطوطة، وسفره من أرض رملة إلى دمياط، وحديثه عن الشيخ جمال الدين السَّاوي صاحب طائفة القرندرية، وذكر كرامة له. ثم سافر إلى مدينة سَمْنُود، وركوبه النيل إلى مصر حيث وقف ابن جزى عند هذه المدينة مستشهداً ببعض الأبيات في وصفها:

* بيتان من الشعر لشاعر مجهول⁽³⁾.

* ست أبيات شعرية أخرى لناصر الدين بن ناهض⁽⁴⁾.

(1) وهذه الأبيات هي: فَمُ فَاسْقِنِي، وَالْخَلِيجُ مُضْطَرَبٌ وَالرَّيْحُ تُنْبِي ذَوَائِبَ الْقَصَبِ
كَأَنَّهَا وَالرَّيَّاحُ تَعْطِفُهَا صَبُّ قَنَاءٍ سُنْدُسِيَّةِ الْعَذَبِ
وَالْجَوْفُ فِي حُلَّةٍ مُمَسَّكَةٍ قَدْ طَرَزَتْهَا الْبُرُوقُ بِالذَّهَبِ

- رحلة ابن بطوطة، 197/1.

- هو الحسن بن عليّ الضبي التنيسي، أبو محمد، المعروف بابن وكيع: شاعر مجيد. أصله من بغداد، ومولده ووفاته في تنيس بمصر. ينظر الأعلام لخير الدين الزركلي، 201/2.

(2) والبيتان هما: لَوْلَا رَجَالٌ لَهُمْ سَرْدٌ يَصُومُونَا وَآخَرُونَ لَهُمْ وَرْدٌ يَقُومُونَا
لَزُلْزِلَتْ أَرْضُكُمْ مِنْ تَحْتِكُمْ سَحَرًا لَا تَكُمُ قَوْمٌ سَوْءٌ لَا تُبَالُونَا

- رحلة ابن بطوطة، 197/1.

(3) والبيتان هما: لَعَمْرُكَ مَا بِمِصْرٍ بِمِصْرٍ وَإِنَّمَا هِيَ الْجَنَّةُ الدُّنْيَا لِمَنْ يَبْصُرُ
فَأَوْلَادُهَا الْوِلْدَانُ وَالْحُورُ عَيْنُهَا وَرَوَّضَتْهَا الْفِرْدَوْسُ، وَالنَّيْلُ كَوْنُ

- رحلة ابن بطوطة، 201/1.

(4) والأبيات هي: شَاطِئُ مِصْرٍ جَنَّةٌ مَا مِثْلُهَا مِنْ بَلَدٍ
لَأَسِيْمًا مَذْ زُخْرِفَتْ بِنَيْلِهَا الْمَطَرِدِ
وَلِلرَّيَّاحِ فَوْقَهُ سَوَابِعُ مِنْ زَرْدِ
مَسْرُودَةٌ مَا مَسَّهَا دَاوُدُهَا بِجَبَرْدِ
سَائِلَةٌ هَوَاؤُهَا يُرْعِدُ عَارِي الْجَسَدِ
وَالْفُلُكُ كَالْأَفْلَاقِ بَيْنَ حَادِرٍ وَمُصْعِدِ

- رحلة ابن بطوطة، 201/1.

- هو ناصر بن ناهض بن أحمد بن محمد بن نصر، أبو الفتوح الحصري اللخمي، جمال الدين: شاعر مصري من أهل الفسطاط. ينظر الأعلام لخير الدين الزركلي، 350/7.

ثمّ واصل الرحالة حديثه عن مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا. وذكر قرافة مصر، ومزاراتها، ونيلها، والأهرام. ليتحدث عن سلطانها أبي الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالح، وبعض أمرائها وقضاها، وعلماها وأعيانها. ثمّ سافر من مصر إلى الصعيد برسم الحجّ، فبات برباط تاج الدين بن حناء بدير الطين. ثمّ تابع مسيره، حيث مرّ بمعية القايد ومدينة بوش، ومنها إلى مدينة دلاص، ليسافر إلى مدينة البهنسة، فالتقى بقاضيا شرف الدين، والشيخ أبي بكر العجمي. ثمّ رحل إلى منية ابن خصيب، فمدينة منلوي، ومنها إلى منفلوط، وإيراده حكاية منير الملك الناصر.

ثمّ دخل مدينة أسيوط، واستضافته في زاوية الشيخ الصالح شهاب الدين بن الصباغ. ليخرج منها إلى مدينة إخميم فمدينة "هو"، ونزوله بمدرسة تقي الدين بن السراج. هنا أورد كرامة للشيخ أبي محمد عبد الله الحسني. ثمّ سافر إلى مدينة قنا، ومنها إلى مدينة قوص التي ذكر بعض علمائها. ليسافر إلى مدينة الأقصر، فأرمنت، فأدفو، فحميثرا حيث قبر الولي الصالح أبي الحسن الشاذلي. وبعد مسيرة تقدر بخمس عشرة يوما وصل إلى مدينة عيذاب ليرحل منها إلى قوص ليغادرها قاصدا بلاد الشام، وذلك في منتصف شعبان سنة 726هـ. فكانت أولى محطاته في هذه الوجهة مدينة بلبّيس فالصالحية فالرمال، ليدخل إلى غزة، ثمّ إلى مدينة الخليل فالقدس التي زار فيها تربة يونس عليه السلام، حيث وصف مسجده وقبة الصخرة، وذكر بعض مشاهده وفضلائه. ولما وصل إلى بيت لحم زار موضع ميلاد عيسى عليه السلام، ثمّ رحل إلى عسقلان فالرملة، وخروجه منها إلى مدينة نابلس فمرّ بالغور وعكة وصور ليسافر منها إلى صيدا فطبرية فيبيروت. وفي أثناء مقامه فيها ذكر حكاية لرجل صالح يدعى أبا يعقوب يوسف. ثمّ غادرها إلى مدينة طرابلس إحدى قواعد الشام، ومنها سافر إلى حصن الأكراد فمدينة حماة، التي ذكر فيها ابن جزري ست أبيات شعرية للأديب الرحال نور الدين أبي الحسن عليّ بن موسى ابن سعيد العنسي العمّاري⁽¹⁾ في وصف نهرها وبساتينها.

(1) والأبيات هي:

حَمَى اللهُ مِنْ شَطَطِ حَمَاةٍ مَنَاطِرًا	وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفِكَرَ وَالطَّرْفَا
تَغْنَى حَمَامٌ أَوْ تَمِيلُ خَمَائِلُ	وَتُرْهِى مَبَانٍ تَمْنَعُ الْوَاصِفَ الْوَصْفَا
يُلُومُونَنِي أَنْ أَعْصِيَ الصَّوْنَ وَالنَّهْيَا	بِهَا، وَأُطِيعَ الْكَأْسَ وَاللَّهْوَ وَالْقَصْفَا!
إِذَا كَانَ فِيهَا النَّهْرُ عَاصٍ، فَكَيْفَ لَا	أَحَاكِهَا عَصِيَانًا وَأَشْرِبُهَا صِرْفَا؟!
وَأَشْدُّ لَدَى تِلْكَ النَّوَاعِرِ شَدْوَهَا	وَأَغْلِبُهَا رَقْصًا وَأُشَبِّهُهَا غَرْفَا
تَيْسُنُ وَتُذِرِي دَمْعَهَا، فَكَأَنَّهَا	تَهِيمُ بَمَرَاهَا وَتَسْأَلُهَا الْعَطْفَا

* وبيتان من الشعر لبعض الشعراء⁽¹⁾ في نواعيرها.

* وبيتان آخران من الشعر لبعض الشعراء المتأخرين⁽²⁾ في وصفها أيضا.

ليرجع الحديث لابن بطوطة الذي سافر إلى المعرة، وهنا، أيضا، تدخل ابن جزى وذكر سبب تسميتها بالمعرة. ثم سافر الرحالة إلى مدينة سرمين فحلب، التي وقف عندها، ووصف قلعتها المسماة بالشهباء. وعن هذه المدينة استشهد ابن جزى، مجموعة من الأبيات الشعرية لعدة شعراء في وصفها منها:

* تسع أبيات شعرية للخالدي⁽³⁾ شاعر سيف الدولة في وصف القلعة.

* ثلاث أبيات شعرية لجمال الدين علي بن أبي منصور⁽⁴⁾.

= - وترجمة أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي في نفح الطيب، 262/2.

(1) والبيتان هما: وَنَاعُورَةٌ رَفَّتْ لِعِظْمٍ خَطِيبَتِي وَقَدْ عَايَنْتُ قَصْدِي مِنَ الْمَنْزِلِ الْقَاصِي
بَكَتْ رَحْمَةً لِي ثُمَّ بَاحَتْ بِشَجْوِهَا وَحَسْبُكَ أَنْ الْخُسْبَ تَبْكِي عَلَى الْعَاصِي

- رحلة ابن بطوطة، 269/1.

(2) والبيتان هما: يَا سَادَةَ سَكَنُوا حِمَاةَ وَحَقِّكُمْ مَا حُلْتُ عَنْ تَقْوَى وَعَنْ إِخْلَاصِي
وَالطَّرْفُ بَعْدَكُمْ إِذَا ذَكَرَ اللَّقَا يُجْرِي الْمَدَامِعَ طَائِعًا كَالْعَاصِي!

- رحلة ابن بطوطة، 271/1.

(3) وهي: وَخَرَفَاءُ قَدْ تَاهَتْ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِمَرْقَبِهَا الْعَالِي وَحَانِيهَا الصَّعْبِ
يَجْرُ عَلَيْهَا الْجَوْ حَيْبَ غَمَامَةٍ وَيُلْبِسُهَا عِقْدًا بِأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ
إِذَا مَا سَرَى بَرْقُ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ كَمَا لَاحَتْ الْعُذْرَاءُ مِنْ خَلَلِ السُّحْبِ
فَكَمْ مِنْ جُنُودٍ قَدْ أَمَاتَتْ بِغُصَّةٍ وَذِي سَطَوَاتٍ قَدْ أَبَانَتْ عَلَى عَقَبِ

وقوله أيضا:

وَقَلْعَةٍ عَانَقَ الْعُيُونُ سَافِلَهَا وَجَارَ مَنْطَقَةَ الْجُوزَاءِ غَالِيَهَا
لَا تَعْرِفُ الْقَطْرَ إِذْ كَانَ الْعَمَامُ لَهَا أَرْضًا تَوَطَّأَ قُطْرِيهِ مَوَاشِيَهَا
إِذَا الْعَمَامَةُ رَاحَتْ غَاضَ سَاكِنَهَا حَيَاضَهَا قَبْلَ أَنْ تُهْمِي عَوَالِيَهَا
يُعَدُّ مِنْ أَنْجُمِ الْأَفْلَاكِ مَرْقَبَهَا لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَجْرِي فِي مَجَارِيهَا
رَدَّتْ مَكَايِدَ أَقْوَامٍ مَكَايِدُهَا وَنَصَّرَتْ لِدَوَاهِيهِمْ دَوَاهِيَهَا

- رحلة ابن بطوطة، 274/1 - 275.

= - وترجمة الخالدي في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1970،

404/3.

(4) والأبيات هي: كَادَتْ لِبُؤْسِ سُمُومِهَا وَعُلُومِهَا تَسْتَوْفُ الْفَلَكَ الْمُحِيطَ الدَّائِرَا
وَرَدَتْ قَوَاطِئُهَا الْمَجَرَّةَ مَنَهَلَا وَرَعَتْ سَوَاقِبُهَا النُّجُومَ زَوَاهِرَا

=

* ثلاث أبيات شعرية لأبي عبادة البحراني⁽¹⁾ في وصف محاسنها.

* أربع أبيات شعرية لأبي بكر الصنوبري⁽²⁾.

* ثلاث أبيات شعرية لأبي العلاء المعري⁽³⁾.

* بيتان من الشعر لأبي الفتيان بن حيوس⁽⁴⁾.

* بيتان من الشعر لأبي الفتح كشاجم⁽⁵⁾.

= وَيَضِلُّ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْهَا خَائِفًا وَجَلًّا، فَمَا يُمَسِّي لَدَيْهَا حَاضِرًا!

- رحلة ابن بطوطة، 275/1.

(1) والأبيات هي: يَا بَرْقُ أَسْفِرْ عَنْ قُوقٍ فَطُرَّتْ حَلْبٌ، فَأَعْلَى الْقَصْرِ مِنْ بَطْيَاسٍ

عَنْ مَنبَتِ الْوَرْدِ الْمُعْصَفِرِ صِبْغُهُ فِي كُلِّ ضَاحِيَةٍ وَمَجْنَى الْآسِ!

أَرْضٌ إِذَا اسْتَوْحَشْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهَا حَشَدَتْ عَلَيَّ فَأَكْثَرْتُ إِنْيَاسِي

- رحلة ابن بطوطة، 277/1؛ وهي في ديوان البحراني، شرح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط3، 1977،

1135/2.

(2) وهي: سَقَى حَلْبُ الْمُرْنِ مَعْنَى حَلْبٍ فَكَمْ وَصَلَتْ طَرَبًا بِالطَّرَبِ

وَكَمْ مُسْتَطَابٍ مِنَ الْعَيْشِ لَدَى بِهَا إِذْ بِهَا الْعَيْشُ لَمْ يُسْتَطَبْ

إِذَا نَشَرَ الزَّهْرُ أَعْلَامَهُ بِهَا وَمَطَارَفُهُ وَالْعَذَبُ

غَدَا وَحَوَاشِيهِ مِنْ فَضَّةٍ تَرُوقُ وَأَوْسَاطُهُ مِنْ ذَهَبٍ

- رحلة ابن بطوطة، 278/1.

- وأبو بكر الصنوبري هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مَرَار الضبي الحلبي. شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض

والأزهار، وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة، تنقل بين حلب ودمشق. ينظر الأعلام لخير الدين الزركلي، 207/1.

(3) وهي: حَلْبٌ لِلْوَارِدِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهِيَ لِلْغَادِرِينَ نَارُ سَعِيرٍ

وَالْعَظِيمُ الْعَظِيمُ يَكْبُرُ فِي عَيْنٍ نَيْهِ مِنْهَا قَدْرُ الصَّغِيرِ الصَّغِيرِ

فَقُوقٌ فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ بَحْرٌ وَحَصَاةٌ مِنْهُ مَكَانٌ ثَبِيرٍ!

- رحلة ابن بطوطة، 278/1.

- وترجمة أبو العلاء المعري في وفيات الأعيان لابن خلكان، 113/1.

(4) والبيتان هما: يَا صَاحِبِي إِذَا أَعْيَاكُمَا سَقَمِي فَلَقِيَانِي نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ حَلْبٍ

مِنْ الْبِلَادِ الَّتِي كَانَ الصَّبَا سَكَنًا فِيهَا، وَكَانَ الْهَوَى الْعُذْرِي مِنْ أَرَبِي

- رحلة ابن بطوطة، 279/1.

- أبو الفتيان بن حيوس هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي، شاعر الشام في عصره. يلقب بالإمارة، وكان أبوه

من أمراء العرب. ينظر الأعلام لخير الدين الزركلي، 147/6.

(5) والبيتان هما: وَمَا أَمْتَعَتْ جَارَهَا بِلْدَةً كَمَا أَمْتَعَتْ حَلْبٌ جَارَهَا

* ست أبيات شعرية لأبي الحسن عليّ بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي ⁽¹⁾.
كما استشهد ابن بطّوطة، أيضاً، بثلاث عشرة بيتاً شعرياً للشاعر شهاب الدين أبي بكر محمد ابن
الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الأموي الفارقي ⁽²⁾ في مدح القاضي كمال
الدين بن الزمّلكاني. ليرجع الكلام لابن جزى الذي ذكر مقطوعة في التورية لهذا الشاعر المجيد مكوّنة

بَهَا قَدْ تَجَمَّعَ مَا تَشْتَهِي فَرُزَهَا فَطُوبَى لِمَنْ زَارَهَا

- رحلة ابن بطّوطة، 279/1.

- أبو الفتح كشاجم هو محمود بن الحسين ابن السندي بن شاهك، من أهل الرملة بفلسطين، شاعر متفنن، وأديب من كتاب
الإنشاء. ينظر ترجمته في الأعلام لخیر الدين الزركلي، 167/7.

⁽¹⁾ والأبيات هي:
حَادِي الْعَيْسِ، كَمْ تُنِيخُ الْمَطَايَا سَقُ بَرْوَحِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي سِيَاقِ
حَلَبُ إِنَّهَا مَقَرُّ غَرَامِي وَمَرَامِي وَقِبْلَةُ الْأَشْوَاقِ!
لَا خَلَا جَوْشَنُ وَبَطْنُاسُ وَالْعَبْدُ مِنْ كُلِّ وَابِلٍ غَيْدَاقِ
كَمْ بِهَا مَرَّتْ لَطَرْفٌ وَقَلْبٌ فِيهِ سَقَى الْمُنَى بِكَأْسِ دِهَاقِ
وَتَغْنَى طُيُورُهُ لِإِرْتِيَاحِ وَتَنْتَنِي غُصُونُهُ لِلْعِنَاقِ
وَعُلُوُّ الشَّهْبَاءِ حَيْثُ اسْتَدَارَتْ أَنْجُمُ الْأَفْقِ حَوْلَهَا كَالنَّطَاقِ

- رحلة ابن بطّوطة، 279/1.

- ترجمة أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد العنسي في نفح الطيب، 262/2.

⁽²⁾ وهي:
أَسِفْتُ لِفَقْدِكَ جَلَّيْكَ الْفَيْحَاءُ وَتَبَاشَّرْتُ لِقُدُومِكَ الشَّهْبَاءُ
وَعَلَا دِمَشْقُ وَقَدْ رَحَلَتْ كَابَةٌ وَعَلَا رَبُّهَا حَلَبٌ سَاءَ وَسَاءُ
قَدْ أَشْرَفَتْ دَارُ سَكَنَتِ فَنَاءَهَا حَتَّى غَدَتْ وَلَبُورَهَا لَأَلَاءُ
يَاسَائِرًا يُبْغِي الْمَكَارِمَ وَالْعُلَى مِمَّنْ يُبْخَلُّ عِنْدَهُ الْكُرَمَاءُ
هَذَا كَمَالُ الدِّينِ لَذَّ بِجَنَابِهِ تَنَعَمْ، فَتَمَّ الْفَضْلُ وَالنَّعْمَاءُ
قَاضِي الْقَضَاةِ أَجَلَ مِنْ أَيَّامِهِ تَغْنَى بِهَا الْإِتْنَامُ وَالْفَقَرَاءُ
قَاضٍ زَكَا أَصْلًا وَفَرَعًا فَاعْتَلَى شَرُفَتْ بِهِ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ!
مَنْ إِلَّاهُ عَلَى بَنِي حَلَبٍ بِهِ اللَّهُ وَضَعُ الْفَضْلِ حَيْثُ يَشَاءُ
كَشَفَ الْمَعْنَى فَهَمُّهُ وَبَيَّانُهُ فَكَأَنَّمَا ذَاكَ الذِّكَاءُ ذُكَاءُ
يَا حَاكِمَ الْحُكْمِ قَدْرُكَ سَابِقُ عَنِ أَنْ تُسَرَّكَ رَبِّيَّةُ شَمَاءُ
إِنَّ الْمَنَاصِبَ دُونَ هَمَّتِكَ التِّي فِي الْفَضْلِ دُونَ مَحَلِّهَا الْجُورَاءُ
لَكَ فِي الْعُلُومِ فَضَائِلُ مَشْهُورَةٌ كَالصُّبْحِ شَقَّ لَهُ الظَّلَامُ ضِيَاءُ
وَمَنَاقِبُ شَهِدَ الْعَدُوُّ بِفَضْلِهَا وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ!

- رحلة ابن بطّوطة، 281/1.

- ترجمة الخطيب ابن نباتة في وفيات الأعيان لابن خلكان، 156/3.

من بيتين (1).

ثم عاد الحديث مرة أخرى لابن بطوطة، فأتم وصفه لمدينة حلب، حيث ذكر قضاها. ليركها إلى أنطاكية، ثم إلى حصن بُغراس فمدينة صهيون. ليدكر حكاية الملك الناصر، وقاتل أخيه. سافر، بعدها، إلى جبلة، وذكر مجموعة من الحكايات؛ منها: حكاية أدهم الزاهد، وحكاية المهدي الكاذب، وحكاية ابن المريد المحام ثم واصل طريقه إل جبل لبنان، وهنا أورد حكاية الصالحين اللبنانيين وحمار الوحش. ثم رحل إلى بعلبك، فدمشق، حيث أشار إلى ما قاله الرحالة السابقون فيها كابن جبير، وشمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي الآشي. ليظهر تدخل ابن جزري مجدداً في مخطط سير الرحلة، وذلك بأن وظّف مجموعة من الأبيات الشعرية في وصف دمشق ومدحها:

* ثلاث أبيات شعرية لأحد الشعراء (2).

* ثلاث أبيات شعرية لشرف الدين بن عنين (3)، كثيراً ما ردها والد ابن جزري.

* خمس أبيات شعرية لعرقلة الدمشقي الكلبي (4).

(1) والبيتان هما:
عَلِقْتُهَا غَيْدَاءَ حَالِيَةِ الْعُلَى تَجْنِي عَلَى عَقْلِ الْمَحَبِّ وَقَلْبِهِ
بَخِلْتُ بُلُولِي نَعْرِهَا عَنْ لَائِمٍ فَعَدْتُ مَطَوِّفَةً بِمَا بَخِلْتُ بِهِ!

- رحلة ابن بطوطة، 282/1.

(2) وهي:
إِنْ تَكُنْ جَنَّةَ الْخُلُودِ بِأَرْضٍ فِدِمَشْقُ، وَلَا تَكُنْ سِوَاهَا!
أَوْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ عَلَيْهَا قَدْ أَمَدَّتْ هَوَاءَهَا وَهَوَاهَا
بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَاعْتَنِمَهَا عَشِيَّةً وَضَحَاهَا!

- رحلة ابن بطوطة، 299/1.

(3) والأبيات هي:
دِمَشْقُ بِي شَوْقٍ إِلَيْهَا مُبَرِّحٌ وَإِنْ لَجَّ وَاشَّ أَوْ أَلَحَّ عَذُولُ
بِلَادٍ بِهَا الْحَصْبَاءُ دُرٌّ وَتُرْبُهَا عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شُمُولُ
تَسْلُسَلُ فِيهَا مَاؤُهَا وَهُوَ مُطْلَقٌ وَصَحَّ نَسِيمُ الرُّوضِ وَهُوَ عَلِيلُ

- رحلة ابن بطوطة، 300/1.

- شرف الدين بن عنين هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين، الكوفي الأصل الدمشقي المولد، كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به. ينظر وفيات الأعيان لابن خاكان، 14/5.

(4) وهي:
السَّامُ شَامَةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا، كَمَا إِنْسَانٌ مُقْلَتِيهَا الْعَضِيضَةَ جَلَّقُ
مَنْ آسَهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقُضِي وَمَنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمَ وَلَا تُحْرِقُ!

وقال فيها أيضاً:

- * سبع أبيات شعرية لأبي الوحش سُبُع خَلَف الأسدي ⁽¹⁾.
- * أربع أبيات شعرية تنسب لعبد الرحيم اليبساني ⁽²⁾، ومنهم من ينسبها لابن المنير.
- * ثلاث عشرة بيتاً شعرياً لأبي الحسن عليّ بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين ⁽³⁾.

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَاتٌ مُعَجَّلَةٌ لِلطَّالِبِينَ، بِهَا الْوَلَدَانُ وَالْحُورُ
مَا صَاحَ فِيهَا عَلَى أَوْتَارِهِ قَمَرٌ إِلَّا يُغْنِيهِ قَمَرِيٌّ وَشُحْرُورُ
يَا حَبْدًا! وَدُرُوعُ الْمَاءِ تَنْسُجُهَا أَنَامِلُ الرِّيحِ إِلَّا أَنَّهَا زُورُ

- رحلة ابن بطوطة، 301/1.

- حسان بن نمير بن عجل الكلبي، أبو الندى: شاعر من ندماء. كان من سكان دمشق، واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، فمدحه ونادمه. ينظر الأعلام لخير الدين الزركلي، 177/6.

⁽¹⁾ والأبيات هي:

سَقَى دِمَشْقَ اللَّهِ غَيْثًا مُحْسِنًا مِنْ مُسْتَهْلٍ دِيمَةً دِهَاقِهَا
مَدِينَةٌ لَيْسَ يُضَاهِي حُسْنَهَا فِي سَائِرِ الدُّنْيَا وَلَا أَفَاقِهَا
تَوَدَّ زُورَاءُ الْعِرَاقِ أَنَّهَا مِنْهَا وَلَا تَعَزَّى إِلَى عِرَاقِهَا!
فَأَرْضُهَا مِثْلُ السَّمَاءِ بَهْجَةً وَزَهْرُهَا كَالزَّهْرِ فِي إِشْرَاقِهَا
نَسِيمُ رَوْضِهَا مَتَى مَا قَدْ سَرَى افْتَكَّ أَخَا الْهُمُومِ مِنْ وَنَاقِهَا
قَدْ رَتَعَ الرَّيِّعُ فِي رُبُوعِهَا وَسَيَقَتُ الدُّنْيَا إِلَى أَسْوَاقِهَا
لَا تَسَامُ الْعُيُونُ وَالْأَنْوْفُ رُؤْيَتَهَا يَوْمًا وَلَا اسْتِشْقَاقِهَا!

- رحلة ابن بطوطة، 302/1.

⁽²⁾ وهي:

يَا بَرَقَ هَلْ لَكَ فِي إِحْتِمَالِ نَجِيَّةٍ عَذِبَتْ فَصَارَتْ مِثْلَ مَايِكَ سَلْسَلًا
بَاكِرٍ دِمَشْقَ بِمَشَقِّ أَقْلَامِ الْحَيَا زَهَرَ الرِّيَاضِ مُرْصَعًا وَمُكَلَّلًا
وَاجْرَزَ بِحَيْرُونَ ذُبُولَكَ وَاخْتَصِصْ مَعْنٍ تَأَزَّرَ بِالْعُلَى وَسَرَبَلًا
حَيْثُ الْحَيَا الرَّبِّيُّ مَحْلُولُ الْحَبَا وَالْوَابِلُ الرَّبِّيُّ مَفْرِيُّ الْكَلَا

- رحلة ابن بطوطة، 303/1.

- عبد الرحيم هذا معروف بلقبه (القاضي الفاضل) من أئمة الكتاب. ولد بفلسطين وانتقل إلى القاهرة. كان وزيراً للسلطان صلاح الدين. وفيات الأعيان لابن خلكان، 158/3.

⁽³⁾ والأبيات هي:

دِمَشْقُ مَنْزِلُنَا حَيْثُ النَّعِيمُ بَدَا مُكَمَّلًا، وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مُخْتَصَرُ
الْقُضْبُ رَاقِصَةٌ وَالطَّيْرُ صَادِحَةٌ وَالزَّهْرُ مُرْتَفِعُ وَالْمَاءُ مُنْحَدِرُ
وَقَدْ تَحَلَّتْ مِنَ اللَّذَاتِ أَوْجُهِهَا لَكِنَّهَا بِضِلَالِ الدُّوْحِ تَسْتَرُ
وَكُلُّ وَادٍ بِهِ مُوسَى يُفَجِّرُهُ وَكُلُّ رَوْضٍ عَلَى حَافَاتِهِ الْخَضِيرُ!

وقال أيضا:

حَيِّمٌ بِجَلْقَ بَيْنَ الْكَأْسِ وَالْوَتْرِ فِي جَنَّةٍ هِيَ مِلْءُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
وَمَتَّعَ الطَّرْفَ فِي مَرَأَى مَحَاسِنِهَا وَرَوْضَ الْفِكْرِ بَيْنَ الرُّوضِ وَالنَّهْرِ

رجوع الكلام لابن بطوطة، ووصفه لجامع دمشق المعروف بجامع بني أمية، وذكر الأئمة والمدرسين والمعلمين به. ثم تحدث عن قضاة دمشق، حيث استحضر حكاية الفقيه ابن تيمية.

كما ذكر مدارسها وأبوابها التي استشهد فيها ابن جزي بيتين من الشعر قالهما بعض المتأخرين⁽¹⁾ من أهل دمشق، ثم أتم الرحالة حديثه عن المشاهد والمزارات. دون أن ينسى وصف مسجد الأقدام، والطاعون الأعظم الذي أصاب أهلها ثم تحدث عن أرباض دمشق، وقاسيون ومشاهده المباركة، والرَبوة والقرى التي تواليها، والأوقاف بها، ومجيزه.

ليرحل عنها متجها نحو المدينة المنورة، حيث مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروضته الشريفة. فذكر تاريخ ابتداء بناء المسجد الكريم، وتحدث عن المنبر، والخطيب والإمام بهذا المسجد. ثم ذكر حكاية سراج الدين وحلمه، وخُدام المسجد الشريف والمؤذنين به، وبعض المجاورين بالمدينة الشريفة، وأميرها (كبيش بن منصور ابن جُماز)، وبعض المشاهد التي بخارجها.

وبعد وقوفه على المدينة المنورة مطولا اتجه إلى مكة المكرمة، حيث المسجد الحرام، والكعبة الشريفة، والميزاب، والحجر، والمطاف، وزمزم، فتحدث عن أبواب المسجد الحرام، وبعض المشاهد المباركة المحيطة به. ليذكر الصفا والمروة، والجبانة المباركة، وبعض المشاهد خارج مكة، والجبال المطيفة بها. لينتقل بالكلام عن أمير مكة (أسد الدين رُمَيْثَة وسيف الدين عُطيفة)، وأهل مكة وفضائلهم، وقاضها وخطبها وإمامها، وعلمائها وصلاحاتها، والمجاورين بها. ثم أورد مجموعة من الحكايات خرج بها

وَأَنْظُرُ إِلَى ذَهَبَاتِ الْأَصِيلِ بِهَا وَأَسْمَعُ إِلَى نَعَمَاتِ الطَّيْرِ فِي الشَّجَرِ
وَقُلْ لِمَنْ لَمْ يَلَمْ فِي لَدَاتِهِ بَشَرًا دَعْنِي فَإِنَّكَ عِنْدِي سَوْفَهُ الْبَشَرُ!

وقال فيها أيضا:

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّةٌ يَنْسَى بِهَا الْوَطْنَ الْغَرِيبُ
لِلَّهِ أَيَّامُ السُّبُوتِ بِهَا، وَمَنْظَرُهَا الْعَجِيبُ
أَنْظُرُ بِعَيْنِكَ هَلْ تَرَى إِلَّا مُحِبًّا أَوْ حَبِيبًا!!
فِي مَوْطِنٍ غَنَى الْحَمَامُ بِهِ عَلَى رَقَصِ الْقَضِيبِ
وَعَدَّتْ أَزَاهِرُ رَوْضِهِ تَخْتَالُ فِي فَرْحٍ وَطِيبِ

- رحلة ابن بطوطة، 304/1 - 305.

⁽¹⁾ والبيتان هما: دِمَشْقُ فِي أَوْصَافِهَا جَنَّةٌ خُلِدَ رَاضِيَةٌ

أَمَّا تَرَى أَبْوَابَهَا قَدْ جُعِلَتْ ثَمَانِيَةٌ

- رحلة ابن بطوطة، 319/1.

عن تسلسل سرده، ليعود مرة أخرى إلى مجريات رحلته، والحديث عن عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم، وعاداتهم، أيضاً، في الخطبة وصلاة الجمعة، وفي استهلال الشهور، وخاصة شهر رجب وعمرته. وعاداتهم في ليلة النصف من شعبان، وفي رمضان المبارك، وفي شهر شوال. ثم عرج بالحديث عن إحرام الكعبة وكسوتها، وشعائر الحج وأعماله، ثم وصف انفصاله عن مكة المكرمة. انتبه ابن جزي، هذه الفرصة، وأثنى على السلطان أبي سعيد، ودعا له ببقاء الملك، في عقبه إلى يوم الدين.

اتجه ابن بطوطة إلى مدينة النجف، فزار الروضة والقبور التي بها. وتحدث عن نقيب الأشراف، وأورد حكاية الشريف أبي غرة. ثم رحل إلى البصرة، فواسط، وهنا ذكر حكاية الرقص على النار. ليعود مرة أخرى إلى مدينة البصرة، فذكر مشاهداتها المباركة، ليورد ابن جزي بيتين من الشعر لبعض الشعراء⁽¹⁾ في وصف البصرة، ثم تركها الرحالة إلى مدينة عبّادان. هنا استشهد ابن جزي بثلاث أبيات شعرية نظمها بعض الشعراء⁽²⁾ فيها. ليرجع الكلام لابن بطوطة الذي ركب البحر إلى مدينة ماجول، ومنها دخل إلى تستر، ووصف نهرها المعروف بالأزرق، كما وصفه ابن جزي، أيضاً، بيتين من الشعر لأحد الشعراء⁽³⁾. نزل الرحالة في هذه المدينة بمدرسة الشيخ شرف الدين موسى بن الشيخ صدر الدين سليمان، وذكر حكاية الشيخ السخي.

تحدث، أيضاً، عن ملك إيذج وتستر، وعادة أهل إيذج في مأتم أمرائهم. ليرحل عنها إلى مدينة إصفهان، حيث ذكر كرامة للشيخ قطب الدين. ثم قصد مدينة شيراز، وأورد كرامة للشيخ جمال الدين بن مطهر، وكرامة أخرى للشيخ أبي عبد الله بن خفيف، وتحدث عن سلطاتها، وأبرز مشاهداتها.

(1) والبيتان هما: لله أترجُ غداً بيننا مُعبراً عن حالٍ ذي عبّرة

كما كسا الله ثياب الضنا أهل الهوى وساكني البصرة

- رحلة ابن بطوطة، 16/2.

(2) وهي: من مبلغ أندلساً أنني حللت عبّادان أفصى الثرى

أوحش ما أبصرت لكتني قصدت فيها ذكرها في الورى

الخبز فيها يتهادونه وشربة الماء بها تشتري!!

- رحلة ابن بطوطة، 17/2.

(3) والبيتان هما: أنظر لشاروان تستر واعتجب من جمعه ماء لري بلاد

كمليك قوم جمعت أمواله فعدا يفرقها على أجناده

- رحلة ابن بطوطة، 20/2.

ثم انتقل إلى مدينة الكوفة ببغداد، حيث استشهد ابن جزي ببعض الأبيات الشعرية في وصفها:

* أربع أبيات شعرية لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ⁽¹⁾.

* بيتان من الشعر لأبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي ⁽²⁾، وله أيضا أربع أبيات شعرية ⁽³⁾ أخرى في وصفها، وله أيضا بيتان من الشعر ⁽⁴⁾ مغاضبا لها.

* أربع أبيات شعرية لأبي الحسن علي بن النبيه ⁽⁵⁾.

* أربع أبيات شعرية لبعض نساء ⁽⁶⁾ بغداد في ذكرها.

⁽¹⁾ والأبيات هي: لَقَدْ أَقَامَ عَلَى بَغْدَادَ نَاعِيَهَا فَلْيَبْكِيهَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ بِأَكْيَهَا
كَانَتْ عَلَى مَائِهَا وَالْحَرْبُ مُوقَدَةً وَالتَّارُ تُطْفَأُ حُسْنًا فِي نَوَاحِيهَا
تُرْجَى لَهَا عَوْدَةٌ فِي الدَّهْرِ صَالِحَةً فَلَا أَنْ أَضْمَرَ مِنْهَا الْيَأْسَ رَاحِيَهَا
مِثْلُ الْعَجُوزِ الَّتِي وَلَّتْ شَبِيبَتَهَا وَبَانَ عَنْهَا حِمَالٌ كَانَ يُحْطِئُهَا!!

- رحلة ابن بطوطة، 59/2؛ وهي في ديوان أبي تمام، شرحه: شاهين عطية، المطبعة الأدبية، بيروت، 1889، ص 462.

⁽²⁾ والبيتان هما: طِيبُ الْهَوَاءِ يَبْغِدَادُ يُشَوِّقُنِي قُرْبًا إِلَيْهَا وَإِنْ عَاقَتْ مَقَادِيرُ
وَكَيْفَ أَرْحَلُ عَنْهَا الْيَوْمَ إِذْ جَمَعَتْ طِيبُ الْهَوَاءَيْنِ مَمْدُودٌ وَمَقْصُورُ

- رحلة ابن بطوطة، 60/2.

- القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر التغلي الفقيه المالكي. ينظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان،

219/3.

⁽³⁾ وهي: سَلَامٌ عَلَى بَغْدَادَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَحَقٌّ لَهَا مِنَ السَّلَامِ الْمُضَاعَفُ
فَوَا لِلَّهِ مَا فَارَقْتُهَا عَنْ قَلِي لَهَا وَإِنِّي بِشَطْطِي جَانِبُهَا لَعَارِفُ
وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرَحْبِهَا وَلَمْ تَكُنْ الْأَقْدَارُ فِيهَا تُسَاعِفُ
وَكَاثَتْ كَخِلٍ كُنْتُ أَهْوَى دُنُوهُ وَأَخْلَافُهُ تَنَائِي بِهِ وَتُخَالِفُ!

- رحلة ابن بطوطة، 60/2.

⁽⁴⁾ والبيتان هما: بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ وَاسِعَةٌ وَلِلصَّعَالِيكِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضَّبِيقِ
ظَلَلْتُ أُمَشِي مُضَاعًا فِي أَرْقِيَّتِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقٍ!!

- رحلة ابن بطوطة، 60/2.

⁽⁵⁾ والأبيات هي: أُنْسْتُ بِالْعِرَاقِ بَدْرًا مُنِيرًا فَطَوْتُ غَيْبَهَا، وَخَاصَتْ هَجِيرًا
وَاسْتَطَابَتْ بَثَّ رِيًّا نَسَائِمِ بَغْدَا دَفَكَادَتْ لَوْلَا الْبُرَى أَنْ تُطِيرَا
ذَكَرْتُ مِنْ مَسَارِحِ الْكَرْخِ رَوْضًا لَمْ يَزَلْ نَاضِرًا وَمَاءً نَمِيرًا
وَاحْتَنَنْتُ مِنْ رَبِيِّ الْحَوَّلِ نَوْرًا وَاجْتَلَيْتُ مِنْ مَطَالِعِ النَّجَاحِ نُورًا

- رحلة ابن بطوطة، 60/2.

⁽⁶⁾ والأبيات هي: أَهَّا عَلَى بَغْدَادِهَا وَعِرَاقِهَا وَطِبَائِهَا وَالسَّحْرِ فِي أَحْدَاقِهَا

=

ليرجع الحديث لابن بطوطة، فوصف الجانب الغربي والشرقي من بغداد، وذكر قبور الخلفاء وبعض العلماء والصالحين بها. ثم ذكر سلطان العراق وخراسان، وبعض المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد.

تابع الرحالة سيره إلى أن وصل مدينة الموصل التي رحل عنها إلى مدينة نصيبين. هذه المدينة وقف عندها ابن حزي، قليلاً، حيث استحضر أحياناً شعرية لأبي نواس⁽¹⁾، وبعض الشعراء⁽²⁾ في وصفها. ليرحل عنها ابن بطوطة إلى سنجار فماردين، التي استوقفت، أيضاً، ابن حزي فاستشهد بيتين من الشعر لصفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي⁽³⁾ في وصفها. ثم عاد السرد للرحالة، فذكر سلطان ماردين، ورحل إلى بغداد، واستعد للحج للمرة الثانية، ولكن في هذه الحجة أصيب بإسهال، فجاور بمكة، وحج للمرة الثالثة. ولما أتم شعائر الحج تولدت لديه مشاريع سفر جديدة، فانتقل بين المحيط الهندي والخليج الفارسي، فجاب جنوب الجزيرة، وركب البحر من جدة إلى جزيرة سواكن، التي ذكر سلطانها، وسلطان حلي. ثم رحل إلى مدينة زبيد، فتحدث عن علمائها وفقهائها. ليدخل إلى اليمن، فذكر سلطانها، وإقامته في ضيافته، كما تحدث عن صنعاء قاعدة بلاد اليمن، ثم غادرها إلى عدن فزِيلَع فمَقْدَشُو، التي ذكر سلطانها. ليركب البحر مرة أخرى إلى مدينة كلوا، فتحدث عن سلطانها، وأورد

= وَمَجَالِهَا عِنْدَ الْفُرَاتِ بِأَوْجِهِ تَبْدُو أَهْلُهَا عَلَى أَطَوَافِهَا
مُبْتَخِرَاتٍ فِي النِّعَمِ كَأَنَّمَا خُلِقَ الْهَوَى الْعُذْرَى مِنْ أَخْلَاقِهَا
نَفْسِي الْفِدَاءُ لَهَا، فَأَيَّ مَحَاسِنٍ فِي الدَّهْرِ تُشْرِقُ مِنْ سَنَا إِشْرَاقِهَا

- رحلة ابن بطوطة، 60/2.

(1) والبيت هو: طَابَتْ نَصِيبِينَ لِي يَوْمًا وَطُبْتُ لَهَا يَا لَيْتَ حَظِّي مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبِينَ!

- رحلة ابن بطوطة، 85/2.

(2) والبيتان هما: لَنَصِيبِينَ قَدْ عَجِبْتُ وَمَا فِي دَارَهَا دَاعٍ إِلَى الْعِلَاتِ
يُعْدَمُ الْوَرْدُ أَحْمَرًا فِي ذَرَاكَهَا لِسَقَامٍ حَتَّى مِنَ الْوَجَنَاتِ

- رحلة ابن بطوطة، 85/2.

(3) والبيتان هما: فَدَعُ رُبُوعَ الْحِلَّةِ الْفَحَاءِ وَأَزُورَ بِالْعِيسِ عَنِ الزُّورَاءِ
وَلَا تَقِفْ بِالْمَوْصِلِ الْحَدْبَاءِ إِنَّ شِهَابَ الْقَلْعَةِ الشَّهْبَاءِ
مُخْرِقُ شَيْطَانِ صُرُوفِ الدَّهْرِ

- رحلة ابن بطوطة، 86/2.

- صفي الدين: عبد العزيز بن سرايا بن علي الطائي الحلبي، نشأ في الحلة، مهر في فنون الشعر كلها، وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها. ينظر الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، 369/2.

حكاية من مكارمه. ثم عبر البحر إلى مدينة ظَفَار، التي قارن بين سكانها وسكان صنهاجة المغربية. وذكر أيضا أشجارها، شجر التنبول وجوز الهند (النارجيل)، وتحدث عن سلطانها، ورحيله إلى جبل لُمعان ولقائه بولي صالح، وسرده كرامة للحاج خضر. ثم سافر إلى مدينة قلهاة، فبلاد عُمان التي ذكر سلطانها، وسلطان هرمز.

غادر ابن بطوطة مدينة هرمز إلى حَرَوْن، حيث سرد حكاية فقراء مدينة لار، وسلطانها كما تحدث عن مغاصات الجوهر واللؤلؤ وبلاد البحرين، التي غادرها إلى قطيف فمدينة اليمامة. ليعلن عن سفره مع الأمير طُفَيْل بن غانم برسم الحج، وأدائه للمناسك سنة 732هـ. ثم اتجه صوب آسيا الصُغرى فركب البحر إلى عيذاب، ولكن ذلك لم يقض له، حيث ردّهم الريح إلى مرسى يعرف برأس دوائر، وبعد مسيرة تسعة أيام وصل إلى عيذاب، ثم إلى مصر فبلاد الشام، التي جاب أرجاءها، فانتقل من اللاذقية إلى مدينة العلايا، وذكر سلطانها، وسلطان أنطالية، وجماعة الفتيان الأخية. كما ذكر أيضا سلطان أكريدور، وسلطان قُل حصار. ليسافر إلى مدينة لاذق فميلاس، وذكر سلطانها. ثم رحل من قونية إلى اللارندة التي تحدث عن سلطانها، ليتابع طريقه من مدينة قيسارية إلى أماصية، ومن مدينة كُمش إلى أرزنجان إلى مدينة بركي. هنا سرد الرحالة حكاية الطبيب اليهودي، وحكاية أخرى. ثم وصل إلى مدينة تيرة التي تركها ذاهبا إلى يزْمير فمغنيسية، حيث تحدث عن سلطانها صاروخان. وتحدث أيضا عن سلطان مدينة برغمة، وسلطان بلي كسري، وسلطان بُرصى، ليرحل إلى يزنيك، ونزوله في كاوية بزاوية أحد الأخية. وعن مدينة يولي تحدث عن موقد النار الذي رآه بها أوان الشتاء (وبهذه المواقد البحاري واحدها بخيري؛ وهي منافس يصعد منها الدخان). استشهد ابن جزي ببيتين من الشعر لصفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي في قوله في التورية ⁽¹⁾ في ذكر البخيري.

واصل ابن بطوطة رحلته فدخل قَصْطَمُونِيَّة، وذكر علماءها وسلطانها. ثم رحل إلى مدينة صُنب، حيث حضر جنازة أم الأمير إبراهيم. ليدخل بعدها إلى القَفْجَق بلاد السلطان محمد أوزبك خان، الذي وقف عنده مطولا، ثم رحل مع زوجته بيلون إلى القسطنطينية، فالتقى بسلطانها، وزار كنيستها العظمى،

(1) والبيتان هما:
 إِنَّ الْبَخِيرِيَّ مُذْ فَارَقْتُمُوهُ غَدَا يُحْنِي الرَّمَادُ عَلَى كَانُونِهِ التَّرْبِ
 لَوْ شِئْتُمْ أَنَّهُ يُمْسِي أَبَا لَهَبٍ جَاءَتْ بِعَالِكُمْ حَمَالَةَ الْحَطَبِ

- رحلة ابن بطوطة، 204/2.

ثم قفل راجعا إلى حضرة السلطان أوزبك عبر نهر اتل، ليتم رحيله نحو مدينة السرا، فخوارزم، حيث ذكر أميرها، وحكاية الخاتون المتقشفة، وبطيخ خوارزم.

ومن بلدة وبكنة إلى بخارى، فتحدث عن التتر وتخريبهم لها. قطع ابن جزي حديث الرحالة لتذكره ما أخبره به شيخه أبو البركات ابن الحاج عن أعمال التتر وتخريباتهم.

زار في مدينة بخارى قبر الإمام أبي عبد الله البخاري، كما زار معسكر السلطان طرمشيرين، فسرده أخباره، ثم رحل إلى مدينة سمرقند، ومنها إلى ترمذ فبلخ، حيث سرد حكاية أميرة تبني مسجداً، ثم قارن بين مسجد بلخ وجامع رباط الفتح. وتحدث عن مدينة هرات وسلطانها حسين بن السلطان غياث الدين الغوري، وقارن بين السنة والشيعة.

ثم رحل من الجاه إلى مدينة سرخس، فنيسابور حيث ذكر كرامة للشيخ قطب الدين النيسابوري. ليرحل عنها إلى بسطام، فترل بزاوية الشيخ أبي زيد البسطامي. ثم سافر قاصداً بلاد الهند، فوصل إلى وادي السند (بنج أب) في محرم سنة 734هـ. وعن بلاد الهند تحدث عن البريد، وعن الكركدن، وفي مدينة جناني التقى بالشيخ شمس الدين بن الشيخ بهاء الدين زكرياء، ثم رحل إلى مدينة سيوستان، والتقى بخطيبها المعروف بالشيبياني، وبالشيخ محمد البغدادي، ومنها اتجه إلى بكار فأوجة، حيث ذكر مكرمة للملكها، والتقى بشيخها قطب الدين حيدر العلوي.

ثم وصف أشجار بلاد الهند وفواكهها، والحبوب التي يزرعونها، ليدخل إلى حضرة دلهي (قاعدة بلاد الهند)، فوصف سورها وأبوابها، وجامعها وبعض مزاراتها، وعلمائها وصلحاتها. ليعرض إلى فتحها ومن تداول عليها من الملوك، ثم تحدث عن السلطان محمد ابن تغلق، وتاريخ مملكته. ومدحه بقصيدة شعرية مكونة من سبع أبيات⁽¹⁾.

انقباض الرحالة عن الخدمة، وخروجه عن الدنيا، وملازمته للشيخ كمال الدين عبد الله الغاري حيث أرسل السلطان في طلبه، وأمره بالتوجه إلى الصين لإيصال الهدية لإمبراطورها. فقصد أولاً جزر مالديف، وسيلان والبنغال. تعرض في أثناء هذه الرحلة للأسر، ولحسن الحظ تخلص منه على يد ولي من أولياء الله. ثم سافر من كاليفور إلى برون، وسرد مجموعة من الحكايات. ليذكر مدينة هنور وسلطانها، وخروجه منها إلى بلاد المليبار، والحديث عن شجيرات الفلفل بها. ثم ذكر مراكب الصين، وفشل محاولة الذهاب إليها، والتوجه إلى الغزو مع سلطان هنور لفتح سندابور.

(1) رحلة ابن بطوطة، 236/3.

ثمّ وصل إلى جزائر ذبية المهل، وذكر أشجارها، وسكانها وعاداتهم، وتزوجه وولايته القضاء بها. ثمّ سافر منها إلى مدينة كُنْكَار التي ذكر سلطانها، وتحدثه عن الياقوت والقروء، ليرحل إلى جبل سرنديب، والكلام عن أثر قدم أيننا آدم عليه السلام، وإصابته بالحمى القاتلة، ومهاجمة الكفار له، حيث عاد إلى جزائر ذبية المهل للمرة الثانية، ثمّ إلى بنجالة، فذكر سلطانها وشيخها جلال الدين. ليسافر إلى جزيرة الجاوة فذكر سلطانها، وشر الأبن والكافور، والعرد المني وأشجار القرنفل. كما تحدث عن الفخار الصيني، وأحوال أهل الصين، والصناعة بها (مهارة أهل الصين في الصناعات والتصوير)، كما ذكر أيضا أميرها وسلطانها. ثمّ سافر إلى مدينة الزيتون، ومنها إلى الخنساء، فبلاد الخطا. ثمّ عاد إلى بلاد طوالسي، حيث تحدث عن الرُّخ، وأعراس ولد الملك الظاهر.

ب/ طريق العودة:

رجع ابن بطّوطة من الجاوة إلى قالقوطة، فأحبّ العودة إلى الهند، ولكنه عدّل عن ذلك. فدخل ظفار، وذكر سلطانها. ومن البصرة رحل إلى بغداد ثمّ اتجه إلى دمشق، فذكر سلطانها، وحكاية الوباء المحتاج، ثمّ سافر إلى القاهرة، التي غادرها إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ للمرة السادسة. بعد أدائه لشعائر الحجّ رحل إلى مصر، فتونس حيث نزل في قابس في ضيافة الأخوين مروان، وأبي العباس ابني مكيّ، فحضر المولد النبوي الشريف عندهما. كما ذكر سلطان تونس وعلماءها وفقهاءها. ثمّ غادرها إلى جزيرة سردانية، ومن مستغانم إلى تلمسان حيث زار قبر الوليّ الصالح أبي مدين شعيب. ثمّ سافر من تازي إلى فاس (750هـ)، وسماعه بخبر موت والدته، والمثول بين يدي السلطان أبي عنان، فذكر بعض مآثره ومناقبه. ليتدخل ابن جزى في الشناء عليه أيضا، ثمّ ذهب ابن بطّوطة إلى طنجة لزيارة قبر والدته.

* الرحلة الثانية:

سافر ابن بطّوطة من طنجة إلى سبتة، حيث أصيب بمرض لمدة ثلاثة أشهر. وعند برئه منه ركب البحر إلى بلاد الأندلس، فمرّ بجبل الفتح، حيث التقى بالخطيب أبي زكرياء يحيى بن السراج الرُندي، والقاضي عيسى البربري. وقف ابن جزى عند جبل الفتح فوصفه، وذكر أبياتاً شعرية للرصافي البلنسي في مدح عبد المؤمن بن عليّ، وفي وصف الجبل⁽¹⁾.

(1) ديوان الرّصافي البلنسي: أبو عبد الله محمد بن غالب (572هـ)، جمع: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط2،

ثم انتقل الرحالة من جبل الفتح إلى مدينة رُنْدَة، ومنها إلى مربلة فمالقة، حيث استشهد ابن جزى بيتين من الشعر لأبي محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ⁽¹⁾ في وصفها.
ومن مدينة بَلَش إلى غرناطة. هذه المدينة وصفها ابن جزى، واستشهد بقول الشيخ أبي بكر محمد بن أحمد بن شبرين السبتي ⁽²⁾ في مدحها والثناء عليها (ثلاث أبيات شعرية). ثم ذكر الرحالة سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف ، وفضلها، ليسافر منها إلى مالقة فحصن ذكران، فرنّة، ثم إلى قرية بني رياح.

* العودة:

ركب البحر في طريق العودة من جبل الفتح إلى سبتة، ومن أصيلا إلى مدينة سَلا فمراكش، حيث استشهد ابن جزى بثلاث أبيات شعرية للقاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي ⁽³⁾ في وصفها، ثم سافر صحبة الركاب العلي إلى مكناسة، ثم إلى فاس.

* الرحلة الثالثة:

ودع ابن بطوطة الملك أبا عنان، واتجه بالسفر إلى بلاد السودان، فمرّ بفاس وسجلماسة، ثم دخل تغازي فتأسر هُلا، حيث ذكر التكتشيف وملاعب الحيات. فلما وصل إلى مدينة إيواتن أقام فيها خمسين يوما، فذكر المسوفة الساكنين بها، وصحبة النساء للرجال دون التخرج من ذلك، ثم سافر منها إلى

⁽¹⁾ والبيتان هما:
مَالِقَةٌ حَيَّتْ يَاتِينَهَا فَالْفُلْكَ مِنْ أَجْلِكَ يَا تِينَهَا
نَهَى طَبِيبِي عَنْكَ فِي عِلَّةٍ مَا لَطِيبِي عَنْ حَيَاتِي نَهَا
وذيلها قاضي الجماعة أبو عبد الملك بقوله في قصد المجانسة:

وَحِمَصُ لَا تَنْسَ لَهَا تِينَهَا وَادْكُرْ مَعَ التِّينِ زِيَاتِينَهَا

- رحلة ابن بطوطة، 220/4.

- ينظر نفح الطيب للمقري، 1/ 151، حيث نسبهما لأبي الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي.

⁽²⁾ وهي:
رَعَى اللَّهُ مِنْ غَرْنَاطَةٍ مُتَبَوًّا يَسُرُّ حَرِيْنَا أَوْ يُجِيرُ طَرِيدَا

تَبَرَّمَ مِنْهَا صَاحِبِي عِنْدَمَا رَأَى مَسَارِحَهَا بِالثَّلْجِ عُدُنَ جَلِيدَا
هِيَ الثَّغْرُ صَانَ اللَّهُ مَنْ أَهْلَتْ بِهِ وَمَا خَيْرُ نَعْرِ لَا يَكُونُ بَرُودَا

- رحلة ابن بطوطة، 221/4.

⁽³⁾ والأبيات هي:
لِلَّهِ مَرَاكُشُ الْعَرَاءِ مِنْ بَلَدٍ، وَحَبْدَا أَهْلُهَا السَّادَاتُ مِنْ سَكَنِ

إِنْ حَلَّهَا نَارُحُ الْأَوْطَانِ مُعْتَرِبٌ أَسْلَوَهُ بِالْأُنْسِ عَنْ أَهْلٍ وَعَنْ وَطَنِ
بَيْنَ الْحَدِيثِ بِمَا أَوْ بِالْعِيَانِ لَهَا يَنْشَأُ التَّحَاسُدُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ

- رحلة ابن بطوطة، 230/4.

زَاغَرِي فَكَارَسَخُو، حيث رأى التمساح، ليرحل عنها إلى مالي التي ذكر سلطانها، وإحسانه إليه، وشهوده العيدين (الفطر والأضحى) بها. ليغادرها إلى تَنْبُكْتُو فمدينة كوكو، ثم سفره منها نحو تَكْدَا في البر، وإصابته بمرض في مدينة بَرْدَامَة. ليتحدث عن معدن النحاس في تكدا وسلطانها. وصول أمر السلطان أبي عنان لابن بطّوطة بالعودة، فقفّل راجعا من تكدا إلى هَكَار، حيث وصل إلى بلاد البرابر يرم عيد الفطر ومنها إلى تَراو، فساحاماسة، ودخراه حضرة السلطان المريني.

٣/ الخاتمة:

- خاتمة ابن بطّوطة: - التحاقه بحضرة السلطان أبي عنان وإقامته في كنفه.
- الإعلان عن نهاية الرحلة، وذلك في الثالث من ذي الحجة عام 756هـ.
- الحمدة.
- خاتمة ابن جزّي: « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطّوطة، أكرمه الله، ولا يخفى عن كل ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر، ومن قال: رحّال هذه الملة، لم يبعد »⁽¹⁾.
- تلخيص الرحلة.
- الإشادة بابن بطّوطة.
- اتخاذ ابن بطّوطة من حضرة فاس مقراً ومستوطناً.
- ثناؤه على السلطان أبي عنان، والدعاء له ببقاء الملك في عقبه إلى يوم الدين.
- الحمدة والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم.
- الفراغ من كتابة الرحلة في صفر 757هـ.

* دراسة البنية:

١ - المقدمة:

تكون المقدمة: « بمثابة مفتاح أو كشاف الرحلة، الذي يفتح ويدير مغالقتها للقارئ، ولكن دون إفساد مبكر لمتعته يكشف كل الأوراق مرة واحدة، ومن ثم تصبح الرحلة تحصيلاً لحاصل، وتفقد صلتها بالقارئ، وتأثيرها فيه. المقدمة مرشدة فحسب، ولذلك يستحسن أن تكون قصيرة، لأن القارئ يكون متشوقاً لمعرفة تفاصيل الرحلة »⁽²⁾.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطّوطة، 280/4.

⁽²⁾ الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع هجري لناصر عبد الرزاق الموافي، ص 71.

يأتي في المقدمة الحديث عن غرض الرحلة، وهدفها ورسم منهجها، وخط سيرها. ومقدمة "تحفة التُّظار" المنسوبة لابن جزى الكلبي ابتدأت بالتصريح باسم الكاتب أبي القاسم محمد بن جزى الكلبي، ثم الحمدة والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي مقدمة طويلة تحدث فيها عن قدرة الله سبحانه وتعالى، ونعمه التي لا تحصى ولا تعد، ثم استرسل بعد ذلك إلى الحديث عن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى صحبه أجمعين، هذا النبي الذي اصطفاه الله من بين الملايين، وجمعه نورا ورسولا للعالمين، حمل الرسالة، وبلغها وثبتتها في النفوس، ثم انتقل إلى الحديث عن السلطان المريني أبي عنان الذي كان له الفضل في ظهور هذا الكتاب، بأن وفر له كاتبه المشهور ابن جزى، ليتحدث عن مآثر المرينيين ومناقبهم، فهم الذين نشروا الأمن والاستقرار في البلاد بمحاربة العدوان، وعملوا على ازدهار الناحية الفكرية والدينية، والرقى بها من الخمول إلى الازدهار والانتشار، فلهم الفضل والسبق في ذلك، وبعدها تحدث عن الراوي صاحب الرحلة، والغية الطويلة، شيخ الرحالين ابن بطوطة.

جاء هذا الرحالة الأرض طولا وعرضا، واستقر به المطاف في الأخير في حضرة هذا السلطان المريني، الذي بمعيته نُفذت الإشارة الكريمة بأن يُملي ابن بطوطة ما شاهده في رحلته من أمصار، ومن لقيهم من الملوك والعلماء، ورواية نوادر الأخبار على كاتب ديوانه ابن جزى، الذي حدد منهجه في التأليف من خلال عدّة عناصر:

- تنقيح الكلام وتهذيبه.
 - نقل معاني كلام الرحالة بألفاظ موفية للمقاصد.
 - تقييد جميع ما أورده من حكايات وأخبار.
 - تقييد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والتنقيط.
 - شرح الأسماء الأعجمية التي تلبس على الناس بعجمتها.
- ثم ختم هذه المقدمة بالدعاء وطلب العصمة، والتوفيق له فيما سينجزه راجياً العفو والسماح إن أخطأ.

تلت هذه المقدمة الطويلة مقدمة وجيزة لابن بطوطة أبان فيها عن وجهته وتاريخ خروجه، ووصف مشاعره، وهو يفارق أهله ووطنه، فكان خروجه يوم الخميس من شهر رجب سنة 725هـ من مسقط رأسه طنجة، وهو ابن الثانية والعشرين سنة، وما أصعب لحظات الفراق وهو يودع والديه وأهله، فشبه فراقه لهم بفراق الطيور لو كورها. فتحمل بعده عنهم من أجل بلوغ مكة المكرمة، والمدينة

المنورة، وأداء مناسك الحجّ، والوقوف أمام الكعبة الشريفة، والمسجد الحرام، وزيارة قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومسجده الشريف. فهي أمنية جميع المغاربة والأندلسيين.

٢- السفر:

تقوم الرحلة على السفر، وهو: « الانتقال الفعلي من مكان إلى آخر، لذلك تبدأ الرحلات كلها بخبر الانفصال عن المكان الذي يتواجد فيه الفاعل، واكزن الحركة والاكزن، أو الحل والترحال هما الحركتان المميزتان للعمل السردي، فإنّ التمفصلات مبنية عليهما »⁽¹⁾.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، أولاهن وهي أطولهن، مع العلم أنّ القارئ عندما يقرأ مقدمته يستنتج أنّه سيقوم برحلة واحدة تجاه الحرمين الشريفين، والوقوف على المعالم المقدسة. لكن بمجرد وصوله إلى مبتغاه تولدت لديه مشاريع سفر جديدة، فأحبّ التّجوال واكتشاف أكثر المعمورة، فأخذ ابن بطوطة في دخول مدينة تلو الأخرى، إلى أن وصل إلى بلاد السند والهند والصين، إلّا أنّ الحجاز كان مركز رحلته، فكلما انفصل عنه تآقت نفسه إلى العودة إليه من جديد إلى درجة أنّه حجّ ست مرات، فكانت البقاع المقدسة بمثابة الزاد الروحي الذي استمد منه الرّحالة قوته وصبره على تحمل المشاق رغبة في معرفة المجهول، واكتشافه.

فكلما مرّ بمدينة أعطى وصفا دقيقا لها ولسكانها وعاداتهم وطبائعهم، فعل ذلك مع معظم المدن التي دخلها، والشيء اللافت للانتباه هو وقوفه مطولا عند الحرمين الشريفين، كيف لا وهي أقدس وأجلّ البقاع على وجه الأرض، فوصف مشاعره تجاهها، وحمد الله تعالى لأنّه بلغه مراده ومقصده، وشرفه بالوفادة عليها، والوقوف على أرضها الطاهرة، فتحدث عن مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى مسجده الشريف، وتاريخ بنائه وخُدامه والمؤذنين به، ثمّ تحدث عن المجاورين بها، وبعض مشاهداتها المباركة، ثمّ ذكر أميرها، ومنها خرج إلى مكة المكرمة واصفا الطريق الذي سلكه من المدينة إلى مكة شرفهما الله، فوقف مطولا عند المسجد الحرام وأبوابه، والكعبة الشريفة التي تتوسط المسجد الحرام، ثمّ استرسل الحديث عن الميزاب، والحجر الأسود، والمقام الكريم، والحجر، والمطاف، وزمزم، والصفاء والمروة، وإحرام الكعبة وكسوتها، والحديث عن الجبانة المباركة، والجبال المطيفة بمكة المكرمة، والمشاهد التي بها. ثمّ انتقل إلى الحديث عن أميري مكة، وعادات أهلها وفضائلهم، دون أن ينسى علماءها

⁽¹⁾ فن الرحلة في الأدب المغربي القديم لإسماعيل زردومي، ص 67.

وصلحاءها. وبعد انتهائه من وصف كل ذلك انتقل إلى الحديث عن مشاعر الحجّ المقدّسة بكلّ تفاصيلها ودقائقها.

خرج ابن بطّوطة من مكّة المكرّمة لما انتهى موسم الحجّ، وقلبه ينفطر أسفاً على فراقها ومغادرتها، لأنّه من دخلها لا يؤدّ تركها ولو للحظة. ولكن الحمد لله الذي حقق له أمنيته التي خرج من أجلها من وطنه، وفارق والديه وأهله، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر.

كان وقوف ابن بطّوطة على الحرمين الشريّفين طويلاً يليق بمقامهما السامي. وهذا لا يعني أنّه لم يقف على بقية البلدان بالوصف، بل على العكس وقف عندها، ونقل تفاصيل مهمة عن حياتهم، وطرائق عيشهم، وعاداتهم، وتقاليدهم. ولكنّه أولى عناية فائقة بالبقاع المقدّسة لما لها من مكانة عالية في النفوس عامة، وعلى وجه الأرض خاصة. لذلك جاء الحديث عنها أولاً مع التجاوز للطريق والبلدان التي سلكها الرّحالة، والتي أوصلته إليها نظراً لأهميتها ومكانتها المقدّسة المعظّمة.

خرج ابن بطّوطة من طنجة ماراً بتلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة إلى تونس، وخلال سيره أصابه مرض، ولكن ذلك لم يكن عائقاً أمام مواصلة الرّحلة بل زاد من عزمه على إتمام المسير، وعدم التخلف عن الرّكب، وإن قدر الله له الموت، فسيموت في الطريق، وهو ذاهب إلى الحجاز: «إن قضى الله عز وجل بالموت، فتكون وفاي بالطريق، وأنا قاصد أرض الحجاز»⁽¹⁾. دخل ابن بطّوطة إلى ليبيا، وفي أثناء سيره قرر الزواج بابنة أحد أمناء تونس، فعقد قرانه عليها في طرابلس، بيد أنّ هذا الزواج لم يدم طويلاً بسبب مشاجرة وقعت بينه وبين صهره أوجبت طلاق ابنته، لم يلبث ابن بطّوطة طويلاً حتى وجد فتاة أخرى ابنة حاج من فاس، فخطبها من أبيها وتزوجها.

دخلت القافلة التي كان الرّحالة في جملتها إلى مصر. هذه المدينة أذهلت ابن بطّوطة، ولاسيما القاهرة التي كانت كما وصفها أم المدن، فأعجب كثيراً بجمالها وبهائها، ولذلك أقام فيها قرابة شهر، ليخرج منها سالكاً طريقاً آخر أوصله إلى الشام وفلسطين. ثمّ مضى بعد ذلك للحجّ. وبعد قضائه لمناسكه اجتاحتها رغبة لمواصلة التّرحال، والوقوف على المجهول من أحوال البلاد، ومعرفة عادات وتقاليدهم الشعوب المختلفة، فكان لا يؤدّ عبور طريق سلكها من قبل لإشباع رغبة الاكتشاف في نفسه، ودخول أماكن لم يقف عليها من قبل، وزيارة أكبر قدر ممكن من البلدان، فدخل بلاد العراق وفارس، وجاب أقطارهما ليتمم طريقه إلى شرق آسيا، فوصل إلى الهند التي استقر فيها مدّة سنتين. حظّي فيها بمكانة

(1) رحلة ابن بطّوطة، 161/1.

مرموقة تليق بمقامه، حيث تولّى منصب القضاء في بلاط السلطان. هذه المدة التي قضاها في الهند أتاحت له الفرصة لزيارة عديد من نواحيها.

شجع حبه للسفر والتجوال ملك الهند على أن يبعثه سفيراً للصين، وفي طريقه إليها مرّ بجزائر ذبية المهل (جزر مالديف)، وتولّى فيها أيضاً منصب القضاء لمدة سنة ونصف. وبعد أن تجوّل الرحالة في أرجائها أثناء هذه الفترة أحسّ الرّجوع إلى الهند، ولكنّه تراجع عن ذلك خوفاً على نفسه بسبب ضياع الهدية التي بعثها ملك الهند معه إلى امبراطور الصين.

قرر ابن بطّوطة الرّجوع إلى المغرب، بعد هذه الجولة الطويلة، والغياب الذي دام سنوات، ولقاء الأهل والأحباب، فانطلق من قالقوت إلى البصرة فدمشق فالقاهرة، ثمّ ولّى وجهه شطر الحجاز لأداء فريضة الحجّ للمرة السادسة والأخيرة، ورجع، بعدها، إلى مصر فتونس، ومنها إلى تلمسان التي زار بها قبر الشّيخ أبي مدين شعيب، ليرحل عنها إلى فاس، والمشول بين يدي السلطان أبي عنان المريني، وبعدها دخل مسقط رأسه طنجة، ووقف على قبر والدته.

وقبل عودته إلى فاس واستقراره بها، هيأ نفسه لرحلة ثانية إلى الأندلس، فانطلق من طنجة إلى سبتة، ومنها ركب البحر إلى جبل الفتح، وعندما دخل الأندلس جاب أقطارها مثل رُنْدَة، ومالقة، وغرناطة، وقرية بني رياح ليعود ثانية إلى المغرب عن طريق سبتة فسلا فمراكش، ومنها إلى مكناسة ثمّ إلى فاس، ليستأذن السلطان المريني في السماح له بالقيام برحلة ثالثة أخيرة إلى بلاد السودان، التي زار فيها تغازي، وإيولاتن، ومالي، وتكدا وغيرها من المدن، ثمّ عكف راجعاً إلى فاس، وانضمّامه في حاشية السلطان أبي عنان المريني.

كانت هذه، إذًا، رحلة ابن بطّوطة الطويلة التي دامت تسعاً وعشرين سنة جواباً في الآفاق، فهي بمثابة السجل الذي نقل فيه كلّ ما شاهده وخبره عن أحوال الأمم والبلدان. وما رآه من مشاهدات مختلفة، ومرئيات متعددة، فجاءت رحلته جامعة شاملة لعدّة موضوعات ونواحٍ، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- 1/ الناحية الاجتماعية: تناولت عادات النّاس وأخلاقهم وطرق معيشتهم، ومأكلهم ومشربهم وملبسهم.
- 2/ الناحية الاقتصادية: البيع والشراء، والأسعار، المقارنة بين عملة البلدان من الرخص والغلاء.
- 3/ الناحية الفلاحية: الزراعة المشهورة في كل بلد (الحبوب، الفواكه، الخضار، الأشجار).

4/ الناحية الجغرافية: وصف البلاد ومناخها (التربة، الجو، الجبال، الأنهار، البحار) إضافة إلى المنشآت العمرانية.

5/ الناحية التاريخية: اشتملت رحلته على فوائد تاريخية كثيرة ترتبط بماضي الأمم وحاضرهم.

6/ الناحية السياسية: الاتصال بالحكام والأمراء والسلاطين، ووصف أحوالهم، وما يتعلق بسياساتهم، كما نجد حدثاً عن الحروب والفتن والغزوات.

7/ الناحية الفكرية: الحديث عن العلم والعلماء، ومجالسهم وحلقات التدريس، والإجازات.

8/ الناحية الدينية: تبرز من خلال الحديث عن المساجد، والزوايا، والأولياء الصالحين، والمشايع الأتقياء، والكرامات والمعجزات، فابن بطوطة لا يتوان أبداً عن زيارة الزوايا، ومقابلة الشيوخ، والتبرك بهم، والتماس دعواتهم وبركاتهم.

9/ الناحية الترفيهية: تجسدت في القصص والحكايات الطريفة.

جاءت بنية رحلة ابن بطوطة مذ خرج من طنجة إلى غاية عودته إلى فاس، جامعة لعدة نواح وفوائد، ولابد من الإشارة هنا إلى عنصر مهم يدخل في إطار بنية الرحلة، هذا العنصر تمثل في تدخلات ابن جزّي الكلي في تطور سير الرحلة بين الفينة والأخرى، ومعظم تدخلاته كانت أدبية، حيث أضفى عليها مسحة فنية زادت من رونق الرحلة، وجماها.

كان ابن جزّي يقطع كلام الشيخ ابن بطوطة كلما سمحت له الفرصة بذلك، فمثلاً عند وصف الرحالة لبلدة ما، ويرى الكاتب أنّه لم يُوفّها حقها زاد على ما قاله فيها بالاستعانة بكتب الرحلات السابقة، أو باستحضار ما حفظه من أشعار تليق بالمقام الذي هو فيه، وهو كثير في الرحلة، من ذلك إيراد لأربع أبيات شعرية لعلّي بن حبيب التُّنُخِي في مدح بلدة صفاقس، وأربع أبيات شعرية أخرى لأبي عبد الله محمد بن أبي تميم، ولكن في ذمها وهجائها.

وعند قطعه لكلام الرحالة ينبئ بذلك، فيقول (قال ابن جزّي)، ثمّ يشرع في الحديث عما بدا له، وحين ينهى كلامه يرجعنا إلى جو الرحلة بأن يقول (رجع).

هكذا اشترك في بناء رحلة " نُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " كلّ من ابن بطوطة وابن جزّي، وكلّ منهما أضفى عليها طابعه الخاص.

٣- الخاتمة:

1/ خاتمة ابن بطّوطة:

ختم ابن بطّوطة رحلته بانضمامه إلى حاشية السُّلطان المريني، وإقامته في كنفه بعد طول غياب وتجوّال، فأتى عليه، ودعا له بطول العمر، وشكر الله تعالى على ما لاقاه من هذا السُّلطان الذي أغناه عن التّرحال بما منّ عليه من فضل وإحسان.

وفي حضرته انتهت رحلته، فكان الفراغ من تقييدها في الثالث من ذي الحجة 756هـ. وفي الأخير حمد الله تعالى الذي بفضله وعونه أنجز هذه الرحلة الطويلة.

أمّا ابن جزى فقد أنهى كتابة الرحلة بخاتمة قال فيها إنّتهى من تلخيصها، وهذا ما جرّ جدالاً كبيراً بين النقاد، فقالوا بأنّ رحلة ابن بطّوطة التي بين أيدينا ما هي إلّا تلخيص للرحلة الأصلية: « إنّ ابن بطّوطة لم يُملّ حديث الرحلة على ابن جزى كما يظن، بل قام بتقييد رحلته بنفسه، ثم تولى ابن جزى اختصار هذا التقييد »⁽¹⁾. ربّما قصد ابن جزى بكلمة تلخيص الرحلة انتهاءه من صياغتها على أكمل وجه، بعد أن أتم تقييد ألفاظها من ابن بطّوطة. وكما ذكر سابقاً بأنّ كاتب الرحلة كان له دور كبير في بنائها فهو الذي رتبها، وجمع قصصها المتفرقة في وحدة متماسكة، وأضاف إليها بعض النصوص، والأشعار كلما استوجب ذلك، فضلاً عن إبانته في المقدمة على منهجه في التأليف، وذلك من خلال تنقيح الكلام وتهذيبه، ونقل معاني كلام الرحالة بألفاظ موفية للمقاصد، وضبط الكلمات بالشكل والنقط، ولأبّد هنا من العودة إلى الوراء، والإشارة إلى ضياع مذكرات ابن بطّوطة التي سجّل فيها مشاهداته، وما أملاه على ابن جزى كان من ذاكرته، ولتوخي الحذر وتجنب الخطأ دوّن الكاتب كلّ ما سمعه من الرحالة، حيث انتهى من هذا التقييد في الثالث من ذي الحجة سنة 756هـ. استغل ابن جزى ثقافته الواسعة، بحكم معرفته، واطلاعه على كثير من الكتب، ولاسيما أدب الرحلات في تنقيح الرحلة، وتهذيبها خشية الوقوع في الخطأ لأنّ ذاكرة الإنسان معرضة دوماً للزلل، والكتابة هي قيد النسيان، وسلاح ضده. استغرقت هذه العملية التي قام بها كاتب الرحلة سنة كاملة، حيث انتهى من تحريرها في شهر صفر عام 757هـ.

أشاد ابن جزى في خاتمة بابن بطّوطة، ووصفه برحال العصر بل رحال الملّة، ولا يوجد أحد جاب كلّ هذه المسافة مثله. اتخذ من فاس بعد طول جولاته مستقراً له بفضل السُّلطان أبي عنان المريني، الذي

(1) مشوار كتب الرحلة (قديماً وحديثاً) لسيد حامد النساج، مكتبة غريب، القاهرة، (د، ت)، ص36.

أكرمه وأحسن إليه. أولى هذا السلطان عناية فائقة للعلم والعلماء، وقدّرهم حقّ قدرهم؛ فأصبح عليه ابن جزى جملة من الخصال الحميدة والمكارم، فدعا له ببقاء الملك في عقبه إلى يوم الدين، ثمّ استرسل بعد ذلك إلى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلّم والحمدلة على ربّ العرش العظيم. وفي الأخير ذكر تاريخ الانتهاء من كتابة الرحلة الذي وافق شهر صفر سنة 757هـ.

2- بنية رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر" لابن قنفذ القسطنطيني:

بعد الانتهاء من دراسة بنية رحلة ابن بطّوطة وتحليلها، يُلقى الضوء على رحلة ابن قنفذ لدراستها، وتتّبع مراحل سيرها، والطريق الذي نهجه الرّحالة، وسار على خطاه.

١/ المقدمة : وتشتمل على:

- الحمدلة والصلاة والسلام على الرسول الكريم.
 - الدافع وراء كتابة الرحلة: « رغب إليّ من يتكرم عليّ من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين نفعا لله به وبأمثاله من المسلمين »⁽¹⁾.
 - تاريخ ومكان كتابة الرحلة (في شهر رمضان سنة 787هـ بمدينة قسنطينة).
 - هدف الرحلة: الترجمة للشيخ أبي مدين شعيب.
 - تسمية الرحلة بـ " أنس الفقير وعزّ الحقيّر ".
- قبل ولوج ابن قنفذ إلى ذكر سفره، قدم له بمقدمة تمهيدية تضع القارئ في صلب الموضوع، وتُعرّفه على أمور وجب عليه أن يعرفها حتى لا يلتبس عليه ذلك فيما بعد، فيقع في حيرة من أمره، ويخطر بباله عدّة تساؤلات، وإزالة ذلك، وتجنباً من الوقوع فيه عقد فصلين عرّف فيهما بـ: صفة الوليّ، وكرامات الصحابة والأولياء في الحياة وبعد الممات، والفرق بين مكاشفة المسلم والنصراني، ليختم مقدمة كتابه بوصية فيها بيتين من الشعر قالهما بعض الصالحين⁽²⁾.

(1) رحلة أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسطنطيني، ص30.

(2) والبيتان هما:
قَدْ أَحْدَثَ النَّاسُ أُمُورًا فَلَا تَعْمَلُ بِهَا إِنِّي أَمْرٌ نَاصِحُ
فَمَا جَمَاعُ الْخَيْرِ إِلَّا الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ

ولابن قنفذ في هذا المعنى:

الْفَقْرُ إِنْ فَكَّرْتَ فِيهِ رَأَيْتَهُ قَدْ دَارَ بَيْنَ قَوَاعِدِ مُتَالِيَةٍ
فَاطْلُبْهُ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي سُنَّةِ وَأَعْضُدْهُ بِالْإِجْمَاعِ وَأَثْرُكَ تَالِيَةٍ

- رحلة أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسطنطيني، ص44؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص146.

٢/ السفر (الرحلة):

بعد الانتهاء من الحديث عن صفة الأولياء وكراماتهم رجع ابن قنفذ للموضوع الذي كان بصددده، وهو الكلام عن شيخ المشايخ أبي مدين شعيب والتعريف به. تعتبر رحلة " أنس الفقير وعز الحقيير " من الرحلات الزيارية، قصد صاحبها زيارة الأولياء الصالحين، والمشايخ الأتقياء الأحياء منهم والأموات، وسيكشف البحث عن مراحل رحلته خطوة خطوة، وسيوضح ذلك في دراسة بنية السفر.

بدأ ابن قنفذ حديثه بمولد الشيخ أبي مدين شعيب وعائلته، وبداية طلبه للعلم، حيث سافر إلى فاس، فأخذ العلم على يد أكابر شيوخ الصوفية مثل أبي يعزى، وابن حرزهم الذي وقف الرحالة على قبره أثناء إقامته بالمغرب، فختتم حديثه عنه بيتين من الشعر⁽¹⁾ كثيراً ما ردهما هذا الشيخ. كانت أول زيارته له عام 759هـ. ثم ذكر كلام الشيخ أبي مدين ووصاياه (أربع وأربعون وصية)، ليتحدث عن شيوخه وأصحابه أمثال أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي، وأشار الرحالة إلى التقائه بأحد حفدة أبي يعزى، والتبرك به وذلك سنة 761هـ. فختتم ترجمته للشيخ أبي يعزى بثلاث أبيات شعرية⁽²⁾ استوجبها المقام التعبيري، ثم تحدث عن الشيخ أبي الحسن عليّ ابن غالب شيخ أبي مدين، فاستشهد ببيت شعري⁽³⁾، وترجم أيضاً للشيخ أبي عبد الله الدقاق، فأورد ثلاث أبيات شعرية⁽⁴⁾

(1) والبيتان هما: أَوْ لِلَّهِ كَمْ هَذِي الْمَعَاصِي إِلَى مَتَى وَأَرْيَاخُ أَنْقَالَ الصَّبَا عَنِّي رَاكِدَةً

إِلَى رَحَائِي مِنْكَ غُفْرَانُ زَلَّتِي وَإِصْلَاحُ خَالَاتِي الَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيير، ص 56.

(2) والأبيات هي: بِاللَّهِ إِنْ كُنْتَ قَدْ خَيَّمْتَ عِنْدَهُمْ بِالْمُنْحَى بَيْنَ أَنْجَادٍ وَأَجْوَادٍ

هَاتِ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَغْنَى وَسَاكِهٍ وَارْفَعْ لِسْنَتَهُ الْعُلَيَاءَ إِسْنَادِي وَأَرْوِنِي مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ أَغْدَبُهُ فَإِنَّهُ الرَّيُّ يَشْفِي غَلَّةَ الصَّادِي

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيير، ص 63.

(3) والبيت هو: مَا النَّاسُ إِلَّا الصَّالِحُونَ حَقِيقَةً وَسِوَاهُمْ مُتَطَفِّلُونَ فِي النَّاسِ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيير، ص 63؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 117.

(4) وهي: قُلْ لِلرُّؤُوسِ مِنْ دَوَى الْأَقْدَارِ الْفَقْرُ أَفْضَلُ شِيْمَةِ الْأَحْرَارِ

يَا مَنْ شَكَاَ لِلنَّاسِ فَعَلَهُ رَبُّهُ هَلَا شَكَاَتُ تَحْمُلُ الْأَوْزَارِ
إِنَّ الَّذِي أُلْبَسَتْ مِنْ حُلْلِ التَّقَى لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ عَنْهُ عَارِي

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيير، ص 64؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 156.

سمعها أحد الصحابة في نومه، وهي رسالة مبعوثة خصيصاً لأبي عبد الله الدقاق. ومن الشيوخ الذين ترجم لهم، وختم تعريفه لكل واحد منهم بأبيات شعرية: أبو زكرياء يحيى الزواوي⁽¹⁾، وأبو علي يعزى⁽²⁾، وأبو جعفر محمد الصنهاجي⁽³⁾، وأبو عبد الله التاودي⁽⁴⁾، وأبو الحسن علي الصنهاجي⁽⁵⁾، وأبو تميم الهزميري⁽⁶⁾، وأبو الصبر أيوب السبي⁽⁷⁾،

(1) والبيتان اللذان ختم بهما ترجمته هما:

طَوَّبِي لِمَنْ قَلْبُهُ بِاللَّهِ مُسْتَعْلٍ يَبْكِي النَّهَارَ وَطُولَ اللَّيْلِ يَبْتَهَلُ
خَوْفُ الْوَعِيدِ وَذِكْرُ النَّارِ أَحْرَقَهُ وَالْدَّمْعُ مِنْهُ عَلَى الْخَدَّيْنِ يَنْهَمِلُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيز لابن قنفذ القسنطيني، ص 66.

(2) ختم ترجمته بيت شعري:

مِنْ أَيْنَ أَرْضِيكَ إِلَّا أَنْ تُوفَّقَنِي هَيَّاهُ هَيَّاهُ مَا التَّوْفِيقُ مِنْ قَبْلِي

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيز، ص 67.

(3) أنهى حديثه عنه بهذا البيت:

مَا زِلْتُ مُذْ سَكَنُوا قَلْبِي أَصُونُ لَهُمْ لَحْظِي وَنُطْقِي وَسَمْعِي إِذْ بِهِمْ أُنْسِي

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيز، ص 67؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 118.

(4) الأبيات التي قالها عقب التعريف به هي:

رَجَالُ اللَّهِ سَادَاتُ كِرَامٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ إِنْ لَاحَ انْبِعَاطُ
فَهُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا أَمَانُ مِنَ الْأَمْرِ الْمَخُوفِ وَهُمْ غِيَاثُ
أَبَانُوا صُحْبَةَ الدُّنْيَا وَقَالُوا طَلَاقُكَ فِي شَرِيعَتِنَا ثَلَاثُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيز، ص 68؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 181.

(5) قدّم إليه بعض أصحابه تينا طرياً فأبى أن يأكله وقال:

صَبَرْتُ اللَّذَاتِ لَمَّا تَوَلَّيْتُ وَأَلَزَمْتُ نَفْسِي هَجَرَهَا فَاسْتَقَلَّتْ
وَكَانَتْ عَلَى الْإِيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الدَّلِّ ذَلَّتْ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيز، ص 68؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 254.

(6) ختم ترجمته بيت شعري:

مَحَبَّتُهُمْ فَرَضٌ وَرَوْيَتُهُمْ هُدًى وَلِلدِّينِ مِنْهُمْ أَلْسُنٌ وَقُلُوبٌ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقيز، ص 69.

(7) الأبيات التي قالها فيه هي:

قَطَعْتُ الْأَرْضَ ذَا سَيْرٍ حَتَّى بَلَغْتُ كَلَمَحَ الْبَرْقِ حُبًّا فِي التَّلَاقِي
وَقَالَ لِي الْعَدُولُ وَقَدْ رَأَيْتَنِي سُبُوقًا بِالْمُضْمَرَةِ الْعِتَاقِ
رَكِبْتُ عَلَى الْبُرَاقِ؟ فَقُلْتُ: كَلَّا وَلَكِنِّي رَكِبْتُ عَلَى إِشْتِيَاقِي

=

ويحيى بن صالح⁽¹⁾، وأبو محمد عبد الجليل الأنصاري⁽²⁾، وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي⁽³⁾، وأبو محمد بن ينصارن الماجري⁽⁴⁾، وحسن بن محمد الغافقي⁽⁵⁾، وأبو عبد الله محمد الأنصاري⁽⁶⁾، وأبو علي عمر الصباغ⁽⁷⁾،

= - رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 69؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، 327.

(1) قال في حاشية التعريف به: إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 70.

(2) ختم ترجمته بهذه الأبيات:

رِجَالُ اللَّهِ قَدْ سَعِدُوا وَقَازُوا وَتَالُوا فَضْلَ رَحْمَتِهِ وَحَازُوا
رِجَالٌ طَلَعُوا الدُّنْيَا ثَلَاثًا وَلَوْ جَازَ الرُّجُوعَ لَمَّا اسْتَجَازُوا
وَمَا اعْتَزَلُوا بِمَخْلُوقٍ وَلَكِنْ لَهُمْ بِالْخَالِقِ الْأَحَدِ اعْتِزَالُ
دَعُوا الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ لَهُمْ لَتَبْدُوا وَهَلْ تَخْفَى الْحَقِيقَةُ وَالْمَجَازُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 40؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 178.

(3) قال في نهاية التعريف به:

لَا تَحْمَدَنَّ أَمْرًا حَتَّى تُجَرِّبَهُ وَلَا تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِبِ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 72.

(4) ختم ترجمته ببيتين من الشعر:

تَزَوَّدْ قَرِينًا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ يُتَيْمُّ قَلِيلًا عِنْدَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 73؛ التشوف إلى رجال التصوف، 207.

(5) قال عقب ترجمته:

بِذِكْرِكُمْ يَا أُنْسُ الْمُسْتَأَقُّ بَعْدَكُمْ أُنْسَ الْغَرِيبِ إِلَى الْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ
يُذَرِّي هَوَاكَ وَإِنْ أَخْفَيْتُهُ وَمَتَّى يَعْلَبُ عَلَى السَّرِّ شَيْءٌ بَانَ فِي الْعَلَنِ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 74.

(6) قال فيه:

يَزِيدُ اسْتِيَاظِي كُلَّ مَا مَرَّ ذِكْرُكُمْ وَأَهْجُرُ ذِكْرَ الْغَيْرِ حِينَ يَزِيدُ
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا فِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا مَغْيِبُكَ عَنْ سَمْعِي عَلَيَّ شَدِيدُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 74.

(7) أنهى حديثه عنه ببيتين من الشعر:

إِنْ شَفِيعِي إِلَيْكَ حُزْنِي وَدَمْعُ عَيْنِي وَحُسْنُ ظَنِّي
فَبِالَّذِي قَادَنِي ذَلِيلًا إِلَيْكَ إِلَّا عَفَوْتَ عَنِّي

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 75.

وأبو عمران موسى الحلاج⁽¹⁾، وأبو عبد الله محمد بن عليّ. ثم ذكر الرحالة العقبات السبع، وختمها ببيتين من الشعر⁽²⁾. ليعود مرة أخرى للتعريف ببعض المشايخ، أمثال: أبي مسعود ابن عريف. وأشار إلى وقوفه على قبر أبي بكر ابن العربي بين فاس القديم وفاس الجديد، وزيارته بآزمور من بلاد المغرب قبر الشيخ أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية.

انتقل إلى حاكم يوسف بن يعقوب البربري، فترجم له رثاءه وذكره بيتاً شكرياً للإمام أبي القاسم عمر بن عليّ السعدي المعروف بابن الفارض⁽³⁾، ومطلع قصيدة أبي عبد الله محمد المسفر⁽⁴⁾ المسماة بـ " نظم فرائد الجواهر في معجزات سيد الأوائل والأواخر صلى الله عليه وسلم " ، وثلاث رسائل إخوانية له أيضاً بعثها لجدّه، وذلك عندما ترجم له.

زار في مدينة آسفي سنة 763هـ قبر الشيخ أبي محمد صالح. فوقف بها عند بعض أحفاده على كتاب مجموع فيه " المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى " .

ثم ذكر طوائف الصوفية بالمغرب، وأوليائها الصالحين: « وقد سألت عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في الأرض التي تُنبت الصالحين كما تنبت الكأ، فوجدتها متعددة باعتبار تعدد الأشياء »⁽⁵⁾. وفي سنة 768هـ دخل مدينة تانشناشت في أحواز مراكش، ولقي بها أخياراً. وزار في آغمات قبر أبي عبد الله ابن تيجلات.

(1) ختم ترجمته ببيتين من الشعر:

تَذَكَّرْتُ أَمْرِي فَأَنْفَرْتُ بِغُرَّتِي فَصِرْتُ فَرِيدًا فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْحَدًا
تَسْرَمَدٌ وَقَفِي فِيكَ فَهُوَ مُسْرَمَدٌ وَأَفْنَيْتَنِي عَنِّي فَصِرْتُ مُجَرَّدًا

- رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 76؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 130.

(2) قال في خاتمة الحديث عنه:

عَجِبْتُ لِمَنْ يُصِرُّ عَلَى الْمَعَاصِي وَيُنْكِرُ مَا يَقُولُ الْأَوْلِيَاءُ
تُقَصِّرُ عَنْهُمْ وَتَخُوضُ فِيهِمْ فَلَا نُورَ لَدَيْكَ وَلَا ضِيَاءَ

- رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 77.

(3) وهو: لَأَنْتَ مَنَى قَلْبِي وَغَايَةُ مَطْلَبِي وَأَقْصَى مُرَادِي وَخَيْرِي

رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 95.

(4) وهو: تَبَدَّلَتْ فَعَايَتْ وَاخْتَلَفَتْ فَتَجَلَّتْ فَشَاهَدْتُهَا حَالِ حُضُورِي وَعَيْتِي

- رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 96.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ، ص 106.

لما وصل الرحالة إلى المغرب اجتمع بعلمائها، وأوليائها الصالحين: (كان هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنططر، وذلك في شهر ربيع الأول سنة 769هـ)، فترجم هؤلاء المشايخ الذين التقاهم، وجلس معهم.

ثم ذكر آداب الإخوان، فختمها بيت شعري⁽¹⁾، ليعود إلى ذكر أصحاب الشيخ أبي مدين شعيب، والتعريف بهم، وختم حديثه عن كل واحد منهم بأبيات شعرية تناسبه، وتراعي المقام الصوفي، منهم: أبو محمد عبد الله الصنهاجي⁽²⁾، وفاطمة الأندلسية⁽³⁾، وأبو محمد عبد الله الصنهاجي الزرهوني⁽⁴⁾، وأبو عبد الله محمد حمادو الصنهاجي⁽⁵⁾، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم⁽⁶⁾،

(1) فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ أَوْ كَيْفَ أَوْ مَتَى يُقَدَّرُ مَا لَا بَدَأَ أَنْ سَيَكُونُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 124.

(2) ختم ترجمته بيتين من الشعر:

يَا مَنْ تَوَقَّفَ جَهْلًا فِي كَرَامَتِهِمْ حَقَّقَ وَصَدَّقَ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ صَدَّقُوا
لَا يَسْتَوِي مُتَأَنَّ فِي بَطَالَتِهِ وَحَازِمٌ نَحْوَ بَابِ الْقُرْبِ مُنْطَلِقُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 135.

(3) أنهى كلامه عنها بيتين شعريين:

يُبْرُحُ بِسِرِّ الْحَقِّ صَائِبُ مُنْطِقِي وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرُشَّحُ
وَلَيْسَ حَنَابُ الْقُدْسِ إِلَّا لِأَهْلِهِ وَمَا كُلُّ إِنْسَانٍ بِوَادِيهِ يَسْرَحُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 136.

(4) قال فيه أبيات شعرية عقب ترجمته:

تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ الْمَنَايَا تَبَّهَ لِلْمَنِيَةِ يَا نَوْوُمُ
سَلِّ الْأَيَّامَ عَنْ أُمِّ تَقْضَتْ سَخِيرُكَ الْمَعَالِمُ وَالرُّسُومُ
تُرُومُ الْخُلْدَ فِي دَارِ الرِّزَايَا وَكَمْ قَدْ رَامَ غَيْرُكَ مَا تَرُومُ
لَأَمْرٍ مَا تَصَرَّمَتِ اللَّيَالِي لِأَمْرٍ مَا تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 137.

(5) قال فيه: وَلِي مَذْهَبٌ فِي لَفْظِهِ وَطَرِيقِهِ مَسَالِكُهَا فِي الْجُبِّ لَا تُشَبِّهُ الطُّرُقَا

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 138.

(6) ختم ترجمته بأبيات شعرية:

وَقَدْ عَنْكَ غَيْبًا ذَلِكَ الْعَامِ إِنَّا نَزَلْنَا عَلَى بَحْرِ وَسَائِلُهُ مَعَا
وَشَمْسُ عَلَى الْمَعْنَى مَطَالِعُ أَفْقِهَا فَمَعْرِبُهَا فِينَا وَمَشْرِقُهَا مِنَّا
وَمَسَّتْ يَدَانَا جَوْهَرًا مِنْهُ رُكِبَتْ نُفُوسٌ لَنَا (قَدَمًا) صَفَتْ فَتَجَوَّهَرْنَا
فَمَا السَّرُّ وَالْمَعْنَى وَمَا الشَّمْسُ قُلْ لَنَا وَمَا جَوْهَرُ الْبَحْرِ الَّذِي عَنْهُ عَبَرْنَا

وأبو محمد عبد الخالق التونسي⁽¹⁾، وأبو الزهر ربيع الأنصاري⁽²⁾.

بعدها أورد سند خِرقَة الصوفية، فختمها ببيتين شعريين⁽³⁾، ليعود مرة أخرى إلى الحديث عن أصحاب أبي مدين شعيب، منهم: الشيخ أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر، فذكر في خاتمة الحديث عنه أربع أبيات شعرية⁽⁴⁾ كتبها عبد العزيز برسم الشيخ أبي مدين شعيب، وأورد فصولاً من رسالة إخوانية كتبها أبو مدين شعيب لعبد العزيز جواباً عن كتابه.

ثم تحدث عن وفاة الشيخ أبي مدين شعيب، لينهيها بأربع أبيات شعرية⁽⁵⁾. حيث زار الرحالة قبره، ووقف على تربته، وعند رحيله من المغرب إلى قسنطينة سنة 776هـ، زاره مرة أخرى، ودعا له

=
حَلَلْنَا وَجُودًا وَاسْمُهُ عِنْدَنَا الْفَضَا يَضِيقُ بِنَا وَسَعًا وَنَحْنُ فَمَا ضِيقُنَا
تَرَكْنَا الْبَحَارَ الزَّاحِرَاتِ وَرَاءَنَا فَمِنْ أَيْنَ يَدْرِي النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا
- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 142.

(1) وفي خاتمة الحديث عنه قال:

وَمُسْفَرِدٍ بِاللَّهِ هَامَ بِحُبِّهِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْسٌ بِشَيْءٍ سِوَى الرَّبِّ
وَمَنْ كَانَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ صَادِقًا تَحَلَّتْ لَهُ الْأَثْوَارُ مِنْ غَيْرِ مَا حُجِّبِ
- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 145.

(2) قال عقب ترجمته:

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِي الْخَلَاصِ لِنَفْسِهِ كَانَتْ سَعَائِيَّتُهُ عَلَيْهِ لَا لَهَا
إِنَّ الدُّنُوبَ بِتَوْبَةٍ تُمَحَى كَمَا يَمْحُو سُجُودُ السَّهْوِ غَفْلَةَ مَنْ سَهَا
- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 146.

(3) والبيتان هما:

لِلصَّالِحِينَ مَنَاقِبٌ مَأْثُورَةٌ يَجْلُو مَآثِرَهَا الطَّرِيقُ الْأَوْفَقُ
شَاعَتْ بِاللِّسَنَةِ الثَّقَاتِ وَكُلُّهُمْ مُتَحَقِّقٌ فِيمَا رَوَاهُ مُحَقِّقُ
- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 139؛ التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص 113.

(4) والأبيات هي:

شُعَيْبٌ وَلِيَ اللَّهُ سِرُّ عِبَادِهِ أَبُو مَدِينٍ مُغْنِي الْأَنَامِ بِفَخْرِهِ
فِيَا جَنَّةَ الْمَأْوَى وَيَا عَلَمَ الْهُدَى وَيَا نَاشِرًا عِلْمَ الْإِلَهِ بِأَمْرِهِ
حَضَرْتُ وَلَمْ تَحْضُرْ وَغَيْبْتُ وَلَمْ تَغِبْ وَمَا كُنْتُ فِي كُلِّ بَحَانِبٍ طُورِهِ
فَنُورُكَ نُورَ اللَّهِ يَهْدِي لَهُ وَهْلُ إِلَى أَحَدٍ فِي النَّاسِ إِطْفَاءُ نُورِهِ

- رحلة أنس الفقير وعز الحقير، ص 144.

(5) والأبيات هي:

ذَكَرْتُكَ لَا أَتَى نَسِيْتُكَ لِمَحَّةٍ وَأَهْوَنُ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

=

عند قبره بأن يُيسر الله له رحلته، وخروجه من تلمسان التي أقام فيها مدة شهر بسبب المجاعة العظيمة. ثم وصف قبر الشيخ أبي مدين، وتحدث عن أبي الفضل ابن النحوي، ذاكراً ثلاث أبيات شعرية من قصيدته الجيمية المشهورة بالمنفرجة (1).

٣/ الخاتمة:

- بحسب ابن قنفذ كتابه بنكت تنفع الفقير وتُخفف الحزين.
- الإعلان عن نهاية الكتاب الذي وُضِعَ لذكر فضائل الشيخ أبي مدين شعيب.
- الحمدلة (الحمد لله).
- الصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه والتابعين.
- الحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

* دراسة البنية:

لكل رحلة بداية ونهاية، ولدراسة بنيتها الفنية، لأبد من معرفة كيفية مجيء البداية وكيفية وصول الرحالة فيها إلى النهاية.

ولتبين ذلك لأبد من البدء بالمقدمة، فالمقدمات عنصر من عناصر الأساسية المكونة لهيكل الرحلة، وغالبا ما تأتي كإضاءات من حيث ظروف المشروع وهدفه، والمنهج المتبع، وذكر المميزات الخاصة (2).

استهل ابن قنفذ رحلته بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، والدافع وراء كتابه للرحلة؛ فقد رغب إليه بعض أصحابه تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين شعيب وأمثاله من المشايخ، فما كان من ابن قنفذ إلا أن نفذ رغبتهم التي كانت فيها فائدة جلية لطلاب العلم، والراغبين في سلوك

= وَكِدْتُ بَلَاً وَجَدِ أُمُوتُ مِنَ الْهَوَى وَهَاجَ عَلَى الْقَلْبِ بِالْخَفَقَانِ
فَلَمَّا رَأَى الْوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانٍ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بَغَيْرِ تَكْلَمٍ وَلَا حَظْتُ مَعْلُومًا بَغَيْرِ عَيَانٍ

– رحلة أنس الفقير وعز الحفير، ص148؛ التشوف إلى رجال التصوف، ص324.

(1) وهي: اِسْتَدَى أَرْزَمَةً تَنْفَرِجُ قَدْ آذَنَ لَيْلُكَ بِالْبَلَجِ

وظلام الليل له سُرُجٌ حَتَّى يَعْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ

وسحاب الخير لها مَطَرٌ فَإِذَا جَاءَ الْإِبَانُ تَجَى

– رحلة أنس الفقير وعز الحفير، ص152؛ المنفرجة لأبي الفضل يوسف ابن النحوي، 22 – 23.

(2) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، ص68.

طريق التصوف، فجاء هذا الكتاب يُعرّف بالتصوف، وطرقه وأولياء الله الأتقياء، وأحوالهم، وصفاتهم، وزهدهم في الدنيا، وحبهم للآخرة، والكرامات والخوارق التي أيدهم الله بها لتكون عوناً لهم على نشر تعاليم الدين الإسلامي، واستقطاب أكبر عدد ممكن من الناس.

دُوّنت هذه الرحلة في مدينة قسنطينة في شهر رمضان المعظم سنة 787هـ. وُضعت خصيصاً للرحلة بشيخ الشيخ، وقارة الكين أبي ملين شبيب، وبأشياحه وتلاميذه الأخيار. سُميت هذه الرحلة بـ "أنس الفقير وعزّ الحقيير".

بعد عرض مضمون الرحلة والموضوعات التي تناولها الرحالة فيها، انتقل إلى الحديث عن خطوات سيره وترحاله، مع العلم أنّه لم يذكر، كغيره، من الرحالين انطلاق رحلته، وتواريخ دخوله وخروجه من المدن التي مرّ بها في طريقه. وهذا راجع إلى تركيزه على الناحية الزيارية ذات الطابع الصوفي أكثر من تركيزه على النواحي الأخرى، فجاء اهتمامه منصباً على الناحية الدّينية الروحية بزيارة الأولياء الأحياء منهم والأموات، والوقوف على أضرحة الصالحين إلى درجة أنّه خصّص رحلته للتعريف بأبي مدين شبيب وأصحابه وتلاميذه، ولهذا السبب انساح في أرجاء المغرب باحثاً عن رجالات التصوف، وملاقاتهم، والاستفادة منهم؛ وقد أسفرت قراءة رحلته عن مراحل سفره الآتي ذكرها:

سافر ابن قنفذ من مدينة قسنطينة إلى فاس عاصمة بني مرين لينهل من علم شيوخها، ويستزيد من العلم الذي خرج من أجله، وخلال إقامته واستقراره فيها تولدت لديه فكرة البحث عن أقطاب التصوف، ورجالاته والتعمق في أسرارهم، وهذا لا يتأتى إلا بالرحلة والتقصي والبحث.

من هنا كانت انطلاقة ابن قنفذ بين ربوع المغرب الأقصى، متنقلاً بين القرى والمدن، راصداً من لقيهم من أهل الفضل والصلاح، ومن وقف على تربتهم من الأولياء الصالحين.

ومّن لقيهم الرحالة في هذه الرحلة من المشايخ الأحياء أحد حفدة الشيخ أبي يعزى، وكان ذلك سنة 761هـ. حيث أبان ابن قنفذ أنّ هدفه الوقوف على قبر الشيخ أبي يعزى رحمه الله، إلا أنّ ذلك لم يتم له؛ فقد بقي بينه وبين تاغية (حيث ضريح الشيخ) نصف يوم. فكانت هذه البلدة أوّل مدينة ذكرها الرحالة خلال سفره.

وفي سنة 763هـ ذهب إلى مدينة آسفي، حيث وقف على قبر الشيخ أبي محمد صالح، وفيها اطلع على كتاب مجموع فيه " المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى "، وجده عند بعض أحفاد هذا الشيخ.

وفي سنة 768هـ دخل تانشناشت في أحواز مراکش، وفيها التقى بمجموعة من عباد الله الأخيار.

أمّا في سنة 769هـ فاجتمع ابن قنفذ بعلماء المغرب وأوليائها الصالحين. كان هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنططر، وذلك في شهر ربيع الأول من هذه السنة.

هذا بالنسبة للمدن التي دخلها، وذكر تاريخ دخوله إليها، وهذا لا يعني أنّه لم يزر غيرها، فرحلته تؤكد مروره بمدن أخرى، ولكن بدون تحديد تاريخ دخوله أو خروجه منها.

ومن هذه المدن مدينة سلا التي دخلها مراراً وتكراراً لزيارة الولي الشهير أحمد بن عاشر، كما وقف على قبر الشيخ أبي بكر بن العربي بين فاس القديم وفاس الجديد.

أمّا مدينة آزمور (من بلاد المغرب) فقد زارها هي الأخرى، ووقف على قبر الشيخ أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية. ودخل أيضا بلد صفرو من أحواز مدينة فاس، وكذلك مدينة سكساوة. بحث في كل مدينة من هذه المدن عن أعلام التصوف، وسعى للقائهم، والتماس البركة منهم.

وفي سنة 776هـ قرر الرحالة العودة إلى بلده. مرّ في طريقه ببغداد تلمسان، حيث زار ضريح الشيخ أبي مدين شعيب. أقام في هذه المدينة مدة شهر، لم يتمكن من الرحيل منها بسبب المجاعة العظيمة، فلم يجد بُدّاً من التضرع والتوسل إلى المولى عزّ وجلّ، والوقوف على قبر أبي مدين شعيب، والدعاء له عند قبره بأن يُيسّر الله له رحلته، وخروجه من تلمسان. وبفضل الله، وبركة أوليائه الأتقياء تمكن من الرحيل عنها إلى قسنطينة.

كانت هذه، إذاً، مراحل سفر الرحالة، وتنقلاته بين ربوع المغرب باحثاً عن أقطاب التصوف ومقتفياً آثارهم. فبنى رحلته على الترجمة لشيخ المشايخ أبي مدين شعيب، أشهر رجال التصوف في المغرب وأصحابه وتلامذته الأخيار، وكلّ من اتصل به من كبار المشايخ.

أمّا نهاية الرحلة فختمها ابن قنفذ بمجموعة قيّمة من النصائح، تنفع الفقير وتُعزّز الحقير فأطال في هذا المقام لعله يفيد من يريد سلوك طريق الزهد والتصوف، ويبيّن الخصال والصفات التي يجب أن يتحلّوا بها ليصلوا إلى هذه المرتبة العليا. خصّص لهذه النصائح حيزاً لا بأس به في رحلته فشغلت تقريباً عشر صفحات، ليعلن في الأخير عن نهاية الكتاب الذي وُضع خصيصاً للتعريف بالشيخ أبي مدين شعيب، وذكر فضائله.

وكل نهاية أي رحلة لأبد من الحمدلة لله عز وجل الذي وفقه بعونه إلى كتابتها، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه والتابعين إلى يوم الدين. كانت هذه وقفة مطولة مع بنية الرحلة عند كل من ابن بطوطة وابن قنفذ، وإن اختلفت بنية كل منهما، فالأول ذكر مراحل سفره وتواريخ دخوله وخروجه من البلدان التي زارها، وأحاط بمعلومات قيّمة عنها وعن أناسها

أمّا رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر" فلم يذكر فيها صاحبها بداية رحلته ولا نهايتها، ولا تواريخ دخوله إلى المدن والقرى، وإنّما تبين ذلك من خلال حديثه عن الأولياء والمشايخ الذين التقاهم أو زارهم، راسمين طريق سيره وسفره، وموضحين معالم رحلته.

وقد انقسمت بنية الرحلتين إلى مقدمة وسفر وخاتمة. ابتدأت كلتا المقدمتين بالحمدلة والصلاة على الرسول الكريم، والدافع وراء كتابة الرحلة، ففي رحلة ابن بطوطة كان السلطان المريني أبو عنان سبباً رئيسياً في كتابتها، فكلف كاتب ديوانه الأديب والفقير ابن جزي بذلك.

أمّا السبب في كتابة رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر" فبعض إخوان وأصحاب ابن قنفذ القسنطيني الذين طلبوا منه تقييد بعض كلام الشيخ أبي مدين شعيب.

خرج ابن بطوطة من وطنه (طنجة) لأداء فريضة الحج والوقوف على المعالم المقدسة، وعند وصوله إليها تولدت لديه فكرة التجوال، واكتشاف المجهول، فتحققت له رغبته، وزار عديد من المدن على الرغم من صعوبة السفر والتّرحال في ذلك الوقت، أمّا ابن قنفذ فكان ميالاً إلى التعمق في أسرار التّصوف، ومن ثمّ تولدت لديه فكرة الانسياح في ربوع المغرب، والبحث عن رجاله وملاقاتهم، والوقوف على أضرحة المشاهير منهم. هذا بالنسبة للمقدمة والخاتمة.

اختلفت بنية السفر في كلتا الرحلتين حيث تجلّت أكثر في رحلة ابن بطوطة، فكانت معالم سيره واضحة جلية على عكس رحلة ابن قنفذ التي استتجّت من خلال ترجمته للشيخ أبي مدين وأصحابه وتلامذته؛ إذ اكتفى بإعطاء إشارات على أماكن تواجده، كذكره لتاريخ دخوله إلى قرية ما، ووقوفه على قبر وليّ من أولياء الله تعالى. وهي إشارات قليلة نادراً ما ذكرها، ومع ذلك أفادت كثيراً، وأعطت معلومات على أماكن تنقلاته خلال رحلته.

أما الخاتمة فكانت تقليدية في رحلة ابن بطّوطة، فبعد غياب دام تسعاً وعشرين سنة قرر الرجوع إلى وطنه الأصلي والاستقرار في مدينة فاس في حضرة السلطان أبي عنان المريني، فانتهت رحلته سنة 756هـ.

أعلن ابن بطّوطة عن نهاية رحلته في الخاتمة بصريح العبارة، عكس ابن قنفذ الذي ختم رحلته بنصائح ومعارفات، مفيّة تنفع الفقير وتميّز الحقير، وليس معنى هذا عام ذكره انهيته بل أشار إلى ذلك حين قرر العودة إلى بلاده (قسنطينة) سنة 776هـ. أمّا عبارات الحمدة والشكر والصلاة على النبي فلم تخل منها كلتا الرحلتين.

وفي الأخير يمكن القول إنّ الرابط الذي جمع بين هذين الرحلين هو الإقبال على المظاهر الدّينية، والتّزوّع إليها، حيث تجسّد ذلك في السعي وراء الأولياء، ورجال التّصوف، والاستفادة منهم، واقتفاء أثرهم، والوقوف على قبور الصالحين، والتماس البركة والدعاء، وزيارة الزوايا والأربطة والمبیت فيها، والاستمتاع بلقاء شيوخها، والاستماع إليهم.

الفصل الثاني : الأسلوب في الرحلتين.

* أولاً: الأسلوب :

1- السرد .

2- الوصف .

3- الحوار .

* ثانيا: الملامح الدينية في الرحلتين .

1- الآيات القرآنية .

2 - الأحاديث النبوية الشريفة .

أولاً: الأسلوب:

قبل الدخول في صلب الموضوع يجب أولاً التعريف بكلمة الأسلوب، يقال للسَّطَر من النخيل أُسْلُوبٌ. وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فهو أسلوبٌ، والأسْلُوبُ الطريق، والوجهُ، والمَذْهَبُ؛ يقال: أنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجَمَعُ أُسَالِيبَ. والأسْلُوبُ: الطريقُ تأخذ فيه. والأُسْرَابُ، بالضم: الفنُّ؛ يقال: أَنَا فُلَانٌ فِي أُسَالِيبِ مِنَ الْقُرْلِ أَيِ أَفَانِينَ مِنْهُ (1).

فالأسلوب هو طريقة الإنسان في التعبير، ولهذا قيل: «الأسلوب هو الرجل» (2)، أي أن الأسلوب هو مرآة شخص صاحبه، إن لم نقل هو الشخص نفسه.

ولكل إنسان طريقته في التعبير، ومن هنا تتعدد الأساليب تبعاً لذلك، وتتراوح بين أسلوب راقٍ وأسلوب متوسط وأسلوب عادي.

يعرف ابن خلدون الأسلوب بقوله: «الْمِنْوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكِيبُ أَوِ الْقَالِبِ الَّذِي يُفَرِّغُ بِهِ» (3).

أمّا السجلماسي فيعرفه بـ: «الكيفية التي يتم بها التعبير على الأفكار» (4). فهذان التعريفان يَصْبَانُ في قالب واحد هو طرق ومذاهب الكلام المختلفة.

وهناك من يُعرف الأسلوب بآته: «اختيار **choie** أو انتقاء **sélection** يقوم به المنشئ سمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين. ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إثارة المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة» (5)، فالكاتب يختار ما بدا له من الكلمات المتاحة أمامه، ليُعبر عن مقصده وغرضه بألفاظ موفية للمقاصد التي ذهب إليها. ومن هنا ينبع الاختلاف بين الكتاب أو الشعراء فيما كتبوه أو نظموه، فلكلّ منهم طريقته الخاصة في التعبير.

انطلاقاً ممّا تقدم سُلِّقَى الضوء على أسلوب ابن بطّوطة، ورفيقه ابن قنفذ من خلال رحلتيهما، واستجلاء الطابع المميّز الغالب على تعبير كلّ منهما، وأهم السمات البارزة في لغتهما.

(1) لسان العرب لابن منظور، 473/1.

(2) مدخل إلى علم الأسلوب لشكري محمد عياد، مكتبة الجيزة العامة، ط2، 1992، ص14.

(3) مقدمة ابن خلدون، 786/1.

(4) المترع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ص157.

(5) الأسلوب دراسة لغوية إحصائية لسعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1992، ص37-38.

أول ملمح من ملامح الأسلوب يُتناول بالدراسة هو:

1- السرد:

والسرد في اللغة: تَقْدِمةُ شيءٍ إلى شيءٍ يأتي متَّسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً. ويقال: سرّد الحديث ونحوه يسرّده سرّاً إذا تابعه. وفلان يسرّد الحديث سرّاً إذا كان جيّد السياق له. والسرد: المتتابع⁽¹⁾. فالسرد هو القس والحكي لأحداث متتابعة ومتعاقبة، فيها ترابط وتناسق، لكي تكون الحكاية حسنة وجيدة تشد انتباه السامع.

أما اصطلاحاً فإنّ السرد **Narrative**: « هو الطريقة التي تحكى بها القصة. ذلك أن الحكى يقوم على دعامتين: أولهما أن يحتوى على قصة تضم أحداثاً، وثانيهما أن يعين الطريقة التي تحكى بها القصة. وهذه الطريقة هي السرد »⁽²⁾. فالسرد هو الطريقة التي يعبر بها الكاتب عن فكرته وعمّا يجول في خاطره، وبتعبير أدق هو المبنى الحكائي الذي « يتعلق بتنظيم تلك الأحداث في نسق خاص، بكيفية خاصة، من خلال سارد يتوجه به إلى مسرود له »⁽³⁾.

نقصد بالأحداث القصة أو الحكى الذي يُبنى عليه السرد الذي يقتضي وجود شخص يحكى وشخص يُحكى له وقصة محكية، مع العلم أنّ القصة الواحدة يمكن أن تُحكى بعدة طرق ولهذا فإنّ: « السرد الذي يُعتمدُ عليه في تمييز أنماط الحكى بشكل أساسي »⁽⁴⁾، فهو أساس القصة ومُسيّر أحداثها ومجريات أمورها.

يُعرف، سعيد يقطين السرد بأنّه: « فعل لا حدود له. يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية، بيدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان »⁽⁵⁾. هذا الكلام يعنى أن السرد لا يرتبط بزمان ومكان معينين، وإنّما أحداث القصة ومجرياتهما هي التي تؤثر في نمط الحكى، فالراوي يتنقل مع القصة من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان حسبما تفرضه الأحداث والشخصيات.

(1) لسان العرب لابن منظور، 211/3.

(2) جماليات التلقي في السرد القرآني ليادكار لطيف الشهرزوري، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص44.

(3) بلاغة السرد القصصى في القرآن الكريم لمحمد مشرف خضر، رسالة دكتوراه في الآداب، إشراف: عبد الرحيم محمود زلطا، محمد عبد المطلب مصطفى، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الإسكندرية، ص17.

(4) بنية النص السردى (من منظور النقد الأدبي) لحمد حميداني، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991، ص45.

(5) الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي لسعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص19.

وبما أنّ الرحلة لون من ألوان التعبير الأدبي النثري، فإنّها تخضع بطبيعة الحال إلى نمط السرد والحكي باعتبار وجود راوٍ يسرد مجريات رحلته وتنقلاته في المعمورة: « تفرض الرحلة بطبيعتها لوناً من السرد الفني المعتمد على الوصف الخارجي للمشاهد وعرض الحوادث، فهي تفيد من طاقات القصة أحياناً، وتعتمد إلى جانب السرد المباشر التقريري أحياناً أخرى، وتنحو أحياناً نحو الصورة التي يتدخل فيها الرحالة عبر رسم المشاهد والحوادث »⁽¹⁾ فالرحلة تخضع للسرد الذي يتحكم هو بدوره في الوصف لأنّ الرحالة يرصد كل ما اعترض طريقه بالوصف، والملاحظة الدقيقة، والنقل المباشر والموضوعي للأحداث التي عايشها، فالرحلة: « من الأشكال التي تحفل بالثراء والتنوع باعتمادها على السرد استكشافاً لخبائ عوالم الحكي المشدود إلى تجارب وخيالات تنبني وترسم سردياً، باعتبار السرد هو الصيغة الطبيعية في النثر الفني »⁽²⁾.

فالسرد هو المتحكم الأساس في مجريات الرحلة، وتطور أحداثها منذ بدايتها إلى غاية عودة الرحالة إلى بلده، وإخباره بنهايتها.

أ/ السرد في رحلة ابن بطّوطة:

اشترك ابن بطّوطة وابن جزّي في صياغة رحلة " تُحفّة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، فكان ابن بطّوطة راوٍ (سارد) لكاتب يدوّن ما عاينه من مشاهدات ومغامرات. مع العلم أنّ ملكية الرحلة عائدة لابن بطّوطة، أمّا التقييد والضبط فراجع لابن جزّي الذي اعترف بذلك. أسفرت قراءة الرحلة عن وجود أسلوبين متباينين، الأول ينسب لابن بطّوطة يدلّ على عدم امتلاكه أسلوباً طبعاً في الكتابة؛ وهذا ما قاله لملك الهند عندما خيره بين الوظائف قائلاً بأنّ " الكتابة ليست شغله ". لم تكن لديه هواية أو ميل نحو الكتابة، ولهذا لم يترك مؤلفاً آخر غير رحلته هذه، التي لو لم يتدخل السلطان المريني لما كُتبت.

أمّا الأسلوب الثاني فهو لابن جزّي، وهو واضح وجليّ. اعتمد فيه صاحبه على الصنعة والتكلف، وهو ما ينبئ عن أنّه كاتب وأديب وفقه، بدرجة أولى، متسع الثقافة، ومطلع على كثير من العلوم والمعارف.

(1) " الرحلات المكية الحديثة: رؤية في بناء الرحلة واتجاهاتها " لعبد الله بن أحمد بن حامد، حوّلّة كليّة المعلمين، أبها، ع10،

1427هـ، ص141.

(2) الرحلة في الأدب العربي " التحنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل " لشعيب الحليفي، ص280.

سرد ابن بطّوطة أخبار رحلته على ابن جزي، فقدم له المادة (مادة الرحلة)، وهذا الأخير تولّى أمر صياغتها وتنقيحها. فكان ابن بطّوطة متذبذباً في بعض الأحيان في تقديمه للمادة وسردها، فكثيراً ما قطع أحداث سير رحلته بحكايات تذكرها، ولهذا جاءت الأحداث فيها غير متسلسلة، لأنّ همّه الوحيد تقديم كل ما شاهدته وتذكره أثناء ترحاله، ورُبّما جاء سبب عدم انتظام سرده إلى إملائه مشاهداته من ذاكرته، وضياع مذكراته، لأنّ كفار الهنود سلبوها منه مع المتاع الذي كان يمتلكه: « وقد أثر ذلك على منهج الكتاب وعلى التسلسل والتكامل فيه »⁽¹⁾، عمِلَ ابن جزي جاهداً على الربط بين أجزائها وعناصرها، وإضافة على ما قاله الرحالة، فإنّه قام بعدّة إجراءات ساعدته على ضبط العمل وتهديبه، منها⁽²⁾:

- تلخيص الرحلة وترتيبها.
- جمع قصصها المتفرقة في وحدة متماسكة.
- إضافة بعض الأشعار دون مناسبة تستوجب ذلك أحياناً.
- تحقيق بعض الأجزاء مستعيناً بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر، ولا سيما رحلة ابن جُبَيْر.

- إضافة نصوص نقلها عن الرحالة الآخرين، مثل تلك التي تتقدم وصف البلدان.
- إضافة المقدمة والخاتمة.

- تسمية الرحلة " ثُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ".

اضطلع ابن جزي بهذه المجموعة من الأعمال خلال تحريره للرحلة. وهو جهد مضمّن وعمل جليل يحسب له، وإن كان قد أخلّ كما يرى بعض الدارسين بهيكل الرحلة ومضمونها، فجاءت مفتقرة إلى التناسق والتناسب بسبب الفرق الواضح بين أسلوبه وأسلوب ابن بطّوطة، فحين نقرأ الرحلة نحس أنّنا أمام تموجات في الأسلوب.

اعتمد ابن بطّوطة في سرده على الأسلوب العادي البسيط دون تكلف، أو تنميق، أو إكثار من السجع، وإنّما نحا إلى الأسلوب السهل الذي يناسب حكاياته وقصصه الشائقة، فجاءت لغته سهلة بسيطة مميّزة مائلة إلى العفوية والتلقائية في رصد الأخبار، وتصوير تجاربه الشخصية، لأنّها أسهل في

(1) أدب الرحلة عند العرب لحسين محمود حسين، ص 48.

(2) أدب الرحلة لحسين نصّار، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط 1، 1991، ص 65.

إبلاغ وإيصال رسالته، إلى درجة توظيفه في بعض الأحيان للألفاظ العامية مثل (صحفة، الفشطان، الجَنِيَّة، طيلسان، الخليع، الكشاكيل، تماقه، العديلة، برمة، قرعة، دروازة، قرقورة، الكَمَخَا، البُعْطَاق). كما وظّف، أيضاً، الألفاظ التركية والفارسيّة، فخلال جولاته في بلاد فارس وترك تعلم بعض ألفاظهم التي وظفها في رحلته كلما رأى ضرورة لذلك؛ فقد أعانته على التعامل مع أهلها، وفهم ما يقصدون من كلامهم.

ومن تلك الألفاظ التركية مثلاً: " سَنَ أَطَا وَمَعْنَاهَا بِالتركية أَنْتَ أَبِي " ⁽¹⁾. و " خُونْدِ كَارْمَا وَمَعْنَاهُ مَوْلَاي " ⁽²⁾. وغير ذلك كثير، ومن الألفاظ الفارسية مثلاً كلمة جِيَكَسْ ⁽³⁾ ومعناه: من أنت؟ وبما أنّ الكلام يتمحور حول أسلوب ابن بطّوطة لأبّد من استحضار قصيدته تلك التي مدح بها ملك الهند أبا مجاهد محمد بن تغلق ⁽⁴⁾ (الطويل):

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُبَجَّلَا	أَتَيْنَا نُجْدُ السَّيْرِ نَحْوَكَ فِي الْفَلَا
فَجِئْتُ مَحَلًّا مِنْ عَلَائِكَ زَائِرًا	وَمَعْنَاكَ كَهْفٌ لِلزَّيَارَةِ أَهْلًا
فَلَوْ أَنَّ فَوْقَ الشَّمْسِ لِلْمَجْدِ رُبَّةٌ	لَكُنْتُ لِأَعْلَاهَا إِمَامًا مُؤَهَّلًا
فَأَنْتَ الْإِمَامُ الْمَاجِدُ الْأَوْحَدُ الَّذِي	سَجَايَاهُ حَتْمًا أَنْ يَقُولَ وَيَفْعَلَا
وَلِي حَاجَةٌ مِنْ فَيْضِ جُودِكَ أُرْتَجِي	قَضَائَهَا، وَقَصْدِي عِنْدَ مَجْدِكَ سَهْلًا
أَذْكُرُهَا أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكُمْ	فَإِنَّ حَيَاكُمْ ذِكْرُهُ كَانَ أَجْمَلًا
فَعَجَّلْ لِمَنْ وَافَى مَحَلَّكَ زَائِرًا	قَضَى دَيْنَهُ، إِنَّ الْغَرِيمَ تَعَجَّلَا

كانت هذه القصيدة الوحيدة من نظم ابن بطّوطة. فلم يعرف عنه كونه شاعراً نظم قصيدة قبل هذه أو بعدها قط، وردت هذه القصيدة في رحلته؛ وهي مكوّنة من سبع أبيات. قالها في ملك الهند راجياً إمداد يد العون له وإغاثنه، وتسديد دَيْنه. فأضفى عليه مجموعة من الخصال الحميدة، ووصفه بالجوّد والكرم. فوظّف العبارات الدّينية، ليرفع من قيمته، حيث أطلق عليه لقب أمير المؤمنين تكريماً له، ولينال الرّحالة مطلبه منه بسرعة، كما وظّف كلمة إمام مرتين ليشعره بعلوّ منزلته، وسموّ قدره فهو المعطاء الجواد السّباق، الفعّال لما يقول.

⁽¹⁾ رحلة ابن بطّوطة، 25/2.

⁽²⁾ المصدر نفسه، 26/2.

⁽³⁾ المصدر نفسه، 14/4.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، 236/3.

جاءت الأبيات الأربعة الأولى في مدحه والإشادة بمكارمه، ليتخلص بعدها إلى عرض مطلبه، وطلب المساعدة.

جاء تخلصه من المدح إلى الغرض المقصود حسناً، فمهد له في الشطرة الثانية من البيت الرابع: سَجَايَاهُ حَتْمًا أَنْ يَقُولَ وَيَفْعَلًا.

ليقول، في البيت الخامس: وَلِي حَاجَةٌ مِنْ فَضْلِ حُودِكَ أُرْتَجِي.

أحسن ابن بطّوطة في الانتقال من المدح إلى الغرض المقصود، وهو ما يسمى بـ " حسن التخلص".

وفي البيت الأخير توسل بالجناس (عَجَل، تعَجَّلًا) لإدراك حاجته، وحثّ السلطان على الإسراع في قضاء دينه، فالغريم لم تعد له طاقة على الصبر، وإمهاله المزيد من الوقت لكي يسدد له ديونه، ولا توجد هناك وسيلة لحلّ مشكلته، وإخراجه من المأزق الذي وقع فيه غير هذا السلطان السخي الذي لا يَرُدُّ من عنده حاجة خائباً، وخاصة الغرباء منهم، فهو لهم خير ملجأ وعون.

عكست هذه الأبيات شخصية ابن بطّوطة الإسلامية التي تميل إلى التدين، فكان فقيها أكثر منه أدبياً: « فهذا الشعر أقرب إلى المنظومات الفقهية منه إلى الأدب »⁽¹⁾، لم يكن ابن بطّوطة من هواة الأدب والمقبلين عليه، وإنما كان فقيهاً مولعاً بالفقه والتصوف مُتَّبِعاً لأوليائه مقتفياً آثارهم، زائراً أضرحتهم، لا يزور مدينة إلا وذكر علماءها وصلحاءها، ومساجدها، وزار زواياها وأربطتها؛ وهذا راجع إلى تلقيه تربية إسلامية متينة منذ صغره، وحفظه للقرآن الكريم ودراسته للفقه المالكي، ولو لم يكن أكمل دراسته في منطقته لما خرج من وطنه طالباً الرحلة إلى الحجّ، وما أكد تبحره في الفقه تولّيه قضاء الرّكب الحجازي بمجرد وصوله إلى مدينة تونس، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر. علاوة على هذا فأسرة ابن بطّوطة أسرة تنتمي إلى سلك القضاء والشيخوخة: « أما القضاء والشيخوخة فشغلي وشغل آبائي »⁽²⁾، فهناك من أبناء عمومته من تولّى القضاء في بلاد الأندلس، التقاه الرّحالة عند زيارته لمدينة رُنْدَة، وهو الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطّوطة⁽³⁾، وهو دليل آخر على أن أسرة ابن بطّوطة

(1) " ابن جزّي كاتب رحلة ابن بطّوطة " لمحمد بن عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق، وزارة عموم الأوقاف، الرباط،

المغرب، ع10، س5، 1962، ص58.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 233/3.

(3) المصدر نفسه، 217/4.

أسرة عُثِيت بالعلوم الشرعية، ولهذا لم يكن ابن بطّوطة شاعراً ولا أديباً، وإنّما فقيهاً. ألحت عليه الحاجة ودفعته إلى أن يكون شاعراً لأوّل مرة، فالغاية تبرر الوسيلة كما يُقال. مع العلم أنّ المصادر العربية لم تذكر أبياتاً شعرية أخرى غير هذه لابن بطّوطة.

جاءت هذه الأبيات حسنة موفية للغرض الذي قصده مستعملاً عبارات دينية تنبئ على تمسكه بتعاليم الدين الإسلامي، مُضْغِباً على ممدوحه هالة من الصفات الحمدة رفعت من شأنه، وأعلت من قدره، متوسلاً في ذلك بألفاظ من صميم البيئة الإسلامية وركائزها.

هذا هو، إذاً، ابن بطّوطة القاضي الفقيه المتدين المتشبع بالثقافة الإسلامية، وهذا ما عكسته رحلته، فلم يخلع إيهاب الرّجل المسلم أينما حلّ وارتحل، وهذا ما دُرِسَ في الفصل الأوّل، وإقباله الشديد دون توان على المظاهر الدّينية، والتّزوع إليها نزوعاً: « فابن بطّوطة كانت دراسته الإسلامية مقتصرة على الجانب العلمي ولم تكن مزيجاً بالأدب مما جعل منهجه في الكتابة بعيداً عن منهج الأدباء »⁽¹⁾. ممّا حدّا بأبي عنان المريني إلى تكليف كاتبه ابن جزّي الكلي لصياغة رحلة ابن بطّوطة وتنقيحها، فقام بعدة إجراءات، لكنّه وقف موقفين مختلفين من الرّحلة، فتارة يثبت ما قاله الرّحالة دون تغيير أو تحريف، وطوراً يزيد على ما قاله كلما رأى ضرورة لذلك، مستعيناً بكتب بعض الرّحّالين السابقين أمثال ابن جبّير⁽²⁾، وابن جابر القيسي الوادي آشي⁽³⁾، كما طعّم الرّحلة ببعض الأشعار المناسبة لما هو بصددده.

(1) " ابن جزّي كاتب رحلة ابن بطّوطة " لمحمد بن عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق، ص58.

(2) أبو الحسن محمّد بن أحمد ابن جبّير الكتاني الأندلسي، ولد في بلنسية سنة 540هـ والمتوفّى بالإسكندرية سنة 614هـ، رحالة رائد سبق ابن بطّوطة في ارتياد الآفاق ووصف المجتمعات، رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق، وحجّ في كل واحدة منها، دوّن أخبار الرّحلة الأولى في شبه مذكرات يومية تعرف باسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ". خرج من غرناطة في الثامن من شوال سنة 578هـ، وقد استغرقت رحلته مذ خرج من غرناطة إلى حين عودته إليها سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً، مرّ فيها على مصر والديار الحجازية حيث بقي فيها بضعة أشهر، عرج بعد أداء فريضة الحج في طريق عودته على بلاد العراق والشّام، ومنها سافر بحراً عن طريق صقلية فوصل بلاده في الخامس عشر من محرم سنة 581هـ. ترجمته في:

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، 230/2-231.

- نفع الطيب للمقري التلمساني، 381/2-382.

- دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سوّدة المري، ص230.

- أدب الرحلة عند العرب لحسيني محمود حسين، ص19.

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسين، ص45.

(3) شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن جابر الوادي آشي، ولد بتونس، وهو محمد ابن الإمام المحدث معين الدين جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القيسي، شيخ ممتع نبيل رّحّال متقن، وسمع بمصر على جماعة، وكتب بخطه كثيراً، وله معرفة بالحديث =

قام بكلّ هذه الأعمال التي تنمّ عن مقدرة الأدبية وإطلاعه الواسع على الكتب، ولا سيما أدب الرحلات. ومن ذلك وصفه لمدينة الإسكندرية الذي يُرجح في الأغلب أنّه من صنفه؛ حيث يقول: «وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بما ما شئت من تحسين وتحسين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بها الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة تجلّى سناها، والخريدة تجلّى في حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكلّ بديعة بما اجتلاؤها، وكل طريفة فإليها انتقاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا من عجائبها فأغربوا، وحسب المتشوف إلى ذلك، ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك»⁽¹⁾.

لم يُعجب ابن جزي بحديث ابن بطّوطة عن مدينة الإسكندرية مكتفياً بإشارته إلى تاريخ وصوله إليها، فأبدع الكاتب في وصفها، وأجاد معتمداً على الصنعة والسجع، فجاء وصفه لها جميل يطرب الأذن، ويشدّ السامع إليه معتمداً في ذلك على مهارته الفنيّة الرائقة، وخوفاً من الإطالة التي تجلب الملل أشار إلى كتاب المسالك والممالك لأبي عُبيد عبد الله البكري⁽²⁾، والاطلاع عليه لمعرفة المزيد عن هذه المدينة.

اعتمد ابن جزي كثيراً على بعض أوصاف ابن جُبَيْر للأماكن، فعندما عبّر ابن بطّوطة عن وصوله إلى مدينة حلب قال ابن جزي: «قال أبو الحسن ابن جبیر في وصفها: قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسل عليها من

= والنحو واللغة والشعر، وله نظم حسن، وتوفي بتونس سنة 779، وأخذ القراءات عن ابن زيات وغيره، وترجمة الحافظ ابن جابر رحمه الله تعالى واسعة مشهورة. ترجمته في:

- نفح الطيب للمقري التلمساني، 202-200/5.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 179/1.

(2) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب [بن عمرو من أبناء] الأمراء يكنى أبا [عبيد الله] أبو زيد محمد بن أيوب وكُلبَة وشَلْطِيش وما بينهما من الثغر الغربي وأصلهم من كُلبَة.

يعتبر العلامة أبو عبيد البكري اللغوي من أشهر جغرافي القرن الخامس الهجري في غرب العالم الإسلامي. ولد البكري بالأندلس وإن كنا لا نعرف تاريخ مولده على وجه التحديد، إلّا أنّه نشأ وترعرع في عصر ملوك الطوائف وتوفي في شوال سنة 489هـ. كان أبو عبيد البكري من مفاخر الأندلس، وهو أحد الرؤساء الأعلام، وتواليفه فلتت في أجياد الأيام. ترجمته في: - الحلة السيرة لابن الأبار (ت 658هـ)، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1963، ص180-185.

- الرحلة والرحالة المسلمون لأحمد رمضان أحمد، ص145.

بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، باينة الارتفاع... وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان، هيهات هيهات سيهرم شبابها، ويُعَدَم خطابها، ويسرع فيها بعد حين خراجها! «⁽¹⁾.

وعن مدينة دمشق يقول: « لا أبدع مما قاله أبو الحسن بن جُبَيْر، رحمه الله تعالى، في ذكرها قال: وأما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها. قد تحلّت بأزاهر الرياحين وتحلّت في حلل سندسة من الساتر... والله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي تساميتها وتُحاذيها «⁽²⁾.

أخذ، أيضاً، مقتطفاً من وصف ابن جابر الوادي الآشي لمدينة دمشق، اقتبسه من نصّ لابن جُبَيْر: « ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوقّ الأنفس للتطّلع على صورتها بما أفاد، هذا وإن لم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، ولا وصف ذهبياً أصيلها، وقد حان من الشمس غروبها ولا أزمان فصولها المنوّعات، ولا أوقات سرورها المنبهات، وقد اختص من قال: ألفتُها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين «⁽³⁾.

وظف كاتب الرحلة مرة أخرى نصّ ابن جُبَيْر في أثناء حديث الرحالة عن مدينة بغداد، فقال: « قال أبو الحسن بن جُبَيْر رضي الله عنه، وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشيّة، فقد ذهب رسمها، ولم يبق إلا اسمها... إلاّ دخلتها التي هي بين شرقيّها وغربيّها... والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ «⁽⁴⁾.

اعتمد ابن جزى على كلام ابن جُبَيْر في وصف مدينة نصيبين، ولكن ليس بنصّه الصريح، وإنّما صاغها بأسلوبه الخاص، وهذا حديث ابن جُبَيْر عن هذه المدينة: « شهيرة العتاقة والقِدَم، ظاهرها شباب، وباطنها هَرَم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتدّ أمامها وخلفها بسيط أخضر مدّ

(1) رحلة ابن بطوطة، 272/1؛ ينظر أيضاً: رحلة ابن جُبَيْر " تذكّرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " لابن جُبَيْر الكتاني

الأندلسي، دار صادر، بيروت، (د، ت)، ص 225 - 226.

(2) رحلة ابن بطوطة، 297/1؛ ينظر: رحلة ابن جُبَيْر، ص 297-299.

(3) رحلة ابن بطوطة، 299/1.

(4) رحلة ابن بطوطة، 57/2؛ ينظر: رحلة ابن جُبَيْر، ص 193-194.

البصر...وينصب في صهريجين: أحدهما وسط الصحن، والآخر عند باب الشرقي منه، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع»⁽¹⁾.

أما النصّ في رحلة ابن بطّوطة فجاء كالاتي: « وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية، والبساتين الملتفة، والأشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة...وينصبّ في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي»⁽²⁾.

حرر ابن جزّي هذا النصّ بأسلوبه مقتبساً معظم ألفاظه من نصّ ابن جُبَيْر السابق؛ فقد اعتمد على هذه الرحلة كثيراً، وبخاصة في مقدمات أوصاف بعض المدن، ثمّ أفسح المجال بعد ذلك لصاحب الرحلة للحديث عما بدا له.

كما أخذ أيضاً من رحلة ابن جُبَيْر في وصف مكّة المكرمة فقال: « فوردنا منها حرّم الله تعالى ومُبوراً خليله إبراهيم، ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلّم، ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمناً من باب بني شَيْبَةَ...والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والسلام»⁽³⁾.

وأخذ عنه أيضاً في وصف طَيِّبَة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: « دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم...وكتبت في سبيل الله سفرته»⁽⁴⁾.

اقتبس أيضاً من كلام ابن جُبَيْر عند حديثه عن الحجر الأسود، وأثر تقبيله عند الحجاج فصاغه بأسلوبه: « ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه، خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه يمين الله في أرضه نفعا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كلّ شيق إليه»⁽⁵⁾.

(1) رحلة ابن جُبَيْر، ص 214.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 84/2.

(3) رحلة ابن بطّوطة، 367/1؛ رحلة ابن جُبَيْر، ص 58.

(4) رحلة ابن بطّوطة، 349/1؛ رحلة ابن جُبَيْر، ص 167.

(5) رحلة ابن بطّوطة، 373/1؛ رحلة ابن جُبَيْر، ص 67.

هكذا أخذ ابن جزى بعض مقدمات أوصاف المدن من رحلة ابن جُبَيْر، وطَعَمَ بها رحلة ابن بطّوطة، كلما رأى ضرورة يقتضيها المقام فوقف وأطال، كما في وصفه لمكة المكرمة، والمدينة المنورة، والإسكندرية، وحلب، ودمشق، ونصيبين، وبعض الأماكن المقدسة مثل المشاهد المباركة التي بالبيع. كما استعان، أيضاً، في بعض الأحيان برحلة العبدري ⁽¹⁾ (من رواد أدب الرحلة في القرن 7هـ)، وبخاصة في الجزء الخاص بوصفه الطريق من بدر إلى مكة المكرمة ⁽²⁾.

رجع ابن جزى بين الفينة والأخرى إلى هاتين الرحلتين (رحلة ابن جُبَيْر، ورحلة العبدري) ليزيد أو يثبت أو يتأكد من صحة أخبار ابن بطّوطة، أو لإبراز مدى اطلاعه على كتب الرحلات السابقة لرحلة تُحفة النُّظار، لهذا كثيراً ما اقتبس بعض الفقرات والنصوص منهما، دون أن ينتبه إلى أن ابن بطّوطة عاش في القرن الثامن للهجرة، وابن جُبَيْر والعبدري عاشا في القرن السابع، وطبيعي أن يحدث تطور وتغيير في المدن والأماكن التي دخلوها لأنّ الفارق الزمني بينهم يقدر بمئة سنة تقريباً، فلا يمكن أن تظلّ هذه البلدان على حالها حتى دخول ابن بطّوطة إليها.

كما طَعَمَ ابن جزى، أيضاً، الرحلة بفقرات من إنشائه، فكثيراً ما مدح ملوك بني مرين في ثناياها، فكان يتحين الفرص عندما يتحدث ابن بطّوطة عن السلاطين والملوك الذين التقاهم، وقعد في مجالسهم، فانظر مثلاً إلى قوله يمدح السلطان أبا سعيد ابن أبي يوسف المريني ⁽³⁾ جدّ السلطان أبي عنان، ويدعو لهم بالبقاء ودوام السلطنة في ذريتهم إلى يوم الدين، لأنّهم رجال أشداء قمعوا الكفار، ورفعوا راية الإسلام

⁽¹⁾ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عليّ العبدري الحاحي الإمام الأديب الأملعي العلامة المحدث الراوية الرّحال الكاتب البليغ. صاحب الرحلة المعروفة باسمه. أصله من بنسبة. ونسبته إلى بني عبد الدار، كان من سكان بلدة "حاحة" في المغرب، بعد أزموور؛ توجه منها حاجاً سنة 688هـ، فدخل باجة وتونس والقيروان والقاهرة وغيرها أفاد واستفاد وأخذ عن أعلام وأئني عليهم في رحلته، منهم بالقيروان أبو زيد الدباغ، وأجازته بتونس الإمام الليدي، وبباجة أبو عليّ الطلبي.

ليس في المصادر ذكر سنة وفاته. وكان العبدري قد بدأ بتقييدها في تلمسان. ورحل من تلمسان في ربيع الأول (689هـ) ثم عاد إليها في طريقه بعد الحج، واستقر في بلده، حيث أنجز الرحلة. ترجمته في:

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ، ص 217.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، 32/7.

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسين، ص 132.

⁽²⁾ رحلة العبدري لأبي عبد الله محمد بن أحمد العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، قدّم لها: شاكر الفحام، دار سعد الدين، دمشق، ط 1، 1999، ص 346 - 358.

⁽³⁾ هو السلطان أبو سعيد عثمان ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، مولده في حياة جده، سنة 664هـ. كانت مدته عشرين سنة ونصف سنة. وفاته في ذي القعدة 731هـ بخارج فاس. ينظر: - الحلل الموشية لمؤلف مجهول، 178.

في المغرب والأندلس: « كرم الله هذه الكنية الشريفة، فما أعجب أمرها في الكرم! وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في النداء والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قانع الكفار، والآخذ للإسلام بالثار، أمير المسلمين أبي يوسف، قدس الله أرواحهم الكريمة، وأبقى الملك في عقبهم الطاهر إلى يوم الدين »⁽¹⁾.

لم يتوان ابن جزى في هذه الرحلة عن مدح ملوك بني مرين، وإظهار عنايتهم بالعلم والعلماء، ومظاهر الثقافة وال عمران؛ وقد يكون اختيار أبي عنان لابن جزى عن قصد، لكي يذيع اسمه واسم عائلته، ويظهر مدى عنايتهم بجميع مناحي الحياة، ولتحقيق هذه الرغبة لأبد من أديب متمرس، ذي أسلوب رفيع له دراية بالواقع المعيش، وعارف بأحوال الدولة: « وإذا كان ابن بطوطة يتوفق في هذا العمل بالنسبة إلى مرثياته العامة فهو ليس له إلمام بكثير من الحوادث السياسية التي وقعت بالمغرب أيام غيبته الطويلة، لذلك كان من الضروري أن يضاف إليه شخص آخر تكون له دراية بالوقائع الحديثة ومعرفة بأحوال الدولة القائمة، وعلم بالسير العام الذي تسير عليه سياسة الدولة في الداخل والخارج، ولم يجد أبو عنان من كتابه من تجتمع فيه هذه الصفات مثل أبي عبد الله ابن جزى »⁽²⁾.

ومن تدخلات ابن جزى الطريفة حديثه عن جبل الفتح الذي مرّ به ابن بطوطة في رحلته الثانية إلى بلاد الأندلس الإسلامية يقول: « جبل الفتح هو معقل الإسلام المعترض شجى في حلق عبدة الأصنام، حسنة مولانا أبي الحسن، رضي الله عنه، المنسوبة إليه وقربته التي قدمها نوراً بين يديه. محلّ عدد الجهاد، ومقرّ آساد الأجناد، والثغر الذي افتر عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الأندلس، بعد مرارة الخوف، حلاوة الإيمان، ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر، وبه نزل طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، عند جوازه، فنُسب إليه فيقال له: جبل طارق وجبل الفتح، لأن مبدأه كان منه... »⁽³⁾. اعتمد ابن جزى في هذه المقدمة التي تصدرت وصف الجبل على الصنعة والبديع، فجاءت عباراته مسجوعة منمّقة، عكست قدرته الأدبية الفائقة، خلافاً لابن بطوطة الذي جاء أسلوبه مسترسلاً بسيطاً.

واصل كاتب الرحلة سرده ووصفه لهذا الجبل، وذكر الحوادث التاريخية التي مرّت به، وما فعله ملوك بني مرين لأجل استرداده من أيدي الإسبان، الذين ظلّوا يحتلونه مدّة عشرين سنة إلى أن استعاده

(1) رحلة ابن بطوطة، ص 412.

(2) " بنو مرين من خلال رحلة ابن بطوطة " لمحمد عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق، ع 7، ص 5، أبريل، 1962، ص 33.

(3) رحلة ابن بطوطة، 213/4.

السُّلطان أبو الحسن ⁽¹⁾ من أيديهم وأرجعه إلى الإسلام، بعد أن زود ولده أبو مالك بالعدة والعتاد، فحرره خلال ستة أشهر من حصاره لهم.

وبعد أن خرج الإسبان من جبل الفتح صاغرين، سُلِّمت مقاليد الحكم فيه لأبي الحسن ذي المآثر والمكارم الحميدة، فقام بعدة تعديلات في مجال العمران، ورفع المظالم عن أهلها. وما يحسب لهذا الرجل هو تصديه للفتنة التي دبرها عيسى بن الحسن بن أبي منديل وإنه، فتفادها بحسن تدبيره وذكائه، وبعث ابنه أبا بكر وجملة من الفرسان الأنجاد إلى جبل الفتح ليتولوا أموره، ويقفوا عليها.

استمر ابن جزى في سرد ما فعله السلطان أبو الحسن المريني لهذا الجبل ولأهله، ليختم نصّه بقصيدة مشهورة للرصافي البلنسي ⁽²⁾ في وصفه، ومدح السلطان الموحيدي عبد المؤمن بن علي ⁽³⁾:

لَوْ جِئْتَ نَارَ الْهُدَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ

⁽¹⁾ هو السلطان أبو الحسن علي، كانت مدته عشرين سنة وأربعة أشهر. توفي بجبل هنتاة من مراکش، في آخر شهر ربيع الأول من عام اثنين وخمسين وسبعمائة. ينظر:

- الحلل الموشية لمؤلف مجهول، ص 178.

⁽²⁾ هو أبو عبد الله محمد بن غالب الرقّاء الأندلسي الرصافي البلنسي، نسبة إلى رصافة بلنسية. ولد الرصافي الرقّاء الأندلسي في رصافة بلنسية، في سنة نجهلها. انتقل مع أهله إلى مالقة، وهناك تلقى شيئاً من فنون العلم والأدب. عاش الرصافي في مالقة عيشة لهو ومجون، مما أدى إلى تفتح مواهبه الشعرية باكراً.

في سنة 555هـ جاء سلطان الموحّدين عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس ونزل بجبل طارق الذي سمّاه جبل الفتح، ثم استدعى الشّعراء فوفدوا عليه، وألقى الرصافي بين يديه قصيدة من ثلاثة وستين بيتاً صحيحة البناء تفيض بالروح الديني وتكثر فيها الإشارات التاريخية ولقد بشرت هذه القصيدة الرصافي الذي لم يكن بعد قد جاز العشرين بمستقبل زاهر في الشعر. ترجمته في:

- الإحاطة في أخبار غرناطة، 505/2 - 506.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 430/5.

⁽³⁾ هو عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يعلى بن مروان بن نصر بن الأمير أبو موسى بن عبد الله بن يحيى. لقبه الموحّدون بالخليفة أمير المؤمنين. كانت ولايته حسنة وسيرته جيّدة لم يكن في ملوك الموحّدين مثله أحسن عطية ولا فروسية ولا ديناً، ولا أكثر علماً منه.

جاز إلى الأندلس سنة 555هـ، ونزل بجبل الفتح وأمر ببناء الحصن الكائن الآن فيه، وهو الذي احتط رسمه بيده، وتولى بناءه ابنه السيد أبو سعيد عثمان، صاحب غرناطة. ترجمته في:

- الحلل الموشية لمؤلف مجهول، ص 154 - 155.

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لأبي زرع الفاسي، تصحيح: كارل يوحن ثورنبرغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسالة، 1833، ص 133.

بين هذا النص مدى قدرة ابن جزي ومهارته الأدبية، وتلاعبه بالألفاظ والعبارات، وحسن تنسيقه لها، ونفاسة تعبيره، وتكلفه الصنعة والمحسنات البديعية، وتضمينه للمقطعات الشعرية. فعند قراءة هذا النص نصاً آخر لابن بطوطة يُلاحظ الفارق الشاسع بين الأسلوبين. فالأسلوب له دورٌ كبيرٌ في إبراز ثقافة الفرد وشخصيته.

وعندما وصل الرحالة إلى مدينة غرناطة الموطن الأصلي لابن جزي، التي خرج منها مكرهاً، بسبب السلطان أبي الحجاج ابن الأحمر الذي ضربه بالسياط ليمتحنه من غير ذنب اقترفه؛ قال: «لولا خشيت أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه»⁽¹⁾. عجز لسان ابن جزي عن التعبير عما أحسَّ به تجاه غرناطة، ووصف محاسنها ومآثرها خوفاً من أن يُنسب إلى العصبية، أو أن يفرط في الحديث عنها أكثر من مدينة فاس التي نصرته، وآوته بعد أن أهين وأمتحن في بلده. وخوفاً من الإطالة استشهد بثلاث أبيات شعرية لأبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين السبتي⁽²⁾ نزيل غرناطة⁽³⁾ في وصفها؛ فقد أحسن وأجاد:

رَعَى اللَّهُ مِنْ غَرْنَاةٍ مُتَبَوِّاً يَسُرُّ حَزِيناً أَوْ يُجِيرُ طَرِيداً
تَبَرَّمَ مِنْهَا صَاحِبِي عِنْدَمَا رَأَى مَسَارِحَهَا بِالثَّلْجِ عُذْنَ جَلِيداً
هِيَ الثَّغَرُ صَانَ اللَّهُ مِنْ أَهْلَتْ بِهِ وَمَا خَيْرُ ثَغَرٍ لَا يَكُونُ بَرُوداً

شارك ابن جزي قدر استطاعته في تطور، وسير رحلة ابن بطوطة، فعمل جاهداً على تنسيق حكاياتها وترتيبها كما يجب، وذلك بالاستعانة بكتب الرحلات السابقة للتُحفَة، والاقتباس من نصوصها، إلى جانب هذا كان في بعض الأحيان يُعلّق على بعض النصوص، ويُضيف إليها فقرات من إنشائه وصنيعه، كما في حديثه عن جبل الفتح، إضافة إلى تطعيمه الرحلة ببعض المقطوعات الشعرية.

(1) رحلة ابن بطوطة، 221/4.

(2) هو الشيخ الكاتب القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن شيرين الجذامي، أصله من إشبيلية، من حصن شُلب. ولد أبو بكر بن شيرين في سبتة في أواخر سنة 674هـ. بدأ تعلّمه بالقراءة على جدّه لأُمّه أبي بكر بن عُبيدة الإشبيلي وعلى الأستاذ أبي إسحاق الغافقي. ثمّ إنّه رحل إلى تونس ولقي نفراً من علمائها. وفي أواخر سنة 705هـ جاء إلى غرناطة وتولّى الكتابة للسلطان أبي عبد الله محمد بن محمد المخلوع. وتولّى القضاء أيضاً. ترجمته في:

- نفح الطيب للمقري، 541/5.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 436/6.

(3) رحلة ابن بطوطة، 221/4.

كذلك المقدمة والخاتمة كانتا من صنيعه، وهناك من يرى أنه هو مَنْ وضع عنوان الرحلة ⁽¹⁾ وسمّاها " تُحفّة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، ولا عجب في ذلك فمن المحتمل جداً أن يكون من إنشائه، لأنّه اعتمد فيه على السجع، وحسن العبارة، وهذا لا يتأتى إلا لأديب متمرس وليس لفقير. يعطي العنوان لمحة سريعة عن مضمون الرحلة، فهو أولى عتبات النصّ ومفتاحه، فمن خلاله يمكن أن تعرف وجهة الرحالة، وهدفه، بصورة عامة، ولننظر إلى هذا العنوان مثلاً " تُحفّة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لاشك في أنّه يدل على أن ابن بطّوطة سيتحف القارئ ويمتعه بمشاهدات، وأخبار عن غرائب ما رأى في الأمصار والممالك التي وصلها، وما لقي في رحلته الطويلة من عجائب وطرائف، وبالفعل عند الإمعان في قراءة مضمون الرحلة نقف على كثير من هذه العجائب والغرائب مستمتعين بقراءتها، لما حوته من أخبار عن البلدان المختلفة التي دخلها، ونقل كلّ ما تعلق بها. ولولا هذا العنوان الطويل المسجوع لما كُوتت فكرة عامة عن الرحلة قبل قراءتها، ولهذا لجأ ابن جزّي إلى مميّزات العنوان التقليدي الذي من سماته: « الطول والمضمونية والتسجيع، وهي عناصر كانت لها شروطها التاريخية والثقافية؛ وذلك أن حضور المضمون والسجع في العنوان يستدعي - ضرورة - عنصر الطول، من أجل الوضوح والإغراء، واستيعاباً لاتساع مضمون الكتاب » ⁽²⁾.

وفي الأخير يمكن القول إن المقدمة والخاتمة، وبعض أوصاف المدن من صنيع ابن جزّي؛ فقد تقاسم مع ابن بطّوطة مهمة إخراج هذه الرحلة، فطعّماها بأسلوبين مختلفين لتأدية المعاني، مع ملاحظة الفرق بينهما، فأسلوب ابن جزّي هو أسلوب أديب بارع متفنن. اعتمد على التصنع وتكلف ألوان البديع المختلفة التي انتشرت في ذلك العصر، وباتت عادة يطلبها الأدباء والكتاب.

أمّا أسلوب ابن بطّوطة فهو أسلوب فقيه هاوٍ يحبّ السياحة والاستطلاع ليست لديه رغبة في الكتابة والأدب، وإنّما يميل أكثر إلى الجانب العلمي الفقهي، فكان كلّ همّه تقديم مادة الرحلة دون مراعاة لغته، فجاء أسلوبه سردياً بسيطاً يتماشى مع غرض القصّ، ولهذا كثيراً ما وظّف الألفاظ العامية والتركية والفارسية في رحلته. عمل ابن جزّي جاهداً على تنقيحها وتهذيبها، فحيناً كان يثبت ما قاله الرحالة بنصّه الصريح، وحيناً آخر كان يُعدّل، ويُضيف فقرات من صنيعه بالاعتماد على كتب الرحلات السابقة، كلّ هذا ليقدم ما أملاه الرحالة من مشاهدات وأخبار في وحدة متكاملة لا يشوبها

(1) ابن بطّوطة وصناعة أدب الرحلة لشادي حكمت، ص 19.

(2) الرحلة في الأدب العربي " التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل " لشعيب الحليفي، ص 180.

نقص أو خلل. إلا أنّ بعض الدارسين وقفوا من الدور الذي أداه ابن جزى فوجهوا إليه النقد، بحجة إفساده الرحلة بأسلوبه المتميّز، إلى جانب أسلوب ابن بطّوطة العادي: « وقد أثر ذلك على منهج الكتاب وعلى التسلسل والتكامل فيه، برغم الجهد الواضح الذي بذله الكاتب للربط بين هذه القصص والأخبار، ومن هنا فإن طريقة المشاركة في الإملاء والتدوين جعلت من الصعب الارتفاع بأسلوب الرحلة إلى النمط الجيد والتدوين المتكامل المترابط »⁽¹⁾، عاب هؤلاء النقاد أسلوب ابن جزى، حيث أدخل الخلل والاضطراب على أجزاء الرحلة، وفكك عُرى تسلسلها لأنّ الفارق كبير بين الأسلوبين، وهذا ما يؤرّجح القارئ ويذبذبه بين تعبيرين مختلفين.

حمل ابن بطّوطة وابن جزى على عاتقهما إخراج هذه الرحلة بكلّ محتوياتها، فتقاسما هذه المهمة السامية: الأول يسرد ويقصّ والآخر يحرّر ويُدبج. وفي الأخير تبقى الرحلة منسوبة لابن بطّوطة، ومهمة الصياغة والتنقيح لابن جزى، ويمكن النظر إلى علاقة ابن بطّوطة بابن جزى كما قال أحد الدارسين، من خلال العناصر الآتية⁽²⁾:

- عنصر الداخل والخارج فابن بطّوطة سارد من داخل النصّ، و ابن جزى سارد من خارج النصّ.
- يفرض الداخل مركزية السرد، ويسمح الخارج بتموّع أقل، من حيث الصياغة والتأثير على المتلقي. من ثمّ فـ " هَيْكَلَة " الرحلة، بأبوابها وعناوينها الثانوية وشروحاتها المختلفة من قبل " سارد الخارج " لا ينفي سلطة " سارد الداخل " الذي اكتسب شرعيته منذ ثلاثين سنة قضاه في الحلّ والترحال.

- لا تقف هذه الشرعية عند حدود نوعية الممارسة ذاتها، خاصة أن " الذي أصابعه في النار يختلف عن الذي أصابعه في الماء "، بل تمتد إلى كون مركزية " سارد الداخل " لا تتوقف بتوقف النص أو بانتهاء الرحلة. ومن ثمّ فـ " سارد الداخل " يتحوّل إلى [دليل] ضروري لـ " ابن جزى " والدليل - في السياق - لا ينحصر في الوظيفة " الخرائطية " بل يمتد إلى الوظيفة الأخلاقية والمعرفية، فضلا عن الوظيفة السردية التي تسمح بإعادة بناء الرحلة⁽³⁾.

(1) أدب الرحلة عند العرب لحسني محمود حسين، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983، ص48.

(2) الرحلة في الأدب المغربي (النص، النوع، السياق) لعبد الرحيم مؤذن، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص27-28.

(3) المرجع نفسه، ص28.

من خلال هذه العناصر نرى أنّ ابن بطّوطة سارداً من داخل النصّ، فهو المتحكم في مراحل سيره وترحاله، حيث قدّم المادة، ولولاه لما كانت هناك رحلة ولما كان هناك كاتب له، وهذا يعني أيضاً أنّ أنه الساردة طاغية بشكل عام في الرحلة، فهو مركز السرد ومن حوله تدور الأحداث، لأنّه شاهد ورأى وحدد ارتساماته ومشاهداته، أمّا ابن جزّي فهو سارد من خارج النصّ، وهو المتحكم في هيكل الرحلة وشكلها.

من هذا الكلام يتبيّن أنّ ابن بطّوطة سارد أول، سرد أخبار سفره إلى سارد ثانٍ هو ابن جزّي الذي تحكم هو بدوره في الرحلة، ولكن بدرجة أقل من الرحالة الذي طوّف البلاد طويلاً وعرضاً، فأولية السرد ترجع بالضرورة إليه بلا نقاش، كما يمكن اعتباره دليلاً ضرورياً على جميع المستويات (الجغرافية والأخلاقية والمعرفية والسردية) لأبّد منه لابن جزّي: « فإن طبيعة الكلام في الرحلة ظلت مدينة لساردها الأول بحكم تحوّل " ابن جزّي " إلى متلقّ وظيفته الحرص على ملء الثغرات »⁽¹⁾. من خلال هذا يتضح أنّ مضمون الرحلة بما فيها من أفكار وسرد يرجع لابن بطّوطة، ومبناها يرجع لابن جزّي. إذاً تضافرت جهود الرحّلين في تأدية المعاني، فطبع كلّ منهما الرحلة بطابعه الخاص، وأضفيا عليها أسلوبين مختلفين متميزين عكّس ثقافتهم الأدبية والعلمية المختلفة.

ب/ السرد في رحلة ابن قنفذ:

تصنف رحلة " أنس الفقير وعزّ الحقيّر " ضمن الرحّلات الزيارية ذات الطابع الصوّفي. اعتمد فيها صاحبها على ذاكرته في التحرير، فكلّ ما ذكره من أخبار أبي مدين شعيب وأصحابه وشيوخه كان نتيجة ترحاله، وتنقلاته داخل بلاد المغرب وربوعه.

كان ابن قنفذ في رحلته سارداً وكاتباً في الوقت نفسه ممّا يؤكّد هيمنة الأنا النصية على الخطاب الرحّلي، عكس ابن بطّوطة الذي أملّى أخبار رحلته على كاتب متمرس في الأدب، فكان هناك ساردان في الرحلة.

كتب ابن قنفذ رحلته بعد إلحاح بعض الإخوان عليه، فقيّد شيئاً من كلام الشّيخ أبي مدين، وبعض الشّيوخ الآخرين الذين التقاهم في أثناء رحلته المختلفة، فجاءت رحلته مفككة التسلسل غير متسقة مفتقرة للترابط والتناسب، وربّما يعود هذا إلى اختفاء عامل الزمن في الرحلة بشكل لافت للنظر، فافتتحت رحلته بالحديث عن الوليّ وشروط الولاية، وعن الكرامة الصّوفية وارتباطها أو عدم ارتباطها

(1) الرحلة في الأدب المغربي لعبد الرحيم مؤذن، ص33.

بحصول الولاية، ليلج من خلالها إلى صلب الموضوع وهو الحديث عن الشيخ أبي مدين شعيب والتعريف به، والترجمة لشيوعه وأصحابه، لينتقل بعدها إلى الحديث عن آداب الصوفية، وسندهم في إلباس خرقه التصوف. ثم عرّف بجده لأمه يوسف بن يعقوب المالري، وترجم لتلامذته وأصحابه. كما ذكر في رحلته أيضاً حضوره للمواسم بالمغرب، ولقائه بأوليائه الصالحين ليعود مرة أخرى للحديث عن الشيخ أبي مدين وأصحابه.

اتسمت رحلته بالبساطة في الأسلوب، والسهولة في الألفاظ بخاصة عند سرد أخبار، ووصف كرامات الأعلام المترجم لهم في رحلته، مع توظيف بعض الألفاظ العامية كصحفة للصحن، ومخايد للوسادات، وكاملة ربّما لإناء الطعام؛ وقد علق محمد الفاسي على هذه اللفظة فقال: «إن معناها إما نوع من الطعام أو إناء... فإن كوامل وهي جمع كاملة تدل على نوع المائدة المسماة ميدة بفاس وهي مقعرة مستديرة تجعل بداخلها الصحن وتغطي بما يسمى المكب أو بمنديل»⁽¹⁾. ومن الجمل شبه العامية التي وظّفها في رحلته قوله: «سَلِّمْتُ لك في الجلوس ولا تنسنا بباطنك وأعطني سرجك نركب بها»⁽²⁾، فكلّ رحلته تقريبا على مثل هذا النحو من توظيف للألفاظ والجمل، وبعبارة أدق جاءت لغة رحلته ضعيفة وبسيطة، اعتمد ابن قنفذ فيها بشكل كبير على الترجمة لرجال التصوف، فكان شغوفاً بالبحث عن عناصره وأقطابه، ولهذا لم يُعِرْ اهتماماً كبيراً للأسلوب، وإنّما كان شغله الشاغل، وهمة الكبير التعريف بهؤلاء الرجال الأخيار الذين سلكوا طريق التصوف، فجاء أسلوبه سردياً بسيطاً واضحاً جعل هدفه تقديم فكرة عن أقطاب التصوف، وبخاصة أبي مدين شعيب، وأصحابه، وإخوانه الذين دفعوه إلى تحرير هذه الرحلة بغية الاستفادة منها، والتعرّف على مَنْ لقيهم في غيبته. فلم تتكلف رحلته السجع وألوان البديع الأخرى إلّا ما جاء في المقدمة: «الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد خاتم أنبيائه. وصرف قلوبنا إلى محبة أهل طاعته وأوليائه. وحفظ وجودنا بوجودهم في أرضه وسمائه. وجعلهم مراتب بحسب تفاوتهم في منازل أصفياه. ووعدهم بالمزيد من فضله وإحسانه ونعمائه...»⁽³⁾. اعتمد في هذه المقدمة على الصنعة والسجع ليفتح بها رحلته، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال، الذي يشدّ انتباه المتلقي، ويقع موقعاً حسناً في أذنه.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لأبي العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، شرحه وحققه: محمد الفاسي، أدولف فور،

المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص: ك.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ، تح: أبي سهل نباح عوض صيام، تقديم: علي جمعة، ص: 92.

(3) المصدر نفسه، ص: 30.

تنم هذه المقدمة عن قدرته الأدبية، وتفننه في أساليب البديع، فاعتمد فيها اعتماداً واضحاً على السجع، وجاءت عباراته المسجوعة ذات وقع في الأذن؛ فقد ألزم فيها نفسه أمرين أدخلها في خانة التصنع، أولهما طول الجملة وآخرهما طول السجعة، فقد كررها خمسة مرات، وهو ما يجعل الدارس يتيقن بأن الكاتب إنما قصدها قصداً، وتكلفها بقصد التزيين والتحسين.

إلا أن ابن قنفذ لم يعتمد هذا الأسلوب في كامل الرحلة، لأن طبيعة الموضوع عبارة عن تراجم فرض عليه البساطة في الأداء والتعبير، وربما عاد السبب إلى أن هؤلاء المتصوفة رجال بسطاء أتقياء، نبذوا الدنيا بزینتها وترفها، لينقطعوا إلى الله سبحانه وتعالى راضين بالزهد مقتنعين به، ولهذا لم يعتمد الكاتب أسلوب البديع الذي يقتضى، أحياناً، التكلف والصنعة والحشو، لأنه مظهر من مظاهر التفنن في الحياة، وهذا ما لا يتماشى مع طبيعة هؤلاء الرجال وتركيبتهم، فهم أناس عاديون يحبون البساطة، لهذا اعتمد ابن قنفذ في رحلته على الأسلوب السردي البسيط.

طعم ابن قنفذ رحلته بشيء من الأدب الصوفي⁽¹⁾ فحوت مكاتبات ورسائل إخوانية لها قيمتها الأدبية والصوفية، وهي ما تعرف عند المتصوفة بالمكاتبات السنّية، وهي الرسائل الإخوانية التي كانوا

(1) يمثل الأدب الصوفي لوناً جديداً من ألوان الأدب. أنتجه الزهاد والمتصوفة، يعكس الروح الدينية العالية، ويحمل في طياته أسماً المعاني التي تخلق في الجمال الروحي؛ فهو أدب حافل بالروح والبلاغة. يصدر عن نفوس ملأت جوارحها لواعج الأشواق، ويحكي التجربة الحية التي عاشها هؤلاء المتصوفة بين الحلم واليقظة، وبين الأمل والألم. وهو الأدب الذي كتبه الصوفيون، وخلفوه في آثارهم، وهو أدب إسلامي لأنه يستمد معانيه وقيمه ومبادئه من الإسلام والشريعة الإسلامية.

ولعل ما يفسر سمو هذا الأدب ورفعة معانيه وارتقاء أفكاره وصدق عواطفه يرجع إلى الأرضية الخصبة التي نبت عليها، وارتواء أصحابه من نبع الثقافة الإسلامية التي كانت المرجع الأول والآخر لهذه العقيدة؛ ولذلك خلق هذا الأدب في عالم الروح، وفي نور السماء، وفي جلال الله.

تمحور الأدب الصوفي في الحديث حول الوعظ والتذكير والحكمة الدينية؛ لأنه يمثل إحدى الطرق الموصلة إلى الله عز وجل. ومن أهم مميزات الأدب الصوفي الذوبان في الذات الإلهية، فكان أرقى درجات الحب عندهم. ولذلك شاعت في كثير من ألفاظهم معاني التوّد والتقرب من المولى بالاجتهاد في حبه، ولا شيء يشغلهم في هذا الكون الفاني سواه. وأمّا المناجاة فكانت بمثابة سرد للتجربة الشخصية في التصوف. تنوعت أغراض الأدب الصوفي بين الرسائل، والأمجاد النبوية، والحكم، والحكاية الكرامية، والزهد وشعر التصوف السني.

- "نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط" للطاهر بوناي، جامعة المسيلة، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، ع2، 2004.

- الأدب في التراث الصوفي لمحمد عبد المنعم الحفاجي، مكتبة غريب، (د، ت)، ص3.

يتبادلونها فيما بينهم، وقد تضمنت موضوعات مختلفة مثل الثناء والنصح وطلب الدعاء، وفي كثير من الأحيان تخللها أبياتٌ شعرية. حفلت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقيّر " ببعض الرسائل الإخوانية، ولكنها لم تكن من صنيع الرحالة، وإنما هي مجموعة من الرسائل وقف عليها عند جلده لأمه يوسف بن يعقوب بعثها إليه صديقه الشيخ أبو عبد الله محمد المسفر، كما وقف على رسالة أخرى من الشيخ أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر إلى الشيخ أبي مدين شعيب.

هذه الرسائل أعطت فكرة عامة عن الموضوعات التي كانت متداولة عند الصوفيين في ذلك العصر، فجاءت رسائلهم حافلة بالألفاظ الدينية، زاخرة بالعبارات الإسلامية، تدلُّ على الثقافة الفقهية، والتربية الإسلامية المتأصلة في أولئك المتصوفة المنقطعين لعبادة الله عزّ وجلّ، ولهذا لم تخرج رسائلهم عن الثناء والنصح، وطلب الدعاء، والاستغفار.

جاءت بنية هذه الرسائل مُفتحة بالبسملة والتصلية على رسول الله وعلى آله وصحبه، ليدخل بعدها إلى الموضوع مباشرة. إلا أنّ هناك بعض الرسائل افتتحها أصحابها بأبيات شعرية، وبعضها الآخر دخل مباشرة في الموضوع بعد الافتتاح.

كانت هذه لمحة وجيزة عن الرسائل الإخوانية الصوفية التي وردت في رحلة ابن قنفذ، وقد أثبتنا ليوّض طريقة الصوفيين والمريدين في تعاملاتهم، وكيفية انتقاء ألفاظهم وأساليبهم المستمدة من روح الثقافة الإسلامية، والمتشعبة منها.

كما حوت رحلته، أيضاً، مادة شعرية ذات غرض صوفي محض، هو الشعر الصوفي، الذي يعبر عن تفرد التجربة الإنسانية في رحلة استكشاف الذات والآخر والكون ذلك: « أن الشعر الصوفي كان من جانب آخر تطوراً للشعر الديني الإسلامي »⁽¹⁾.

حفظت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقيّر " في متنها مادة شعرية متناثرة بين فقرات التراجم، إلا أنّها لم تكن من نظمه، وإنما استوجبها السياق التعبيري، فجاءت مراعية للمقام الصوفي.

اعتمد الصوفية في هذا النوع من الشعر على الرمز والإيحاء والإشارة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم في قالب من الصور البيانية والبديعية. فوظفوا في أشعارهم الألفاظ السهلة الواضحة السلسلة الصادقة الموحية بالغرض مباشرة، بحيث لا تحتاج طول التأمل وإعمال الفكر، فالتزموا بالبساطة في الأسلوب عن طريق استخدام الخطاب المباشر. أمّا مضمونها فتمحور حول الوعظ والتذكير حيناً،

(1) الأدب في التراث الصوفي لمحمد عبد المنعم خفاجي، ص 167.

والحكمة الدينية من ناحية أخرى، فضلاً عن الدعاء والاستغفار والتوسل والاستغاثة، ويبدو أن هذا الشعر كان التطور الطبيعي للشعر الديني، غير أن الشعر الصوفي مجموعة من الخصائص تميزه عن بقية الأغراض الأخرى؛ نذكر بعضها بإيجاز:

1/ اعتماد الشاعر على الرمز والكناية ليحمل البيت الشعري في طياته ما لا حصر له من الدلالات، وهذا يدل على اتساع خيال الشاعر، وثراء معانيه، ورقة صورته.

2/ عناية الشعر الصوفي بالحديث عن النفس، وتظهر هذه الخاصية بصورة أوضح حين يتحدث الشاعر الصوفي عن محبته، وما يلاقي فيها من وحد وشوق واحترق، فعبروا عن الحب الإلهي أعظم تعبير، واتخذوه مذهباً في الحياة ودعوا إليه.

3/ جاء هذا الشعر عبارة عن حكيم متفرقة نتيجة للتأمل والتجربة، فجاءت صادقة تتعلق بالموت وما بعده.

إذا فالشعر الصوفي أداة للتعبير الصادق المحقق في عالم الروح، فكان نبعا يرتوي منه الصوفية. ساق ابن قنفذ القسنطيني أبياتاً من الشعر في رحلته لشعراء آخرين على سبيل المثل والاعتبار، عقب ترجمته لكل شيخ حسب الحالة التي تقتضي ذلك سالكاً طريق ابن الزيات التادلي⁽¹⁾ في منهجية كتابه "التشوف إلى رجال التصوف"⁽²⁾، أخذنا عنه أكثر الأبيات التي ورد ذكرها في رحلته.

2- الوصف:

الوصف هو التجسيد والإظهار، وهو الوسيلة التي يستعين بها الشاعر أو الكاتب لتصوير مشاهداته ومرئياته مبدياً إعجابه، معتمداً في ذلك على الخيال وصدق التعبير، وللوصف وظيفتان أساسيتان: « الأولى جمالية يقوم الوصف فيها بعمل تزييني، حيث يشكل استراحة وسط الأحداث

(1) يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي: عرف بابن الزيات، قال الحضرمي: هو الشيخ الفقيه القاضي الأديب مؤلف كتاب التشوف إلى رجال التصوف، وله تأليف في صلحاء المغرب لم يدخل الأندلس، صحب أبا العباس السبتي ولقي ابن حوط الله والسلاقي، وشرح مقامات الحريري، وحدث بكتابه التشوف الأستاذان الفاضلان أبو القاسم ابن الشاط وابن رشيد عن قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن علي الشريف عنه إذناً، توفي قاضياً بدقداق سنة 627هـ أو سنة 628هـ. ترجمته في:

- نيل الإبتهاج بتطريز الدياج لأحمد بابا التنبكي (963هـ)، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989، ص 626 - 627.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، 185/1.

(2) تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997.

السردية...والثانية توضيحية أو تفسيرية تجعل للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكيم»⁽¹⁾.

يقوم الوصف بوظيفتين هامتين أولهما إضفاء مسحة جمالية على النصّ وثانيهما توصيل معنى معين من خلال وصفه للشخصيات والأحداث والأماكن، من أجل أن يجعل القارئ يعيش جوّ القصة أو النصّ.

يعتبر الوصف أداة أساسية للسرد، ومن عناصره الملازمة له: « إن كل عمل سردي يحتوي صوراً من الحركات والأحداث، وهذه الصور هي التي تشكل السرد بمفهومه الدقيق، كما أن كل عمل سردي يشتمل على صور من الأشياء والشخصيات، وهي التي تمثل في العهد الراهن ما يُطلق عليه الوصف»⁽²⁾. فالوصف يتماشى مع السرد، الذي لا يستطيع الاستغناء عنه، لأنّ السرد أساس القصّ والمتحكم في الوصف.

يختص الوصف بالشخصيات وأفعالها والأماكن وغيرها من الأمور الأخرى، أي أنّه يرتبط ارتباطاً شديداً بالمكان عكس السرد الذي يرتبط بالزمان: « إذا كان السردُ يُشكّل أداة الحركة الزمنية في الحكيم، فإن الوصف هو أداة تُشكّل صورة المكان، ولذلك يكون للرواية بعدان: أحدهما أفقي يشير إلى السيرة الزمنية، والآخر عمودي يشير إلى المجال المكاني الذي تجري فيه الأحداث»⁽³⁾. وباتحادهما معا يتشكل الفضاء العام للنصّ.

يعدّ السرد العنصر الأساس المكوّن للرحلة لأنّ المشهد القصصي فيها مستمر، فإنّ الوصف من أدواتها الرئيسة، فبوساطته ينقل الرحالة ارتساماته عن البلدان والشعوب، والثقافات التي خبرها.

أ/ الوصف في رحلة ابن بطّوطة:

نقل ابن بطّوطة في كتابه كلّ ما شاهدته من حكايات وأخبار، فاعتمد على عنصر الوصف لتصوير ذلك، فوقف عند كثير من المدن والأماكن، والمساجد والزوايا والمدارس والشخصيات، وبخاصة الذين لفتوا انتباهه، فأولى عناية خاصة بالأولياء الصالحين وذوي الكرامات.

(1) تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة لمحمد عزّام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص337.

(2) في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد) لعبد الملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص249.

(3) بنية النصّ السردية (من منظور النقد الأدبي) لحمد حميداني، ص80.

كان الوصف بذلك إحدى أهم ركائز رحلته، وجعلها مصدراً هاماً لوصف الثقافات الإنسانية المختلفة؛ فصور أخلاق الشعوب، وطباعها، وحياتها، ودياناتها، وعاداتها، وتقاليدها، فضلاً عن وصفه للبيئات الجغرافية مثل حديثه عن التربة والمناخ والأنهار والمياه، ووصف بعض الأماكن بالحسن والبهاء، وحديثه أيضاً عن المنشآت العمرانية كالمساجد والزوايا، وتحديد مساحتها وقياساتها، ووصفها وصفاً دقيقاً مفصلاً.

والملاحظ على وصف ابن بطوطة هو تركيزه على بعض الأماكن دون أخرى، فهو، كما هو معلوم، زار بلداناً كثيرة، إلا أن وصفه لها لم يكن بالمستوى نفسه.

فتارة نراه يحتزل الوصف فلا يتجاوز سطوراً، وطوراً يميل إلى التطويل والإحاطة بجميع ما يتعلق بالبلد، وسكانه وعاداتهم وتقاليدهم، كما في حديثه عن الأماكن المقدسة: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس، وبخاصة مكة المكرمة التي أفاض في الحديث عنها، وعن شعائرها المقدسة، وعن عادات أهلها وتقاليدهم، الذي يتجاوز تقريباً أربعين صفحة، ووقف كذلك طويلاً عند المراكز العربية الإسلامية المشهورة كالقاهرة، والعراق، ودمشق، وفلسطين، وهي مراكز الإشعاع العربي في ذلك الوقت، أما مدينة دلهي فقد تحدث عنها مطوّلاً، وخصّص لها من الصفحات أضعاف ما خصّصه لمكة المكرمة.

تناول في وصفه لهذه البلدان جميع مناحي الحياة، وكلّ ما يتعلق بالسكان، وبعاداتهم، فتفصيل وصف المدن عند ابن بطوطة، والوقوف عند دقائقها مقوّماً من مقوّمات رحلته.

أولى الرحالة أهمية لبعض الأماكن لأن وقوفه عندها يحتاج إلى تطويل، وإمعان نظر، ودقة ملاحظة نظراً لمكانتها عند المسلمين. تجلّى ذلك في حديثه عن مكة المكرمة، فافتتح حديثه بوصف مشاعره وإحساسه الرائع ببلوغها، والوقوف على أراضيها المقدسة، ليصفها بعد ذلك: «وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن وادٍ تحفّ به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها وتلك الجبال المطلة عليه ليست بمفرطة الشموخ»⁽¹⁾، ليعرض للحديث عن أبوابها الثلاث، وذكر مسجدها الحرام فأسهب في وصفه، وما أجري عليه من إضافات وتعديلات وما تحتويه الكعبة الشريفة من الداخل وأستارها، والميزاب المبارك والحجر الأسود، والمقام الكريم، والحجر والمطاف، وزمزم، ليعود مرة أخرى إلى المسجد الحرام، والتحدث عن أبوابه، وما دار به من المشاهد الشريفة، كما وصف أيضاً الصفا والمروة والجبانة

(1) رحلة ابن بطوطة، 368/1.

المباركة⁽¹⁾، وبعض المشاهد خارج مكة المكرمة، لينتقل إلى الحديث عن أميرها في ذلك العهد: «أسد الدين رُمَيْثَة وسيف الدين عُطيفة ابني الأمير أبي نُمَى بن أبي سعد بن علي بن قُتادة الحَسَنِيِّين ورُمَيْثَة أكبرهما سناً، ولكنه كان يُقدِّم اسم عُطيفة في الدعاء له بمكة لعدله»⁽²⁾.

بعد انتهاء الرحالة من الحديث عن الأماكن المقدسة ووصفها عرض لذكر أهل مكة وفضائلهم، ووصفهم بمكارم الأخلاق، وإيثارهم للضعفاء وحسن جوار الغرباء: «ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمةً يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين»⁽³⁾. فهم أناس ظرفاء أكثر لباسهم البياض يتميزون بالنظافة وكثرة التطيب، أما نساؤهم فهن فائقات الجمال ذوات صلاح وعفاف، ثم ذكر قاضيهما، وخطيبهما، وإمام الموسم بهما، وعلماءهما، وصلحاءهما، وبعض المجاورين بهما، ثم تحدّث عن عاداتهم في صلواتهم ومواضع أئمتهم: «فمن عاداتهم أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدّم من قبل أولي الأمر، وصلاته خلف المقام الكريم... فإذا صلى الإمام الشافعي، صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبالة الميزاب المكرم»⁽⁴⁾، وبعدها تحدّث عن عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة، وذكر عاداتهم في استهلال الشهور: شهر رجب وعمرته، وعاداتهم في ليلة النصف من شعبان، وشهر رمضان المعظم، وشهر شوال، لينتقل إلى ذكر إحرام الكعبة الشريفة، وشعائر الحج المقدسة.

أمّا مدينة الرسول صلى الله عليه وسلّم فأخذت هي الأخرى حجمها المناسب، ونالت مكانتها التي تستحقها. بدأ بالحديث عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وروضته الشريفة، وهو مسجد مستطيل الشكل، يتوسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، تحف به شوارع مبلطة بالحجر المنحوت، والروضة المقدسة في الجهة القبليّة مما يلي الشرق من المسجد، عجيبه الشكل مدورة بالرّخام البديع النحت، وبعد وصفه لهما وصفاً مفصلاً عرض لابتداء بناء المسجد الكريم، ليتحدّث بعده عن المنبر،

(1) وهو الموضع المعروف بالحجون وهنا يذكر بيبي الحارث بن مضاض الجُرهمي :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفاً أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى! نحن كنا أهلها فأبادنا صُروف الليالي والجُدود العواتر!!

(2) رحلة ابن بطوطة، 386/1.

(3) المصدر نفسه، 387/1.

(4) المصدر نفسه، 397/1.

والخطيب، والإمام، والخُدام، والمؤذنين به، والمجاورين وأمير المدينة، والمشاهد المباركة بخارجها، ثم انتقل إلى وصف طريق مكة المكرمة ليصفها وصفاً بارعاً، وكأنه يرسمها أمام الأعين.

أما بيت المقدس فهو ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعرجه إلى السماء، فابتدأ بذكر المسجد الأقصى وهو من المساجد العجيبة الفائقة الحسن: «يقال إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه»⁽¹⁾ ليسرد المساحات والأقياس، ثم تحدث عن قبة الصخرة التي تعد من أعجب المباني، وأتقنها وأغربها شكلاً، وعرج أخيراً على المشاهد المباركة بالقدس الشريف وفضلائه.

وإذا وصف مصر ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا، التي وصفها وصفاً دقيقاً، فقدّم صورة عامة عن عاداتهم وتقاليدهم قال: «ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزة ومرة في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف»⁽²⁾. ثم تحدث عن قرافة مصر ومزاراتها، ونيلها، وأهرامها، وأعيانها، ويوم الحمل الذي هو من الأيام المشهودة يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والمحتسب، وأعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء، وأرباب الدولة قاصدين باب القلعة، أما الإسكندرية فهي الثغر المحروس، مدينة جميلة أصيلة البنيان تحدث عن أبوابها ومرساها ومنارتها وعمود السواري، وبعض علمائها كأبي الحسن الشاذلي صاحب الكرامات الشهيرة المدفون بـجُمَيْثَرَا، وإليه تنسب الطريقة الشاذلية، وهنا عرض لذكر حزب البحر المنسوب إليه.

ولما دخل دمشق عجز لسانه عن وصفها لفرط حُسْنِها، فلم يجد أبدع مما قاله أبو الحسين بن جُبَيْر في وصفها. هذا المقطع الذي أورده ابن بطّوطة في رحلته كان من صنيع ابن جزي مُحرّر الرحلة الذي اطلع على كتب عصره، ولاسيما الرحلات لاشتهارها وانتشارها في القرنين السابع والثامن للهجرة، فقدم لها مجموعة من الأشعار من أحسن ما قيل فيها، ليعرض إلى الحديث عن جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية: «وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً»⁽³⁾.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 1/246.

(2) المصدر نفسه، 1/204.

(3) المصدر نفسه، 1/306.

ثم ذكر شيئاً عن تاريخ بنائه ومن تولى ذلك، ليتحدث بعدها عن زينته وأصبغته ومساحته وأبعاده، حيث يوجد في خزانته الكبيرة المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام، ثم تحدث عن الأئمة به: « وأئمته ثلاثة عشر إماماً أولهم إمام الشافعية »⁽¹⁾. والمدرسين والمعلمين به، وقضاة دمشق، ومدارسها وأبوابها، وبعض المشاهد والمزارات بها.

وإذا وصف بغداد دار السلام وحضرة الإسلام، لم يجد لها هي الأخرى، وصفاً أحسن من وصف ابن جُبَيْر لها، فهذه المدينة قد ذهب رسمها، ولم يبق إلا اسمها بفعل الحوادث وغزوات التتر وحملة هولاءكو. وقف ابن بطّوطة أمام حماماتها مبدئياً إعجابه، فأكثرها مطلية بالقار تُخِيلُ لرائيه أنه رخام أسود، وبها حجرات كثيرة، وفي كل حجرة حوض فيه أنبوبان، أحدهما يجري بالماء الساخن، والآخر بالماء البارد، وكل داخل إليه يُعطى ثلاث فوطات: « إحداها يتّزر بها عند دخوله والأخرى يتّزر بها عند خروجه، والأخرى ينشف بها الماء عن جسده »⁽²⁾.

والذي استرعى انتباه الرحالة في مدينة بغداد سوقها المعروف بسوق الثلاثاء في الجهة الشرقية منه: « كل صناعة فيها على حدة »⁽³⁾. وفي وسط هذه السوق توجد المدرسة النظامية وفي آخره المدرسة المستنصرية. ثم تحدث عن قبور الخلفاء وبعض العلماء والصالحين ببغداد.

أمّا جزائر ذِيَّة المَهْل (جزر مالديف) فتعدُّ إحدى عجائب الدنيا: « وهي نحو ألفي جزيرة، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات »⁽⁴⁾. ولما وصل إلى مدينة دلهي قاعدة بلاد الهند أطل حديثه عنها، فهي مدينة ضخمة جامعة بين الحسن والحصانة: « كبيرة الساحة، كثيرة العمارة وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات »⁽⁵⁾. ثم تحدث عن سورها الذي لا نظير له وأبوابها الثماني والعشرون، وهم يسمون الباب دروازة، ليعرض لجامعها فيصفه وصفاً دقيقاً، وذكر أيضاً بعض علمائها وصلحاءها.

كانت هذه، إذاً، بعض النماذج عن وصف المدن في رحلة التُّحفة، فكان وصفها موضوعاً ذاتياً، نابعاً من دقة ملاحظة، ونظر ثاقب أكد منهجه العلمي في الوصف. وعند وصفه لهذه المدن عرض لدراسة حياة أهلها وعاداتهم وتقاليدهم، وذكر علماءهم وصلحاءهم.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 313/1.

(2) المصدر نفسه، 61/2.

(3) المصدر نفسه، 64/2.

(4) المصدر نفسه، 54/4.

(5) المصدر نفسه، 104/3.

لم يقف ابن بطّوطة عند وصف المدن فحسب، بل تطرق إلى وصف عديد من الأشياء؛ فقد نالت المرأة، هي الأخرى، حظّها من الوصف، فانظر إليه، مثلاً، يصف نساء مكّة المكرمة: « ونساء مكّة فائقات الحسن، بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب حتى إنّ إحداهن لتبيت طاويةً وتشترى بقوّتها طيباً »⁽¹⁾، وكذلك نساء هنور من بلاد الهند فإنّهن يتميزن بالجمال والعفاف، ومن خصائصهن حفظهن للقرآن العظيم. وفي هذه المدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين مكتبا لتعليم الأولاد.

أمّا نساء جزائر ذيبة المهل فلا يغطين رؤوسهن، وكذلك سلطانتهم، يمشطن شعورهن ويجمعنّه إلى جهة واحدة، ولا يلبسن إلاّ فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوف، ساء هذا الوضع الرّحالة باعتباره رجلاً مسلماً، فجاهد في قطع هذه العادة الذميمة لما تولّى القضاء بها: « فلم أستطع ذلك فكنت لا تدخل إليّ منهن امرأة في خصوصية إلاّ مستترة الجسد »⁽²⁾. وهؤلاء النسوة يكثرن من لبس الحلي، فتجعل المرأة جملة من الأساور في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق، وهي من الفضة، أمّا أساور الذهب فهي حكر على نساء السّلطان وأقاربه. ومن عادتهن أنّهن لا يخرجن مع أزواجهن عن مدينتهن، وإن أرادوا السفر طلقوهن.

وإذا تحدث عن نساء شيراز وصفهن بالصلاح والدين والعفاف، وهنّ يلبسن الخفاف ويخرجن متلحّفات، فلا يظهر منهن شيء، ومن عادتهن أنّهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم: « فربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروّحن بها على أنفسهنّ من شدّة الحرّ »⁽³⁾. أوّل ابن بطّوطة المرأة في رحلته عناية، فوصف عفتها وشرفها حيناً، وعلمها ومكانتها السامية حيناً آخر، ففي بعض البلدان التي زارها الرّحالة كانت المرأة أعظم شأنًا من الرجل، وأرفع قدرا وأعلى منزلة منه كما في بلاد الماجر⁽⁴⁾: « ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهنّ أعلى شأنًا من الرجال »⁽⁵⁾.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 387/1.

(2) المصدر نفسه، 60/4.

(3) المصدر نفسه، 36/2.

(4) حُدِدت مدينة الماجر على أنّها بُوركوماذري Burgomadzhry على ساحل بحر كُوما Kuma. ينظر: رحلة ابن

بطّوطة (الحاشية)، 224/2.

(5) رحلة ابن بطّوطة، 225/2.

صور ابن بطوطة انطباعاته عن كل شيء رآه، فكان بذلك موسوعة يستفيد منها أي باحث في أي تخصص، فوصف كل ما استرعى انتباهه وشدّ ناظره. فمثلا عندما وصل إلى بلاد السند رأى بها الكرّكدن، وهو حيوان أسود اللون، عظيم الجرم ذا رأس كبير، يُضرب به المثل فيقال: «الكركدن رأس بلا بدن»⁽¹⁾، ثمّ قارن بينه وبين الفيل، فرأس الكركدن أكبر بأضعاف من رأس الفيل، وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر ووصف أيضا نوع من السمك يسمى بالفارسية شيرماهي⁽²⁾ ومعناه أسد السمك، لأنّ شير تعني الأسد وماهي: السمك، وهذا السمك يشبه حوت تازّرت المعروف بالبلاد المغربية، ووصف أيضا في رحلته طائر الرّخ والتمساح. كما عرض أيضا لوصف بعض المنتوجات الزراعية، ومن ذلك على سبيل المثال ذكره لأشجار بلاد الهند وفواكهها⁽³⁾، فمنها العنب، وهي شجرة تشبه أشجار النارج، إلّا أنّها أعظم جرما، وثمرها على قدر الإحاص الكبير، ومنها الشّكي والبرّكي، وهي أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز، وثمرها يخرج من أصل الشجرة، فما اتصل منه بالأرض فهو البرّكي، وهو أشد حلاوة وأطيب طعما، وما كان فوق ذلك فهو الشّكي، وثمره يشبه القرع الكبار، وجلوده تشبه جلود البقر، وعندما يصفر في أوان الخريف يقطعونه ويشقونه، فيكون بداخل كل حبة المائة والمائتان من حبات تشبه الخيار، وبين كلّ حبة حبة صفاء أصفر اللون، ولها نواة تشبه الفول الكبير، فإذا شويت هذه النواة كان طعمها مثل طعم الفول، يدخرونها في التراب الأحمر فتبقى لمدة سنة، يعدّ الشّكي والبرّكي من أحسن الفواكه ببلاد الهند.

ومنها التّندو، وهو ثمر شجر الأبنوس، يشبه المشمش في حجم حباته ولونه، وهو شديد الحلاوة، ومنها الجُمون، أشجاره عادية، يشبه الزيتون الأسود في حجمه، وله نواة واحدة مثله أيضا. ومنها النارج الحلو، وهو كثير ببلاد الهند عكس النارج الحامض، وهناك صنف آخر بين الحلو والحامض، وهو طيّب المذاق، كان الرّحالة يحبّ أكله. ومنها المهوا، وأوراقه كأوراق الجوز إلّا أنّ فيها حمرة وصفرة، وثمره مثل الإحاص الصغير، شديد الحلاوة، وفوق كل حبة منه حبة صغيرة بحجم حبة العنب.

(1) رحلة ابن بطوطة، 77/3.

(2) المصدر نفسه، 132/2.

(3) المصدر نفسه، 94/3.

ومن فواكههم، فاكهة كَسِيرَا، تزرع تحت الأرض، وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل، ومنها أَنَار: « وَأظن هو الأصل في تسمية الجُلَّانَر فإن جُلَّ بالفارسية الزهر، وأنار: الرمان »⁽¹⁾، هذه الفاكهة تثمر مرتين في السنة.

ومن الحبوب التي يزرعها أهل الهند: الكُذْرُو وهو نوع من الدُّخْن، وهو أكثر الحبوب عندهم، ومنها القال ومنها الشاماخ، وهذا النوع من الحبوب رُبَّمَا يَنْبُتُ من غير زراعة، وحبّه صغير جدًّا، إذا جمع وضع تحت الشمس ثمَّ يدق في مهاريس، فيطير لُبُّه الأبيض الذي يصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس. ومنها الماش وهو نوع من الجلبان، ومنها المُنْج، وهو نوع من الماش، حبوبه مستطيلة، ولونه أخضر، يطبخ المُنْج مع الأرز ويؤكل بالسمن ويسمونه كُشْرِي، ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول. ومنها المُوْت وهو مثل الكُذْرُو، لونه أصفر، وهو من علف الدواب، ومنها الأرز الذي يزرع ثلاث مرات في السنة. ويزرعون السمسَم وقصب السكر أيضا.

هذه الحبوب التي ذكرها الرَّحالة هي حبوب خريفية كما قال، إذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها، ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس. وإذا تحدث الرَّحالة عن أشجار جزائر ذبية المهل وصف أشجار النَّارجيل⁽²⁾، وهو شجر عجيب تُثمر النخل منها اثني عشر عذقا في السنة، يُخْرَج في كلِّ شهر عذق، يصنعون منه الحليب والزيت والعسل. وهذا الشجر (جوز الهند) مشهور أيضا ببلاد ظفار⁽³⁾، جوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليه ليفاً شبه الشعر، تصنع منه الحبال التي تخاط بها المراكب بدلا عن مسامير الحديد وتصنع منه الحبال للمراكب.

ومن أشجار جزر مالديف الجُمُون والأترج والليمون والقلقاص. ومن أشجار مدينة ظفار التنبول الذي يغرس كما تغرس دوالي العنب، ولا ثمر به، وإثما المقصود منه ورقه، وهو شبيه بورق العليق⁽⁴⁾. أمّا شجرات الفلفل⁽⁵⁾ التي ببلاد المُلِّيَّار فشبيه بدوالي العنب، يغرسونها إزاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالي، وأوراق شجره تشبه آذان الخيل، وبعضها يشبه أوراق العليق.

(1) رحلة ابن بطوطة، 95/3.

(2) المصدر نفسه، 55/4.

(3) المصدر نفسه، 127/2.

(4) المصدر نفسه، 127/2.

(5) المصدر نفسه، 38/4.

لم تخل رحلة ابن بطّوطة من حديث عن الجواهر واليواقيت، فذكر مغاص الجواهر فيها بين سيرا ف والبحرين، وهذا المغاص تأتيه القوارب الكثيرة فيها الغوّاصين، وتجار فارس والبحرين والقطيف، يسبح هؤلاء الغواصون حتى يصلوا إلى قعر البحر فيجدوا الصدف فيه بين الأحجار الصّغار مثبتا في الرمل: « فيقتلعه بيده أو يقطعه بجديدةٍ عنده معدّة لذلك ويجعلها في مخلّاة جلد منوطة بعنقه »⁽¹⁾، يوجد في جوف هذه الأصداف قطع لحم تقطع بجديدة فإذا لامسها الهواء جمدت فصارت جواهر.

أمّا الياقوت فقد رآه الرّحالة في مدينة كُنْكَار وجزيرة سيلان، يوجد هذا الحجر الكريم في جوف أحجار بيضاء مشعّبة، يعطونها للحكّاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت، وهو ألوان فمنه الأحمر، ومنه الأصفر، ومنه الأزرق ويسمونه التِّلْمُ⁽²⁾.

تعرض الرّحالة أيضا لوصف الزُّيُوت، ومن ذلك زيت السَّمسم الذي سَمّي عند أهل الهند بالسيراج⁽³⁾، يغسلون به الشعر.

استرعى انتباه ابن بطّوطة أحوال المدن وعادات النّاس وتقاليدهم، واختلاف طبائعهم فسجل كل ذلك في رحلته، ومن العادات التي وجدت صدى في رحلته إحراق الموتى في الهند، شاهد ذلك بأم عينيه فهاله المنظر، وكاد يسقط عن فرسه لولا تدارك أصحابه له بالماء، فعندما يموت شخص ما في الهند تُؤجج النار لإحراقه، وقد تحرق المرأة نفسها مع زوجها وهو أمر مندوب عندهم غير واجب: « من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا ونُسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة لعدم وفائها »⁽⁴⁾، فذكر قصة النساء الثلاث اللاتي أحرقن أنفسهن مع أزواجهن مفصلاً في الطريقة التي اتبعن، وكذلك يفعل أهل الهند في الغرق: « يُغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك وهو الذي إليه يحجون، وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحروقين »⁽⁵⁾.

ومن عادات أهل سكان مُنية ابن خصيب في مصر دخولهم الحمام دون مآزر، فعظم ذلك على الرّحالة وأخبر قاضي المدينة، الذي كتب عقوداً على أصحاب الحمامات ينبّههم ويحذرهم أنّه متى دخل أحد الحمام دون مئزر، فسيعاقبون على ذلك أشد عقاب.

(1) رحلة ابن بطّوطة، 150/2.

(2) المصدر نفسه، 83/4.

(3) المصدر نفسه، 40/3.

(4) المصدر نفسه، 100/3.

(5) المصدر نفسه، 101/3.

جمع ابن بطّوطة في رحلته كثير من عادات أهل البلدان على تعدد أجناسها، وتنافر أمزجتها، فكانت سجلاً دقيقاً لتقاليدهم وأعرافهم.

ومن هذه العادات أيضاً، على سبيل المثال، مصاحبة الرجال للنساء الأجنبيّات، ومصاحبة النساء للرجال الأجانب بمدينة إيواتن من بلاد السودان، والذي أثار غضب الرّحالة، في هذا الشأن، هو تصرف أبي محمد يندكان المسوفي حيث سمح لامرأته بمصاحبة رجل أجنبي، وإحضاره إلى مترها، والجلوس معه على السرير، مع العلم أنّ هذا الرجل سكن بلاد العرب، وعلم طرق الشرع، ومع ذلك لم يمنع زوجته من مصاحبة الرّجال، بل أجابه بطريقة وقحة بأنّ مصاحبة النساء للرجال على خير وحسن طريقة لا تُهمّة فيها.

تعرض، أيضاً، للسلّاطين والحكام فوصفهم، ووصف سياستهم، وترتيب أمورهم، وعاداتهم في اللباس والمأكل والمشرب، وترتيب جنودهم، ومظاهر الأبهة والترف التي يعيشون فيها، ومن ذلك وصفه للسلطان محمد بن تغلق وطريقة جلوسه: « وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار، وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض »⁽¹⁾، يجعل خلف ظهره وسادة كبيرة، وعن يمينه مُتْكاً، وعن يساره مثل ذلك، وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، فإذا جلس وقف أمامه الوزير، ووقف الكاتب خلف الوزير، وخلفهم الحجاب، ثمّ يفصل في طريقة ترتيب جلوسه للناس، وكيفية دخول الغرباء عليه، وأصحاب الهدايا، ووصف أيضاً ترتيب خروجه للعديد وما اتصل بذلك. ومن جميل وصفه، وصفه للمبخرة العظمى والسرير الأعظم، فتتصب المبخرة العظمى في أيام العيد: « وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها »⁽²⁾، يوجد بداخلها ثلاثة بيوت، يدخل فيها المبخرون ليوقدّون عود القماري والفاقلي، والعنبر الأشهب والجاوي.

عرض ابن بطّوطة لوصف كل ما رآه في رحلته، فوصف البلدان وأهلها، وعاداتهم وتقاليدهم، وعمرانها من منشآت مركزاً اهتمامه على المساجد والزوايا والأربطة، فوصفها وصفاً دقيقاً بارعاً متعرضاً لتفاصيل دقيقة نقل من خلالها طريقتهم في الذكر والتعبّد واستقبال الغرباء، وعابري السبيل واستضافتهم، كما حدث ذلك مع جماعة الفتيان الأخية بتركيا. كانت هذه المتعبّدات منتشرة على طول الرّحلة حارسة بذلك للعالم الإسلامي. وفي بعض الأحيان كان يقدم وصفاً للمشايخ والأولياء الذين

(1) رحلة ابن بطّوطة، 152/3.

(2) المصدر نفسه، 160/3.

التقاهم مثل حديثه عن دلشاد الهندي الرجل الأسود الذي يحمل بيده إبريقاً وعكازاً، وعلى كاهله جراب، أنقذه من موت وشيك.

فاختلاط ابن بطّوطة بأمم مختلفة، وأجناس متباينة جعله يرصد أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية متعرضاً لتفاصيل كثيرة لا يسع المجال لذكرها كلّها كحديثه مثلاً في الجانب الاقتصادي عن النقود والأسعار، البيع والشراء، المكاييل، والمراتب والحرف.

كانت المقارنة هي الأخرى حاضرة في رحلته، ففي بعض الأحيان عقد مقارنة بين بعض البلدان التي زارها وموطنه الأصلي المغرب، وفي بعض الأحيان الأخرى بين المدن التي زارها.

ولأبّد، في هذا المقام، من عدم إغفال دور ابن جزّي الفعّال؛ فقد أضفى بعض الأوصاف على المدن نقلاً عن رحالة سابقين كابن جُبَيْر، وكأنّه لم يعجبه وصف ابن بطّوطة لها، أو أنّه أحس بتقصيره في الحديث عن بعض الأماكن الهامة كالبقاع المقدّسة: مكّة المكرّمة، والمدينة المنورة، وبعض مراكز الإشعاع الثقافي كدمشق، وحلب، وبغداد، بالإضافة إلى وصفه الجميل والبالغ لجبل الفتح الذي أبدع فيه من خلال قدرته الأدبية الفائقة متوسلاً، لذلك، بألوان البديع والصنعة، فاكتسب نصّه بذلك رونقاً وطابعاً أدبياً متميزاً، اختلف تمام الاختلاف عن وصف ابن بطّوطة لمختلف ما شاهده، فاعتمد في وصفه على البساطة والموضوعية، فجاء ساذجاً بسيطاً بعيداً عن التعقيد والغموض، حيث كان كلّ همّه رصد جزئيات الأمور، وتصوير كلّ ما وقع أمام ناظريه وشدّ انتباهه.

وفي الأخير تبقى رحلة ابن بطّوطة موسوعة علمية كبيرة، تضمّ بين دفتيها معلومات وافية لما فيها من صور وأخبار الشعوب ومللهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وكلّ ما تعلق بسبل حياتهم وعيشتهم، فوصف كل ذلك وصفاً دقيقاً مبرزاً من خلالها انطباعاته حيالها، فضلاً عن رصده للثقافات المختلفة على تباين مشاربها وبنائيعها، ويمكن أن يستفيد منها أي باحث في أي تخصّص، نظراً لما احتوته من معلومات وفوائد قيّمة، فرحلته جامعة لنواحي شتى، وتناول كلّ الجوانب بالوصف والملاحظة، فلم يقصرها على ناحية متناسيا الأخرى، بل ألّمّ بجميع الجوانب سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو جغرافية أو تاريخية، حتى الحكايات والأساطير كان لها حيّز في رحلته.

ب/ الوصف في رحلة ابن قنفذ:

إنّ الوصفَ عنصرٌ مهم في أدب الرحلة، اعتمد عليه أغلب الرّحالة في نقل مشاهداتهم وارتساماتهم عن كلّ ما عاينوه. والوصف عنصر ضروري لأبّد منه، ولا يمكن أن يستغني عنه الرّحالة، فهو الذي

يضيف على الرحلة نكهة خاصة تشدُّ إليها القارئ، ومن دونه تصبح لا قيمة لها. وابن قنفذ كغيره من الرحالة اعتمد عليه في "أنس الفقير وعزُّ الحقيير". إلا أنَّ الوصف الذي ميّز رحلته اختلف عن الوصف في رحلة ابن بطّوطة الذي صوّر كلّ ما هبّ ودبّ. أمّا ابن قنفذ فقصر الوصف في رحلته على التعريف بأعلام التّصوف، والترجمة لهم بدءاً بأبي مدين شعيب ووصولاً إلى بعض أعلام القرن الثامن للهجرة، ومن وصفه الشائق لأبي مدين شعيب: «كان زاهداً في الدنيا عارفاً بالله تعالى، وخاض بحاراً من الأحوال، ونال من المعارف الربانية الآمال. ومقامه الخاص به الذي لا يلحقه فيه أحد: التوكل على الله تعالى، وكان له بسط وقبض، فبسطه بالعلم، وقبضه بالمراقبة»⁽¹⁾. ومن وصفه جدّه لأُمّه يوسف بن يعقوب البويوسف: «كانت ولادته في عام ثمانين وستمائة ووفاته في عام أربعة وستين وسبعمائة وتوفي وهو جالس في مرضه يمسح بيده اليمنى في التيمم لصلاة العصر، ودفن بزاويته بجانب أبيه وحضر جنازته من لا يحصى عدده. وأعلمهم بسنة موته قبل ذلك بتدريج في التعريف مرة بعد أخرى»⁽²⁾. ومن وصفه لأبي الهادي مصباح الصُّنهاجي⁽³⁾ الصوفي أنّه يحفظ جملة من مسائل الفقه، ويؤول ما يسمع من المسائل العلمية إلى معنى التّصوف بالوجه المستحسن، وكان كثير الصلاة، والذكر، وله أوراد مقدرة. وكان ابن عاشر⁽⁴⁾ فريداً في الورع مُيسراً عليه في ذلك أتم تيسير، كثير النّفور من النّاس. تخرّج على يده تلامذة صلحاء أخيار. جعل كتاب "إحياء علوم الدين" نصب عينيه، وأتبع ما فيه بجِدِّ واجتهاد، وصدق وانقياد.

ومن وصفه للشيخ أبي عبد الله محمد المسفر: «شهير الذكر، رفيع القدر، رقيق القلب، غزير الدمع»⁽⁵⁾. فهذه الأوصاف لهؤلاء المتصوفة اعتمد فيها صاحبها على البساطة والتلقائية في الوصف، فلم يتكلف فيها البيان والمحسنات البديعية، ولهذا جاءت جملة توخى فيها الكلمات السهلة، والعبارات الملائمة التي تصوّرهم على حقيقتهم، وعلى ما هم عليه من زهد وورع وخشوع. اعترف ابن قنفذ، في ثنايا كتابه، بقيمة المغرب الأقصى الذي هو أرض خصبة للأولياء والصلحاء وأقطاب التّصوف، فوصف ذلك قائلاً: «وقد سألت عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في

(1) أنس الفقير وعزُّ الحقيير، ص45.

(2) المصدر نفسه، ص83.

(3) المصدر نفسه، ص91.

(4) المصدر نفسه، ص42.

(5) المصدر نفسه، ص94.

الأرض التي تُنبت الصالحين كما تنبت الكلاء، فوجدتها متعددة باعتبار تعدد الأشياخ»⁽¹⁾. فالمغرب الأقصى أرض طيبة أنجبت عديد من الأولياء الصالحين وعباد الله الأخيار، فتعددت فيها الطوائف بتعدد الأشياخ، وكان لكل شيخ طلبة ومريدون يتبعونه، ويتعلمون منه الزهد والتّصوف، وهي ستة طوائف: الشيعيون والصنهاجيون والماجريون والحجاج والباحيون والغماتيون.

وفي هذه المنطقة اجتمع الرّحالة بعلمائها وأوليائها الصالحين، وانتفع بلقائهم، والجلوس معهم، والتبرّك بدعائهم؛ وقد وقع هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنططر: « وهي أرض مستوية طولها مسيرة أربعة أيام وكذلك عرضها، ووجدت فيها خمسة وعشرين مدرساً... وليس بها نهر ولا عين إلا آبار طيبة »⁽²⁾.

استمر ابن قنفذ في وصف هذا الاجتماع الذي عُقدَ في شهر ربيع الأول، سنة تسع وستين وسبعمائة، حضره كثير من الفضلاء والعلماء.

اغتنم أصحاب العلل والأمراض المزمنة كالمقعدين عن الحركة هذه الفرصة، فتزاحموا على حلق الذكر، وكلّ منهم تضرع وتوسّل إلى المولى عزّ وجلّ لصلاح جسده، وبرئه من مرضه. ومن العلماء الذين لقيهم بهذا الاجتماع الشيخ أبا الحسن بن يونس الصنهاجي الذي لا تكف له دمعة، إذا سمع آية من القرآن الكريم أو حديثاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أو بيتاً من الشعر أو كلمة صوفية. وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الجناتي من أهل العلم والصلاح والزهد، كثير المطالعة لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وما كان فيه سير الصالحين، ولباسه إمّا عباءة من تليس أو جبة من صوف، ولا يغطي راسه إلا في أيام البرد.

كان هذا وصف ابن قنفذ للعلماء والأولياء الذين لقيهم، فصورهم بما تميّزوا به من علم وصلاح وعفاف، كما وصف لباسهم الذي كان في الغالب مرقعة وجبة من صوف أو عباءة من تليس. فهم لا يعبّون بالظاهر، وإنّما يركزون على الباطن، والعمل القويم، وسلوك نهج الشريعة الإسلامية التي هي أساس العبادة والتقوى للتقرب إلى المولى تبارك وتعالى.

هكذا يمضي ابن قنفذ في وصف بقية الأولياء والمشايخ الذين ترجم لهم، مُتّبِعاً النمط نفسه تقريباً، واصفاً زهدهم، وورعهم، ولباسهم، وأحياناً قوتهم الذي يعيشون عليه. فوصف مثلاً طريقة عيش أحد

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 106.

(2) المصدر نفسه، ص 106.

المتصوفة، يقول: « وعيشه من حبك البرانيس في بعض الأوقات... وقال لي: " ليس لي عادة في غذاء أو عشاء وإنما إذا احتجت أكلت من غير توقيت »⁽¹⁾. أما الشّيخة مؤمنة التلمسانية فكان قُوْثُها من غزل يديها، ولا تقبل من أحدٍ شيئاً.

وكان أبو يعزى يقات مّا نبت في الأرض، ويأكل هذب الدفلى⁽²⁾، ويطعم الزائرين اللحم والعسل. ومن وصفه الشائق قوله عن قبر الشّيخ أبي مدين شعيب بمنطقة العباد في تلمسان: « وقبر الشيخ أبي مدين - رضي الله عنه - بالعباد معهود مشهور، وحوض للزائرين. رأيت من قبور الأولياء كثيراً من تونس إلى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفى فما رأيت أنورَ من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره وليس الخبر كالعيان. والدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان »⁽³⁾.

إذا فعنصر الوصف في رحلة " أنس الفقير وعزّ الحقيّر " اعتمد على السهولة والبساطة في الأداء أبان ضعف لغة ابن قنفذ القسنطيني، ومع ذلك فإنّه صور الأعلام المترجم لهم تصويراً صادقاً، لا تكلف فيه ولا تصنع.

لم يُعن ابن قنفذ، كغيره من الرّحالة، وبخاصة ابن بطّوطة، بجميع النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والجغرافية، وإنّما جعل جُلّ اهتمامه منصباً في التعريف بأقطاب التّصوف، ورجاله وشيوخه. وهنا يَكْمُنُ الفرق بينه وبين ابن بطّوطة، الذي تصدّى، أيضاً، لوصف الأولياء والعلماء، وأصحاب الكرامات، لكنّه لم يقصر رحلته عليهم فقط، على الرّغم من ولعه الشديد بهم وتبّعهم في كلّ مكان، بل جعل لهم حيزاً مُعتبراً في رحلته يُنمُّ عن اهتمامه بهم إلى جانب رصد، وتصوير اهتماماته الأخرى التي ذُكرت سابقاً.

واهتمامه بالأولياء والعلماء يمكن أن يصنف ضمن الناحية الدّينية إلى جانب الموضوعات الأخرى الموجودة في رحلته.

اعتنى الرّحالة بعنصر الوصف، واختلفا في مجالات اهتمامهما وتوجههما؛ فابن بطّوطة كان مولعاً بالسياحة والتّجوال، والتنقل بين البلدان، فرصد كلّ ما شاهدته في هذه الأماكن من عجائب وغرائب

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص121.

(2) الهدب: أغصان الشجر. ينظر معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص976.

- الدفلى: نبات مرّ زهره كالورد الأحمر، وحمله كالحروب، ويتخذ للزينة. ينظر معجم الوسيط، ص290.

(3) أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص149.

وثقافات وغيرها واصفاً كل ذلك. أمّا ابن قنفذ فخرج من بلده قسطنطينة بُغية الاستزادة من العلم، ولقاء أهل الفضل والصلاح، ممّن اتّصل سندهم بشيخ المشايخ أبي مدين شعيب، فترجم له ولبعض أشياخه وتلامذته وصولاً إلى بعض أعلام التصوف المشهورين في القرن الثامن للهجرة، فوصف زهدهم، وخشوعهم، وطريقة تعاملهم مع الناس، وحفظهم للعلوم الإسلامية وتطبيقهم لها.

3- الحوار:

الحوار في اللغة مأخوذ من الفعل حار بمعنى رجع⁽¹⁾، كما قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَخُورَ﴾⁽²⁾، يعني ظن أن لن يرجع إلى الحياة.

وكلمت فلانا فما أحرار جواباً وما سمعت له حواراً ولا حواراً، وحوارت الرجل محاورة وحواراً وحويراً إذا كلمته فأجبتة⁽³⁾، والتحاور: التجاوب.

إنّ الحوار بهذا المعنى يعني مراجعة الكلام، ولا يكون الحوار حواراً حتى يكون بين طرفين أو أكثر. وفي الاصطلاح هو: « نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر أحدهما دون الآخر »⁽⁴⁾. فالحوار لا يكون إلا بين طرفين أو أطراف متعددة. وإلا لا يصح أن يطلق عليه حواراً.

يعدّ الحوار عنصراً من عناصر أدب الرحلات، وبه تمتاز، إضافة إلى السرد والوصف، فالحوار من أدواتها الرئيسية. وفي بعض الأحيان ينقل الرحالة بعض المشاهد الحوارية على سبيل نقل كل ما شاهده وسمعه.

أ/ الحوار في رحلة ابن بطّوطة:

حفلت رحلة ابن بطّوطة بمشاهد حوارية عديدة، من ذلك، على سبيل المثال الحوار الذي جرى بين ابن بطّوطة والإمام الزاهد خليفة صاحب الكرامات الذي قال له: « أراك تحب السياحة والجولان في البلاد، فقال له الرحالة: نعم إني أحب ذلك، فقال: لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين

(1) لسان العرب لابن منظور، 217/4.

(2) الآية 14 من سورة الانشقاق.

(3) جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي، دار المعارف، حيدرآباد، ط1، 1344هـ، 146/2.

(4) الحوار أصوله وآدابه، وكيف نربي أبنائنا عليه؟ إعداد: أبي معاذ موسى بن يحيى الفيفي، تقرّظ: عبد الغفور عبد الحق

البلوشي، دار الخضير، المدينة النبوية، 1427هـ، ص30.

بالهند وأخي ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين»⁽¹⁾. وعند حديثه عن صحة كون القبور الثلاثة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ذكر الحوار الذي دار بين أحد الأئمة وشيخ وشاب وصبي⁽²⁾. وهناك حكاية أدهم الزاهد الذي أكل تفاحة يحملها ماء النهر، فوقع له منها في خاطره وسواس، فذهب يستحلّها من صاحب البستان: « ففرع باب البستان فخرجت إليه جارية، فقال لها: ادعي لي صاحب المنزل! فقالت: إنه لامرأة، فقال: استأذي لي عليها ففعلت، فأخبر المرأة بخبر التفاحة، فقالت له: إن هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان»⁽³⁾. وهناك أيضا حوار دار بين أحد الفقراء وجماعة من الصالحين اللبنانيين في جبل لبنان.

طعم ابن بطوطة تُحفة النظار بعدد من المشاهد الحوارية، فزادت في متعتها وتشويقها، والحوار من العناصر الأساسية المكوّنة للسرد: « يعدّ الحوار من الوسائل السردية الأساسية لفنون القصّ، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستويات الاتصال بين الشخصيات والعمل القصصي والمتلقي، ويسهم بشكل فعّال في عملية التواصل السردية»⁽⁴⁾.

يكثّر الحوار، عادة، في الحكايات، ورحلة ابن بطوطة، كما هو معلوم، حافلة بها، فمن ذلك حكاية الشيخ ظهير الدين وقاض القضاة⁽⁵⁾، وحكاية حسن المجنون⁽⁶⁾، وحكاية مأتم ابن السلطان⁽⁷⁾، التي فيها الحوار الذي جرى بين ابن بطوطة والسلطان، ونُصِحَ له بإقلاعه عن شرب الخمر، وحكاية الملك كَبْك والواعظ⁽⁸⁾، وغيرها من الحكايات الأخرى التي فيها حوار بين طرفين أو أكثر.

كما وظّف الحوار أيضا في الحكايات الكرامية، وخاصة تلك التي حدثت له شخصيا، من ذلك كرامة الشيخ قطب الدين النيسابوري⁽⁹⁾ وحواره مع الرحّالة بعدم شراء الغلام التركي لأنّه لا يصلح له، وحواره مع دلشاد الهندي.

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/186.

(2) المصدر نفسه، 1/242.

(3) المصدر نفسه، 1/290.

(4) جماليّات التلقي في السرد القرآني ليادكار لطيف الشهرزوري، دار الزمان، دمشق، ط1، 2010، ص76.

(5) رحلة ابن بطوطة، 1/318.

(6) المصدر نفسه، 1/396.

(7) المصدر نفسه، 2/27.

(8) المصدر نفسه، 3/27.

(9) المصدر نفسه، 3/53.

ساعد عنصر الحوار في سرد الأحداث والأخبار، فمن خلاله نقل الرحالة مجريات الأمور، وتطوراتها في كل بلد من البلدان التي حلّ بها من خلال الكلام الذي دار بين الشخصيات. والمميز في رحلة "تُحفة النُّظار" أنّ صاحبها ذكر بعض المشاهد الحوارية بلغات أخرى غير اللغة العربية ثمّ ترجمها إليها، من ذلك مثلاً سؤال سلطان الهند عن شهاب الدين: «سأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين: أين هو؟ فقال له بهاء الدين بن الفلكي: يا خُونْد عالم مُبدِئ معناه. ما ندرى. ثم قال له: شُنَيْدَم، زحمت داره معناه سمعت أن به مرضاً. فقال له السلطان: بِرُوهَمِينَ زمان، دَرُخزَانَة يَكْ لِكْ تنكّه، زَرِيكُري وبيش أُبيري تَادِلِ أو خُش شَوَدَ، معناه: إمّش الساعة إلى الخزانة وخذ منها مائة ألف تنكّه من الذهب واحملها إليه حتى يبقى خاطره طيباً»⁽¹⁾.

مثل هذا النموذج متكرر في رحلته، وهذا يدل على أنّ ابن بطّوطة تعلم بعض لغات الأقوام الذين عاشرهم واختلط بهم، وأصبح يفهم معاني كلماتهم ويترجمها إلى العربية، فلم يحتاج إلى المترجم إلّا في بعض الأحيان، وهذا ما جعل رحلته شيقّة ممتعة لا يملُّ القارئ من قراءتها لأنّها غنية متنوّعة الفوائد جامعة لكثير من المعلومات.

وللحوار دور بارز في الرحلات فهو عنصر مهم من عناصر الحكّي أو القص يسهم في تطور الأحداث، وسيرها سيراً حسناً حسب مشيئة الرحالة ومقصده.

ب/ الحوار في رحلة ابن قنفذ:

كان الحوار حاضراً أيضاً في رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقيّر"، ويمكن التمثيل لذلك ببعض النماذج، منها الحديث الذي دار بين أبي مدين شعيب وشيخه أبي الحسن ابن جرّزهم: «قلت (أبو مدين شعيب): من هذا الشيخ؟ فقل لي: أبو الحسن ابن جرّزهم. فلما فرغ دَنَوْتُ منه وقلت له: حضرت مجالس كثيرة فلم أثبت على ما يُقال؛ وأنت كل ما سمعته منك حفظته، فقال لي: هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يُجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب»⁽²⁾. ومن ذلك أيضاً حكاية بعض الصالحين الذي رأى النبيّ صلى الله عليه وسلّم في

(1) رحلة ابن بطّوطة، 167/3.

(2) أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص 46.

منامه ومعه أبا مدين شعيب وأبا حامد الغزالي فدار بينهما حوار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، « فسأل أبو حامد أبا مدين قائلاً: " ما الروح؟ فقال له أبو مدين: المعرفة.

قال: فما روح المعرفة؟ قال: اللذة.

قال: فما روح اللذة؟ قال: نظرة إليه »⁽¹⁾.

أورد ابن قنفذ كزمله ابن بطّوطة المشاهد الحوارية عندما سرد حكايات، وأخبار الأعلام المترجم لهم في رحلته، حيث عرّف بهم، وذكر ما دار بينهم من كلام وحوار في مسائل الدين وأمور التصوف، أو حصول كرامة من كرامات كما حدث مع الشيخ أبي مدين شعيب الذي أخبره الشيخ أبو يعزى بأنّه ستهدى له جارية حبشية يكون له منها ولد. وبالفعل أُهديت له جارية وتزايد له منها ولد. ولكنّ الشيخ اغتم منها بعد ذلك، وعرّف تلامذته سبب اغتمامه، فجرى بينه وبين عبد الرزاق الجزولي حوارٌ موضوعه زواجه من الجارية الحبشية وتربية الولد والعناية به، وأنّه سيكون بين أيدي أمينة وصدر رحب حنون.

تكرر الحوار بكثرة في رحلة ابن قنفذ القسنطيني، وخاصة الذي دار بين المشايخ وأولياء التصوف. فمن ذلك على سبيل المثال الكلام الذي دار بين أبي مدين شعيب والشيخ أبي عليّ عمر الصباغ الذي رأى ثلاثاً أو أربعاً من حور العين يلعبن: « فلما سلمنا من الصلاة قلت للشيخ أبي مدين ما رأيت فقال: وهل رأيتهن؟ قلت: نعم، قال لي: أعد صلاتك فإن المصلي يناجي ربه وأنت إنما ناجيت الحور العين »⁽²⁾.

كما وظّف في رحلته نماذج من الحوار دلّ على نوعية تعامل السلاطين مع الأولياء الصالحين، ونوعية المطالب التي يرغب الأولياء في تحقيقها وبلوغ مرامها. نأخذ نموذجاً على ذلك عندما ذهب الشيخ أبو الهادي مصباح الصنهاجي إلى السلطان أبي الحسن المريني يطلب منه الانسحاب والعدول عن فكرة الاستيلاء على بلاد إفريقية، والرجوع إلى المغرب الأقصى، لكن السلطان رفض هذا الطلب، وتلطف إلى الشيخ بأن يغير الطلب.

كان للمتصوفة مكانة في نفوس السلاطين، فقدروهم، والتمسوا منهم البركة والدعاء، وتلطفوا إليهم وسعوا إلى تحقيق مآربهم، إلّا التي لم يستطيعوا عليها مثلما حدث مع السلطان أبي الحسن المريني

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ص 50-51.

(2) المصدر نفسه، ص 74.

الذي لم يقدر على تحقيق طلب الشيخ أبي الهادي مصباح الصنهاجي لأن فكرة توحيد المغرب بالقوة تحت سلطته كان هاجسه الوحيد، وأمله الذي سعى إليه جاهداً مستخدماً لتحقيق ذلك كل السبل والطرق.

ولكن في الأغلب الأعم عمل السلاطين جاهدين على إرضائهم والتماس بركاتهم، فجدد المصنف يوسف بن يعقوب الملازي مثلاً تمتع بمكانة عالية في نفوس الأمراء الحفصيين؛ هذه المكانة استغلها في قضاء حاجات الناس، وقبول الشفاعات، وكف المدعا عليهم بالجنايات.

ومن نماذج الحوار، أيضاً، في رحلة "أنس الفقير وعز الحقيير" ذلك الذي جرى بين الشيخ أبي مدين شعيب ورفقائه، عندما أبدوا انزعاجهم من طلب سلطان الموحدين له، وسعيهم إلى ترحيله إلى مراکش، وتكليف والي بجاية بحمله على خير محمل، فقال لهم الشيخ بأن منيته قدرت له بغير هذا المكان، فقيض الله له من يحمله إلى مكان الدفن برفق، وعندما وصل إلى خواص تلمسان قال لمرافقيه: « ما يقال لهذا المكان؟ فقيل له: العباد. فقال: مليح للرقاد! »⁽¹⁾.

كان عنصر الحوار، إذاً، حاضراً في كلتا الرحلتين بشكل قوي لافت للنظر، فهو عنصر ضروري من العناصر المكونة لأدب الرحلة والمميّزة لمضمونها وأسلوبها، فلأدب الرحلة سمات خاصة تميّزه عن باقي الفنون الأدبية النثرية الأخرى.

هذه المشاهد الحوارية التي نقلها كلاّ الرحّلين كشفت عن طبيعة تعامل الناس مع بعضهم البعض أو مع السلاطين، وكذلك طريقة تعامل الحكام مع عباد الله الصالحين والمشايخ الكبار، وأيضاً طريقة تعامل الرحّالة مع غيره من الناس وتعايشه معهم.

نقل هذا الحوار كثيراً من المعلومات القيّمة من خلال تحاور شخصين أو أكثر عن أمر من الأمور، قد يكون دينياً مثل المعاملات الاقتصادية ومنح الأعطيات؛ وقد يكون دينياً مثل حصول الكرامات والمكاشفات، وهو كثير في رحلة "أنس الفقير وعز الحقيير".

للحوار أهمية كبيرة، فهو من وسائل الاتصال الفعّالة، ومطلب إنساني يحتاجه كلّ فرد للاندماج في الجماعة، والتواصل مع الآخرين ومشاركتهم والتفاعل معهم. كما يعكس الحوار الواقع الحضاري والثقافي للأمم والشعوب المختلفة.

(1) أنس الفقير وعز الحقيير، ص 147.

ثانياً: الملامح الدينية في الرحلتين:

اهتم ابن بطّوطة وابن قنفذ بالقرآن الكريم والاستشهاد به في مواضع معيّنة، ورواية الحديث النبوي الشريف.

1- القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله المتّره المجيد الذي لا تأتته الباطل من بين يديه، ولا من خلفه: « وهو المعجز الباقي على الأبد والمودع أسرار المعاني التي لا تنفذ:

كالبدر من حيث التفت رأيتَه يهدي إلى عينيك نورا ثاقبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغربا »⁽¹⁾.

وهو الرافد الأساسي المستخدم في أدب الرحلات. استلهم منه الرحالة بعض معانيه وألفاظه، فاقتبس منه ابن بطّوطة وكذلك ابن قنفذ، والاقتباس في اللغة من قبس: القاف والباء والسين أصل صحيح يدل على صفة من صفات النار، ثم يستعار من ذلك القبس: شُعْلَةُ النَّارِ. قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾⁽²⁾ ؛ ويقولون: أَقْبَسْتُ الرَّجُلَ عِلْماً، وَقَبَسْتُ نَاراً.

قال ابن دُرَيْد: قَبَسْتُ من فلان نارا، واقْتَبَسْتُ منه علماً، وأَقْبَسَنِي قَبْساً⁽³⁾. بمعنى أخذت منه واستفدت.

واصطلاحاً: « هو تضمين الشعر أو النثر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف »⁽⁴⁾، شرط أن لا يدل على أنه منهما، فلو أسند الكلام المقتبس إلى الله جلّ جلاله أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمى اقتباساً.

يلجأ الرحالة إلى الاقتباس من القرآن الكريم ليزين كلامه، فهو بمنزلة الحليّة التي يزدان بها الكلام . والقرآن الكريم هو كلام الله المتزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

(1) الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين - دراسة موضوعاتية فنية - لأحمد عبيدلي، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي، إشراف: محمد الأخضر الزاوي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2004-2005، ص108.

(2) الآية 10 من سورة طه.

(3) مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 48/5.

(4) الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي لعبد الهادي الفكيكي، دار النمير، سورية، ط1، 1996، ص12.

ومن الآيات القرآنية التي وظّفها ابن بطّوطة في رحلته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾⁽¹⁾، وذلك عندما ذكر نهر النيل⁽²⁾ بمصر، فإنّه لا يوجد في الأرض نهرًا يسمى بحرًا غير نهر النيل، وذلك ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، (واليم هو البحر).

أشار أيضًا إلى الآية الكريمة المكتوبة على قبر زكرياء عليه السلام⁽³⁾، وهي قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾⁽⁴⁾.

وعندما ذكر المقام الكريم بمكة المكرمة⁽⁵⁾ قال إنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾⁽⁶⁾.

ولما ذكر ابن بطّوطة مسجد عليّ بن أبي طالب في البصرة⁽⁷⁾، قال يوجد فيه المصحف الكريم الذي كان يقرأ فيه عثمان رضي الله عنه لما قُتل، وأثرُ تغيّر الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽⁸⁾.

كما استشهد بمجموعة من الآيات القرآنية عندما نصحه السلطان محمد ابن تغلق⁽⁹⁾ أن ينفق على قدر ما أعطاه من مال، ولا يكثر من التدين، ومن جملة هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾⁽¹⁰⁾. وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾⁽¹¹⁾.

(1) الآية 7 من سورة القصص.

(2) رحلة ابن بطّوطة، 207/1.

(3) المصدر نفسه، 310/1.

(4) الآية 7 من سورة مريم.

(5) رحلة ابن بطّوطة، 374/1.

(6) الآية 125 من سورة البقرة.

(7) رحلة ابن بطّوطة، 12 / 2.

(8) الآية 137 من سورة البقرة.

(9) رحلة ابن بطّوطة، 243/3.

(10) الآية 29 من سورة الإسراء.

(11) الآية 31 من سورة الأعراف.

وقوله أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾⁽¹⁾.

أشار أيضاً إلى أنه قرأ قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾⁽²⁾، ثلاث وثلاثين ألف مرة

عندما نجاه الله من عقاب سلطان الهند⁽³⁾، الذي قلما تخلص أحد من عقابه.

ولما سمع الرحالة أن له ولد ذكر في جزائر ذبية المهل⁽⁴⁾ قرر العودة، ولكن كانت هناك عداوة بينه

وبين الوزير عبد الله، ففتح المصحف، على قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

تَحْزَنُوا﴾⁽⁵⁾.

وعندما وصف شهامة السلطان المريني أبي عنان⁽⁶⁾ ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽⁷⁾. وقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾⁽⁸⁾، عندما وصف

عفوه عن أهل الجرائم الكبار التي لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه.

أشار أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁽⁹⁾،

عندما تحدّث عن ملازمة هذا السلطان في العلوم كلّها في الجماعة.

ذكر أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا

تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾⁽¹⁰⁾، هذه الآية قرأها القارئ بين يدي الشيخ الصالح علاء الدين النيلي وهو

يعظ.

لم تخل رحلته أيضاً من الإحالة إلى القرآن الكريم في مواضع عدّة؛ نذكر منها:

(1) الآية 67 من سورة الفرقان.

(2) الآية 173 من سورة آل عمران.

(3) رحلة ابن بطوطة، 248/3.

(4) المصدر نفسه، 98/4.

(5) الآية 30 من سورة فصلت.

(6) رحلة ابن بطوطة، 197/4.

(7) الآية 128 من سورة الأعراف.

(8) الآية 134 من سورة آل عمران.

(9) الآية 105 من سورة البقرة.

(10) الآية [1 - 2] من سورة الحج.

لما سافر ابن بطوطة إلى مدينة الخليل⁽¹⁾ عليه السلام قال إِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الْجِنَّ بِنَائِهَا، وَهِيَ إِحَالَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾⁽²⁾.

وفي مدينة القدس زار بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام، «وبه أثر جذع النخلة»⁽³⁾، وَهِيَ إِشَارَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْسَا﴾⁽⁴⁾.

أشار، أيضاً، إلى وادي النمل⁽⁵⁾ في عسقلان، وَهِيَ إِحَالَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نُمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽⁶⁾.

إِنَّ التَّرْعَةَ الدِّينِيَّةَ الْمُتَغَلِّغَةَ فِي نَفْسِ ابْنِ بَطُوطَةَ جَعَلَتْهُ يُقْبِلُ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ دِينِي، أَوْ يَمُتُ لِلْإِسْلَامِ بَصْلَةً؛ فَقَدْ قَصَدَ زِيَارَةَ الْجَبِّ الَّذِي أُلْقِيَ فِيهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسْبَمَا وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾⁽⁷⁾.

وعن مدينة اللاذقية قال يزعمون أَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ⁽⁸⁾ الَّذِي يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقِصَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾⁽⁹⁾.

تحدث أيضاً عن المشاهد الكريمة في قاسيون، ومن بينها الغار الذي ولد فيه إبراهيم الخليل عليه السلام⁽¹⁰⁾، ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس، وَهِيَ قِصَّةٌ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ، فَلَمَّا رَأَى

(1) رحلة ابن بطوطة، 239/1.

(2) الآية 12 من سورة سبأ.

(3) رحلة ابن بطوطة، 244/1.

(4) الآية 23 من سورة مريم.

(5) رحلة ابن بطوطة، 254/1.

(6) الآية [17 - 18] من سورة النمل.

(7) الآية 10 من سورة يوسف.

(8) رحلة ابن بطوطة، 292/1.

(9) الآية 79 من سورة الكهف.

(10) رحلة ابن بطوطة، 327/1.

الْقَمَرَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁽¹⁾. وفي آخر جبل قاسيون توجد الربوة المباركة⁽²⁾، وهي إحالة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾⁽³⁾.

ومدينة مكة شرفها الله براد غير ذي زرع⁽⁴⁾، حسبما ورد في الكتاب العزيز حاكياً عن نبيه الخليل عليه الصلاة والسلام، في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾⁽⁵⁾.

ومن المشاهد خارج مكة قبر أبي لهب وامرأته حمالة الحطب⁽⁶⁾، وهي إحالة إلى قوله تعالى:

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾⁽⁷⁾.

ولما ذكر الجبال المطيفة بمكة المكرمة، أشار إلى جبل أبي قبيس الذي فيه موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر⁽⁸⁾؛ وهي إشارة للقرآن الكريم: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَالنَّشَقُ الْقَمَرُ﴾⁽⁹⁾.

ومن الجبال المطيفة بها أيضا جبل الطير⁽¹⁰⁾، الذي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص عليه الكتاب العزيز في قوله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي

(1) الآية [76 - 78] من سورة الأنعام.

(2) رحلة ابن بطوطة، 328/1.

(3) الآية 50 من سورة المؤمنون.

(4) رحلة ابن بطوطة، 370/1.

(5) الآية 37 من سورة إبراهيم.

(6) رحلة ابن بطوطة، 382/1.

(7) الآية [3 - 4] من سورة المسد.

(8) رحلة ابن بطوطة، 383/1.

(9) الآية 1 من سورة القمر.

(10) رحلة ابن بطوطة، 384/1.

الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّهُ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

وورد ذكر غار جبل الثور ^(٢) الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج مهاجرًا من مكة شرفها الله، ومعه الصديق رضي الله عنه في الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٣).

ويوجد في مدينة البصرة مجمع البحرين: الأجاج والعذب ^(٤)، وهي إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّخْجُورًا﴾ ^(٥).

وفي جزيرة ابن عمر رأى ابن بطوطة جبل الجودي ^(٦) المذكور في الكتاب العزيز، وهو الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٧).

أشار أيضًا إلى الموضع الذي فار منه التّور حين طوفان نوح عليه السلام؛ الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ^(٨).

(١) الآية 260 من سورة البقرة.

(٢) رحلة ابن بطوطة، 384/1.

(٣) الآية 40 من سورة التوبة.

(٤) رحلة ابن بطوطة، 11/2.

(٥) الآية 53 من سورة الفرقان.

(٦) رحلة ابن بطوطة، 84/2.

(٧) الآية 44 من سورة هود.

(٨) الآية 40 من سورة هود.

وقال عن مدينة مصر هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد⁽¹⁾. إحالة إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾⁽²⁾.

وعندما تحدث عن سلطان كلوا أبو المظفر حسن الذي كان كثير المواهب والمكارم: « كثير الغزو إلى أرض الزوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى »⁽³⁾، وهي إحالة إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾⁽⁴⁾.

ولما تحدث عن الشيخ شرف الدين موسى⁽⁵⁾ الواعظ الكبير الذي يأتي إليه التائبون فأخذ عليهم العهد وجزّ نواصيهم⁽⁶⁾، وهي إحالة إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾⁽⁷⁾. كذلك لم تخل رحلة " أنس الفقير وعزّ الحقير " هي الأخرى من الاستشهاد بالذكر الحكيم، فجاء ذكره لعدد لا بأس به من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽⁸⁾.

ورد ذكر هذه الآية الكريمة في مقدمة كتابه⁽⁹⁾ عندما تحدث عن محبة أهل طاعته وأوليائه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾⁽¹⁰⁾. جاء ذكرها عندما ذهب الفقيه أبو محمد عبد الحق والفقيه أبو عليّ المسيلي للقاء الشيخ أبي مدين فوجداه يصلي، فلما فرغ من كلامه سلّم عليه وسلّم عليهما، وما اجتماعا به قط ولا رأهما، ومع ذلك عرفهما وسمّاهما باسميهما، فكانت هذه إحدى

(1) رحلة ابن بطوطة، 201/1.

(2) الآية 12 من سورة ص.

(3) رحلة ابن بطوطة، 122/2.

(4) الآية 41 من سورة الأنفال.

(5) رحلة ابن بطوطة، 23/2.

(6) جز الناصية رمز للتخلي عن الرذائل.

(7) الآية 16 من سورة العلق.

(8) الآية 62 من سورة يونس.

(9) أنس الفقير وعزّ الحقير، ص30.

(10) الآية 1 من سورة الملك.

كراماته، فقالا له: إنك لم تزد على هذه السورة، فقال لهما: « نعم هي كانت سورتي، ولو تعدّيتها لاحترقت »⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾⁽²⁾. قال هذه الآية ناصر الدين عندما اجتمع بيوسف بن يعقوب (جدّ ابن قنفذ) الذي كان في مهمة صلح كلّفه بها السلطان أبو يحيى أبو بكر⁽³⁾ ليصلح بينه وبين صاحب تلمسان أبي حمّو. ولما رأى ناصر الدين جدّ المصنف قال له هذه الآية من غير أن يكلمه.

وقوله جلّ جلاله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾⁽⁴⁾. جاء ذكر هذه الآية الكريمة حين ترجم ابن قنفذ للشيخ أبي عبد الله الرندي إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه⁽⁵⁾، لأنّه كان يكثر من قراءتها في صلاة الجمعة.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيَبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾⁽⁶⁾. قرأ هذه الآية الرّجل الذي جاء لينتقد أبا مدين وحين رآه الشيخ سأله عن سبب مجيئه، فأجابه الرّجل بأنّه جاء ليقتبس من أنواره. فقال له أبو مدين: ما في كمك؟ فقال له الرّجل: مصحفاً، فقال له أبو مدين: أخرجه وافتحه واقرأ أوّل سطر فيه. وعندما أخرجه الرّجل فتحه على هذه الآية. فقال له الشيخ أبو مدين: « أما يكفيك هذا؟! »⁽⁷⁾.

وفي خاتمة كتابه ذكر الرّحالة نكتاً تنفع الفقير وتُعزّ الحقير منها: التّوبة⁽⁸⁾؛ والتّوبة هي الرجوع إلى الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴾⁽⁹⁾.
وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾⁽¹⁰⁾.

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير، ص71.

(2) الآية 114 من سورة النساء.

(3) أنس الفقير وعزّ الحقير، ص95.

(4) الآية 1 من سورة النصر.

(5) أنس الفقير وعزّ الحقير، ص124.

(6) الآية 92 من سورة الأعراف.

(7) أنس الفقير وعزّ الحقير، ص135.

(8) المصدر نفسه، ص154.

(9) الآية 25 من سورة الإسراء.

(10) الآية 135 من سورة آل عمران.

وقوله أيضاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَوَائِكَ أُتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁽¹⁾.
وقوله أيضاً: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁽²⁾.

هذا بالنسبة للآيات القرآنية التي ورد ذكرها في الرحلتين، أما الأحاديث النبوية فكانت هي الأخرى حاضرة في كليهما.

2- الحديث النبوي الشريف:

الحديث النبوي الشريف هو كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول قاله، ويختلف الحديث عن السنة، فالسنة تجمع بين القول والفعل والتقرير.

يحتل الحديث المتزلة الثانية بعد القرآن الكريم، فالحديث يُبين ما ورد في القرآن مجملًا، ويوضح ما كان غامضًا، ويزيد على أمور وردت فيه.

يعدُّ الحديث الشريف أحد الروافد الدينية الهامة بعد القرآن الكريم، اعتمد عليه الرحالة في رحلاتهم، فابن بطوطة في تُحفته كان مهتمًا بروايته. فمن الأحاديث النبوية الشريفة التي جاء ذكرها في رحلته: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الإسراء إلى سدره المنتهى»⁽³⁾.

وفي الحديث أيضًا: «أن النيل والفرات وسيحان وجيحان كل من أنهار الجنة»⁽⁴⁾.

وهناك حديث شريف نقله ابن بطوطة عن كتاب علي بن جعفر الرازي "المسفر للقلوب، عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب" أسند فيه إلى أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل على قبر إبراهيم، فقال: انزل فصل ركعتين فإنّ هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام، ثم أتى بي إلى الصخرة»⁽⁵⁾.

استشهد ابن بطوطة بالحديث الشريف على صحة كون هذه القبور الثلاثة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ليوثق كلامه، فبحث عن صحتها في السند الصحيح.

(1) الآية 160 من سورة البقرة.

(2) الآية 11 من سورة الحجرات.

(3) - صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (261هـ)، دار الفكر، بيروت، (د، ط)،

1993، 97/1؛ - رحلة ابن بطوطة، 207/1.

(4) - صحيح مسلم، 641/2؛ - رحلة ابن بطوطة، 208/1.

(5) رحلة ابن بطوطة، 242/1.

ولما تحدّث عن الجامع الأموي بدمشق، أشار إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فيه؛ حين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة»⁽¹⁾. وأشار أيضاً إلى حديث الرسول الكريم عند بنائه للمسجد الكريم، وطلب الصحابة منه تسقيفه بالطّين حين أمطرت السّماء، فقال: «كلاً! عريش كعريش موسى أو ظلّة كظلّة موسى، والأمر أقرب من ذلك، قل: وما ظلّة موسى؟ قال صلى الله عليه وسلم: كان إذا قام أصاب السقف رأسه»⁽²⁾. وعن جبل أحد قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ أحلداً جبل يحبّنا ونحبّه»⁽³⁾. وعن الحجر الأسود قال: «إنّه يمين الله في أرضه»⁽⁴⁾. ومنه أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم في جبل حراء الذي كان يتعبّد فيه، وهو الذي اهتزّ تحته عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أثبتّ فما عليك إلّا نبي وصدّيق وشهيد»⁽⁵⁾. كما ورد في الخبر عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «عمرة في رمضان تعدل حجّة معي»⁽⁶⁾. وجاء في الأثر أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر أهل بلاد السّرو وأثنى عليهم خيراً؛ فقال: «علّموهم الصّلاة يعلّموكم الدّعاء»⁽⁷⁾. وقوله أيضاً: «الإيمان يمان والحكمة يمانية»⁽⁸⁾ وقوله كذلك: «زاحموهم في الطّواف فإنّ الرحمة تنصبّ عليهم صبّاً»⁽⁹⁾.

(1) رحلة ابن بطوطة، 310/1.

(2) المصدر نفسه، 352/1.

(3) - صحيح البخاري بحاشية السندي لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار المعرفة، بيروت، (د، ط)، 1978،

27/3؛ - رحلة ابن بطوطة، 362/1.

(4) رحلة ابن بطوطة، 373/1.

(5) المصدر نفسه، 384/1.

(6) - صحيح البخاري، 306/1؛ - رحلة ابن بطوطة، 391/1.

(7) رحلة ابن بطوطة، 402/1.

(8) المصدر نفسه، 402/1.

(9) المصدر نفسه، 402/1.

وجاء في الأثر أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته: « يا معاذ إذا جئت وادي الحبيب فَهَرُول »⁽¹⁾. وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال: « من أحيا أرضاً مواتاً فهي له »⁽²⁾.

كذلك حفلت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " أيضاً بالأحاديث النبوية الشريفة، فكان ابن قنفذ مهتماً بروايتها، فأورد لها في عدة مواضع من رحلته، لكي يستشهد بها، ولتكون دليلاً على إثبات صحة كلامه.

فعندما تحدث عن صفة الأولياء قال: « دلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفة الأولياء فقال: « الذين إذا رؤوا ذكِرَ الله »⁽³⁾.

وعن صفة الأولياء قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ذكر له أويس القرني: « إن استطعت أن يُغفر لك فافعل »⁽⁴⁾.

ولما تحدّث عن كرامات الصحابة ذكر الحديث الذي ورد ذكره في البخاري: « أن رجلين خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا النور معهما »⁽⁵⁾.

وفي البخاري أيضاً: « أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة »⁽⁶⁾.

تحدّث ابن قنفذ عن وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلبه بأن يدفن بإزاء الرسول الكريم إن فتح له باب الروضة. وكذلك استأذن عمر من عائشة في الدفن بإزاء أبيها.

والحكمة من دفنهما بجوار النبي صلى الله عليه وسلم قربهما منه يوم القيامة، فإن: « النبي صلى الله عليه

(1) رحلة ابن بطوطة، 105/2.

(2) - صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الهدى، عين ميله، (د، ط)، 1992، 823/2؛

- رحلة ابن بطوطة، 173/3.

(3) أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص 32.

(4) - صحيح مسلم، 507/2؛ - أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص 32.

(5) أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص 35.

(6) المصدر نفسه، ص 35.

وسلم أول من تنشق عنه الأرض»⁽¹⁾، وفي يوم من الأيام خرج الرسول عليه الصلاة والسلام وفي يمينه أبي بكر وفي شماله عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقال: «هكذا أبعث يوم القيامة»⁽²⁾.

وفي أثناء حديثه، أيضاً، عن كرامات الصحابة رضوان الله عليهم قال: «كان الشيطان يهرب من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فجأ بعد فج»⁽³⁾.

وقال أيضاً: «دخل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، علي عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهو محصور في الدار، في كوة في البيت في اليقظة فقال: "حصروك يا عثمان! فقال: نعم" قال: أعطشوك يا عثمان! فقال: نعم" فقال: تفرط عندي يا عثمان فقال: نعم. فأمر عثمان غلمانه بطرح السيوف حتى قُتل»⁽⁴⁾.

ومن الأحاديث الشريفة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث: «أبا ذر يدعو له علياً - رضي الله عنه - فوجد في بيته أرحاء تدور وحدها وليس معها أحد؛ فعجب من ذلك، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم، يا أبا ذر أما علمت أن الله تعالى ملائكة سياحين في الأرض موكلين بمؤونة آل محمد صلى الله عليه وسلم»⁽⁵⁾.

قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم للبراء بن مالك: «لو أقسمت على ربك لأبرك!»⁽⁶⁾. وفي الحديث أيضاً: «أن الله تعالى يقول: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالتواضع حتى أحبه فأكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولئن سألني لأعطيته»⁽⁷⁾.

وعندما تحدّث ابن قنفذ عن الشيخ أبي مدين، ذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا مات المؤمن أُعطي نصف جنّته»⁽⁸⁾. وقد وقع في هذه المسألة نزاع بين الطلبة، فتردد الكلام بينهم في أن المؤمنين إذا ماتوا استحقوا الجنة بكاملها فصاروا إلى مجلس الشيخ أبي مدين ليفسر لهم هذا الحديث،

(1) أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 36.

(2) المصدر نفسه، ص 36 - 37.

(3) المصدر نفسه، ص 36.

(4) المصدر نفسه، ص 37.

(5) المصدر نفسه، ص 37.

(6) المصدر نفسه، ص 38.

(7) المصدر نفسه، ص 39.

(8) المصدر نفسه، ص 51.

فلما استقرّ بهم المقام عنده أزال عليهم الإشكال من غير أن يسأله، إنّما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف جنته: " لأن لكل مؤمن جنة تخصّه، فإذا مات أُعطي نصف جنته وبعد الحشر يُعطى النصف الثاني »⁽¹⁾.

وعن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب »⁽²⁾. وأثناء حديثه عن الشيخ عبد الله المرشدي قال: أكثر خطبته وعظ ومثله من يعظ الناس لأنّه اتّعظ في نفسه، وقد أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: « يا عيسى، عِظ نفسك فإن اتّعظت فعِظ الناس، وإلا فاستح مني »⁽³⁾.

ولما تحدّث عن آداب الإخوان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « في الجنة عمود من ياقوته خضراء عليها غرف مبنية، لها أبواب مفتّحة تضئ كما يضئ الكوكب الدري »⁽⁴⁾. وقوله أيضاً صلى الله عليه وسلم: « أكثروا من صحبة الصّالحين فإنّ فيهم الشّفعاء »⁽⁵⁾. وفي أثناء حديث الرّحالة عن وفاة الشيخ أبي مدين شعيب الذي مات في منطقة العُباد، فكانت خاتمة حسنة لمقامه العليّ، فاستشهد ابن قنفذ بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: « يموت المرء على ما عاش عليه »⁽⁶⁾.

وفي خاتمة رحلته أورد مجموعة من أحاديث الرسول الكريم؛ منها:

قوله صلى الله عليه وسلم: « يا أيّها الناس توبوا فإنّي أتوب في اليوم سبعين مرّة »⁽⁷⁾. وقوله أيضاً عليه الصّلاة والسّلام: « من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد أحبّ أن يُعصى الله في أرضه »⁽⁸⁾. وقوله أيضاً: « إن عدل فاشكروا، وإن جار فاصبروا »⁽⁹⁾. وقال عليه أفضل الصّلاة وأزكى

(1) أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص51.

(2) المصدر نفسه، ص39.

(3) المصدر نفسه، ص124.

(4) المصدر نفسه، ص133.

(5) المصدر نفسه، ص134.

(6) المصدر نفسه، ص148.

(7) - صحيح البخاري، 99/4؛ - أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص155.

(8) أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص161.

(9) المصدر نفسه، ص162.

التسليم: « أدوا الذي عليكم ويسألكم الله الذي عليهم »⁽¹⁾. وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: « من دعا على السلطان سلطه الله عليه »⁽²⁾.

كانت هذه جملة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي ورد ذكرها في رحلتي " تحفة النظار " و" أنس الفقير "، وهذا يدل دلالة قاطعة على ثقافة الرجلين الدينية، وإلمامهما بالعلوم الفقهية، واهتمامهما برواية الحديث الشريف، ونزوعهما للمظاهر الدينية، فخرت رحلتاهما بكثير من العبارات والألفاظ الإسلامية، ولاسيما رحلة ابن قنفذ التي كانت رحلة في التصوف والبحث عن رجاله، وكذلك أولى ابن بطوطة عناية فائقة للأولياء وأصحاب الكرامات. فكانت اهتمامهما دينية فقهية أكثر منها أدبية لهذا لم يهتم بأسلوبهما فجاءت رحلتاهما بسيطة سهلة لا تكلف فيهما ولا تصنع، اتجه صاحباهما في بعض الأحيان إلى توظيف الألفاظ العامية. وما جاء من صنعة وبديع في رحلة " تحفة النظار " فهو من صنيع ابن جزى الكلبي الذي كان كاتباً وأديباً في ديوان السلطان أبي عنان المريني.

إذاً التربية الإسلامية الأصيلة التي تلقاها ابن بطوطة وزميله ابن قنفذ أثرت في سلوكهما القولي والفعل، وهذا ما عكسته رحلتاهما اللتان لم تخلوا من ألفاظ دينية وعبارات إسلامية وتحميدات وصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر للصلاة والمساجد، وحديث عن الزوايا والأربطة والأولياء الصالحين والمشايخ الأبرار وذوي الكرامات. حتى الأشعار والرسائل الإخوانية التي وظفها ابن قنفذ في رحلته كانت ذات طابع صوفي محض أتى بها لأنها توافقت المقام والسياق.

ويمكن أن نعتبر ابن بطوطة وابن قنفذ من خلال كتابيهما نموذجين بارزين على نوعية الثقافة التي كانت سائدة ومنتشرة في المغرب والأندلس في القرن الثامن للهجرة.

ففي هذا العصر كثرت الإقبال على المظاهر الدينية والنزوع إليها. وانتشرت ظاهرة الزوايا بكثرة لافتة للانتباه، وكذلك الأربطة التي كانت في بادئ الأمر مخصصة للجهاد وحماية الثغور ولكن في هذا العصر أصبحت مكاناً للمتصوفة والمريدين. وأقبل الناس على هذه الأمكنة داعين ومتوسلين إلى الله سبحانه وتعالى، ومتقربين إليه بوساطة أوليائه الصالحين الأبرار.

يمكن أن نفسر هذه الظاهرة وانتشارها بسبب أن القرن الثامن للهجرة هو تاريخ بداية سقوط الأندلس، وانتشار نفوذ الخطر الأجنبي المتمثل في الإسبان في الجزيرة العربية، وتهديد أمنها، فبدأت

(1) أنس الفقير وعز الحقي، ص162.

(2) المصدر نفسه، ص162.

الدويلات الأندلسية تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد العدو الغاشم، ومع ذلك لم يستطع أمراؤها وملوكها تحريك ساكن لأن زمام الأمور قد أفلتت من أيديهم بسبب تشتتهم وتفرقهم، وسعي كل منهم لتحقيق مطالبهم الخاصة وطموحاتهم الشخصية، فاشتغلوا بالحروب الداخلية بينهم ناسين العدو الخارجي الذي يتهدد مصيرهم، فاستغل الإسبان هذه الفتن الداخلية، وسعى جاهدا للاستيلاء على الأندلس. فلم يتفطن المغاربة والأندلسيون إلا في آخر المطاف، وبعد أن صارت الأمور لصالح الإسبان. فلم يبق أمامهم غير اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، وطلب الشفاعة من رسوله الكريم، والتقرب من الأولياء والمشايخ الأقطاب، وهو نوع من الاستنجاد وطلب الإغاثة لعل الله ينصرهم ويبعد عنهم شر الإسبان المستعمر الراغب في الاستيلاء على وطنهم ومصادرة أملاكهم وسبي نسائهم وتشريد أبنائهم.

ربما كان لهذا السبب دور كبير في إقبال كل المغاربة والأندلسيين على كل ما هو ديني، واللجوء إلى المظاهر الإسلامية والتزوع إليها لأنها الملاذ الوحيد، والمخلص لهم لما هم فيه من تفكك، وسقوط وانحيار وشيك لا محالة، ويمكن أن نعتبره نوعاً جديداً من الاستصراخ، ولكنه يختلف تمام الاختلاف عن الاستصراخ المعروف، والذي يتمثل في طلب الإغاثة والمساعدة من الملوك والأمراء ذوي النفوذ الواسع، والذين يتمتعون بقوة عسكرية رهيبية تمكنهم من مد يد المساعدة للمغيث، والدفاع عنه ومجابهة العدو بالعدة والعتاد⁽¹⁾. أمّا هذا النوع الجديد من الاستصراخ فهو موجه إلى المولى جلّ جلاله والتضرع له برسوله الكريم، واللجوء إلى أوليائه الصالحين لنصرتهم، وتخليص بلادهم بعد أن خرج الأمر عن سيطرة حكامها الذين حقّ فيهم قول الشاعر⁽²⁾ (الوافر):

(1) ظهر فن الاستصراخ في عصر ملوك الطوائف على يد بعض الشعراء والفقهاء أمثال أبي حفص عمر الهوزني. ولد أبو حفص في رجب من عام 392هـ، وروى عن نفر من العلماء منهم أبو القاسم بن عصفور وأبو عبد الله الباجي. ولما ثبت المعتضد حكمه مستبداً بإشبيلية عام 434هـ كان الهوزني ظاهراً للرئاسة رفيع المكانة فيها. فخاف الهوزني من بطش المعتضد على نفسه فاستأذنه بالذهاب للحجّ، فرحل إلى المشرق في عام 440هـ ومكث طويلاً في الغرب ثم عاد واستأذن المعتضد في سكن مرسية. وبعد سقوط برشتر كتب الهوزني إلى المعتضد أشعاراً تحضه على الجهاد. فاستكبر المعتضد هذا، وبجيلة دنيئة منه حاسن الهوزني وطلب منه أن يرجع إلى إشبيلية، ولما اطمأن الهوزني فيها، غدر به المعتضد وقتله في قصره بيده. ترجمته في:

- نفع الطيب للمقري، 93/2.

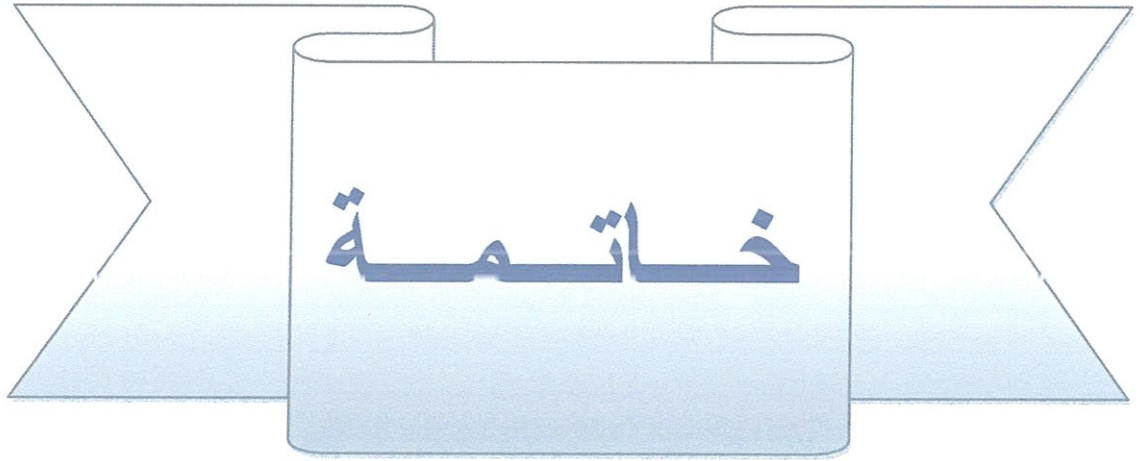
- الذخيرة لابن بسام، 81/1/2.

- المغرب في حُلّى المغرب لابن سعيد المغربي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1964، 240/1.

- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 570/4-571.

(2) هو عمرو بن معدي كرب الزبيدي. ترجمته في تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، 275/1.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
ولهذا أقبل سكان منطقة المغرب والأندلس على الحجّ وزيارة البقاع المقدّسة، والذهاب إلى الأربطة
والزوايا، واقتفاء أثر المشايخ الكبار والوقوف على أضرحة الأولياء الأخيار طالبي النصرة والإغاثة.



خاتمة:

كان النزوع الديني إلى الأماكن المقدسة، وأماكن الصلاح الشعبي (المزارات والأولياء)، وملاقة العلماء والزهاد الدافع الأول للرحالة المغاربة والأندلسيين، فتحثهم على الخروج من أوطانهم لإشباع الرغبة الروحية، وزيارة هذه الأماكن والوقوف عليها، بالإضافة إلى استكمال المعرفة والحصول على الإجازات والأسانيد، والجلوس في حلقات التدريس، والاستفادة من شيوخها. كان هذا الطابع العام الذي ميّز الرحلات المغربية والأندلسية في القرن الثامن للهجرة.

خصصنا هذا البحث لدراسة النزوع الديني في رحلتي ابن بطّوطة وزميله ابن قنفذ القسنطيني اللتين كانتا مثالا حياً على الثقافة السائدة في العصر الذي عاش فيه هذان الرحّالان.

ومن خلال دراستي لرحلة " نُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " ورحلة " أنس الفقير وعزّ الحقيّر " توصّلت لمجموعة من النتائج نذكر أهمها:

1 - كان الحجّ إلى مكّة المكرمة هو السبب في تأصل حبّ الرحلة في قلوب المغاربة والأندلسيين، ومن ثم ولعوا بالسّفر والتّرحال ولعاً شديداً، ونتيجة ذلك طافوا أكثر بلاد المعمورة.

2 ظهور التّرويع الديني في رحليهما بشكل جليّ واضح، فأطالا الوقوف عند المسانيد الدنيية في الحجاز، وعند رجال الدين وزوايا المتصوفة؛ ففي هذا العصر، أي القرن الثامن للهجرة انتشرت حركات التّصوف بعدّها نزعات تدعو إلى الزهد، وشدة العبادة فكثرت الطرق الصوفية والأربطة والزوايا التي كان يرئسها الطلبة والمريدون والزائررون. وهذا ما عكسته رحلة " نُحفة النُّظار " التي احتوت وصفاً دقيقاً لكثير من زوايا العالم الإسلامي، تضمنها حديث عن نظامها وطريقة تسييرها، فكانت مؤسسات دينية واجتماعية تمدّد يد العون والمساعدة، وبخاصة للأغراب وعابري السبيل.

3 - رغبتهما الشديدة في الاتصال برجال الخير والأولياء الصّالحين، حيث بحث عنهم ابن بطّوطة في كلّ مكان مقتفياً آثارهم، فلم يمر بمدينة إلّا وسأل عن صلحائها لينال منهم الدّعاء والبركة.

أمّا ابن قنفذ القسنطيني فكانت رحلته كتاباً في تراجم العلماء والفقهاء، وبخاصة المالكية منهم في المغرب، فأفاض في أخبار من خلال جولاته وانسياحه داخل مدن المغرب وأريافه، راصداً حياة الصوفية وتجمعاتهم بتفصيل ودقة، فترجم للمشاهير منهم بدءاً بأبي مدين شعيب في القرن الخامس للهجرة وصولاً إلى القرن الثامن.

4 - هيمنت الثقافة الدّينية الرّوحية خلال القرن الثامن للهجرة، فسيطرت على الرّجلين اللذين

ارتويا من معين البيئة المغربية المحافظة، وهذا ما أغنى رحلتاهما بالألفاظ الدّينية والعبارات الإسلامية. فلا تكاد تخلو كلّ صفحة من صفحاتهما من ذلك، حتى إنّ المادة الأدبية التي وظّفها ابن قنفذ في رحلته بما فيها الأشعار والمراسلات لم تخرج عن المقصد الدّيني الواضح.

5 - الإقبال على المظاهر الدّينية والتّزوع إليها، فقد حفلت رحلة ابن بطّوطة بذكر المساجد

والجوامع، والأربطة والزوايا، كما أوّل عناية فائقة للمشاهد والمزارات فذكر أهمّها، ولم تخل رحلته، أيضاً، من ذكر للصلاة والصيام وتلاوة الذكر الحكيم، وعبارات الحمدة والصلاة والسلام على الرّسول صلى الله عليه وسلّم. أمّا رحلة ابن قنفذ فمشعة بالتّزوع الدّيني من أوّلها إلى آخرها لأنّ صاحبها أبدى اهتماماً كبيراً بكبار المتصوفة، وشيوخ الطرق الصوفية.

6 - زيارة مقابر الأنبياء والصحابة والتابعين، وأضرحة العلماء والأولياء الصالحين للاعطاء

والاعتبار، فكثرت حديث الرّجلين عنها، وسعيًا لزيارة هذه الأماكن للتبرّك بها.

7 - اهتمامهما بالقرآن الكريم ورواية الحديث النبوي الشريف.

8 - كان للتّصوف المغربي أثر كبير في توجيه جميع مرافق الحياة وتلوينها، حيث عملت الزوايا

والرّبط على نشر التّصوف، وتربية طبقات المجتمع المختلفة على الأخلاق الحميدة.

اهتم ابن بطّوطة وزميله ابن قنفذ بالمظاهر الدّينية، وهذا ما أكّدته رحلتاهما الزاخرتان بالتّزوع

الدّيني؛ فقد تمسكا بتعاليم الدين الإسلامي، وتشبّثا بالعقيدة الدّينية التي دلت على تلقيهما تربية إسلامية متينة وثقافة واسعة، وتبحرهما في العلوم الفقهية.

ولعل ما يفسر إقبال الرّحالة المغاربة والأندلسيين على المظاهر الدّينية والتّزوع إليها الأوضاع السيئة

التي خيّمّت على بلادهم، فوجدوا في الرّحلة ملاذاً ومتنفساً، فرحلوا باتجاه المشرق بقصد الحجّ إلى بيت

الله الحرام، وبلوغ مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وزيارة المشاهد المباركة، وقبور الصحابة والأولياء، ولقاء

المشايخ الفضلاء، وأصحاب الكرامات، وكانّهم يستنجدون بهم ويستغيثون، ويستجيرون بالأولياء،

ويحتمون بالزوايا، طلباً للنصرة ضدّ الخطر الإسباني الذي يتهدد مصيرهم؛ فقد سقط معظم الأندلس في

هذه الفترة من الزمن في يد ممالك النصارى، ولم يبق منها إلّا بعض المدن على سيف البحر. وربّما هذا

هو السبب الذي يفسر إقبال النّاس على المظاهر الدّينية لأنّهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومة الخطر المحدق بهم

سوى اللجوء إلى هذه الأماكن لاحتماء وطلب الإغاثة.

نسأل الله أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، والله ورسوله أعلم، وصلى الله وسلّم على سيّدنا
وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
 - 2- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، بحاشية السندي، دار المعرفة، بيروت، 1978.
 - 3- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار الفكر، بيروت، 1993.
- أولاً: المصادر:
- 4- الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله (776هـ)، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973.
 - 5- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، شرحه وضبطه وقدم له: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.
 - 6- أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (1041هـ)، تح: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1982.
 - 7- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (الدولة المرينية) للناصري: أبو العباس أحمد بن خالد، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.
 - 8- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002.
 - 9- أنس الفقير وعزّ الحقيّر في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم لابن قنفذ: أبو العباس أحمد بن الحسن (الحسين) القسنطيني (810هـ)، تح: أبي سهل نجاح عوض صيام، علي جمعة، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2002.
 - 10- أنس الفقير وعزّ الحقيّر لأبي العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، شرحه وحققه: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.
 - 11- الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لأبي زرع الفاسي: أبو الحسن علي بن عبد الله (وقيل لأبي محمد صالح ابن عبد الحليم الغرناطي)، تصحيح: كارل يوحن ثورنبرغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسالة، 1833.

- 12- البداية والنهاية لابن كثير القرشي الدمشقي: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر (774هـ)،
تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1997.
- 13- برنامج التّحجي للقاسم التّحجي السّبي (730هـ)، تح: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية
للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.
- 14- بغية الرّواد في ذكر ملوك بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى بن خلدون، تح: عبد الحميد حاجيات،
المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ج1.
- 15- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق للبلوي: أبو البقاء خالد بن عيسى (825هـ)، تح: الحسن
السائح، صندوق إحياء التراث العربي، مطبعة فضالة، المغرب، (د، ت).
- 16- تاريخ ابن خلدون المسمّى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي
الشان الأكبر لابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (808هـ)، ضبط المتن: خليل شحادة،
مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6.
- 17- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تح: محمد ماضود،
المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
- 18- التّشوف إلى رجال التّصوف وأخبار أبي العباس السّبي للتادلي: أبو يعقوب يوسف بن يحيى
(عُرف بابن الزّيّات) (617هـ)، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الرباط،
ط2، 1997.
- 19- تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحناوتي، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر،
1906.
- 20- جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس لأحمد ابن القاضي المكناسي (960هـ)،
دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.
- 21- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي، تح: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية،
الرباط، ط2، 1991.
- 22- الحلة السيرة لابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (658هـ)، تح:
حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1963.

- 23- الحلل الموشية لمؤلف مجهول، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
- 24- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ابن محمد بن علي بن أحمد (852هـ)، دار الجليل، بيروت، 1993.
- 25- ديوان الإمام الشافعي، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005.
- 26- ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005.
- 27- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لعلي ابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- 28- رحلة ابن بطوطة المسماة: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لابن بطوطة: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتي الطنجي (779هـ)، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.
- 29- رحلة التّجاني للتّجاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (721هـ)، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.
- 30- رحلة ابن جبير: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" لابن جبير الكتاني الأندلسي: أبو الحسين محمد بن أحمد (614هـ)، دار صادر، بيروت، (د، ت).
- 31- رحلة ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) لعبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (808هـ)، عارضها: محمد تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
- 32- رحلة العبدري للعبدري: أبو عبد الله محمد بن أحمد (700هـ)، تح: علي إبراهيم كردي، قدّم لها: شاكر الفحام، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1999.
- 33- الروض المعطار في أخبار الأقطار (معجم جغرافي) لمحمد بن عبد المنعم الحِميري، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1975.
- 34- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة، 1349هـ.

- 35- شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (728هـ)، تح: سعيد بن نصر بن محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2001.
- 36- عنوان الدراية فيمن عُرِفَ من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني: أحمد بن أحمد بن عبد الله (644هـ)، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، (د، ت).
- 37- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لأبي العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني، تقديم: محمد الشاذلي النيفر، تح: عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
- 38- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لتقي الدين بن تيمية، مكتبة المعارف، الرياض، 1982.
- 39- فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لابن الحاج النميري (774هـ)، إعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.
- 40- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (395هـ)، مطبعة محمود بك جادة أبي السعودية، ط1، 1320هـ.
- 41- مستفاد الرحلة والاغتراب لأبي القاسم التيجي، تح: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (د، ب).
- 42- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن محمد ابن مرزوق التلمساني، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعبيد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 43- المعجزات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها لتقي الدين بن تيمية، تح: أبو عبد الله محمود بن إمام، مكتبة الصحابة، طنطا، ط1، 1986.
- 44- المعجزة وكرامات الأولياء لتقي الدين بن تيمية، تح: عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ت).
- 45- معجم البلدان لياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (626هـ)، دار صادر، بيروت، 1977.
- 46- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1964.

- 47- مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) لعبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001.
- 48- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهية إلى الحرمين مكة وطيبة لابن رُشيد السبتي: أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري (721هـ-)، تح: محمد الحبيب بن خوجة، الدار التونسية للنشر، 1982.
- 49- المترع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1980.
- 50- المنفرجة لأبي الفضل يوسف بن النحوي، شرح: أبي الحسن البوصيري، تح: أحمد بن محمد أبو رزاق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ت).
- 51- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب للسان الدين بن الخطيب، تعليق: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، (د، ت).
- 52- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.
- 53- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التتبيكي (963هـ-)، إشراف: عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، (د، ت).
- 54- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1970.
- 55- الوفيات - معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من سنة 11 - 807هـ- لابن قنفذ القسنطيني، تح: عادل النويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1983.
- ثانياً: المراجع:
- 56- ابن بطوطة في العالم الإسلامي لإبراهيم أحمد العدوي، دار المعارف، مصر، 1954.
- 57- ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل لحسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 2003.
- 58- ابن جزري ومنهجه في التفسير لعلي محمد الزبيري، دار العلم، دمشق، ط1، 1987.
- 59- أبو الحسن الشاذلي: حياته.. تصوفه.. تلاميذه وأوراده لمأمون غريب، دار غريب، القاهرة، 2000.

- 60- أدب الرحلات لأحمد أبو سعيد، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1961.
- 61- أدب الرحلة لحسين نصّار، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط1، 1991.
- 62- أدب الرحلة تاريخه وأعلامه "المسعودي، ابن بطوطة، الرّيحاني" لجورج غريب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1972.
- 63- أدب الرحلة عند العرب لحسين محمود حسين، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983.
- 64- الأدب في التراث الصوفي لمحمد عبد المنعم الخفاجي، مكتبة غريب، (د، ت).
- 65- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية لسعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1992.
- 66- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل لسامي بن عبد الله المغلوث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط6، 2006.
- 67- الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي لعبد الهادي الفكيكي، دار النمير، سورية، ط1، 1996.
- 68- بنية النص السردّي (من منظور النقد الأدبي) لحמיד حميداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
- 69- بنية التسيّدات الجماعية (دراسة تطبيعية في شعر النابنة الذبياني) ليلي مرشدّة، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2006.
- 70- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
- 71- التاريخ الإسلامي قبل البعثه والسيرة لمحمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط7، 1991.
- 72- تاريخ الفكر الأندلسي لأنجل جنالث بالنتيا، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د، ت).
- 73- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610 - 869هـ) لمحمد عيسى الحريري، دار القلم، الكويت، ط1، 1985.
- 74- تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة لمحمد عزّام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.
- 75- جماليّات التلقّي في السّرد القرآني ليادكار لطيف الشهرزوري، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط1، 2010.

- 76- الحضارة الإسلامية في المغرب لحسن السائح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1986.
- 77- الحِوَار أصوله وآدابه، وكيف نربي أبناءنا عليه؟ إعداد: أبي معاذ موسى بن يحيى الفيقي، تقريظ: عبد الغفور عبد الحق البلوشي، دار الخضير، المدينة النبوية، 1427هـ.
- 78- دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دار الفكر، بيروت، ط1، 1997.
- 79- الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسين، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1981.
- 80- الرحلات لشوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط3، 1956.
- 81- الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة - لعواطف يوسف نواب، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، 1996.
- 82- الرحلة في الأدب العربي: "التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل" لشعيب الحليفي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
- 83- الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري) لناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الرفاء، القاهرة، ط1، 1995.
- 84- الرحلة في الأدب المغربي (النص، النوع، السياق) لعبد الرحيم مؤذن، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006.
- 85- الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها لعبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1992.
- 86- الرّحلة والرّحالة المسلمون لأحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي، جدّة، (د، ت).
- 87- الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري لمحمد بركات البيلي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1993.
- 88- السرد العربي مفاهيم وتحليلات لسعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
- 89- الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها لعبد الله بن دجين السهيلي، دار الكنوز إشيليا، المملكة العربية السعودية، ط1، 2005.
- 90- العصر العباسي الأول لشوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط9، 1986.

- 91- فضل الحج على العلم في المغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين لبنعيسى بويوزان، ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426هـ.
- 92- في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد) لعبد الملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.
- 93- الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي لسعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997.
- 94- مدخل إلى علم الأسلوب لشكري محمد عياد، مكتبة الجيزة العامة، ط2، 1992.
- 95- المساجد لحسين مؤنس، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.
- 96- مساجد في السيرة النبوية لسعاد ماهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.
- 97- المسجد جامع وجامعة لمحمد بن أحمد بن صالح الصّالح، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2000.
- 98- المسجد رمز الصمود والتحدي لعبد الحكم عبد اللطيف الصعدي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002.
- 99- مستدركات على تحقيقي رحلة ابن بطوطة المسماة: " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لعبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.
- 100- مشارق كتب الرحلة (قديماً وحديثاً) لسيد حامد السراج، مكتبة غريب، القاهرة، (د، ت).
- 101- مظاهر الثقافة المغربية - دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني - لأحمد بن شقرون، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، 1985.
- 102- معالم الفلسفة الإسلامية: نظرات في التصوف والكرامات لمحمد جواد مغنية، مكتبة الهلال، بيروت، 1982.
- 103- معلمة التصوف الإسلامي (أثار التصوف المغربي في الفكر الصوفي المشرقي) لعبد العزيز بن عبد الله، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 2001.
- 104- مفهوم التصوف لعبد غالب أحمد عيسى، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.

105- مقدمة كتاب رحلة ابن بطوطة لعبد الهادي التازي، في رحلة ابن بطوطة: " ثُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.

106- موسوعة أعلام المغرب، تح: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996.

107- النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون، طنجة، ط2، 1960.

108- نظام الرحلة ودلالاتها " السندباد البحري- عيّنة -" لعليمة قادري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006.

ثالثاً: المعاجم:

109- تكملة المعاجم العربية لرينهارت دوزي، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، 1980.

110- تهذيب اللغة للأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد (370هـ)، تح: عبد الله درديش، مراجعة: محمد علي النجار، (د، ت).

111- جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي، دار المعارف، حيدر آباد، ط1، 1344هـ.

112- السمعاني: تاج اللغة وسماع العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري (393هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984.

113- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، (د، ت).

114- مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، 1986.

115- معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة) لأحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960.

116- معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.

117- مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج5.

رابعاً: الدّوريات والمجلات:

118 " ابن جزّي كاتب رحلة ابن بطوطة " لمحمد بن عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق التي تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط، المغرب، ع10، س5، 1962.

- 119- " ابن رُشيد الفهري السبتي ورحلته ملء العيبة " لعلّي إبراهيم كردي، كلية المعلمين بمحافظة جدة، جامعة الملك عبد العزيز.
- 120- " بنو مريّن من خلال رحلة ابن بطوطة " لمحمد عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق، ع7، س5، أبريل، 1962.
- 121- بونة (عنابة) كما وصفها الرحالة العرب والغربيون لبلقاسم بلعرج، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة 08 ماي 1945 قلمة، ع01، 2007.
- 122- " دائرة المعارف الإسلامية " لمحمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، مج1، ع5، مطبعة مصر، 1934.
- 123 " الرّحلات المكية الحديثة: رؤية في بناء الرحلة واتجاهاتها " لعبد الله بن أحمد بن حامد، حوليّة كلية المعلمين، أمّها، ع10، 1427هـ.
- 124- " الرّحالة المغاربة وأثارهم " لمحمد الفاسي، مجلة دعوة الحق، ع2، س2، نوفمبر، 1958.
- 125- " لسان الدين بن الخطيب وأدب الرحلة " لمحمد محمود الخزعلي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج18، ع39، ذو الحجة، 1427هـ.
- 126 " مدخل لدراسة الربط الإسلامية " لعادل الألويسي، المرد، بندا، س2، ع2، 1973.
- 127- " من أدب السفر والرحلات في المأثور الأدبي رحلة ابن بطوطة " لنوري حمودي القيسي، رئيس معهد البحوث والدراسات العربية.
- 128- " نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط " لطاهر بونابي، حوليات التراث، جامعة المسيلة، ع2، 2004.
- خامساً: الرسائل الجامعية:
- 129- ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة " نسيح الواقع والخيال " لشادي حكمت ناصر، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 2003.
- 130- بلاغة السرد القصصيّ في القرآن الكريم لمحمد مشرف خضر، رسالة دكتوراه في الآداب، بإشراف: عبد الرحيم محمود زلطا، محمد عبد المطلب مصطفى، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الإسكندرية.

- 131- الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين - دراسة موضوعاتية فنية- لأحمد عبيدلي، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي، إشراف: محمد الأخضر الزاوي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2005/2004.
- 132- فن الرحلة في الأدب المغربي القديم لزردومي إسماعيل، رسالة دكتوراه دولة في الأدب القديم، بإشراف: عبد الله العشي، جامعة الحاج الأخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، 2005.
- 133- التزعة الزهدية في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثالث هجري لليلي قجوج، رسالة ماجستير، إشراف: معمر حجيج، جامعة العقيد الحاج الأخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، 2005 2006.

فهرس الموضوعات:

مقدمة.....	أ - هـ.
مدخل.....	28 - 2
1/ مفهوم الرحلة.....	7 - 2
أ - الرحلة في اللغة.....	2
ب - الرحلة في الاصطلاح.....	3 - 2
2/ أدب الرحلات.....	11 - 7
3/ أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة.....	17 - 11
4/ ابن بطّوطة.....	24 - 18
5/ ابن جزي.....	26 - 24
6/ ابن قنفذ.....	28 - 26
الباب الأول: مظاهر النزوع الديني في الرحلتين.....	160 - 30
الفصل الأول: المساجد والمشاهد والأربطة والزوايا وموضوعات أخرى.....	103 - 30
النزوع الديني.....	35 - 30
في اللغة والاصطلاح.....	32 - 30
1/ المساجد والجوامع.....	55 - 33
1- المسجد الحرام.....	36 - 34
2- المسجد النبوي.....	38 - 36
3- المسجد الأقصى.....	39 - 38
4- مساجد مكة المكرمة.....	40 - 39
5- مساجد المدينة المنورة.....	41 - 40
6- مساجد فلسطين.....	42 - 41
7- مساجد سوريا.....	44 - 42
8- مساجد مصر.....	45 - 44

- 9- مساجد العراق..... 48 – 45.
- * جامع الزيتونة..... 48.
- * مساجد اليمن..... 49 – 48.
- * مساجد أخرى..... 55 – 49.
- ٢/ الأربطة والزوايا..... 78 – 56.
- آ/ الربط الإسلامية..... 60 – 56.
- 1- الأربطة بمكة المكرمة..... 58 – 57.
- 2- الأربطة بمصر..... 59 – 58.
- 3- الأربطة بالعراق..... 60 – 59.
- 4- الأربطة بالأندلس..... 60.
- 5- أربطة أخرى..... 61 – 60.
- ب/ الزوايا..... 77 – 61.
- * زاوية بمكة المكرمة..... 64.
- * زوايا سوريا..... 64.
- * زوايا مصر..... 66 – 64.
- * زوايا الأردن..... 66.
- * زوايا أخرى..... 77 – 66.
- ٣/ المشاهد والمزارات..... 90 – 78.
- أ- مكة المكرمة..... 83 – 78.
- ب- المدينة المنورة..... 84 – 83.
- ج- فلسطين..... 85 – 84.
- د- سوريا..... 87 – 85.
- هـ- مصر..... 88 – 87.
- و- العراق..... 89 – 88.
- ل- شيراز..... 90.
- ن- جزيرة سيلان..... 90.

٤ / موضوعات أخرى.....	91 – 103.
الفصل الثاني: المقابر والعلماء والأولياء والصلحاء.....	105 – 160.
١ / المقابر.....	105 – 121.
أ- المقابر في رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقيير.....	106 – 108.
ب- المقابر في رحلة تُحفة النُّظار.....	108 – 132.
1 / مكة المكرمة.....	109.
2 / المدينة المنورة.....	110 – 111.
3 / فلسطين.....	111 – 112.
4 / سوريا.....	112 – 115.
5 / مصر.....	115 – 116.
6 / العراق.....	116 – 118.
7 / مقابر في بلدان أخرى.....	118 – 120.
٢ / العلماء والأولياء والصلحاء.....	121 – 159.
أ رسلَة أنس النتير وهرُّ الحقيير.....	125 – 145.
ب- رحلة تُحفة النُّظار.....	146 – 159.
1 / مكّة المكرّمة.....	146.
2 / المدينة المنورة.....	146.
3 / القدس	147.
4 / سوريا.....	147 – 149.
5 / مصر.....	149 – 152.
6 / العراق.....	153.
7 / تونس.....	153.
8 / اليمن.....	153 – 154.
9 / غرناطة.....	154 – 155.
10 / شيراز.....	155 – 156.
11 / دلهي.....	156 – 157.

12/ بعض المشايخ الذين التقاهم الرحالة أثناء رحلته.....	157 – 159.
الباب الثاني: الملامح الفنيّة للتزوع الديني في الرحلتين.....	162 – 264.
الفصل الأول: بنية الرحلتين.....	162 – 207.
- مفهوم البنية.....	162 – 168.
1/ بنية رحلة ابن بطّوطة.....	169 – 196.
١ - المقدمة.....	169 – 171.
٢ - السفر.....	171 – 189.
٣ - الخاتمة.....	189.
- دراسة البنية.....	189 – 196.
* المقدمة.....	189 – 191.
* السفر.....	191 – 194.
* الخاتمة.....	195 – 196.
2/ بنية رحلة ابن قنفذ.....	196 – 203.
١ المتدسة.....	196.
٢ - السفر.....	197 – 203.
٣ - الخاتمة.....	203.
- دراسة البنية.....	203 – 206.
* المقدمة.....	203 – 204.
* السفر.....	204 – 205.
* الخاتمة.....	205 – 206.
الفصل الثاني: الأسلوب في الرحلتين.....	209 – 264.
أولاً: الأسلوب.....	209.
1/ السرد في الرحلتين.....	210 – 229.
* السرد في رحلة ابن بطّوطة.....	211 – 225.
* السرد في رحلة ابن قنفذ.....	225 – 229.
2/ الوصف في الرحلتين.....	229 – 244.

* الوصف في رحلة ابن بطّوطة.....	230 – 240.
* الوصف في رحلة ابن قنفذ.....	240 – 244.
3/ الحوار.....	244 – 248.
* الحوار في رحلة ابن بطّوطة.....	244 – 246.
* الحوار في رحلة ابن قنفذ.....	246 – 248.
ثانياً: الملامح الدّينية في الرّحلتين.....	249 – 262.
1- القرآن الكريم.....	249 – 257.
2- الحديث النبوي الشّريف.....	257 – 262.
- خاتمة.....	266 – 268.
- قائمة المصادر والمراجع.....	269 – 279.
- فهرس الموضوعات.....	280 – 284.

تلخيص البحث:

عرفت الحضارة الإسلامية في القرن الثامن للهجرة، وبخاصة في عصر بني مرين حركة كبيرة في مجال التأليف، ولاسيما أدب الرحلات الذي استأثر بالاهتمام قديماً وحديثاً، وعُني به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ ماضياً وحاضراً. وقد نبغ في هذا الفن المغاربة والأندلسيون الذين عُرفوا بولوعهم بالرحلة، فألفوا كتباً عديدة في هذا المجال.

ومن بين هؤلاء الرحالة الذين برعوا في أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة ابن بطوطة وابن قنفذ القسنطيني اللذين اخترقهما نموذجين أجريت عليهما دراسية المعنونة بـ: «التزوع الديني في أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة»، متبعة في ذلك المنهج الوصفي الإحصائي. وحتى أتوصل إلى النتائج المرجوة من هذا البحث قسمته إلى:

- مقدمة: بيّنت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره.
- مدخل: تحدثت فيه عن مفهوم أدب الرحلة، وأدب الرحلات، وبخاصة تلك التي انتشرت في القرن الثامن للهجرة، وأشهر رواده مركزة على ابن بطوطة وزميله ابن قنفذ.
- الباب الأول: الموسوم بـ: «مظاهر التزوع الديني في الرحلتين»، وقد قسمته إلى فصلين:
 - * الفصل الأول: خصّصته للحديث عن المساجد والجوامع، والأربطة والزوايا، والمشاهد والمزارات، وموضوعات أخرى.
 - * الفصل الثاني: تناولت فيه المقابر والعلماء والأولياء والمشايخ وكراماتهم.
- الباب الثاني: بعنوان: «الملاحم الفنية للتزوع الديني في الرحلتين»، وقسمته بدوره إلى فصلين:
 - * الفصل الأول: عرضت فيه إلى بنية الرحلتين.
 - * الفصل الثاني: ركزت فيه الحديث عن الأسلوب في الرحلتين من حيث السرد والوصف والحوار، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.
- وفي الأخير وضعت الخاتمة استخلصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها خلال البحث، وبعدها قائمة المصادر والمراجع مرتبة ترتيباً ألفبائياً، وفهرس للموضوعات المدروسة في هذا البحث.

Résumé :

La civilisation islamique a connu, au VIII^e siècle de l'hégire et notamment à l'époque de Béni Marine, un grand mouvement dans le domaine de l'édition et surtout la littérature de voyage qui a captivé l'attention au passé et dernièrement et dont s'occupaient explorateurs majeurs à travers les différentes parties de l'histoire.

Excellant dans ce genre, les magrébins et les andalous ont été connus par leur passion pour le voyage et par conséquent, ils ont écrit plusieurs livres dans ce domaine.

Parmi ces explorateurs et voyageurs qui ont excellé dans le domaine de la littérature des voyages au VIII^e siècle de l'hégire : Ibn Battûta et Ibn Al Konfoud Al-Qustantini dont nous avons pris comme modèle pour faire notre étude qui s'intitule « *la tendance religieuse dans la littérature de voyage(s) au 18 siècle de l'hégire* ».

Pour mener à bien notre recherche nous optons pour une démarche descriptive et autre statistique.

Pour donner des éléments de recherche à notre problématique, nous avons jugé utile d'organiser notre travail de la manière suivante :

Avant-propos : dans laquelle nous avons montré l'intérêt du sujet choisi et la motivation de ce choix.

Introduction : dans laquelle nous avons défini le concept littérature de voyage(s) et surtout celle qui a été propagée au VIII^e siècle de l'hégire et ses explorateurs les plus connus en se focalisant sur Ibn Battûta et son collègue Ibn Al Konfoud.

Partie 01 : les aspects de la tendance religieuse dans les deux voyages. Elle est partagée également en deux chapitres :

Chapitre 01 : cette partie est réservée pour parler des mosquées, confédérations et corporations, les chambres de prière, les lieux de pèlerinages et d'autres sujets.

Chapitre 02 : nous avons traité les cimetières, érudits, saints, les cheikhs et leurs charismes.

Partie 02 : intitulé « les traits esthétiques de la tendance religieuse dans les deux voyages.

Cette partie aussi est divisée en deux chapitres :

Chapitre 01 : nous avons abordé la structure (texture) des deux voyages.

Chapitre 02 : nous avons concentré sur le style des deux voyages en prenant compte la narration, la description, le dialogue et l'adaptation du courant et du discours prophétique.

En fin c'est la conclusion dans nous avons mis les principaux résultats obtenus à partir de cette recherche, la bibliographie (par ordre alphabétique) et l'index des sujets étudiés dans cette recherche.